



الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

رحلات الكشف العلمي شرقي إفريقيا في القرن التاسع عشر

أطروحة أُعدّت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالب

محمد مثكال الحجي

إشراف الأستاذة الدكتورة

سمير بهلوان

العام الدراسي ٢٠١٨/٢٠١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ز	ملخص الموضوع
ح	المقدمة:
	الفصل الأول التمهيدي
	الإطار الجغرافي التاريخي لمنطقة شرقي إفريقيا قبل القرن التاسع عشر
٢	أولاً - شرقي إفريقيا الموقع والأهمية (الإطار الجغرافي):
٢	١- الموقع الجغرافي وأهميته.
٦	٢- البيئة الجغرافية لشرقي إفريقيا.
١٥	٣- السلالات البشرية في شرقي إفريقيا (التركيبة السكانية).
١٨	ثانياً- أوضاع شرقي إفريقيا قبيل القرن التاسع عشر (الإطار التاريخي):
١٨	١- دويلات المدن في ساحل الزنج.
٢٣	٢- البرتغاليون في شرقي إفريقيا.
٢٦	٣- العمانيون في شرقي إفريقيا.
٢٨	٤- ممالك إفريقيا في الداخل قبل القرن التاسع عشر.
٣٣	ثالثاً- أهم رواد الرحلات في شرقي إفريقيا قبيل القرن التاسع عشر:
٣٤	١- الرحالة العرب:
٣٤	أ- المسعودي ٢٨٧-٣٤٦هـ / ٩٠٠-٩٥٦م:
٣٥	ب- ابن سعيد المغربي ٦١٠-٦٨٥هـ / ١٢١٣-١٢٧٥م:
٣٦	ج- ابن بطوطة ٧٠٣-٧٧٩هـ / ١٣٠٤-١٣٧٧م:
٣٧	د- ابن ماجد ٨٣٦-٩٢٣هـ / ١٤٣٢-١٥١٧م:
٣٨	٢- الرحالة الأوروبيون:
٣٩	أ- رحلة بدرو دي كوفلهاو (pedro de covlhao) في العام ١٤٨٧.
٤٠	ب- رحلة القس بدرو بيز في العام ١٦٠٣ وجيروم لوبو في العام ١٦٢٢.
٤١	ج- رحلة شارل بونسيه في العام ١٦٩٩ وثيودور كرنب في العام ١٧٠١.
٤١	د- رحلة فريدريك نوردن وريتشارد بوكوك في العام ١٧٣٧.
٤٢	هـ- رحلة جيمس بروس (James Bruce) في العام ١٧٦٨-١٧٧٣.

٤٥	نتائج الفصل الأول.
	الفصل الثاني التطورات السياسية والاقتصادية على الساحة الأوروبية في القرن التاسع عشر ودوافع رحلات الكشف العلمي إلى منطقة شرق إفريقيا
٤٧	أولاً- أهم التطورات الاقتصادية والسياسية على الساحة الأوروبية في القرن التاسع عشر:
٤٩	١- الثورة الصناعية.
٥٥	٢- الثورة الأمريكية وإعلان قيام الولايات المتحدة الأمريكية.
٥٧	٣- الثورة الفرنسية والحروب النابليونية.
٥٨	٤- إلغاء تجارة الرقيق.
٦٣	ثانياً- أسباب ودوافع رحلات الكشوف العلمية في شرقي إفريقيا في القرن التاسع عشر
٦٤	١- الأسباب والدوافع الاقتصادية.
٦٥	٢- الأسباب والدوافع السياسية.
٦٦	٣- الأسباب والدوافع الدينية.
٦٧	٤- الأسباب والدوافع العلمية.
٧٠	٥- الأسباب والدوافع الشخصية.
٧١	ثالثاً- معوقات سير الرحلات والعوامل المساعدة على القيام بها في القرن التاسع عشر:
٧١	١- معوقات توغل الرحالة الأوروبيين في الشرق الإفريقي:
٧٤	٢- العوامل المساعدة على القيام برحلات الكشف العلمي في القرن التاسع عشر:
٧٧	رابعاً- الاسهامات العربية في رحلات الكشوف العلمية في القرن التاسع عشر:
٧٧	١ - دور مصري رحلات الكشوف العلمية:
٨٢	٢ - دور سلطنة زنجبار في رحلات الكشوف العلمية:
٨٩	نتائج الفصل الثاني:

الفصل الثالث

الرحالة الأوروبيون في شرقي إفريقيا بين عامي ١٨٤٣-١٨٦٣

٩٢	أولاً- رحلات جون لودفيغ كرافف وجون رييمان ١٨٤٤ - ١٨٥٥:
٩٢	١- لمحة عن حياة جون كرافف (Johann Ludwig Krapf) ١٨١٠-١٨٨١.
٩٤	٢- تأسيس المركز التبشيري في قرية راباي بالقرب من ممباسا.
٩٦	٣- رحلة رييمان إلى جبل كاديرو (Kadiaro) في العام ١٨٤٧.
٩٨	٤- رحلات رييمان إلى جاغا (Jagga):
٩٨	أ- رحلة رييمان الأولى إلى جاغا ٢٧ نيسان - ١١ حزيران ١٨٤٨.
١٠٠	ب- رحلة رييمان الثانية إلى جاغا ١٤ تشرين الثاني ١٨٤٨ - ١٦ شباط ١٨٤٩.
١٠٢	ج- رحلة رييمان الثالثة إلى جاغا ٦ نيسان - ٢٧ حزيران ١٨٤٩.
١٠٣	٥- رحلات جون لودفيغ كرافف:
١٠٣	أ- رحلة كرافف الأولى إلى أوزمبارا (Usambara) ١٢ تموز - ١ أيلول ١٨٤٨.
١٠٥	ب- رحلة كرافف الأولى إلى أوكمباني ١ تشرين الثاني - ٢١ كانون الأول ١٨٤٩.
١٠٧	ج- رحلة كرافف وإرهاردت من ممباسا إلى رأس دلفادو ٢ شباط - ٢٣ آذار ١٨٥٠.
١٠٨	د- رحلة كرافف الثانية إلى أوكمباني ١١ تموز - ٢٨ أيلول ١٨٥١.
١١١	هـ- رحلة كرافف الثانية إلى أوزمبارا ١٠ شباط - ١٤ نيسان ١٨٥٢.
١١٥	٦- نتائج رحلات كرافف ورييمان.
١١٧	ثانياً- رحلة ريتشارد بيرتون وجون سبيك عام ١٨٥٧ - ١٨٥٩:
١١٧	١- لمحة عن حياة ريتشارد بيرتون (Richard Burton) (١٨٢١-١٨٩٠).
١١٨	٢- التحضيرات الأولية للرحلة.
١٢١	٣- سير الرحلة:
١٢٢	أ- المنطقة الأولى البحرية.
١٢٤	ب- المنطقة الثانية: الهضبة الإفريقية الشرقية.
١٢٧	ج- المنطقة الثالثة: أوغوغو (Ugogo).

١٣٠	د- المنطقة الرابعة: أونيامويزي (Unyamwezi) "أرض القمر".
١٣٤	هـ- المنطقة الخامسة ما بين نهر مالاجارازي وبحر أوجيجي.
١٣٦	و- استكشاف بحيرة تنجانيقا "بحر أوجيجي".
١٣٨	ز- العودة إلى أونيانيمبي واستكشاف سبيك لبحيرة أوكيرووي.
١٤١	ح- مسيرة العودة إلى الساحل.
١٤٢	٤- نتائج الرحلة.
١٤٣	ثالثاً- رحلة جون سبيك وجيمس جرانت ١٨٦٠-١٨٦٣:
١٤٣	١- لمحة عن حياة جون سبيك (John Speke) (١٨٢٧-١٨٦٤).
١٤٤	٢- التحضيرات الأولية للرحلة.
١٤٧	٣- سير الرحلة:
١٤٧	أ- المسير إلى كازه في أونيامويزي.
١٥٠	ب- عبور أونيامويزي.
١٥١	ج- عبور أوزنزا وأوسوي.
١٥٤	د- عبور مملكة كاراجوي.
١٥٧	هـ- عبور مملكة بوجندا.
١٦٠	و- عبور مملكة أونيوورو.
١٦٣	ز- المسيرة الأخيرة باتجاه غوندوكرو.
١٦٦	٤- نتائج الرحلة.
الفصل الرابع الرحالة الأوروبيون في شرقي إفريقيا بين عامي ١٨٦٣-١٨٨٩	
١٦٨	أولاً- رحلة السيد صمويل وايت بيكر ١٨٦٣-١٨٦٥:
١٦٨	١- لمحة عن حياة السيد صمويل بيكر (Sir Samuel Baker) (١٨٢١-١٨٩٣).
١٦٩	٢- التحضيرات الأولية للرحلة.
١٧٢	٣- مسار الرحلة:
١٧٢	أ- المسير نحو بلاد لاتوكا.

١٧٥	ب- المسير نحو بلدة أوبو (Obbo).
١٧٨	ج- المسير نحو مملكة أونيوورو.
١٨٠	د- استكشاف بحيرة لوتا نزيج.
١٨٤	هـ- الإقامة في أونيوورو.
١٨٧	و- مسيرة العودة إلى الوطن.
١٨٨	٤- نتائج الرحلة.
١٩٠	ثانياً- رحلة ديفيد لفنجستون الأخيرة بين عامي ١٨٦٥-١٨٧٣:
١٩٠	١- لمحة عن حياة ديفيد لفنجستون (David Livingston) (١٨١٣-١٨٧٣).
١٩١	٢- التحضيرات الأولية للرحلة.
١٩٣	٣- سير الرحلة:
١٩٣	أ- المسير إلى بحيرة نياسا.
١٩٥	ب- المسير إلى بحيرة تنجانيقا.
١٩٧	ج- اكتشاف بحيرة مويرو (Moero).
١٩٩	د- اكتشاف بحيرة بانجويلو (Bangweolo).
٢٠١	هـ- المسير إلى بلاد مانيوما (Manyuema).
٢٠٤	و- لفنجستون واستكشاف بحيرة تنجانيقا.
٢٠٥	ز- رحلة لفنجستون الأخيرة.
٢٠٧	٤- نتائج الرحلة.
٢٠٨	ثالثاً- رحلات هنري مورتان ستانلي ١٨٧١-١٨٨٩.
٢٠٨	١- لمحة عن حياة هنري ستانلي (Henery Stanley) (١٨٤١-١٩٠٤).
٢٠٩	٢- رحلات ستانلي في القارة الإفريقية:
٢٠٩	أ- الرحلة الأولى: رحلة البحث عن لفنجستون ١٨٧١-١٨٧٢:
٢٠٩	١- التحضيرات الأولية للرحلة:
٢١٢	٢- مسار الرحلة:
٢١٢	• المسير نحو أونيانيمبي.

٢١٥	• المسير نحو أوجيجي.
٢١٩	• لقاء لفنجستون واستكشاف الجزء الشمالي من بحيرة تنجانيقا.
٢٢٠	• ختام الرحلة.
٢٢١	ب- الرحلة الثانية: البعثة الأنجلو- أمريكية ١٨٧٤-١٨٧٧:
٢٢١	أ- التحضيرات الأولية للرحلة.
٢٢٣	٢- مسار الرحلة:
٢٢٣	• المسير إلى بحيرة فكتوريا.
٢٢٥	• الطواف في بحيرة فكتوريا.
٢٢٩	• المسير إلى بحيرة موتا نزيغ (Muta Nzige) (بحيرة جورج).
٢٣٣	• المسير عبر مملكة كاراجوي.
٢٣٥	• الطواف في بحيرة تنجانيقا.
٢٣٨	ج- الرحلة الثالثة: حملة إنقاذ أمين باشا ١٨٨٧-١٨٨٩.
٢٤٣	٣- نتائج رحلات ستانلي.
٢٤٥	الخاتمة.
٢٥٢	الملاحق.
٢٨٢	قائمة المصادر والمراجع.

ملخص الموضوع:

يُعنى هذا البحث بدراسة رحلات الكشف العلمية الأوروبية التي جاءت إلى منطقة شرقي إفريقيا في القرن التاسع عشر برعاية من الجمعية الجغرافية الملكية الإنجليزية والحكومة الإنجليزية تحت ذريعة الكشف عن منابع النيل. وتركز الدراسة على رحلات ثمانية من الرحالة الأوروبيين وفق تسلسلها الزمني، وهم على التوالي: جون كرابف، ويوهان ريمان، وريتشارد بيرتون، وجون سبيك، وجيمس جرانت، وصمويل بيكر، وديفيد لفنجستون، وهنري ستانلي الذين أسفرت رحلاتهم عن كشف منابع نهر النيل التي شكلت لغزاً محيراً شغل الكثير من العلماء على مرّ العصور مع إيضاح الجغرافية الطبيعية والبشرية والاقتصادية لمنطقة شرقي إفريقيا، كما أسفرت رحلاتهم عن نتائج أخرى أكثر أهمية صبت في مجملها في مصلحة القوى الأوروبية الاستعمارية الكبرى، وانتهت بتعزيز نفوذها واحتلالها للمنطقة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

وبناء على ذلك جاءت هذه الدراسة في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة تضمنت دراسة تمهيدية جغرافية وتاريخية لمنطقة شرقي إفريقيا من حيث الموقع والأهمية الاستراتيجية مع أبرز رواد الرحلات من العرب والأوروبيين الذين وصلوا إلى المنطقة، وكتبوا ملاحظاتهم عنها قبيل القرن التاسع عشر، كما تضمنت موجزاً لأهم وأبرز التطورات التي جرت على الساحة الأوروبية في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر والتي أسهمت بشكل مباشر في دفع وتوجيه الرحلات إلى القارة الإفريقية مع تحليل لأهم الدوافع والمبررات التي كانت وراء قدوم الرحالة الأوروبيين، ودور العرب ولاسيّما سلطنة زنجبار والإدارة المصرية في السودان في المساهمة في دعم وتوجيه هذه الرحلات بشكل عام. ويلى ذلك القسم المتعلق بدراسة الرحلات حسب تسلسلها الزمني وتاريخ وصولها إلى المنطقة وذلك وفق منهج قام على دراسة حياة الرحالة بشكل مفصّل، ومن ثم دراسة أهداف رحلاتهم وأبعادها وما أحاط بها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً مع مجمل التحضيرات المعنية بكل رحلة على حدى، وتتبع مسار الرحلات بشكل مفصل مرفقة بالخرائط التي توضح المسار الذي اتبعه الرحالة بوضوح، وأبرز المناطق والقرى التي وصلوا إليها، والأنهار التي عبروها، والاستكشافات التي قاموا بها، فضلاً عن تقديم لمحة عن مجمل ملامح الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية في شرقي إفريقيا من خلال ملاحظات الرحالة، ونتائج رحلاتهم بشكل عام، وتم اختتام الدراسة بالنتائج العامة للرحلات سواء على المستوى الأوروبي أو الإفريقي مع ملحق بأهم الخرائط والمصورات التي وضحت خط سير الرحالة ومناطق اكتشافاتهم.

المقدمة

عرف الإنسان الترحال ودرج على سلوكه واتباع مناهجه منذ أقدم العصور؛ لأنه جُبِلَ على حب التنقل والحركة والفضول وحب الاطلاع، ويقصد بالرحلة عامة؛ السفر الذي يتوخى الإنسان من ورائه الاطلاع على آفاق جديدة من المناطق المجهولة. والرحلة كنوع من الحركة تعني مخالطة الشعوب والأقوام. ومن هنا تبرز قيمتها كمصدر لمعرفة الثقافات الإنسانية، ورصد جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة. وإن اختلفت دوافع الترحال التي تحركه، والبواعث التي توجده، وتباينت وسائل السفر وتنوعت مادته من وقت إلى آخر تبقى كتابات الرحالة تصور إلى حد كبير أياً كانت توجهاتهم الفردية ونزعاتهم الشخصية بعض الملامح الحضارية والثقافية للبلدان التي شدّوا الرحال إليها وأحوال الشعوب التي اختلطوا بها، وليس ثمة شك في أن أدب الرحلات قد قدم إسهامات بالغة القيمة في حقول التاريخ والجغرافيا والإثنوجرافية وعلم الاجتماع والأدب؛ إذ تقف كتب الرحلات جنباً إلى جنب مع بقية المصادر التاريخية الأصيلة التي لا تفتأ تزود المؤرخين بمادة علمية قيّمة مستمدة من المشاهدات الخاصة للرحالة لما توفره من معلومات عن الأرض والسكان، وتاريخهم، وعاداتهم، وتقاليدهم وما إلى ذلك، وإذا كان المؤرخون قد اهتموا بتسجيل الأحداث السياسية والعسكرية فإن كتب الرحلات سجلت لنا سير تطور المجتمعات، وتعامل السلطات معها، وقدمت لنا صورة صادقة عن مناحي الحياة المختلفة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعمرانية، كما تزخر مؤلفات الرحالة بالعديد من النصوص التي تتضمن معلومات مفيدة جداً يمكن توظيفها في مختلف حقول المعرفة الإنسانية، وبناء على هذا الأساس جاء عنوان أطروحة الدكتوراه:

"رحلات الكشف العلمي شرقي إفريقيا في القرن التاسع عشر"

ويرجع سبب اختيار هذا الموضوع إلى أهمية كتابات الرحالة الأوروبيين عن تاريخ قارة إفريقيا التي تُعدّ المفتاح الذي لا غنى عنه لدراسة وفهم تاريخ إفريقيا الحديث وحتى المعاصر لما كان لها من آثار بعيدة المدى في مسار تاريخ إفريقيا، وشكلت هذه الرحلات بآثارها ونتائجها حداثاً فاصلاً واضح المعالم بين مرحلتين مختلفتين في تاريخ القارة الإفريقية ككل وشرقها بشكل خاص؛ مرحلة كانت فيها إفريقيا تحكم نفسها بنفسها، وتتفاعل بحضارتها مع المحيطين العربي والآسيوي مع احتفاظها بطابعها الإفريقي المميز. ومرحلة عُرِفَت بالتنافس الاستعماري على القارة الإفريقية سعت فيها الدول الأوروبية الكبرى إلى استعمار القارة وتقاسم النفوذ فيها، وكانت تلك الرحلات حجر الزاوية الذي انطلق منه الأوروبيون إلى داخل القارة بعد أن اطلعوا على مقدراتها، وثرواتها ووسائل النفوذ إليها بناء على تلك الرحلات.

- أهمية الدراسة:

تأتي أهمية الدراسة من إبراز القيمة العلمية والتاريخية والحضارية للرحلات بشكل عام؛ كونها مصدراً تاريخياً مهماً من واقع أن الرحالة قد دُونوا في رحلاتهم مقتطفات عن تاريخ تلك البلدان وطبائع أهلها، ومعالِم حضارتها المستمدة من الملاحظة المباشرة والمعاينة الشخصية للرحالة، ولهذا كانت كتاباتهم أشبه بالوثائق التاريخية لكل الأحداث والوقائع التي عايشوها، كما تكتسب الدراسة أهميتها من خلال رصد الجوانب الآتية:

- تقصي ملامح الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي للسكان في شرقي إفريقيا في القرن التاسع عشر من خلال ملاحظات هؤلاء الرحالة.

- معرفة الوضع الذي كانت عليه البيئة الطبيعية والسكانية سواء في المناخ والمياه والنبات والكائنات الحية، ورصد القيم والعادات والتقاليد، ومن ثم الوضع الأنثروبولوجي برمته للفترة الزمنية التي وثقها الرحالة.

- محاولة رسم صورة متكاملة للبيئة الطبيعية، والحياة الاجتماعية، والثقافية، وأنماط النشاطات السكانية المختلفة التجارية والزراعية وغيرها؛ مما يشكل قاعدة معلومات مهمة للدراسات التي تتناول مختلف جوانب الحياة في شرقي إفريقيا.

- إشكالية الدراسة:

تغطي هذه الدراسة مرحلة زمنية مهمة من تاريخ شرقي إفريقيا في القرن التاسع عشر، وذلك من خلال الاعتماد على كتب الرحالة والمستكشفين التي تُعدّ من المصادر التاريخية والجغرافية المهمة؛ لأن مؤلفيها كانوا يستقون المعلومات والحقائق من المشاهد الحية والواقع الذي عايشوه، وتتركز إشكالية الدراسة حول رحلات ثمانية من الرحالة الأوروبيين من أصول ألمانية وإنجليزية جاءت رحلاتهم إلى شرقي إفريقيا بشكل متتابع بين عامي ١٨٤٣ - ١٨٨٩؛ بهدف ملء؛ وهو البحث عن منابع نهر النيل المجهولة، ولكن بدوافع وأسباب متعدد انعكست من خلال طبيعة النتائج التي أسفرت عنها رحلاتهم وأثارت العديد من التساؤلات التي تنحصر في الآتي:

- ما الأسباب والدوافع التي حفزت الأوروبيين للتوغل في داخل القارة الإفريقية، واكتشاف بقاعها في القرن التاسع عشر بعد فترة طويلة من وصولهم إلى ساحلها الشرقي؟

- ولماذا تركزت تلك الرحلات حول معرفة منابع الأنهار والبحيرات بداية قبل كل شيء؟

- ولماذا جاء الرحالة والمستكشفون من أوروبا ولم يأتوا من مكان آخر؟

- وما دور الحكومات الأوروبية في دفع وتحفيز مواطنيها على القيام بتلك الرحلات.

- وما دور الجمعيات الجغرافية التي تأسست في القرن التاسع عشر بتلك الرحلات؟

- وما الصعاب والعقبات التي ظهرت في طريق رحلاتهم، وما العوامل التي ساعدتهم وذللت

لهم سبل طريقهم فيما بعد؟

- وما دور العرب ولاسيما سلطنة زنجبار ومصر في هذه الرحلات؟

- وما النتائج التي أسفرت عنها تلك الرحلات؟ وهل كانت تصب في صالح سكان تلك البلاد التي زاروها أم كانت نتائجها كارثية؟

- ما القيمة العلمية والتاريخية للمادة التي قدمها هؤلاء الرحالة كمصدر من مصادر المعرفة التاريخية؟

وانحصر الإطار الزمني للدراسة في القرن التاسع عشر؛ وذلك لما شهده هذا القرن من تطورات مهمة اقتصادية وسياسية وثقافية على المستوى الأوروبي وإفريقي على السواء، بينما انحصر الإطار المكاني بمنطقة شرقي إفريقيا التي تضم في الوقت الحاضر بلدان كينيا وتنزانيا وأوغندا؛ لما كان لها من أهمية استراتيجية جعلت منها هدفاً للتنافس الاستعماري.

- منهج البحث:

إن سبر أغوار الرحلات على اختلاف أغراضها ومادتها يستلزم بالطبع استخدام أكثر من منهج وطريقة لتناولها، فإلى جانب المنهج الوصفي الذي قامت على أساسه كتب الرحلات تم الاعتماد على المنهج التحليلي النقدي الذي يعتمد على دراسة النصوص الأصلية للرحالة لتحقيق نظرة شاملة للحياة التي يصفها أصحابها على اختلاف مناهجهم واتجاهاتهم سواء كانت طبيعية أم اجتماعية أم اقتصادية أم حضارية، والعمل على تحليل ما استلزم منها، وتقديم الاستنتاجات المناسبة بناء على تلك التحليلات.

- مخطط البحث:

جاء البحث مكوناً من مقدمة عامة وأربعة فصول رئيسة وخاتمة، تضمنت المقدمة تعريفاً عاماً بموضوع الدراسة، وأهميته، وإشكاليته، والمنهج الذي أشيد على أساسه البحث. وعرض الفصل الأول (التمهيدي) نبذة جغرافية وتاريخية مختصرة لمنطقة شرقي إفريقيا من حيث الموقع والأهمية، والتعريف بأهم رواد الرحلات من العرب والأوروبيين قبل القرن التاسع عشر.

وتضمن الفصل الثاني أهم التطورات السياسية والاقتصادية التي جرت على الساحة الأوروبية في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، وكانت سبباً ودافعاً للقيام بالرحلات الكشفية في القرن التاسع عشر، مع بيان المعوقات التي اعترضت طريق الرحالة، ودور العرب في الرحلات الكشفية بشكل عام.

وتضمن الفصلان الثالث والرابع دراسة الرحلات الكشفية التي قام بها الأوروبيون من خلال دراسة رحلات ثمانية من الرحالة الأوروبيين جاءت إلى شرقي إفريقيا تباعاً، وتركز هدفها بشكل رئيس على البحث عن منابع نهر النيل، فدرس الفصل الثالث رحلات الألمانين كرابف وريبمان،

والإنجليزيين بيرتون وسبيك، وسبيك وجرانت، بينما تضمن الفصل الرابع رحلات كل من صمويل بيكر، وديفيد لفنجستون، وهنري ستانلي، وركز المنهج الذي اعتمد في دراسة هذه الرحلات على الآتي:

- التعريف بشخصية الرحالة، والظروف التي أحاطت بقيامه برحلته إلى شرق إفريقيا والهدف الرئيسي من وراء هذه الرحلة.

- تقديم وصفٍ دقيقٍ لخط سير الرحلة.

- تقديم صورة عامة لمجمل الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية في المنطقة من خلال مشاهدات الرحالة.

- إبراز القيمة العلمية والتاريخية للرحلة من واقع ما دونه الرحالة في كتاب الرحلة. وأختتم البحث بأهم النتائج التي أسفرت عنها تلك الرحلات بالنسبة لشرقي إفريقيا سواء على المدى القريب أم البعيد، وتضمنت الأطروحة ملاحق عدة احتوت على الخرائط التي أعدها الرحالة بأنفسهم خلال ترحالهم بالإضافة إلى بعض الخرائط التي أعدها الطالب لتوضيح بعض المعالم في منطقة الدراسة.

- أهم المصادر والمراجع المعتمدة:

اعتمدت الدراسة على عدد من المصادر الوثائقية إضافة إلى عدد من البحوث والمراجع المنشورة، ومن أهم المصادر الوثائقية كتب الرحالة أنفسهم التي تعد مصدراً خصباً وثرياً للمادة العلمية، ويأتي في مقدمتها:

- كتاب لويس كرابف، "رحلات وأبحاث وأعمال تبشيرية خلال الإقامة لمدة ثمانية عشر عاماً في شرقي إفريقيا". تحدث فيه عن رحلاته، ورحلات زميله ريمان في أثيوبيا وشرقي إفريقيا فيما بين عامي ١٨٣٧-١٨٥٦.

- كتاب ريتشارد بيرتون، "أقاليم البحيرة في وسط إفريقيا"، في جزأين. وضح فيه رحلاته في شرقي إفريقيا برفقة جون سبيك بين عامي ١٨٥٦-١٨٥٩.

- كتب جون سبيك، "ما الذي قاد لاكتشاف منابع النيل"، و"يوميات استكشاف منابع النيل". تحدث فيها عن رحلاته في أراضي الصومال، وشرقي إفريقيا، واكتشافه لبحيرة فكتوريا بين عامي ١٨٦٠-١٨٦٤.

- كتاب صمويل بيكر، "ألبرت نيانزا، حوض النيل العظيم واكتشاف منابع النيل"، في جزأين. تحدث فيه عن رحلاته في وسط إفريقيا واكتشافه لبحيرة ألبرت بين عامي ١٨٦٣-١٨٦٥.

- كتاب هوراس وولر، "ديفيد لفنجستون في وسط إفريقيا". كتبه بالاعتماد على مذكرات لفنجستون، وتضمن رحلات لفنجستون الأخيرة، ومذكراته بين عامي ١٨٦٦-١٨٧٣.

- كتب هنري مورتان ستانلي، "كيف وجدت لفنجستون"، و"عبر القارة المظلمة"

(جزأين)، و "في إفريقيا المظلمة" (جزأين). تحدث فيهما عن رحلاته في شرقي إفريقيا، والكونغو بين عامي ١٨٧١ - ١٨٨٩.

- الصعوبات التي واجهت البحث:

تعددت الصعوبات التي واجهت الطالب خلال إعداد هذه الدراسة، ومن ضمنها صعوبات تتعلق بطبيعة الموضوع بحد ذاته، وكون المصادر الرئيسة للدراسة كانت باللغة الإنجليزية، وهذا ما تطلب ترجمتها قبل البدء بالدراسة، فضلاً عن ظروف البلد المحيطة التي حالت دون السفر للاطلاع على مزيدٍ من المصادر ذات الصلة بالموضوع.

وأرجو أن تكون هذه الدراسة المتواضعة قد أضافت للمكتبة العربية بعض المعلومات، وكشفت عن بعض الحقائق المتصلة بتاريخ قارة إفريقيا، وأن يكون هذا الجهد ثمرة تضاف إلى ما سعى إليه طلبة العلم، وبذرة قد تثمر عن دراسات أكثر استفاضة.

وفي الختام أتقدم بالشكر والتقدير العميق لأستاذتي المشرفة الدكتورة سمر بهلوان لما بذلته من جهد طيب مشكور في قراءة هذا البحث ومراجعته غير مرة حتى استقام على هذه الصورة، والشكر موصول لأستاذتي الأفاضل في قسم التاريخ الذين غمروني ومازالوا بتوجيهاتهم منذ أن وطئت قدمي أرض هذه الجامعة.

والله ولي التوفيق

دمشق ٢٠١٩/٥/١

الفصل الأول التمهيدي

الإطار الجغرافي التاريخي لمنطقة شرقي إفريقيا قبل القرن التاسع عشر

أولاً – شرقي إفريقيا الموقع والأهمية (الإطار الجغرافي):

١- الموقع الجغرافي وأهميته:

يقصد بالشرق الإفريقي في هذه الدراسة: الجزء الشرقي من القارة الإفريقية الذي تشغله هضبة شرقي إفريقيا^(١)، وتشكل هذه المنطقة كياناً جغرافياً قائماً بذاته ممتداً على وجه التقريب بين دائرتي عرض ٤° شمال خط الاستواء و ١٢° جنوبه، وخطي طول ٢٩° و ٤٢° شرقاً^(٢)، وتقع بر البرابرة (سواحل الصومال حالياً) في الشمال وأرض سفالة^(٣) (موزمبيق حالياً) في الجنوب^(٤)، وبين سواحل المحيط الهندي شرقاً وحوض نهر الكونغو غرباً، وتُغطي مساحة شاسعة من القارة الإفريقية تقدر بحوالي ١٨ مليون كيلومتر مربع أي ما يعادل ٩,٧% من جملة مساحتها.

ويتصف هذا الإقليم بموقعه الجغرافي المميز، إذ يعد صلة الوصل بين عالم المحيط الهندي وقلب قارة إفريقيا من جهة، وبين شمالي القارة الإفريقية وجنوبها من جهة أخرى، ولاسيما أن هذا الإقليم بالحدود المشار إليها يتمتع بسواحل بحرية طويلة على المحيط الهندي تمتد لمسافة ١٢٣٥ كم تقريباً، بالإضافة إلى تعدد جزره التي تأتي في مقدمتها جزر زنجبار، بمبا، ومافيا^(٥)، وتأتي أهمية هذا الساحل من كونه مرسى لكل سفن العالم عبر العصور، فهو أحد المناطق القليلة جنوب الصحراء التي كان لها منذ وقت مبكر علاقات تجارية مستمرة مع العالم الخارجي^(٦)، وكانت تصله السفن من الهند والخليج العربي والصين والملايو في فصول السنة كلها، ثم تعود وهي محملة بمختلف أنواع البضائع التي تنتجها شرقي إفريقيا؛ ولاسيما العاج والعبيد،

(١) – محمد الحري، جغرافية القارة الإفريقية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٤، ص ٤٣٩.

(٢) – الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، مجلد ١٠، إقليم شرقي إفريقيا، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط ١، ١٩٩٩، ص ١٩.

(٣) – سفالة: مدينة إسلامية عريقة من مدن موزمبيق الحالية المطلة على المحيط الهندي، كانت مركزاً إسلامياً وتجارياً مهماً لها علاقات نشطة بمدن شرق إفريقيا والجزيرة العربية وسلطنة عمان والهند، وتعد آخر ما وصلت إليه سفن العرب في شرق إفريقيا؛ ولذلك سميت سفالة أو سوفالة أي أسفل أو أبعد الأرض. واشتهرت سفالة بتجارة الذهب، وهذا ما جعل البرتغاليين يطمعون فيها، ويحتلوها في القرن السادس عشر، ولا تزال المدينة في الوقت الحالي تحتفظ ببعض آثارها الإسلامية القديمة. عن عبد الحكيم العفيفي، موسوعة ١٠٠٠ مدينة إسلامية، أوراق شرقية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠، ص ٢٩٢.

(٤) – اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، ٨ مج، الطبعة الثانية، باريس، ١٩٩٧، مج ٣، ص ٦٦٢-٦٦٣.

(٥) – الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، ١٠ م، ص ١٩.

(٦) – اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، ج ٣، ص ٦٧٥.

واستمرت هذه التجارة تمارس لأكثر من ألفي عام، وقد شيد العرب في هذه المنطقة العديد من المراكز والمدن التجارية، كان من بقاياها مدن كسمايو ولامو وممباسا وكيلاوا وزنجبار التي كانت تمثل مراكز للمقايضة والمبادلة^(١). وشكلت هذه العلاقات التجارية جزءاً من العملية التجارية العالمية على الطريق التجاري الكبير الذي يربط الشرق بالغرب، وعلى هذا الطريق لم تكن موانئ إفريقيا الشرقية تمثل نقاطاً ومراكز نهائية، وإنما كان الطريق مستمراً من الشرق الأقصى مروراً بالشرق الإفريقي باتجاه العالم العربي ومنه إلى الغرب، ولا جدال في أنه كانت هناك علاقات تجارية بين الساحل والمناطق الداخلية لشرقي إفريقيا مثلت جزءاً من هذه العملية التجارية العالمية في وقت كانت فيه التجارة أكبر مصدر للربح والثراء في مدن شرقي إفريقيا، وأساس التطور الاجتماعي والثقافي للمجتمعات السواحلية وقبائل شرقي إفريقيا الداخلية نتيجة الاتصال بحضارات مختلفة والاقتباس منها؛ ولاسيما الحضارات العربية والفارسية والهندية^(٢).

وتضم هذه المنطقة في الوقت الحاضر الدول الآتية:

- كينيا^(٣): وهي جزء من هضبة شرقي إفريقيا تطل على المحيط الهندي بساحل طوله ٥٥٠ كم، وتمتد إلى عمق القارة الإفريقية، ويخترقها خط الاستواء من منتصفها، وتتكون أراضيها من هضبة ارتفاعها نحو ١٢٠٠ متراً^(٤). يحدها من الشمال أثيوبيا والسودان، ومن الغرب أوغندا وقسم من شواطئ بحيرة فكتوريا، كما يحدها من الجنوب تنزانيا، أما من جهة الشرق فنصف حدودها مع الصومال والنصف الآخر يطل على المحيط الهندي، وتكون مع البلدان المجاورة لها أوغندا وتنزانيا وراوندا وبورندي إقليمياً طبيعياً واحداً تتوسطه بحيرة فكتوريا^(٥)، وتعد كينيا من أجمل دول القارة وأكثرها تنوعاً من حيث الطبيعة الجغرافية، ففيها بحيرة فكتوريا التي تشاركها مع تنزانيا وأوغندا، بالإضافة إلى بعض الجبال البركانية كجبال كينيا والجون (Elgon)

(١) - جوزفين كام، المستكشفون في إفريقيا، ترجمة السيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٢) - اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، مج ٤، ص ٤٦٣-٤٦٥.

(٣) - اتخذت دولة كينيا اسمها من جبل كينيا الذي يرتفع في وسطها، ويعد ثاني جبال القارة ارتفاعاً بعد جبل كلمنجارو، وتغطي قمم الثلوج الدائمة. ويعني لفظ كينيا في لغة البانتو النعامة؛ ويعزى ذلك إلى تعاقب الصخور السوداء والثلوج البيضاء عند قمة هذا الجبل الشهير. عن أحمد نجم الدين فليحة، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ص ٤٢٩-٤٣٠.

(٤) - الحريري، جغرافية القارة الإفريقية، ص ٤٣٩.

(٥) - فليحة، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، ص ٤٢٦-٤٢٧.

وغيرها، وتحتل فيها قومية الكيكويو (Kikuyu)^(١) المرتبة الأولى من حيث العدد، ولها تاريخ مشترك مع بقية أنحاء المنطقة^(٢)، عاصمتها الحالية نيروبي^(٣)، ومن أهم مدنها التاريخية؛ لامو وماليندي وممباسا.

- تنزانيا: تشكل هي الأخرى جزء من هضبة شرقي إفريقيا، وتحتل موقعاً جغرافياً مميزاً، إذ تطل على ساحل المحيط الهندي جنوب خط الاستواء^(٤)، وتضم بعض الجزر التي تقع في المحيط الهندي، وأكبر هذه الجزر مساحة وأوسطها موقعاً هي جزيرة زنجبار، ويلمها من الشمال الشرقي جزيرة بمبا، أما الجزيرة الثالثة فهي مافيا وتقع إلى الجنوب الشرقي من زنجبار، وتتجاوز تنزانيا مع ثمان دول؛ ففي الشمال الشرقي كينيا، وفي الشمال أوغندا، وفي الشمال الغربي رواندا وبوروندي، وفي الغرب زائير، وفي الجنوب الغربي زامبيا وملاوي، وفي الجنوب موزمبيق^(٥)، وترتفع وترتفع فيها جبال كليمنجارو (Kilimanjaro) وأوزمبارا (Usambara) وبارا (Bara) وميرو (Meru)، وتمتد فيها بحيرات تنجانيقا (Tanganyika) ونياسا (Nyssa) أو ملاوي حالياً وروكوا (Rukwa) ومانيارا (Manyara) وإياسا (Eyasi)^(٦)، ومن أهم شعوبها السكوما (Sukuma) والأونيامويزي (Unyamawezi) ذوي الأصول البانتوية إلى جانب العرب والشيرازيين والآسيويين من مواطني

(١) - الكيكويو: أكبر مجموعة عرقية في كينيا، وإحدى قبائلها الأهم شأنًا والأكثر قوة ونشاطاً، ينحدرون من سلالة مختلطة بين الجنس الزنخي والحامي، ويحملون صفات من الطرفين، وتتركز مناطق استقرارهم إلى الجنوب من جبل كينيا، ويملكون أراض شاسعة، ويعملون بالزراعة والرعي، ويتكلمون لغة واحدة تنتمي إلى عائلة لغات البانتو، وانبثقت من بينهم الحركة الثورية المعروفة بالماوماو المشهورة ضد الاستعمار البريطاني في العام ١٩٥٢. عن محمد عوض محمد، الشعوب والسلالات الإفريقية، سلسلة دراسات إفريقية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٩٨-٩٩. عبد العزيز رفاعي، قبيلة الكيكويو، مجلة نضمة إفريقيا، القاهرة، عدد ٢٣، عام ١٩٥٩، ص ٧-١١.

(٢) - عبد الرحمن محمود، الإسلام والمسيحية في شرق إفريقيا من القرن ١٨ إلى القرن ٢٠، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ٢٠١١، ص ٤٤-٤٦.

(٣) - نيروبي: عاصمة دولة كينيا، تقع في جنوب البلاد على ارتفاع ١١٦١ م فوق مستوى سطح البحر، وعلى مسافة ٥٠٠ كم عن ساحل المحيط الهندي. أصبحت عاصمة للبلاد في العام ١٩٠٥، ويتكون أكثر سكانها من قبائل الكيكويو، وهي مركز تجاري وإداري وعقدة مواصلات مهمة. عن مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، دار رواد النهضة، بيروت، ١٩٩٥، ج ١، ص ٣٨٧.

(٤) - الحريري، جغرافية القارة الإفريقية، ص ٤٤٨.

(٥) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م ١٠، ص ٢١٥-٢١٧.

(٦) - فليجة، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، ص ٤٤١.

الجزر كزنجبار^(١)، ومن أهم مدنها التاريخية كلوا وزنجبار ودار السلام^(٢) وتابورا (Tabora) وأوجيجي (Ujiji).

- أوغندا: يقع معظمها على هضبة شرقي إفريقيا على ارتفاع يتراوح بين ٣٥٠٠ و ٤٠٠٠ متر، وهي دولة حبيسة ليس لها شواطئ بحرية، يخترقها خط الاستواء من منتصفها تقريباً، وتحيط بها خمس دول إفريقية، إذ يحدها من الشمال السودان، ومن الشرق كينيا، ومن الجنوب تنزانيا ورواندا، ومن الغرب الكونغو^(٣). ومن أبرز ملامحها الهضبة التي تمثل ٨٤% من مساحة البلاد والباقي عبارة عن مسطحات مائية؛ إذ تمتد بحيرة فكتوريا في ركنها الجنوبي الشرقي، وبحيرتي ألبرت وإدوارد على حدودها الغربية، وتستقر بحيرة كيوجا (Kioga) في وسطها^(٤)، وتضم مجاري نهري مهمة مثل نيل فكتوريا ونيل ألبرت، وتمثل هذه المسطحات بأكملها منابع النيل العليا، إلى جانب وجود بعض المرتفعات مثل سلسلة جبال رونزوري (Ruwenzori) في الجانب الغربي من البلاد، وفي الشرق تقع الكتل البركانية لجبال الجون^(٥)، ويشكل فيها شعب الباجندا (Baganda) الأغلبية في البلاد، ويليه شعوب باسوغا (Basoga) وبونيورو (Banyoro) وباتورو (Batoro) من البانتو الشرقيين^(٦)، ورغم أن أوغندا بلد بلا موانئ إلا أن موقعها في وسط الجزء الشرقي من إفريقيا، واعتدال جوها وسحر طبيعتها جعلها موضع نزاع بين القوى الاستعمارية إلى أن استقر الأمر بوضعها تحت الحماية البريطانية في العام ١٨٩٤^(٧).

(١) - محمود، الإسلام والمسيحية في شرق إفريقيا، ص ٤٧.

(٢) - دار السلام: عاصمة دولة تنزانيا الحالية، كانت تعرف فيما سبق باسم أفريزما، وحصلت على اسمها الحالي في عهد السلطان ماجد بن سعيد البوسعيدي (١٨٥٦-١٨٧٠). عن سعيد بن علي المغيري، جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق محمد الصليبي، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، ط ٤، ٢٠٠١، ص ١٦١.

(٣) - سوزان عبد المحسن عبد القوي، مشروع سيسل رودس الاستعماري وأثره على الهوية الإفريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥، ص ٣٢.

(٤) - صلاح صبري، إفريقيا وراء الصحراء، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٤٦-٤٧.

(٥) - عبد القوي، مشروع سيسل رودس الاستعماري، ص ٣٢.

(٦) - محمود، الإسلام والمسيحية في شرق إفريقيا، ص ٤٦.

(٧) - مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، دار رواد النهضة، بيروت، ١٩٩٥، ج ٤، ص ٧٠.

٢- البيئة الجغرافية لشرقي إفريقيا:

يتميز إقليم شرقي إفريقيا بوجود ظاهرة الأخدود الإفريقي أو ما يعرف بالصدع الإفريقي الآسيوي الذي يمتد من جنوب مصب نهر الزامبيزي في شرقي إفريقيا حتى مرتفعات جبال طوروس في بلاد الشام^(١) بامتداد جنوبي شمالي، ويضم مجرى نهر شيري وبحيرة مالاوي، ويتفرع في شمالها إلى فرعين شرقي وغربي؛ ويتمثل الفرع الغربي ببحيرات تنجانيقا وكيفو (Kivu) وإدوارد وألبرت ونيل ألبرت ونهر السمليكى (Semliki)، بينما تظهر معالم الفرع الشرقي بشكل واضح في تنزانيا وكينيا على شكل هضاب عالية تمتد فوق سطحها مرتفعات جبلية مثل جبل كينيا والجون، ويضم بحيرات مانيارا وإياسى وناترون (Natron) ونيفاشا (Nevasha) وناكورو (Nakuru) وبارينجو (Baringo) وماجادي (Magadi) وتوركانا (Turkana)، ويواصل بعدها الأخدود امتداده شمالاً^(٢).

كما يوجد في هذه المنطقة منابع نهر النيل التي تبدأ على وجه التقريب من الحافة الشرقية للأخدود الغربي حيث ينبع رافده روفوفو (Ruvuvu) الذي يصب في نهر كاجيرا (Kagera) الذي يُعد المنبع الأساسي للنيل من الناحية النظرية، وتنساب مياهه في بحيرة فكتوريا^(٣). أما النيل الحقيقي فيبدأ رحلته عند جنجا الواقعة على الضفة الشمالية لبحيرة فكتوريا متجهاً نحو الشمال في طريقه إلى بحيرة كيوجا عبر شلالات أوين ثم يستأنف النهر جريانه خارجاً من كيوجا باسم نيل فكتوريا ليصب في بحيرة ألبرت عبر شلالات مرتشيزون، وفي بحيرة ألبرت تختلط مياه النيل بمياه بحيرة إدوارد وجورج التي يحملها نهر السمليكى الذي يصب في بحيرة ألبرت في أقصى جنوبها، ويخرج من هذه البحيرة من شمالها باسم نيل ألبرت باتجاه الشمال الشرقي ليعبر الحدود مع السودان^(٤) باسم بحر الجبل حيث تكثر السدود النباتية في مجراه، ويسير حتى يلتقي ببحر الغزال حيث يطلق عليه مسمى النيل الأبيض حتى يصل إلى الخرطوم ليلتقي بالنيل الأزرق

(١) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م١٠، ص ٣١-٣٢.

(٢) - الحريري، جغرافية القارة الإفريقية، ص ١٠٤-١٠٥. عبد القادر الحيشي، عبد العباس الغريزي، سعدية الصالحي، جغرافية القارة الإفريقية وجزرها، الدار الجماهيرية، بنغازي، ط ١، ٢٠٠٠، ص ٣٠-٣١.

(٣) - فليجة، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، ص ١٤٥-١٤٦.

(٤) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، مجلد ٨، حوض النيل، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط ١، ١٩٩٩، ص ٦٨٠-٦٨١.

الذي ينبع من الهضبة الحبشية، وبعد التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق يكونان معاً نهر النيل الذي يتابع سيره باتجاه الشمال ليصب في مياه البحر المتوسط^(١).

وتتميز هضبة شرقي إفريقيا بدرجة كبيرة من التنوع التضاريسي تتمثل فيما يغطي سطحها من جبال وسهول وأنظمة نهريّة وبحيرات يمكن إيجازها بالآتي:

أ- الجبال: (ملحق ١)

تتكون هضبة شرقي إفريقيا من العديد من المرتفعات التي يغلب عليها التكوين البركاني، وترتبط نشأتها بالأخدود الإفريقي، وتتوزع في معظمها على حافتيه الشرقية والغربية^(٢)، وفيما يلي عرض لأهم هذه المرتفعات تبعاً لارتفاعها:

- ١- جبل كلمنجارو: كتلة جبلية ضخمة جاءت من (كليما Kilima وتعني الجبل، ونجارو Njaro وتعني العظيم)^(٣)، ويرتفع شرق سهول الماساي في شمال شرقي تنزانيا قرب خط الحدود السياسية مع كينيا. تم اكتشافه من قبل المبشر جون ريمان في العام ١٨٤٨^(٤)، وزاره الرحالة كارل فون دير ديكن (Karl Von der Decken)^(٥)، ويتجاوز ارتفاعه خمسة آلاف متر فوق مستوى سطح البحر، وأعلى قممه: قمة كيبو (kibo) التي يبلغ ارتفاعها ٥٨٩٥ متراً فوق مستوى سطح البحر، ويلها قمة ماونزي (Mawenzi) البالغ ارتفاعها ٥١٥٠ متراً فوق مستوى سطح البحر^(٦).
- ٢- جبل كينيا: عرف من قبل قبائل الماساي باسم (Dunge Egere) أي "الجبل الرمادي"^(٧).

(١) - المحيشي، جغرافية القارة الإفريقية وجزرها، ص ٥٧-٥٨.

(٢) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م ١٠، ص ٢٢٨.

(٣) - لاسم كلمنجارو معاني أخرى، إذ أوضح الرحالة جوزيف طومسون أنه يعني "الجبل الأبيض"، أما جونستون ففسرها بمعنى "جبل الشيطان"؛ لأن السكان المحليين كانوا يعزون وفاة من يحاول تسلقه إلى الشيطان والأرواح الشريرة. عن Elisee Reclus, the earth and its inhabitants, Africa, v4, south and east Africa, Appleton and company, new York, 1890, p344

(٤) - Keith Johnston, Africa, Edward Stanford, London, fourth edition, 1884, p293.

(٥) - كارل فون دير ديكن: رحلة ومستكشف ألماني، ولد في غوتزن في برندبورغ في العام ١٨٣٣، وبدأ ترحاله في إفريقيا في العام ١٨٦٠ في منطقة بحيرة نياسا، وفي العام التالي أنطلق من ممباسا لاستكشاف جبل كلمنجارو، وقدر ارتفاعه بنحو ٢٠ ألف قدم فوق مستوى سطح البحر، وكان أول أوروبي يحاول تسلقه. وفي العام ١٨٦٥ توغل ديكن في الصومال متتبّعاً نهر جوبا، وقتل في العام نفسه بالقرب من برديرا على يد السكان المحليين. عن Löwenberg, J, Allgemeine Deutsche Biographie, Duncker & Humblot, Leipzig, 1877, v5, p2-3

(٦) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م ١٠، ص ٣٦.

الرمادي"^(١)، وشوهد لأول مرة من قبل المبشر الأوروبي جون كرابف في العام ١٨٤٩^(٢). وهو جبل بركاني يقع في النطاق الأوسط من كينيا قرب خط الاستواء، ويبلغ ارتفاعه نحو ٥١٩٦ متراً فوق مستوى سطح البحر، ويضم قمم عدة منها قمة بتيان (Batian) وقمة نيلون (Nelion).
٣- جبل ميرو: يقع شمالي تنزانيا إلى الغرب من جبل كليمنجارو، ويبلغ ارتفاعه نحو ٤٥٥٨ متراً فوق مستوى سطح البحر^(٣).

٤- جبال مضمبيرو (Mfumbiro) أو فيرونجا (Virunga): جبال بركانية تقع شرقي زائير وجنوب غربي أوغندا ورواندا شمالي بحيرة كيفو، وينقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسية: شرقية تتألف من جبل موهاور (Muhawura) وارتفاعه ٤١٣٠ متراً، وجبل مجاهنجا (Mgahinga) وارتفاعه ٣٤٧٥ متراً، وجبل سابينو (Sabinio) وارتفاعه ٣٧٠٤ متر. والجبال الوسطى وهي من الشرق إلى الغرب جبل ويسوكي (Wissoke) وارتفاعه ٣٨١٤ متر، وميكينو (Mikeno) ٤٣٨٠ متراً، وكاريسمبي (Karissimbi) وارتفاعه ٤٥٠٠ متر. أما المجموعة الغربية فتتألف من براكين نيراجنجو (Niragongo) وارتفاعه ٣٤٧١ متراً، ونملاجيرا (Namlagira) وارتفاعه ٣٠٦٣ متراً. وتنحدر المياه من جبال مضمبيرو بحيث ينصرف بعضها شمالاً إلى بحيرة كيفو، وشرقاً إلى نهر كاجيرا^(٤).

٥- جبل إلجون: هو عبارة عن بركان خامد يقع على خط الحدود السياسية بين أوغندا وكينيا إلى الشمال الشرقي من بحيرة فكتوريا، وتنصرف مياهه إما إلى بحيرة فكتوريا أو إلى كيوجا، ويبلغ ارتفاعه نحو ٤٣٢١ متراً تقريباً^(٥).

٦- جبال رونزوري: كتلة جبلية غير بركانية الأصل تمتد على خط الحدود السياسية بين أوغندا وزائير باتجاه عام من الجنوب إلى الشمال وبطول يصل إلى ١٠٠ كيلو متر، يصل ارتفاع أعلى قممها مرجريت إلى نحو ٥١٢٠ متراً فوق سطح البحر ولشدة ارتفاعها يكسو الثلج الدائم قسماً عظيماً من قممها، وتنصرف مياهه إما جنوباً إلى بحيرتي إدوارد وجورج أو شمالاً إلى ألبرت،

(١) - Reclus, the earth and its inhabitants, Africa, vol4, p349.

(٢) - J. Lewis Krapf, travels, researches, and missionary labours, during an eighteen years residence in east Africa, trubner, paternoster row, London, 1860, p 295.

(٣) - كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٢٣٦، المحيشي، جغرافية القارة الإفريقية وجزرها ص ١٩٧.

(٤) - محمد عوض محمد، نهر النيل، بيت الجغرافيا، سلسلة من التراث الجغرافي العربي، القاهرة، ٢٠١٦، ص ٨٣-٨٤.

(٥) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م ١٠، ص ٣٨.

أو غرباً إلى نهر السملكي، وكانت الشعوب القديمة تطلق عليها اسم جبال القمر^(١).
٧- كذلك توجد جبال أبردار (aberdare) في وسط الهضبة الكينية، ويبلغ ارتفاعها نحو ١٢٠٠٠ قدم^(٢).

ب- الأنهار: (ملحق ١)

يمكن تقسيم الأنهار في هضبة شرقي إفريقيا إلى نمطين: أنهار تتجه إلى الشرق وتصب في المحيط الهندي، وأنهار تتجه إلى الداخل وتنصرف إلى البحيرات الداخلية وفق الآتي:

١- الأنهار التي تصب في المحيط الهندي (الأنهار الساحلية):

تتسم الأنهار التي تخترق النطاق السهلي الساحلي لتصب في المحيط الهندي بقصر طولها وضيق مساحة أحواضها وعدم انتظام جريانها؛ بسبب موسمية سقوط الأمطار في هذا النطاق، وفيما يلي عرض للأنهار التي تخترق السهل الساحلي من الشمال إلى الجنوب:

- نهر تانا (Tana): النهر الأكثر أهمية في هذا الجزء من ساحل شرق أفريقيا، يعد أطول أنهار كينيا، وينبع من مرتفعات أبردير في وسط الهضبة، ويصب في المحيط الهندي في خليج فورموسا قرب بلدة كيبيني، ويبلغ طول مجراه ٧٠٨ كيلومتراً تقريباً، وهو نهر دائم الجريان حتى في أشد المواسم حرارة؛ نتيجة الامدادات التي تصله من ذوابان الثلوج الجبلية.

- نهر أثي (Athi) أو جالانا أو ساباكي: يعد من أطول أنهار كينيا، وينبع من مرتفعات جنوبي كينيا، في أعالي مدينة نيروبي، ويجري في جميع أنحاء أوكامباني، ويصب في المحيط الهندي بالقرب من مدينة ماليندي بعد أن يكون قد قطع مسافة ٥٤٤ كيلومتراً تقريباً^(٣).

- نهر بنجاني (Pangani): يجري في شمال تنزانيا، وينبع من مرتفعات كليمنجارو، ويصب في المحيط الهندي قبالة جزيرة زنجبار، ويبلغ طول مجراه نحو ٥٠٠ كيلومتراً، ويعرف الجزء الأدنى من مجراه باسم نهر روفو.

- نهر وامي (Wami): يجري في شمال تنزانيا في إقليم بواني، وينبع من جبال كاغورو

(١) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، ٨م، ص ٣٠. محمد، نهر النيل، ص ٨٦.

(٢) - كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٢٣٦-٢٣٧.

(٣) - Johnston, Africa, p289.

- رؤوف راشد خله، كينيا دراسة في الجغرافية السياسية، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٥.

(Kaguru)، ويتجه شرقاً ليصب في المحيط الهندي إلى الغرب من زنجبار بالقرب من ساداني (Saadani)، ويبلغ طول مجراه ٤٩٠ كيلومتر^(١).

- نهر روفيجي (Rufiji): يعد أكبر نهر في تنزانيا، وينبع من جنوبي وسط تنزانيا، ويصب في المحيط الهندي قبالة جزيرة مافيا، ويبلغ طول مجراه حوالي ٦٠٣ كيلومتر، وهو صالح للملاحة في معظم مجراه.

- نهر روفوما (Ruvuma): يجري في جنوب تنزانيا ليشكل خط الحدود السياسية بين تنزانيا وموزمبيق، يصب في المحيط الهندي جنوب غرب رأس ديلجادو، ويبلغ طول مجراه نحو ٨٠٠ كيلومتر^(٢).

٢- الأنهار التي تصب في البحيرات الداخلية (الأنهار الداخلية):

تجري فوق هضبة شرقي إفريقيا العديد من المجاري النهرية بسبب غزارة أمطارها التي تسقط طوال العام تقريباً، ويمكن حصر أهمها على النحو الآتي:

- نهر كاجيرا: ينبع من جبال مضمبيرو بالقرب من بحيرة كيفو، ويعد أطول روافد نهر النيل، ويتكون بعد التقاء رافديه روفوفو (Ruvuvu) ونيافرونجو (Niaverongo)، ويتجه بصورة عامة صوب الشمال فالشرق ليصب في الجانب الغربي من بحيرة فيكتوريا قرب خط الحدود السياسية بين أوغندا وتنزانيا، ويبلغ طول مجراه نحو ٦٧٠ كيلومتراً تقريباً^(٣).

- نهر السملكي: يُعد النهر الوحيد الذي يخرج من بحيرة إدوارد، ويحمل مياهها إلى بحيرة ألبرت، ويجري بشكل عام من الجنوب باتجاه الشمال والشمال الغربي، ويبلغ طول مجراه حوالي ٢٥٠ كيلومتراً^(٤).

- نيل فكتوريا: ينبع من بحيرة فكتوريا قرب مدينة جنجا في أوغندا، وينحدر صوب الشمال والغرب، ويمر عبر بحيرة كيوجا في نهايتها الغربية، ويعترض مجراه شلالات عدة منها: شلالات ريبون الواقعة شمال جنجا، وشلالات كاروما، ومرشيزون، ويصب في بحيرة ألبرت في نهايتها

^(١) -Elizabeth Anderson, Catherine McNally, a rapid ecological assessment of the Wami river estuary, Tanzania, 2007, P6-7.

^(٢) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م١٠، ص٤٠-٤١.

^(٣) - محمد، نهر النيل، ص٦٦.

^(٤) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م٨، ص٣٢-٣٥.

الشمالية الشرقية، ويبلغ طول مجراه نحو ٤٤٠ كيلومتراً تقريباً^(١).

- نيل ألبرت: ينبع من بحيرة ألبرت، ويتجه صوب الشمال ليعبر الحدود بين أوغندا والسودان باسم بحر الجبل^(٢).

- نهر مالاجارازي (Malagarazi): يجري في غرب تنزانيا، وينبع من إقليم كيغوما (Kigoma)، ويصب في بحيرة تنجانيقا من جهتها الشرقية، ويبلغ طول مجراه نحو ٤٧٥ كيلومتراً^(٣).

ج- البحيرات: (ملحق ١)

من أهم البحيرات في شرقي إفريقيا:

١ - بحيرة فكتوريا: تقع في شرق وسط إفريقيا، وكانت تعرف باسم نيانزا أو أوكيروي (Ukerewe) نيانزا، والآن تعرف باسم بحيرة فكتوريا (الاسم الذي أطلقه عليها الرحالة جون هاننج سبيك أول أوروبي يصل إليها في العام ١٨٥٩)، وهي أكبر البحيرات في إفريقيا، وثاني أكبر البحيرات وأعذبها في العالم^(٤). تُعد المنبع الرئيس لنهر النيل وتتقاسمها كل من تنزانيا وكينيا مع أوغندا، وهي بحيرة ضخمة تقدر مساحتها بنحو ٦٩ ألف كيلومتر مربع، ويرتفع سطح مائها حوالي ١١٣٤ متراً فوق مستوى سطح البحر. وأكبر طول لها من الشمال إلى الجنوب نحو ٣٢٠ كم، وأكبر عرض لها ٢٧٥ كم، ويبلغ متوسط عمقها ٤٠ متراً. سواحلها كثيرة التعاريج والخلجان ففي شمالها يوجد خليج نابليون، وفي شمالها الشرقي خليج كافرونندو، وفي الجنوب خليج سميث، وفي جنوبها الشرقي خليج سبيك، وفيها عدد من الجزر أكبرها جزيرة أوكيروي^(٥). تستمد البحيرة ماءها من الأمطار المباشرة، كما يصب فيها عدد من الأنهار المختلفة الحجم التي تنصرف إليها من جميع جوانبها عدا الشمالي، وأهم هذه الأنهار نهر كاجيرا، وينبع منها نهر النيل بمخرج واحد من

(١) - محمد، نهر النيل، ص ٧٠-٧٥.

(٢) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م ١٠، ص ٤١-٤٣.

(٣) - Michele L. Thieme and others, Freshwater Ecoregions of Africa and Madagascar, Island Press, Washington, 2005, 197.

(٤) - Elisee Reclus, the earth and its inhabitants, Africa, vol1, north east Africa, Appleton and company, New York, 1892, p 34.

(٥) - محمد، نهر النيل، ص ٦٢-٦٣. الحريري، جغرافية القارة الإفريقية، ص ١٢٧-١٢٨.

جبهتها الشمالية^(١).

٢- بحيرة تنجانيقا: ثاني أكبر البحيرات الإفريقية بعد فكتوريا، تبلغ مساحتها نحو ٣٥ ألف كيلومتر مربع، وتمتد على طول ٦٤٠ كيلومتر من الشمال إلى الجنوب، ويبلغ عرضها أقصى عرض لها نحو ٥٠ كيلومتر، وعمقها ١٤٣٥ م^(٢)، وهي بحيرة عذبة يصب فيها نهر روسيزي (Rusizi) في الشمال، وينبع منها نهر لوكوجا (Lukuga) الذي يصل بالمنابع العليا لنهر الكونغو، وتقع بذلك ضمن نظام نهر الكونغو الذي يصب في المحيط الأطلسي^(٣).

٣- بحيرة كيوجا: كانت تعرف بين السكان المحليين باسم بحيرة غيتا نزيغ (Gita Nzige)، وكان أول من اكتشفها الضابط الأمريكي العامل في الجيش المصري شايبه لونج^(٤) في العام ١٨٧٥، وأطلق عليها اسم بحيرة إبراهيم نسبة لوالد الخديوي إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩)^(٥)، وهي عبارة عن مجموعة من المستنقعات تبلغ مساحتها حوالي ٢٠٠٠ كيلومتر مربع، ولا يزيد عمقها عن ثلاثة أمتار، وتمتد على شكل أذرع متشعبة، وتتلقى مياهها من بحيرة فكتوريا^(٦).

٤- بحيرة جورج: تشتهر بين سكان البلاد باسم بحيرة دويرو (dweru)، ولا تزيد مساحتها عن ١٥٠٠ كم^٢، ويرتفع سطحها نحو ٩٠٠ متر فوق سطح البحر، ويخرج فائض مياهها إلى بحيرة إدوارد بواسطة قناة كازنجا الطبيعية البالغ طولها حوالي ٤٤ كم.

٥- بحيرة إدوارد: تقع في جنوب غرب أوغندا التي تتقاسمها مع زائير، وتقدر مساحتها بنحو ٤,٥ آلاف كيلومتر مربع، ويرتفع ماؤها حوالي ٩٩٧ متراً فوق مستوى سطح البحر. تتصل ببحيرة جورج بواسطة قناة كازنجا، ويصب فيها أنهار كثيرة أغلبها ينبع من جبال مضمبيرو؛ وأشهرها

(١) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م٨، ص ٣٠-٣٢.

(٢) - محمود شاكر، تنزانيا، مواطن الشعوب الإسلامية في إفريقيا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٧١، ص ٣٨-٤٠.

(٣) - الحريري، جغرافية القارة الإفريقية، ص ١٢٨.

(٤) - تشارلز شايبه لونج (١٨٤٢-١٩١٧): ضابط أمريكي من ولاية ميزيلاند، خدم في الجيش الأمريكي كجندي أثناء الحرب الأهلية، ثم التحق بالخدمة في الجيش المصري في العام ١٨٦٩ برتبة مقدم، عمل تحت قيادة الجنرال غوردون في جنوب السودان، قام برحلات مختلفة في أوغندا وأونيورو وبلاد الأزاندي، وكان أول من أكتشف بحيرة كيوجا وأطلق عليها اسم إبراهيم. عن خلاف، مصر وإفريقيا، الجهود الكشفية في عصر الخديوي إسماعيل، عين للدراسات، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧، ص ١٤٤.

(٥) - Reclus, the earth and its inhabitants, Africa, vol1, p37.

(٦) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م٨، ص ٦٨٠-٦٨١.

روشورو وبيرا، ويعد نهر السملكي النهر الوحيد الذي يخرج من بحيرة إدوارد ليصرف مياهها إلى بحيرة ألبرت^(١).

٦- بحيرة ألبرت: كانت تعرف بين السكان المحليين باسم لوتونزيغ (Lutu Nzige)^(٢)، أو موتان نزيغ (Mwutan Nzige) نيانزا^(٣)، وهي من البحيرات الأخدودية النيلية، تبلغ مساحتها ٥٣٠٠ كيلومتر مربع، وتمتد بشكل مستطيل من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي لمسافة ١٥٧ كيلومتر، وباتساع قدره ٤٥ كيلومتراً في أوسع أجزاءها، ويرتفع مستواها نحو ٦٢٠ متراً فوق مستوى سطح البحر، ومتوسط عمقها ١٢ متراً، يصب فيها نهر السملكي في طرفها الجنوبي، ونيل فكتوريا في طرفها الشمالي الغربي، وينبع منها نيل ألبرت أو بحر الجبل باتجاه الشمال^(٤).

٧- بحيرة نياسا أو مالاي: تقع في جنوب تنزانيا، وتمتد على طول ٥٨٠ كم من الشمال إلى الجنوب، ويتراوح عرضها بين ٢٥-٨٠ كيلومتر، وأكبر عمق لها يصل إلى ٧٠٠ م، ويرتفع سطحها لنحو ٥٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر^(٥).

د- الجزر: (ملحق ١)

تقع أمام ساحل شرقي إفريقيا عدد من الجزر يأتي في مقدمتها:

١- جزيرة زنجبار:

اسمها الأصلي هو أونجويوا (Unguya) ويعني "المحطة"^(٦)، أما زنجبار فهي كلمة فارسية تعني ساحل الزنج، واختارها السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦-١٨٥٦)^(٧) لتكون عاصمة لدولته في

(١) - محمد، نهر النيل، ص ٧٧-٧٩.

(٢) - Johnston, Africa, p326.

(٣) - Reclus, the earth and its inhabitants, Africa, vol1, p39.

(٤) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م ٨، ص ٣٣-٣٥.

(٥) - شاكر، تنزانيا، ص ٣٨-٤٠.

(٦) - Reclus, the earth and its inhabitants, Africa, vol4, p327-29.

(٧) - سعيد بن سلطان: يعد من أقوى سلاطين "آل بوسعيد"، ومؤسس الإمبراطورية العمانية في شرق إفريقيا، ولد في العام ١٧٩٠ في بلدة سمائل، وتولى الحكم خلفاً لوالده سلطان بن أحمد في العام ١٨٠٦، وتميز بشخصية قوية وإرادة صلبة وأفق واسع مكنه من توطيد حكمه في عمان والمناطق التابعة لها، وتمكين نفوذه في جزيرة زنجبار وساحل إفريقيا الشرقي، وتكوين إمبراطورية إفريقية شاسعة امتدت من مقديشو شمالاً إلى موزمبيق جنوباً، كما امتدت في داخل القارة إلى منطقة البحيرات الاستوائية، وعزز سلطته على ساحل إفريقيا بجعل زنجبار عاصمة له في العام ١٨٤٠، وأقام فيها نظام سياسياً واقتصادياً جديداً، ونعمت المنطقة في ظله بازدهار اقتصادي لم يسبق له مثيل؛ نتيجة لقيامه بتكثيف زراعة أشجار القرنفل والتاجيل، وعقد معاهدات تجارية مع الدول الأجنبية، وسمح لهم بإنشاء قنصليات

العام ١٨٤٠^(١)، وهي ثاني أكبر جزر ساحل شرقي إفريقيا بعد مدغشقر. تقع على بعد ٢٠ ميلاً من ساحل تنزانيا، وتبلغ مساحتها ٦٤٠ ميلاً مربعاً، وتعد المنفذ الطبيعي لحاصلات المنطقة المواجهة لها في القارة، وتحتل موقعاً جغرافياً مهماً جعل منها مركزاً للتجميع والتوزيع لمعظم السلع التي تأتي إلى الساحل من الداخل، كما تشتهر بخصوبتها الزراعية، وتُعد أكبر منتج ومصدر للقرنفل بالعالم^(٢). كانت معروفة لكل الرحالة، وذكر كرايف الذي زارها في العام ١٨٤٤ أن عدد سكانها يبلغ حوالي ١٠٠ ألف نسمة، يعيش العدد الأكبر منهم في العاصمة، وغالبيتهم من السواحيلية، في حين كانت الطبقات الأكثر ثراء وتأثيراً من العرب، وقليل من الأوروبيين المنخرطين في التجارة. وجميع سكان زنجبار مسلمون باستثناء البانيان الهنود والأوروبيين، وفيها جو من التسامح العام مع جميع الأديان^(٣). وهي الآن تابعة لجمهورية تنزانيا بعد اتحادها مع تنجانيقا في العام ١٩٦٤ وأطلق على البلدين اسم جمهورية تنزانيا.

٢- جزيرة بمبا: تقع جزيرة بمبا التي يسميها العرب الجزيرة الخضراء^(٤) في الشمال الشرقي من جزيرة زنجبار على بعد ٣٠ ميلاً منها، وهي أصغر من زنجبار إذ تبلغ مساحتها ٣٨٠ ميلاً مربعاً، وتشتهر بخصوبة تربتها ووفرة نباتاتها^(٥).

٣- جزيرة مافيا: تعرف أيضاً باسم مونفيا، تقع في أقصى الجنوب من الجزر الثلاث^(٦) مقابل مصب نهر رواحة بين دار السلام ومدينة كلوا، وهي أصغر من الجزيرتين السابقتين؛ إذ

في زنجبار، وكانت وفاته في العام ١٨٥٦، وانقسمت دولته من بعده بين ولديه ثويني في مسقط وماجد في زنجبار. عن عبدالله بن صالح الفارسي، البوسعيديون حكام زنجبار، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، ط ٢، ١٩٨٢، ص ٧-١١. عبده بدوي، شخصيات إفريقية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مكتبة الأنجلو مصري، القاهرة، د. ت، ص ٤٩-٥٣. ابن رزق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، ت محمد حبيب صالح، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مسقط، ط ٦، ٢٠١٦، ج ٢، ص ٣٩٧، ٤٩٨، ٥٠١.

(١) - المغربي، جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص ٧٣. ناجيه محمد الخريجي، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لسلطنة زنجبار الإسلامية في شرق إفريقيا ١٨٠٦-١٩٤٧، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٩٣، ص ٤٣-٤٥.

(٢) - كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٢٩٥-٢٩٦.

(٣) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p124-125.

(٤) - المغربي، جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص ١٨.

(٥) - عبد الله بن محمد الطائي، تاريخ عمان السياسي، مكتبة الريعان، الكويت، ط ١، ٢٠٠٨، ص ١٤٢.

(٦) - Reclus, the earth and its inhabitants, Africa, vol4, p327.

تبلغ مساحتها ٤٣٥ كم^٢، وتتبع حالياً لدولة تنزانيا^(١).

إلى جانب ذلك توجد جزيرة باتا الكينية صغيرة المساحة، والواقعة في الخليج البحري الممتد

شمال مدينة لامو^(٢)، كما توجد بعض الجزر في بحيرة فكتوريا وهي:

- جزيرة أوكيرو: وهي أكبر جزرها، تقع جنوبي البحيرة، وتتبع تنزانيا من الناحية السياسية، وعرفت البحيرة باسمها فيما سبق قبل اكتشافها.

- جزر سيسى (Sese): عبارة عن أرخبيل من الجزر تدعى أكبرها بوجالا (Bugala)، تقع شمال غربي البحيرة، وتتبع أوغندا من الناحية السياسية.

- جزر بوفوما (Buvuma): تقع شمالي البحيرة مقابل مخرج النيل، وتتبع أوغندا من الناحية السياسية^(٣).

٣- السلالات البشرية في شرقي إفريقيا (التركيبة السكانية):

تعد منطقة شرقي إفريقيا منطقة جذب بشري عرفت هجرات متعددة على مر العصور وهو ما جعلها تحتل المرتبة الأولى في إفريقيا من حيث تنوع الشعوب فيها، إذ يقطنها خليط من الشعوب والأجناس المتباينة التي تتعدد دياناتها وعاداتها وتقاليدها ولغاتها ولهجاتها الخاصة^(٤)، ويمكن حصر أهم تفرعاتها فيما يلي:

(أ)- قبائل البانتو: البانتو كلمة إفريقية معناها الشعب^(٥)، وهم من أكبر الجماعات العرقية العرقية في شرقي إفريقيا وأكثرها عدداً وأوسعها انتشاراً؛ إذ توجد في كل دول الإقليم، وتختلف وجهات النظر حول أصول هذه الشعوب، وتحركاتها والموطن الذي ظهرت فيه بين منطقة بحر الغزال، وغربي إفريقيا في نيجيريا حالياً، وأحواض نهر الكونغو والزامبيزي، والمرجح أن موطنهم الأصلي هو غرب إفريقيا، ونزحوا إلى شرق وجنوب إفريقيا عبر مراحل تاريخية^(٦)، وانقسموا نتيجة لذلك إلى فروع جغرافية عدة، قامت كل واحدة منها بتطوير كيائها الاقتصادي ودياناتها

(١) - شاكرو، تنزانيا، ص ٤٠-٤٢.

(٢) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م ١٠، ص ٤٣.

(٣) - محمد، نهر النيل، ص ٦٣-٦٤. الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م ١٠، ص ٤٣.

(٤) - الحريري، جغرافية القارة الإفريقية، ص ١٣. محمود، الإسلام والمسيحية في شرق إفريقيا، ص ٤٨.

(٥) - كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٢٤٠-٢٤١.

(٦) - اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، ج ٣، ص ١٦٧. محمد، الشعوب والسلالات الإفريقية، ص ٧١-٧٤.

وعاداتها، وهي: الشرقية والجنوبية والغربية، والأهم منهم البانتو الشرقيون الذين ينتشرون في إقليم شرقي إفريقيا من أوغندا شمالاً وحتى نهر الزامبيزي جنوباً^(١)، وأصبح هؤلاء في شرقي إفريقيا على اتصال بموجات الهجرات الحامية المتقدمة من الشمال الشرقي، وخلال قرون عدة كانت أقاليم هذه المنطقة الساحة التي شهدت صراعاً بين قبائل البانتو والشعوب الحامية^(٢)، ومن أشهر جماعات البانتو في شرقي إفريقيا: الكيكويو والكامبا (kamba) والميرو (meru) في كينيا، والسوكوما والأونيامويزي والشاجا (chagga) والجوجو (gogo) في تنزانيا، والسوجا (soga) والجاندا والتورو والباجاندا والأننيورو التي تعيش في أوغندا^(٣).

ب- العناصر الحامية: عبارة عن عناصر قوقازية الأصل تنتمي إلى عنصر البحر المتوسط، وينتمي إلى هذه العناصر سكان شمالي كينيا مثل جماعات الجالا (Galla)، والبوران (Boran)، والرنديل (Rendille)، والصوماليين، وهي جماعات رعوية متنقلة تسكن الأكواخ، وتحترف رعي الأغنام والماعز في بيئة شبه جافة، ومن القبائل الحامية في شرقي إفريقيا نذكر السوك، الماركويت (Marakwet)، السامبورو (Samburu)، وكلها تحترف رعي الحيوانات^(٤).

ج- النيليون: وهم عبارة عن مجموعة كبيرة من الزوج الذين تأثروا بالعناصر الحامية، ويقتصر توزعهم الجغرافي على إقليم نيانزا شمالي كينيا وامتداده في شمالي أوغندا، وأشهر قبائلهم هي الدينكا (Dinka) والنوير (Nuer) والشلوك (Shiluk) في السودان، وقبائل اللو (Luo) المنتشرة حول خليج كافرونندو شمال بحيرة فكتوريا والأشولي (Achuli) في شمالي أوغندا، ويُعد رعي البقر حرفتهم الرئيسية، ويقوم بعضهم بصيد السمك، ويزرعون الأراضي المرتفعة بالحبوب في فترة الفيضان^(٥).

د- أنصاف الحاميين: يطلق عليهم أحياناً النيليون الحاميون، وينتمون إلى النيليين الذين تظهر بينهم الصفات الحامية، ويأتي احتراف الرعي في مقدمة أعمالهم، ومع ذلك اتجهت بعض

(١) - محمد، الشعوب والسلالات الإفريقية، ص ٧٦. كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٢٤٠-٢٤١.

(٢) - عطية مخزوم الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء مرحلة انتشار الإسلام، جامعة قاريونس، بنغازي، ط ١، ١٩٩٨، ص ٤٠-٤٢.

(٣) - محمد، الشعوب والسلالات الإفريقية، ص ٩٧، ١٠٠. الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م ١٠، ص ٨٣-٨٦.

(٤) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م ١٠، ص ٨٣-٨٦.

(٥) - الحريري، جغرافية القارة الإفريقية، ص ٢٤٣-٢٤٥. محمد، الشعوب والسلالات الإفريقية، ص ١٤٨.

جماعاتهم نحو احترام الزراعة، ولكن بدرجات متفاوتة. ويتوزعون بين جنوب السودان ومعظم كينيا وأجزاء من أوغندا وشمال تنزانيا، ومن أهم شعوبهم: الباري واللاتوكا في جنوب السودان، وجماعات اللانجو والتيسو (Teso) في أوغندا، والناندي (Nandi) والكيبسيجي (Kipsigi) في كينيا، والماساي التي تمتد أوطانها بين جنوبي كينيا وشمال تنزانيا^(١).

هـ- السواحليون: جاء اسم السواحليون من كلمة الساحل باللغة العربية، والمقصود بذلك الشعب الذي يعيش على الساحل. وأطلق هذا الاسم على جميع سكان الساحل الشرقي لإفريقيا الممتد بين مجرى نهر تانا في الشمال ونهر روفوما في الجنوب؛ أي ينتشرون في شرقي كينيا وتنزانيا إلى جانب جزر زنجبار ومبا ومافيا^(٢)، وهم عبارة عن بعض جماعات البانتو التي اختلطت وتزاوجت مع العناصر العربية التي وفدت إلى شرقي إفريقيا، كما تأثروا ببعض المؤثرات الفارسية والهندية^(٣)، ويدينون بالإسلام، ويتكلمون اللغة السواحلية التي هي عبارة عن مزيج من لغة البانتو واللغة العربية مع بعض التعبيرات الفارسية والهندية؛ وهي اللغة القومية على طول الساحل الشرقي لإفريقيا، وكانت تكتب بالأبجدية العربية حتى منتصف القرن التاسع عشر^(٤)، ومما لاشك فيه أن السواحليين ينتمون إلى الحضارة الإسلامية التي امتزجت بالمؤثرات الإفريقية المحلية.

و- السكان غير الإفريقيين:

يشكلون نسبة محدودة بالنسبة لمجمل سكان شرقي إفريقيا، ويتألفون من عنصرين رئيسيين هما: العناصر الآسيوية: ويأتي العرب في مقدمتهم، بالإضافة إلى الباكستانيين، والهنود اللذين وفدوا إلى الإقليم كعمال إلى جانب احترام بعضهم للتجارة بين شرقي إفريقيا وجهات شبه القارة الهندية. والعناصر الأوروبية: التي تزايدت أعدادها بعد استكشاف مجاهل شرقي إفريقيا واقتسامها بين الدول الاستعمارية، وينتمي غالبيتهم إلى الجاليات الأوروبية للدول التي

(١) - محمد، الشعوب والسلالات الإفريقية، ص ١٠٤-١٠٦. الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م ١٠، ص ٨٣-٨٦.

(٢) - حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الإفريقية وغربها، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، ١٩٥٧، ص ١٤٠.

(٣) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م ١٠، ص ٨٣-٨٦.

(٤) - عمر سالم بابكور، الإسلام والتحدي التنصيري في شرق إفريقيا ١٨٤٤-١٩٥٠، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٩٠، ص ٢٣٥-٢٣٧. راجية محمد عفت، اللغة السواحلية في تنزانيا، مجلة الدراسات الإفريقية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ع ١١٤، ١٩٨٢، ص ٢٦-٢٨.

سبق لها استعمار جهات من قارة إفريقيا كإنجلترا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا، وانخفضت أعدادهم في شرقي إفريقيا بعد استقلال دولها سياسياً بحيث أصبحوا لا يشكلون سوى شريحة محدودة من السكان^(١).

ثانياً- أوضاع شرقي إفريقيا قبيل القرن التاسع عشر (الإطار التاريخي):

١- دويلات المدن في ساحل الزنج:

أطلق الجغرافيون المسلمون اسم ساحل الزنج على الساحل الشرقي لإفريقيا الممتد من مقديشو شمالاً حتى سفالة جنوباً، وهو ما عرف باسم زنجبار أيضاً؛ وزنجبار^(٢) كلمة فارسية مؤلفة من مقطعين زنج- باروتعني بر أو ساحل الزنج^(٣). وقد شهد هذا الساحل تأسيس وازدهار مدن تجارية عدة ذات تأثيرات عربية وفارسية وإفريقية أدت دوراً مهماً في تاريخ الشرق الإفريقي في فترة العصور الوسطى اختلف المؤرخون حول تاريخ نشأتها، كما اختلفوا حول تحديد تاريخ وصول العرب إلى شرقي إفريقيا، ولكن اتفقت آراؤهم على قدم معرفة العرب بهذا الساحل. ويُعدّ عرب عمان وجنوب الجزيرة العربية من سلالة مملكة سبأ أهم وأقدم الشعوب العربية اتصالاً بساحل شرق إفريقيا^(٤)؛ ومما يؤكد ذلك ما قاله جيان^(٥) "إذا نظرنا إلى الموضع الجغرافي لشبه جزيرة العرب، وعلمنا أنّ هذه البلاد مقابلة للساحل الإفريقي والهندي معاً، إضافة لمعرفة العرب لنظام هبوب الرياح خلال السنة الواحدة في الأوقات المختلفة، وإمامهم بعلم الفلك وطريقة استخراج الاتجاهات بالشمس والكواكب، ندرك عندها أن العرب هم أول من وصلوا لساحل إفريقيا الشرقي من الأجانب". وكان الغرض التجاري هو الصفة الغالبة

(١) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م ١٠، ص ٨٨.

(٢) - تطور المفهوم الجغرافي لكلمة زنجبار تطوراً كبيراً على مرّ العصور، وهي كلمة فارسية معناها ساحل الزنج، اطلقها المسلمون على جميع ما عرفوه من ساحل إفريقيا الشرقي، وسموا البحر المقابل له بحر الزنج، لكن المفهوم الحالي لزنجبار ينحصر في الجزر الصغيرة المواجهة لشاطئ تنجانيقا التي أكبرها جزيرتي زنجبار ومبا، وتقع الأولى على بعد ٢٠ ميلاً من الساحل، والثانية على بعد ٣٠ ميلاً شمال زنجبار. عن صلاح العقاد، جمال زكريا قاسم، زنجبار، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١.

(٣) - الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٩، م ١، ص ٥٨-٦١. المغيري، جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص ٧٣.

(٤) - عبد الرحمن السديس، العمانيون والجهاد الإسلامي في شرقي إفريقيا ١٦٢٤-١٧١١، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٩٣، ص ٣٨. محمد حسين الزبيدي، هجرة العرب والمسلمين إلى شرق إفريقيا، مجلة المؤرخ العربي، عدد ٢٣، بغداد، ١٩٨٣، ص ١٠٢.

(٥) - جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقيا الشرقية، ترجمة يوسف كمال، القاهرة، ط ١، ١٩٢٧، ص ٢٤.

لتنقلاتهم وهو ما دفعهم إلى اللجوء للساحل والجزر المجاورة له؛ حيث كانت السفن العربية تبحر باستمرار إلى سواحل شرقي إفريقيا حاملة معها أنواعاً مختلفة من المنتجات الآسيوية ولاسيما الهندية كالثياب والأقمشة القطنية، ويعقدون المبادلات التجارية مع المدن الساحلية^(١)، ثم تعود هذه السفن محملة بالمنتجات الإفريقية مثل زيت النخيل والبخور وبعض أنواع العطور وسن الفيل والذهب والعاج وغيرها^(٢)، وكانت الخطوة الأولى بالنسبة للقادمين الجدد العرب هي الاستقرار في قرى إفريقية لصيادي السمك، ومن ثم اختلطوا بأهل البلاد وتزوجوا منهم، وأقاموا محطات تجارية، وفي منتصف الألف سنة التي سبقت ميلاد المسيح بدا الطابع العربي يظهر على الشاطئ^(٣)، ويؤكد ذلك صاحب كتاب الدليل الملاحي للبحر الأبيض المتوسط وهو رحالة مصري عاش في القرن الثاني الميلادي - "كان الساحل الشرقي لإفريقيا^(٤) يخضع لسيطرة بعض الأجزاء الجنوبية للجزيرة العربية، وكان تجارهم يبعثون بسفنهم الضخمة التي يقودها قباطنة من العرب الذين يعرفون أهل هذه الجهات، ويعرفون كل شبر في هذا الساحل، ويجيدون لغة أبنائه"^(٥) وأشاد بقدرة العرب على العيش مع الأهالي حتى في ذلك الزمن البعيد يختلطون بهم، ويتاجرون معهم، ويتزوجون منهم، ولا يجد الخصام بينهم سبيلاً، وهذا كله يثبت أن صلات موعلة في القدم نمتها وعززتها التجارة ربطت بين العرب والأفارقة في هذه المناطق الساحلية.

ومع استمرار العلاقات التجارية بين العرب في سواحل عمان وجنوب الجزيرة العربية والأفارقة في ساحل شرقي إفريقيا غدت التجمعات السكانية أكثر ازدهاراً وأمناً، وتزايد وفود

(١) - جوان جوزيف، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ترجمة مختار السيوفي، دار الكتاب المصرية، القاهرة، ط ١، ١٩٨٤، ص ١٣٢.

(٢) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، م ١٠، ص ٢٢-٢٣.

(٣) - باسيل دافيدسون، إفريقيا القديمة تكتشف من جديد، ترجمة نبيل بدر، الدار القومية للطباعة، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٨٢-٨٣. ريتشارد هول، إمبراطوريات الرياح الموسمية، ترجمة كامل حسين، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبوظبي، ط ١، ١٩٩٩، ص ٥٩-٦٠.

(٤) - عرف الساحل الشرقي لإفريقيا أيضاً باسم الساحل الأوزاني أو ساحل آزانيا نسبة إلى دولة أوزان أو أوسان العربية التي انتهت قبل الميلاد بستة قرون والتي تلتها دولة قناب ثم دولة سبأ والحميريين مما يدل على عمق الصلات وقدمها بين الجانبين. عن دافيدسون، إفريقيا القديمة تكتشف من جديد، ص ٧٢.

(٥) - Wilfred Schoff, The periplus of the Erythraean sea, travel and trade in the Indian ocean by a merchant of the first century, Longmans, green and co, New York, 1912, p4.

التجار العرب إلى المنطقة للاستقرار فيها وإقامة المراكز التجارية لدعم تجارتهم، وما لبث أن استقبل هذا الساحل هجرات عربية متتالية^(١)، ازدادت كثافتها بعد ظهور الإسلام وانتشاره خارج الجزيرة العربية في بداية القرن السابع الميلادي، ولاسيما بعد الاضطرابات السياسية التي شهدتها الدولة العربية الإسلامية بعد عهد الخلفاء الراشدين في القرنين السابع والثامن الميلاديين، فخرجت هجرات عربية بأعداد كبيرة إلى ساحل شرقي إفريقيا، وانضمت إلى من سبقوهم هناك، وكانت جماعة الزيديين^(٢) أول من هاجر إلى تلك السواحل وعمروها بالمدن التي أصبحت نواتها لأمو والمناطق المجاورة حولها^(٣). وتلتها هجرة الأخوة السبعة من بني الحارث من منطقة الأحساء إلى ساحل الصومال في العام ٩٠٣م بعد أن ضاق بهم المقام في منطقة الخليج العربي نتيجة الصراعات السياسية والمذهبية، وكانت مقديشو أول مدينة عربية تأسست من قبل المهاجرين العرب آنذاك ثم تلتها مدينة براوة ثم مركة، وهناك اختلاف حول تاريخ تأسيس مدينة مقديشو، والأرجح أنها تأسست في أوائل عهد الدولة الفاطمية حوالي العام ٩٠٨م فصارت مملكة قوية ذات شوكة ونفوذ على عرب السواحل، وتشكلت فيها هيئة حكومية انحصر الحكم فيها بطريق التوارث في أسرة شيخ القبيلة الذي كان رئيساً لجماعة المهاجرين الجدد، وسميت هذه الأسرة الحاكمة باسم أسرة المظفر نسبة إلى رأسها ومؤسسها، وفي عهد أسرة المظفر نمت ثروة مقديشو نمواً كبيراً فأصبحت بمثابة عاصمة لجميع البلاد المجاورة، وهكذا وجدت مدن براوة ومركة وكندر شيخ وجزيرة وارشيخ، وكان سكانها أول من وصل إلى بلاد سفالة بسفنهم واستخرج الذهب منها^(٤).

(١) - زاهر رياض، استعمار إفريقيا، الدار القومية للطباعة، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٦-٢٧.

(٢) - تشير الروايات الشفهية المحلية إلى هجرة طائفة من العرب كانت تعرف بالاموزيدج؛ وهو تحريف سواخلي لكلمة الزيدية، وهم فئة من الشيعة من أتباع زيد بن علي بن الحسين، ويؤرخ وصول هذه المجموعة إلى شرقي إفريقيا بعام ١٢٢هـ/٧٣٩م؛ بسبب ما لاقوه من اضطهاد على أيدي الأمويين بعد وفاة أميرهم زيد، وهزيمة أتباعه وفرارهم إلى جنوب الجزيرة العربية. عن عبد الرحمن أحمد عثمان، المؤثرات الإسلامية والمسيحية على الثقافة السواحلية، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، ٢٠٠٠، ص ٨٥-٨٦. شوقي الجمل وآخرون، الموسوعة الإفريقية، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٢٦، ص ٨٦.

(٣) - دافيدسون، إفريقيا القديمة تكتشف من جديد، ص ٧٤.

(٤) - جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقيا الشرقية، ص ٨٥-٨٦، ١٨٣-١٨٥. الجمل وآخرون، الموسوعة الإفريقية، ص ٢٦، ص ٨٦، ٢٧٩.

كذلك هاجرت القبيلة النبهانية^(١) من عمان بقيادة سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني إلى الساحل الشرقي قرابة العام ١٢٠٣م، واستقرت في جزيرة باته التي كانت أهلة بالسكان من قبائل إفريقية أصيلة، ثم تزوج سليمان بن مظفر النبهاني من ابنة حاكم الجزيرة، وورث الملك وآلت إليه السلطة من بعده، فأسس الأسرة النبهانية التي توالى على حكم شطر كبير من الساحل الإفريقي حتى القرن التاسع^(٢).

ولم تقتصر هجرات المسلمين إلى شرقي إفريقيا على العنصر العربي وحده بل أسهمت العناصر المسلمة الأخرى فيها بنصيب وافر. ولعل أكثر الهجرات أثراً في تاريخ شرق إفريقيا هي تلك الهجرة التي أتت من شيراز بقيادة علي بن حسن ابن حاكم شيراز بفارس مع أهله وكثير من رعيته إلى شرق إفريقيا، واستقر في القسم الجنوبي من الساحل، أي ما يقابل تنجانيقا حالياً، وأسس مدينة كلوا حوالي العام ٩٧٦م، وكانت نواة لأول دولة سواحلية عظيمة عرفت باسم دولة الزنج^(٣)، وبعد أن استقر بها أخذ يشيد الحصون حولها للدفاع عنها ضد غارات الزنوج، ولما شعر أنه أصبح بمأمن في مدينته أخذ يمد نطاق حكمه على المناطق المجاورة، فأصبحت دولة الزنج بعاصمتها كلوا مملكة ممتدة من جزيرة بمبا شمالاً وحتى سفالة في الجنوب التي اهتدى إليها أهل كلوا بالمصادفة أيضاً، كما اهتدى إليها قبلهم سكان مقديشو، وتوارث أبناؤه الحكم فيها لمدة ٥٤١ عاماً منذ التأسيس حتى وصول البرتغاليين في مطلع القرن السادس عشر^(٤).

وترجع أهمية دولة الزنج إلى أنها وحدت معظم المراكز العربية في شرقي إفريقيا بما فيها جزيرتي زنجبار وبمبا ولم تستعص عليها سوى مدينة مقديشو، ولكن في معظم الأحوال كان هناك صراع دائم بين الحكومة المركزية في كلوا وبين حكام الموانئ الذين حاولوا الاستقلال

(١) - قبيلة عمانية هاجرت من عمان حوالي العام ٦٠٠هـ/١٢٠٣م، وكان أول ملوكهم في جزيرة باته سليمان بن سليمان النبهاني، وتوالى على حكم الجزيرة اثنان وثلاثون سلطاناً من النباهنة، كان آخرهم أحمد شيخ فوم، وفوم لقب ملوك باته. عن المغيري، جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص ١٧٠.

(٢) - عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمين في شرق إفريقيا، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٧٧-٧٨.

(٣) - المغيري، جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص ١٠٣، ١٣٣. العقاد، قاسم، زنجبار، ص ٦-٧.

(٤) - جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقيا الشرقية، ص ٨٦-٨٧. عثمان، المؤثرات الإسلامية والمسيحية على الثقافة السواحلية، ص ٨٦-٨٧.

بمدنهم^(١)، وكانت العلاقة فيما بينها على الأرجح كنوع من الاتحاد الكونفدرالي الذي احتفظت فيه كل منها باستقلالها، وكانت كلوا أقوى الأعضاء وأكثرهم ثراء، وتبوأ مكان الصدارة فيه لمدة طويلة^(٢)، وازدهرت خلال هذه الفترة تجارة الذهب والعاج والرقيق بين ساحل إفريقيا وآسيا، وتطورت المدن والمراكز التجارية على الساحل، ونمت المراكز التجارية عما كانت عليه من قبل واتسعت المدن وبلغت مستوى راقياً في الحضارة^(٣)، ووصف ابن بطوطة الذي زارها في القرن الرابع عشر الرخاء الذي وصلت إليه وازدهار الحضارة فيها، وعلل ذلك لاشتغال المسلمين فيها بالتجارة بين البلدان الواقعة على سواحل المحيط الهندي، واستغلالهم مناجم الذهب التي تقع خلف القسم الجنوبي من الممتلكات العربية في إفريقيا، فكانت كميات هائلة من الذهب ترد إلى ميناء سفالة حتى سماها ابن بطوطة سفالة الذهب، حيث كانت قوافل التجارة تتردد بانتظام من قلب إفريقيا ومن منطقة البحيرات الاستوائية منذ ذلك الوقت^(٤).

وتميزت هذه المدن والإمارات بالإضافة لذلك بطابعها الاقتصادي نتيجة لخصوبة أراضيها حيث اشتغل سكانها بالزراعة، وأدخلت محاصيل زراعية جديدة لم تألفها البلاد من قبل مثل زراعة البرتقال والذرة والفلفل والرز والقرنفل، ونجحت هذه الزراعات نجاحاً عظيماً^(٥)، كما أدخل الشيرازيون والعرب أساليبهم في البناء بالحجارة، وفي صناعة الجير والإسمنت واستخدامها في البناء، وفن النقش على الخشب، ونسيج القطن، وشيدوا مساجد عدة ومبان جميلة الطراز ما زالت بعض مخلفاتها باقية إلى اليوم^(٦)، ولكن على الرغم من التقدم ومستوى الحضارة الذي وصلت إليه إلا أنها افتقرت إلى التنظيمات والقوة العسكرية، وربما يرجع السبب إلى أنها لم تؤسس نتيجة توسع عسكري وإنما أسسها التجار والمهاجرون^(٧)، وقد أصيبت هذه السلطنة في

(١) - العقاد، قاسم، زنجبار، ص ٨.

(٢) - صباح كعدان، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٦-٢٠٠٧، ص ٤٢.

(٣) - أحمد حمود المعمري، عمان وشرقي إفريقيا، ترجمة محمد عبدالله، وزارة الثقافة والتراث القومي، سلطنة عمان،

١٩٧٩، ص ٤٧. زكي، الإسلام والمسلمين في شرقي إفريقيا، ص ٧٨-٧٩.

(٤) - ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم،

بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص ٢٦٦.

(٥) - كعدان، تاريخ إفريقيا، ص ٤١-٤٢.

(٦) - زكي، الإسلام والمسلمين في شرق إفريقيا، ص ٧٨-٧٩.

(٧) - جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، دار الفكر العربي، نصر، ١٩٩٦، ص ٧٢.

سنواتها الأخيرة بالتدهور من جراء الخلافات الداخلية نتيجة للتنافس بين الحكام ونظم ولاية العرش، واغتصاب بعض الوزراء للسلطات من السلطان الشرعي^(١) وعندما وصل البرتغاليون إلى المنطقة في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر كانت كلوة تبسط سلطانها على المدن العربية الجنوبية، بينما سيطرت ممباسة على المدن الشمالية، ولم تكن قوة العرب والمسلمين فيهما تكفي لصد البرتغاليين فتراجعوا أمام ضغط أعدائهم، ومن ثم استطاع البرتغاليون تحقيق مآربهم في شرقي إفريقيا^(٢).

٢- البرتغاليون في شرقي إفريقيا:

وصل البرتغاليون إلى ساحل إفريقيا الشرقي في العام ١٤٩٨ بقيادة الملاح البرتغالي فاسكو دوغاما^(٣)، بعد نجاحه في الدوران حول رأس الرجاء الصالح، وتمكّن من الوصول إلى كثير من موانئ الشرق الإفريقي كسفالة وكلوا وزنجبار وماليندي^(٤)، وهاجم هذه المدن وخدعها واحدة تلو تلو الأخرى، مع أن بعضها أبدى له الود، واكتفى بعضها الآخر باتخاذ موقف الحذر، وكانت ماليندي الوحيدة بين جميع مدن الزنج التي أحسنت استقباله، وفيها تمكّن دوغاما من الحصول على الأدلاء الذين وصل بواسطتهم إلى الهند^(٥).

لم تكن إفريقيا غاية البرتغاليين، وإنما كانت وسيلة يصلوا عن طريقها إلى تحقيق هدفهم الأسمى؛ وهو احتكار تجارة الهند، والسيطرة على البحار الهندية وشواطئها^(٦)، ولهذا سعى

(١) - سميرة محمود حسن، سلطنة آل سعيد وأرض الزنج في شرق أفريقيا، مجلة نهضة أفريقية، ع ٥، ص ٣٦.

(٢) - رأفت الشيخ، محمود متولي، إفريقيا في العلاقات الدولية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٤٨-٤٩.

(٣) - فاسكو دوغاما (١٤٦٠-١٥٢٤): الملاح البرتغالي الشهير الذي اكتشف رأس الرجاء الصالح في العام ١٤٩٨، وافتتح الطريق البحري بين أوروبا والهند. ولد في البرتغال في سينز حوالي العام ١٤٦٠، كان قد تلقى دروساً في الرياضيات وعلوم البحار، وتم اختياره من قبل الملك جون للإبحار إلى الهند وكسر الاحتكار التجاري العربي. بدأ رحلته الأولى في تموز ١٤٩٧، ونجح خلالها في اكتشاف رأس الرجاء الصالح، والدوران حوله إلى ساحل إفريقيا الشرقي، ووصل منه إلى الهند. وبدأ رحلته الثانية في العام ١٥٠٥؛ بهدف تكريس الهيمنة البرتغالية على المحيط الهندي، وعينه الملك جون الثالث نائباً له في الهند في العام ١٥٢٤، ولكنه ما لبث أن توفي في نفس العام، ونقلت رفاته إلى لشبونة في العام ١٥٣٨. عن الفارو فلهو، يوميات رحلة فاسكو دوغاما وتقرير رحلة دوز سانتوس، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥، ص ١٠. هول، إمبراطوريات الرياح الموسمية، ص ٢٧٣، ٢٢٨، ٢٢١.

(٤) - قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، ص ٩٥.

(٥) - دونالد ويدنر، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد البراوي، مكتبة الوعي العربي، ٢٠٠١، ص ١٤١.

(٦) - الشيخ، متولي، إفريقيا في العلاقات الدولية، ص ٥٤.

البرتغاليون إلى احتلال شرقي إفريقيا؛ لحماية طرق الملاحة بين الهند والبلد الأم، ولمنع الدول الأخرى من تهديد الاحتكار البرتغالي من خلال الحصول على موطئ قدم في تجارة البلاد^(١)، ففي أعقاب وصول فاسكو دوغاما إلى هذه المدن وصلت إليها تباعاً سفن القراصنة والمغامرين البرتغاليين، فسيطروا على سفالة وكلوا التي قاومتهم بعنف فانتقموا منها بإشعال النار في المدينة بعد نهبها، وأقاموا في كلوا حصناً تركوا فيه حامية لهم، وتقدموا نحو ممباسا التي استبدل سكانها العرب والأفارقة في الدفاع عنها، فما كان من البرتغاليين إلا أن أشعلوا النار في المدينة فأتت على كل شيء، ولم يتركوها إلا بعد أن أصبحت رماداً، وكذلك فعلوا في بقية مدن الساحل، ففضوا نهائياً على دولة الزنج، وبسطوا نفوذهم عليها، ولم ينجو من هذا المصير إلا مدينة ماليندي التي أذعن للبرتغاليين وساعدتهم على تمكين نفوذهم^(٢).

انصرف البرتغاليون بعد استتباب الأمر لهم إلى استغلال موارد الشرق الإفريقي والاستحواذ على تجارته وموارده والاستفادة من مصادر ثرواته من الذهب والعاج والرقيق، ومن أجل ذلك أسس فرانسيسكو دالميدا^(٣) أول نائب للملك البرتغالي في الهند مركزين برتغاليين في سفالة في القسم الجنوبي من الساحل حيث تتركز مناجم الذهب بينما اكتفوا في الشمال بالاعتماد على التحالف مع حكام ماليندي الذين كانوا يتلقون منهم الدعم والمعونة العسكرية^(٤). واستغل البرتغاليون النزاع الذي كان قائماً بين المدن والموانئ الساحلية في توطيد سيطرتهم على ساحل إفريقيا الشرقي وخاصة تلك التي كانت قائمة بين ممباسا وماليندي، إلا أنهم لم يتدخلوا

(١) - ويدنر، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ص ١٤٤.

(٢) - شوقي الجمل، عبدالله عبد الرزاق إبراهيم، تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١٩. فرغلي علي هريدي، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، مطبعة العلم والإيمان، الاسكندرية، ط ١، ٢٠٠٨، ص ٦٥-٦٦.

(٣) - فرانسيسكو دالميدا: جندي ومستكشف برتغالي، ولد في لشبونة حوالي العام ١٤٥٠، وكان أول نائب للملك البرتغال في الهند في العام ١٥٠٥ وأقام مركزه في مدينة كوشن الهندية، وأسس سلسلة من القلاع القوية لبسط سيطرة البرتغال على الشرق، وكان قائد الأسطول الذي انتصر على الأتراك في معركة ديو البحرية في العام ١٥٠٩، ولقي حتفه وهو عائد إلى البرتغال في اشتباك مع قبائل الخوخوي في كيب تاون الحالية في العام ١٥١٠. عن فالخ حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ، منشورات الجمع الثقافي، أبوظبي، ط ١، ١٩٩٧، ١٤٨، ١٩٤-١٩٥. هول، إمبراطوريات الرياح الموسمية، ص ٢٨٠، ٣٠٣.

(٤) - قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، ص ٩٩.

صراحة لنصرة فريق على آخر^(١)، ومع ذلك لم تهدأ الثورات ضد البرتغاليين على طول الساحل، وتزعمت ممباسة حركة التمرد، وتكرر إرسال الحملات العسكرية ضد مدن الساحل لتخريبها وتدميرها وإعمال التقتيل بين سكانها، وتعرضت ممباسة خاصة لأحداث قاسية من الحروب والحصار والحريق، وفي العام ١٥٨٥ نجحت ممباسة بمساعدة القائد العثماني علي بك في طرد البرتغاليين غير أنهم عادوا مرة أخرى بمساعدة إحدى القبائل الإفريقية المعروفة باسم بازيما^(٢) وهزموا علي بك وانتقموا من سكان ممباسة^(٣). وهذا ما دفع البرتغاليين إلى التفكير في بناء قلعة في ميناء ممباسة؛ لتقوية وجودهم العسكري في شرقي إفريقيا، وإنشاء حامية عسكرية لهم فيها، وبالفعل تم بناء القلعة التي عرفت بقلعة المسيح في العام ١٥٩٣، وساهم في بنائها عمال من ماليندي بالإضافة إلى بنائين من الهند، وقامت عند مدخل الميناء، وانتقلت الحامية البرتغالية إليها، وكان لقائد القلعة وكلاء في الموانئ المجاورة مثل كلوة وبمبا وزنجبار، وكافأ البرتغاليون حكام ماليندي بانتزاع سلطنة ممباسة من الأسرة الحاكمة فيها، وأعطيت لحاكم ماليندي الحسن بن أحمد الذي انتقل إليها، وجعلها مركزاً لحكمه^(٤)، واستمر الحال على هذا المنوال حتى مطلع القرن الثامن عشر الذي شهد ظهور العمانيين كقوة بحرية تمكنت من تحرير بلادهم من الاحتلال البرتغالي في العام ١٦٥٠ بقيادة الإمام سلطان بن سيف^(٥) (١٦٤٠ - ١٦٨٠) الذي ما لبث أن أخذ يهاجم مراكزهم في بلاد الهند وسواحل إفريقيا الشرقية^(٦).

(١) - الجمل، إبراهيم، تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم، ص ٢٠.

(٢) - بازيما أو الزيمبا: وهي قبيلة إفريقية من أكلة لحوم البشر دار الجدل حول هويتها وأصولها، وكانوا على الأرجح شعباً فقد أرضه في غمار الاضطرابات التي أعقبت الغزو البرتغالي لودي الزامبيزي، واكتسحوا معظم مدن الساحل في طريقهم نحو الشمال، وأدخل قدومهم الرعب إلى نفوس جميع السكان، وكانوا سبباً في هزيمة الأتراك في ممباسة لاضطرابهم الدفاع عن أنفسهم على جبهتين البرتغاليين من البحر وقبائل الزيمبا من البر. عن هول، إمبراطوريات الرياح الموسمية، ص ٣٦٤-٣٦٥.

(٣) - وزارة التراث القومي والثقافة، العمانيون وقلعة ممباسة، سلطنة عمان، العدد ٩، ط ٣، ١٩٩٤، ص ١٢-١٤.

(٤) - زكريا، الاصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، ص ١٠٣-١٠٤.

(٥) - سلطان بن سيف: تولى الحكم خلفاً لابن عمه الإمام ناصر بن مرشد مؤسس دولة اليعاربة في العام ١٦٤٩، وقاتل البرتغاليين في مسقط وأجلاهم عن كل عمان، وتتبعهم إلى الهند وغنم منهم الكثير، كما حارب البرتغاليون في شرقي إفريقيا، وامتدت فترة حكمه لـ ٤٠ عاماً، وكانت وفاته في العام ١٦٨٠. عن نور الدين بن حميد السالمي، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، تحقيق إبراهيم الجزائري، مطبعة الشباب، القاهرة، ط ٢، ١٩٣١، ج ٢، ص ٤٤-٤٥ المغيري، جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص ١٩٩-٢٠٠. ابن رزيق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، ج ٢، ص ١٤٨-١٥٨.

(٦) - الطائي، تاريخ عمان السياسي، ص ١٤١-١٤٢.

٣- العمانيون في شرقي إفريقيا:

ارتبط النشاط العماني في الشرق الإفريقي بالضعف الذي طرأ على البرتغاليين كدولة بانضمامها إلى إسبانيا في العام ١٥٨٠م، الأمر الذي شكل بداية تدهور مركزهم في الشرق الإفريقي، وترافق ذلك مع قيام سلسلة من الثورات العربية في الساحل الشرقي لإفريقيا شجعهم على ذلك قيام دولة اليعاربة وطردهم البرتغاليين من عمان^(١)، مما حدا بأبناء شرقي إفريقيا، ولاسيما ممباسة إلى أن يرسلوا وفداً إلى عمان يستنجدون بالإمام سلطان بن سيف، ويطلبون منه المساعدة^(٢)، وهكذا بدأ تدخل عمان في الصراع العربي - البرتغالي في شرقي إفريقيا. استغل إمام عمان استنجد عرب الساحل الإفريقي به ليقضي على نفوذ البرتغاليين في المنطقة بشكل كامل، فأرسل أسطولاً من السفن الحربية لإخراج البرتغاليين من ممباسة، وقد تم له ذلك بعد حصار استمر لمدة خمس سنوات (١٦٦٠-١٦٦٥)، ولم يكتف قائد الأسطول بذلك بل اتجه جنوباً فحرر زنجبار وبمبا وباته وكلوا، واستقبله الأهالي استقبالا المنقذ من الاستعمار البرتغالي، غير أن البرتغاليين أعادوا الكرة ثانية على هذه المدن فأجلوا العرب عنها، وانتقموا من سكانها^(٣)، وبقوا فيها حتى العام ١٦٩٦م تقريباً مما جعل إمام عمان يرسل حملة بحرية أخرى كان وصولها إيذاناً بثورة عامة في شرقي إفريقيا على طول ساحله أبيد فيها البرتغاليون بأعداد كبيرة^(٤)، وكان أعظم انتصار حققه العمانيون هو نجاحهم في إخضاع ممباسة، والسيطرة على حصن المسيح فيها في ١٤ كانون الأول من العام ١٦٩٨م؛ مما وضع نهاية للتفوق البرتغالي في شرقي إفريقيا، ومن ثم طردهم وإجلائهم عن الساحل الذي يقع شمال خليج دلجادو، وحاول البرتغاليون استرداد تلك المدن، ولكن توازن القوى بين العمانيين والبرتغاليين تحقق في النهاية في رأس دلجادو الواقع بين موزمبيق وكلوا، وفي شمال رأس دلجادو استتب الأمر للعمانيين الذين لقوا الترحيب في المدن الساحلية العربية التي عادت إلى الظهور من جديد كمستودعات للتجارة والزراعة على نحو أفضل مما كان عليه الأمر قبل العام ١٤٩٨^(٥).

(١) - محمد حسن العيدروس، السلطان سعيد والعلاقات العربية- الإفريقية، دار المتنبي، أبوظبي، ط ١، د. ت، ص ١١.

(٢) - جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقيا الشرقية، ص ٣٥٠-٣٥١.

(٣) - الطائي، تاريخ عمان السياسي، ص ٦١-٦٦.

(٤) - العيدروس، السلطان سعيد والعلاقات العربية- الإفريقية، ص ١٣-١٤.

(٥) - ويدنر، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ص ١٤٧-١٤٨.

وهكذا تمكن العمانيون من السيطرة على ساحل الزنج بعد قضائهم على البرتغاليين، وعين الإمام سيف بن سلطان (١٦٩٢-١٧١١)^(١) على هذه الجهات بعض الأسر العربية للحكم باسمه، مثل أسرة الحارث على جزيرة زنجبار، وأسرة النهاني لحكم باته، وأسرة المعموري لحكم ممباسة وتلتها أسرة المزروعى^(٢)، مما هيا الفرصة لحكام عمان تأسيس إمبراطورية عربية- إفريقية. ولكن سيادة عمان على ساحل شرقي إفريقيا كانت سيادة إسمية أكثر منها سيادة فعلية؛ بسبب المشكلات الداخلية التي عانت منها دولة اليعاربة فيما يخص "التنازع على الحكم"، ومحاولة اليعاربة توطيد مركزهم في الجزيرة العربية والخليج العربي^(٣)، ونتج عن ذلك قيام دويلات محلية في شرقي إفريقيا من أهمها أسرة المزاريع العمانية^(٤) في ممباسة التي استمرت على ولائها الإسمي لليعاربة في عمان، وما لبثت أن استغلت سقوط دولتهم في العام ١٧٤١ لتعلن استقلال ممباسة عن التبعية العمانية، ورفضت الاعتراف بالولاء للدولة الجديدة التي خلفت دولة اليعاربة، وهي دولة البوسعيد، ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل تزعمت ممباسة حركة المعارضة ضد البوسعديين، وسعت لتكوين حلف من المقاطعات الثائرة ضد عمان، ونجحت في تحريض مدن عدة كمقديشو وبراو ولامو وبعض المدن الواقعة إلى الجنوب منها لرفض التبعية للحكم الجديد في عمان^(٥)، غير أنها فشلت مع مدن وجزر أخرى بقيت على ولائها لعمان تحت حكم البوسعديين مثل زنجبار وباته وكلوا ومركة^(٦).

(١) - سيف بن سلطان (١٦٩٢-١٧١١): تولى الحكم خلفاً لشقيقه الإمام بلعرب بن سلطان في العام ١٦٩٢، ولقب بقيد الأرض لقدرته وسطوته وكثرة فتوحاته وانتصاراته وهيبته سلطانه، أنشأ أسطولاً بحرياً لمحاربة البرتغاليين، وأسترد منهم مدن وممالك إفريقيا الشرقية التي كانوا قد استردوها بعدما حررها والده الإمام سلطان بن سيف، وأجلاهم إلى موزمبيق، وله أخبار وأعمال جلية في داخلية عمان من أعمال الإصلاح، وكانت وفاته في العام ١٧١١. عن المغيري، جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص ٢٠٢. السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٩٥-٩٩.

(٢) - رأفت الشيخ، إفريقيا في التاريخ المعاصر، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٣) - قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، ص ١١٢.

(٤) - المزاريع: فرع من قبيلة بني ياس التي ما تزال تسكن ساحل عمان على الخليج العربي، حكمت هذه الأسرة في الشرق الإفريقي ما يقرب من مئة عام بين عامي (١٧٣٠-١٨٣٧)، وتركزوا في مدينة ممباسة، وأمتد سلطانهم في أوائل القرن التاسع عشر على طول ساحل كينيا من لامو شمالاً إلى بنجابي جنوباً حتى قضى السلطان سعيد على حكمهم في العام ١٨٣٧، وضم ممباسة إلى دولته. عن العقاد، قاسم، زنجبار، ص ٣٣.

(٥) - العقاد، قاسم، زنجبار، ص ٣٤-٣٧.

(٦) - الشيخ، إفريقيا في التاريخ المعاصر، ص ٣٣٤.

ورغم محاولة أحمد بن سعيد (١٧٤١-١٧٧٤)^(١) إعادة السيطرة على ممباسة والمدن الأخرى إلا أنه لم ينجح في ذلك، وظلت أسرة المزاريع تحكم ممباسة حكماً مستقلاً^(٢) حتى وصول سعيد بن سلطان للحكم في العام ١٨٠٦ الذي ما إن قضى على المشكلات الداخلية التي واجهته حتى بدأ يخطط لفرض سيطرته على شرق إفريقيا^(٣)، ونجح في القضاء على نفوذ المزاريع في إفريقيا الشرقية نهائياً في العام ١٨٣٧، وأصبح حاكماً على عمان وساحل شرقي إفريقيا من رأس الغضروفي في الشمال حتى رأس دلجادو في الجنوب^(٤)، وسرعان ما أدرك أهمية هذا الجزء من سلطنته سواء من حيث الموقع الاستراتيجي أو الموارد الاقتصادية، فاتخذ من جزيرة زنجبار عاصمة له، واستقر فيها بشكل نهائي في العام ١٨٤٠، وكان ذلك نقطة البداية في تأسيس سلطنة زنجبار العربية - الإفريقية.

٤- ممالك إفريقيا في الداخل قبل القرن التاسع عشر:

أ- التطورات السياسية:

يغطي داخل شرقي إفريقيا منطقة واسعة من القارة الإفريقية تمتد من السهول الساحلية المطلة على المحيط الهندي حتى منطقة البحيرات في وسط إفريقيا. وشهدت أقاليم هذه المنطقة خلال قرون عدة حركات هجرة داخلية وتحركات سكانية كبيرة إلى مناطق قليلة أو خالية من السكان، ومن أشهرها هجرة قبائل البانتو، وكانت حركة الهجرة هذه تجمع أحياناً بين أقوام مختلفين في اللغة، وفي ممارساتهم الاجتماعية والسياسية^(٥). كما شهدت هذه المنطقة عوامل أخرى أدت إلى زعزعة الاستقرار فيها تمثلت - إضافة إلى حركة الهجرة - في الحروب الداخلية،

(١) - أحمد بن سعيد (١٧٤١-١٧٧٤): مؤسس دولة البوسعيد في عمان، تولى الحكم في العام ١٧٤١، كان بطلاً شجاعاً وسياسياً محبوباً، وكان قبل انتقال الإمامة إليه قائداً عظيماً لسيف بن سلطان اليعربي، واستمر في الحكم حتى وفاته في بلدة الرستاق في العام ١٧٧٤. عن المغيري، جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص ٢٣٠. ابن رزيق، الفتح المبين، ج ٢، ص ٢٤٥، ٢٩٥.

(٢) - العيدروس، السلطان سعيد والعلاقات العربية - الإفريقية، ص ١٩-٢٠.

(٣) - الطائي، تاريخ عمان السياسي، ص ١٤٣.

(٤) - وزارة التراث القومي، العمانيون وقلعة ممباسة، ص ١٨.

(٥) - Roland Oliver, the Cambridge history of Africa, v3, from 1050 to 1600, 1600, Cambridge University Press, 2008, p621-622.

وفترات القحط الطويلة والمجاعات، والتذبذب في السكان بما في ذلك تجارة العبيد^(١). ولم تستقر الخارطة السكانية في داخل شرقي إفريقيا حتى أواخر القرن الثامن عشر حيث تركزت قبائل الماساي والشاجا والتوركنا والباري والشامبا والغوغو والهيهي في وسط الهضبة، وعلى الأطراف الشرقية الكيكويو والكامبا والميجيكندا والزيغولا والزارامو، وفي الشمال الغربي كان يعيش الأبالويا والكالينجين واللوو والأباغوسي والأباكوريا، وفي الجنوب الغربي كانت تقطن جماعات تنزانية مثل السوكوما والإيرامبا والنيامويزي والزنزا والكييمبو^(٢). وفي منطقة البحيرات قبائل الجاندا والبوجندا وبونيورو وتورو^(٣) وقبائل اللوو والأشولي والتوتسي^(٤). وكان لكل منها عاداتها وتقاليدها الخاصة في المأكل والملبس والسكن والزواج وسواها، وكان لكل قبيلة رئيسها، وقراها الصغيرة ذات الأكواخ المختلفة سواء داخل الغابات أو في السهول أو على مقربة من البحيرات أو مجاري الأنهار، ويسود بينها الرق والنخاسة، والتضحية البشرية وأكلة لحومها، وعقائد إنسانية الأولى^(٥).

وكانت جميع هذه الشعوب معزولة عن المحيط الهندي قبل القرن التاسع عشر، وقادرة على حل مشكلاتها بنفسها، ولم يسجل للعرب ولا للسواحليين أي توغل إلى الداخل قبل العام ١٧٠٠. ويمكن أن يشاهد بوضوح ابتداء من أواسط القرن السابع عشر قيام زعامات محلية، وتنظيمات سياسية متميزة وإن كان أكثرها لا مركزياً^(٦). وبحلول العام ١٨٠٠ كانت الصورة النمطية للدولة في المناطق الداخلية من كينيا وتنزانيا صغيرة قوامها العشيرة، وكان هناك نمطان رئيسيان من التنظيم الاجتماعي والسياسي فيها؛ فكانت مجتمعات مثل الكيكويو والميجيكندا والكامبا والماساي تعيش في مستوطنات مستقلة ومتفرقة في إطار جماعات أبوية النسب أو عشائرية صغيرة أو كبيرة بدون أي شكل من أشكال البيروقراطية المركزية التقليدية، غير أن هذه اللامركزية لا تعني سوء التنظيم أو انعدام التماسك الاجتماعي والسياسي وإنما كان

(١) - آن مكدوغال، إفريقيا جنوب الصحراء من القرن ١٥-١٨، ترجمة عائدة سيف الدولة، ص ١٧٥.

(٢) - اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، ص ٥٨، ص ٩١٢.

(٣) - الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء، ص ٤٢-٤٥.

(٤) - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، ص ٨٣-٨٦.

(٥) - يوسف روكز، إفريقيا السوداء سياسة وحضارة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٨٦، ص ٥٨-٥٩.

(٦) - اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، ص ٥٨، ص ٩١٢.

لهذه المجتمعات اللامركزية مجالس عائلية وقروية ومحلية وحتى مجالس عشائرية أو إقليمية مؤلفة من كبار السن، وينتخب من هؤلاء المسنين المجلس الحاكم، ومن جهة أخرى كانت المجتمعات المركزية أو السائرة في طريق المركزية مثل مجتمعات الشامبا والباري والسوكوما والنيامويزي والوانغا تقيم أشكالاً بدائية من البيروقراطيات الرئاسية التي تؤمن السيطرة الاجتماعية والسياسية، وكان يحكم بعض هذه الجماعات كالشامبا والباري مثلاً في أواخر القرن الثامن عشر ملوك وحكام مستبدون أقوياء يساعدهم مجالس ووزراء ورؤساء أقاليم^(١).

ولم تنشأ دول وممالك كبيرة إلا في مناطق البحيرات الكبرى، ومن أشهر دول هذه المنطقة مملكة كيتارا التي أسستها أسرة شويزي فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر في منطقة كيتارا في أوغندا الحالية^(٢)، وتدل آثار مبانيها وقنوات الري فيها على كثرة سكانها^(٣). وفي بداية القرن السابع عشر سادت مملكة كبيرة واحدة؛ وهي مملكة بونيورو في معظم أنحاء المنطقة، وامتدت سلطتها المركزية على معظم منطقة البحيرات^(٤)، وكانت تحيط بها ولايات عدة صغيرة مستقلة عن سيطرتها السياسية، على الرغم من أنها ليست بعيدة عن متناول جيوشها مثل بوغندا في الشرق على طول شاطئ بحيرة فيكتوريا، ورواندا إلى الجنوب من نكور وبوهويجو، وكاراجوي في الجنوب^(٥). وفي القرن التالي كانت مرحلة تكون الدول قد بلغت أوجها عندما برزت رواندا باعتبارها الدولة السائدة في القسم الجنوبي من المنطقة، وفي المنطقة الوسطى واصلت بونيورو تدهورها إلى أن انشقت عنها تورو وبالوولاند في العام ١٨٣٠، واختتمت بذلك حقبة طويلة من تاريخ منطقة البحيرات الكبرى بتشعباتها، وبحلول بداية القرن التاسع عشر برزت دولة بوجندا باعتبارها الدولة المتفوقة في القسم الأوسط من المنطقة، وتمتع ملكها بسلطة لا مثيل لها في تاريخ منطقة البحيرات^(٦).

(١) - اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، م٥، ص ٩٢٥-٩٢٧.

(٢) - الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج ٤، ص ٧٣.

(٣) - فاسلييف سافلييف، موجز تاريخ إفريقيا، ترجمة أمين الشريف، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ص ٢٩.

(٤) - والتر رودني، أوروبا والتخلف في إفريقيا، ترجمة أحمد القصير، عالم المعرفة، عدد ١٣٢، الكويت، ١٩٩٨، ص ٨١.

(٥) - Richard Gray, the Cambridge history of Africa, v4, from 1600 to 1790, Cambridge university press, 2008, p472.

(٦) - اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، م٥، ص ٩٠٩. ويدنر، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ص ١٢٦.

ب- النشاط الاقتصادي:

كان النشاط الاقتصادي الغالب لدى أكثرية سكان إفريقيا الشرقية هو الزراعة، وتربية الماشية^(١)، بيد أن كلا الفريقين: أهل الزراعة، وأصحاب المواشي لم يحاولوا في أي وقت أن يقصروا نشاطهم على مجال اقتصادي معين؛ لأن كل الأنشطة كانت عرضة للتقلب والتغير فكثيراً ما كان أهل الزراعة مثل اللو والأباغوسي يقتنون قطعاناً كبيرة من الماشية، بينما كان أصحاب المواشي مثل السامبورو وماساي وأروشا يمارسون بعض النشاطات الزراعية. ويذكر من أنصاف الرعاة الباراغويو والكالينجين والأكامبا. وكان الرعاة الرحل يسيطرون على معظم شرقي إفريقيا بفضل ما توفر لهم من سهولة التحرك، ومن التماسك السياسي، ومن الصحة والقوة المستمدتين من نظام غذائي غني بالبروتين قوامه اللبن والدم واللحم، ويمكن بحق وصف الجغرافيا الاقتصادية لداخل كينيا وتنزانيا في أواسط القرن الثامن عشر بأنها بحر من المراعي فيه جزر قليلة من الانتاج الزراعي. وكان الصيد نشاطاً مكماً للزراعة، وتربية الحيوانات الزراعية بوصفه مصدراً للطعام، وكوسيلة لحماية المحاصيل المزروعة. وتشير كثير من روايات شرقي إفريقيا إلى أهمية الصيد، ولاسيما عند الأقوام الفقيرة إلى الثروة الحيوانية. وبقي على جمع الثمار والبقول والفواكه، وعلى صيد الحيوانات البرية والطيور أقوام الساني والأوكييك والسانداوي^(٢). ولم يكن ينسب شأن كبير لأنشطة صيد السمك إلا عند الجماعات التي كانت تعيش على شواطئ البحيرات وشواطئ المحيط الهندي، وكان هؤلاء يصطادون أنواعاً كثيرة من الأسماك، ويبيعون السمك المجفف للأقوام البعيدة عن مناطق الصيد^(٣).

أما بالنسبة للصناعة فتدل أكثر الروايات على قدم معرفة سكان شرقي إفريقيا بشغل الحديد صهراً وتعديناً، ويعتقد أن البانتوهم من أدخلوها إلى شرقي إفريقيا، وذلك على الأرجح قبل الميلاد بستة قرون، وكانت الحدادة في العادة حرفة مقصورة على جماعات قليلة تضيف عليهم اعتبار عظيم، وتجلب لهم الثراء أحياناً، وتركزت المناطق الرئيسية لشغل الحديد في الشمال عند أقوام الها والزينزا، وكان يطلب إما في شكل معازق من أجل الأعمال الزراعية أو

(١) - دنيس بولم، الحضارات الإفريقية، ترجمة علي شاهين، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٤، ص ٧٢. كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٢٤٠-٢٤١.

(٢) - اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، م ٥، ص ٩١٤-٩١٨.

(٣) - Oliver, the Cambridge history of Africa, v3, p623-524.

نصال سكاكين ورؤوس فؤوس من أجل أعمال البناء وحرف أخرى، أو أسنة الرماح وسهام من أجل القنص وصيد الأسماك ومن أجل القتال^(١). وكان تبادل السلع ابتغاء النفع والانتفاع عادة إنسانية قديمة وجدت حتى في أبسط المجتمعات حيث وجدت صلات تجارية قديمة بين الكيكويو وجيرانهم الأكامبا والماساي، فكان الكيكويو يعرضون على الماساي أنواعاً شتى من المصنوعات كالقدور والرماح والسيوف والعسل والتبغ والمغرة إلى جانب المنتجات الزراعية، وكان الماساي يدفعون ثمن هذه السلع ماشية ولبناً وجلوداً ومعاطف جلدية^(٢). وفي المجتمعات التي تقيم على الحافة الشرقية لبحيرة فكتوريا وجدت أيضاً شبكة تجارية واسعة تربط بين مجتمعات مختلفة، وكان الأباغوسي واللوي أهم الشركاء في هذه التجارة فالأباغوسي يبيعون اللوي منتجات زراعية، وأدوات حديدية مثل الفؤوس والرماح والأقواس وأسنة السهام وجلود النمر التي تفيض بأنواع من سلع اللوي التي كانت الحيوانات الزراعية في مقدمتها. وفي تنزانيا كان النياموزي يتاجرون أيضاً بمنتجات الغابات كالقماش اللحائي والصناديق اللحائية والرماح والعسل وشمع العسل بين قراهم، وكانت هذه المنتجات مطلوبة بوجه خاص في الشمال، في بلاد الإيرامبا والسومبوا والسوكوما^(٣).

ج- الدين:

ساد في داخل الشرق الإفريقي قبل ظهور الإسلام والمسيحية عبادة الأصنام والظواهر الطبيعية؛ كعبادة الشمس والرعد والبرق والكواكب، وتقديس أرواح الأسلاف^(٤) مع الإيمان بوجود كائن أعلى مسيطر على الكون، إلا أنهم يختلفون اختلافاً كبيراً في تقدير سلطانه وقدرته على تصريف أمور الدنيا، وعرف هذا الكائن الأعلى في كينيا ومنطقة البحيرات باسم مولونجو، وكانت الفكرة السائدة بينهم هي أن هذا الإله يبعد بعداً شاسعاً عن العالم بحيث يصعب على

(١) - اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، م٥، ص٩١٨.

(٢) - اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، م٥، ص٩٢١.. Gray, the Cambridge history, v4, p493-494. - (٢)

(٣) - اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، م٥، ص٩٢٢.

(٤) - عبادة الأسلاف: كانوا يتوجهون بهذه العبادة إلى مؤسسي الجماعات الأوائل، وإلى الأبطال الذين كانت أعمالهم ما تزال تذكر فيما بينهم، وكانوا يؤمنون إيماناً ثابتاً بأن الموتى يهتمون كثيراً بما يفعله خلفاؤهم، وأنهم قادرون على مساعدتهم أو إلحاق الضرر بهم، كما كان بالإمكان التأثير عليهم بواسطة الابتهاال أو تقديم الأضاحي لهم. عن رالف لنتون، شجرة الحضارة قصة الإنسان منذ فجر التاريخ حتى بداية العصر الحديث، ترجمة أحمد فخري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠، ج٣، ص٦٩.

البشر التواصل معه؛ لذلك كانوا يتوجهون بالعبادة إلى من دونه من الآلهة، والمكلفون من قبله بالسهر على أمور هذه الأرض. وكانت أكثر آلهة قبائل البانتو آلهة صيد يقدمون إليها جزءاً من صيدهم كالجمجمة قرباناً لها. وأرواح الموتى مرهوبة الجانب لديهم؛ لذلك تقدم معظم القبائل القرايين لجثة الميت، ويتضرعون لها أن تتركهم وشأنهم مقابل تقديم ما يرضيها من قربانين^(١).

وكانت هذه المنطقة حتى نهاية القرن الثامن عشر تقوم بتنمية وتطوير حضارتها الذاتية بخطى ثابتة ولكن بطيئة، وذلك بمعزل عن التأثيرات الخارجية، ولكنها ما لبثت أن واجهت مع مطلع القرن التاسع عشر أحداثاً وظواهر جديدة، إذ تدفقت عليهم أمواج من العرب والأوروبيين وأخذوا يتوغلون في أراضيهم بمنتجاتهم ومظاهر ثقافتهم ودياناتهم مما ألحق بحضاراتهم التقليدية الكثير من الضرر، واندثر كثير من عاداتهم ومعتقداتهم العريقة، ولم تكن شعوب شرقي إفريقيا في تلك المرحلة مهيأة لمواجهة ذلك التحدي المفاجئ من الخارج؛ لذلك لم تستطع الصمود أمام السلطة المتعاضمة للأمم الصناعية في أوروبا القوية التي كانت قدراتها بحلول العام ١٨٠٠ تفوق بكثير قدرات الإفريقيين عامة^(٢).

ثالثاً- أهم رواد الرحلات في شرقي إفريقيا قبيل القرن التاسع عشر:

الرحلة لغوياً من يرخل رَحْلاً ورحيلاً وترحالاً. ورحلته من بلده أي أخرجه منها، وأرحل القوم أي انتقلوا، والراحلة هي الناقة، والرحل هو ما يحمله المسافر من المستلزمات. والرحلة هي الجهة التي يقصدها المسافر، والرحيل والارتحال بمعنى السفر والسير والانتقال^(٣). ونعني بالرحلة عامة السفر الذي يُسعى من ورائه إلى الاطلاع على آفاق جديدة من المناطق المجهولة، وطبائع شعوبها، وطرق معاشهم وأساليب حياتهم، وقد يصل الأمر بصاحبها إلى تسجيل وتدوين مشاهداته وما يتعلق بها في تقارير لتصبح وثائق تاريخية وجغرافية واجتماعية وثقافية عظيمة القيمة، وهكذا فالرحلة هي: عملية كشف النقاب عن المجهول من الأرض والناس. والرحالة في الأساس يمكن أن يكون مكتشفاً أو مغامراً أو عالماً أو رجل دين أو تاجراً، وتبعاً لهذا تحركه دوافع سياسية أو

(١) - هوبير ديشان، الديانات في أفريقيا السوداء، ترجمة أحمد حمدي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١، ص ١٧ - ٤٩.

(٢) - اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، م ٥٠، ص ٩٣٣.

(٣) - ابن منظور، لسان العرب، ت عبد الله الكبير، محمّد حسب الله، هاشم الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤، ج ٣، ص ١٦١٠ - ١٦١١. محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، دار الفكر، بيروت، م ٤، ص ٢٠١. أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، د. ط، د. ت، ص ٧.

اقتصادية أو علمية أو دينية^(١). ووفقاً لذلك نجد أن مرحلة العصور الوسطى ذخرت بالعديد من الرحالة سواء كان منهم العرب أو الأوروبيون الذين وفدوا إلى شرقي إفريقيا؛ لغايات وأهداف تختلف تبعاً للجهات التي أرسلوا من قبلها، وسوف نجمل بالآتي أهم هؤلاء الرحالة:

١- الرحالة العرب:

طُبع العرب منذ بداية تكوينهم على حب الرحلة والسفر، ولعل ذلك يعود للفقر الطبيعي الذي عُرفت به جزيرة العرب، فكان لزاماً عليهم التنقل والترحال في سبيل البحث عن مصادر رزقهم وتجارتهم وإغناء معرفتهم^(٢)، ومع ظهور الإسلام وانتشاره وتوسعه في أرجاء المناطق العربية ومحيطها بين المشرق والمغرب زادت أهمية المعلومات الجغرافية، وأصبح من الضروري معرفة الطرق التي تربط بين أرجاء هذه المناطق الواسعة مما جعل العرب يستشعرون منذ وقت مبكر بضرورة التعرف على أوضاع هذه الأمم التي حكموها، فضلاً عن ذلك الحصول على المعلومات الدقيقة عن الأقطار الأخرى المجاورة لها^(٣)، فبرز العديد من الرحالة الذين جابوا الآفاق سعياً للبحث والاطلاع والوقوف على ما في البلاد الأخرى من عجائب وغرائب، ومن أهم الرحالة العرب الذين وفدوا إلى شرقي إفريقيا:

أ- المسعودي ٢٨٧-٣٤٦هـ / ٩٠٠-٩٥٦م:

هو علي بن الحسين بن علي المسعودي، ولد في بغداد حوالي العام ٢٨٧هـ / ٩٠٠م، وينحدر من أسرة عربية عريقة تنتسب إلى الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود^(٤)، ويعد من أشهر الرحالة العرب، فضلاً عن كونه مؤرخ وجغرافي وفلكي وفقيه، وقد ذاع صيته في الشرق والغرب بفضل كتبه الموسوعية الحافلة بالمعارف والعلوم، ومن أهمها كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" الذي فرغ من تأليفه سنة ٣٣٦هـ / ٩٤٧م، ولقبه بعض المستشرقين بـ "هيرودوت

(١) - عمر علوي أمrani، أدب الرحلة والتواصل الحضاري، الرحلة كوثيقة من بين أقدم الوثائق المكتوبة في تاريخ المغرب القديم، جامعة المولى إسماعيل، مكناس، ١٩٩٣، ص ١٣. عن حسين محمد فهم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، عدد ١٣٨، الكويت، ١٩٧٨، ص ١٥.

(٢) - فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٢، ص ٢٥.

(٣) - عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دار الفكر، دمشق، ط ٣، ١٩٩٥، ص ٤٩.

(٤) - عبد الرحمن زكي، الجغرافيون والرحالة العرب وما كتبوه عن الساحل الإفريقي الشرقي في العصور الوسطى، بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، عدد ٣، ١٩٨٤، الرياض، ص ٣٦٣.

العرب"، وكانت وفاته في الفسطاط التي استقر فيها في آخر المطاف في العام ٩٥٦م^(١). وهب المسعودي حياته كلها للترحال والكتابة، وطاف خلالها في العديد من الأقطار، وركب البر والبحر، وجمع ثروة جغرافية وتاريخية عن شعوب البلاد التي مرّ فيها، وكان من أوائل الرحالة العرب الذين زاروا شرقي إفريقيا، وكتب عن تاريخ الأمم فيها معتمداً على ما شاهده بنفسه، فقد ركب البحر من عمان في العام ٩١٣م في سفينة يقودها عرب من جنوب الجزيرة العربية قاصداً شرقي إفريقيا، ووصل إلى الساحل، وتنقل فيه حتى جنوبه^(٢). وجاء في كتبه تفصيلات رائعة لرحلاته في شرقي إفريقيا فذكر أن العرب كانوا يعرفون سكان ساحل شرقي إفريقيا باسم الزنج الذين كانوا يعيشون فيما وراء أرض الأحباش في أرض يبلغ امتدادها نحو سبعمائة فرسخ أي ما يقارب (٢٥٠ ميل) من حد الخليج المتشعب من أعلى النيل إلى بلاد سفالة والواق واق - المسافة ما بين القرن الإفريقي وموزمبيق حالياً على وجه التقريب - وأخذ الزنج فيها دار مملكة ونصبوا عليهم ملك سموه "وقليمي" ويعني بلغتهم ابن الرب الكبير؛ لأنه اختاره لملكهم وليعدل فيهم فمتى جار عليهم في حكمه قتلوه، ويسمون الخالق ملكنجلو، ومعناه الرب الكبير. والغالب على أقوات الزنج المعيشية الذرة ونبات يقال له الكلاري يقطع من الأرض كالكمأة، وتضم أرضهم سهولاً وجبالاً وصحارى وغيابات مليئة بالأفيال، ودوابهم البقر وليس في أرضهم خيل ولا بغال ولا إبل ولا يعرفونها، وكذلك لا يعرفون الثلج والبرد، وإلى هذه المنطقة كانت تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين^(٣).

ب- ابن سعيد المغربي ٦١٠-٦٨٥هـ / ١٢١٣-١٢٧٥م:

ولد أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربي في غرناطة سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م في أسرة عريقة كان لأفرادها صلة بالملوك، وكان أبوه من أهل الأدب والتأليف^(٤)، تنقل بين مصر ودمشق وحلب، ويعد من أخصب الرحالة إنتاجاً على الرغم من كثرة أسفاره التي لم تنقطع، وكان نزوله في ساحل إفريقيا الشرقي سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م حيث قدم بعض

(١) - قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ص ٢١١. حسن عاصي، أبو الحسن المسعودي، المؤرخ والجغرافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٣، ص ٤٦-٥١.
(٢) - فليحة، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، ص ٢٠.
(٣) - المسعودي، مروج الذهب ومعادن، ت كمال مرعي، ٤ ج، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥، ج ٢، ص ١٤، ٦، ٧.
(٤) - حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٤٨٩.

المعلومات عن مدن الساحل الإفريقي كمالندي وممباسة ومقديشو بترتيبها من الشمال إلى الجنوب^(١)، ومن أشهر مؤلفاته كتابه "المغرب في حلى المغرب"، و"المشرق في حلى المشرق" وقد جمعهما في كتاب واحد كبير هو "فلك الأرب المحيط بحلى لسان العرب"^(٢).

ج- ابن بطوطة ٧٠٣-٧٧٩هـ / ١٣٠٤-١٣٧٧م:

أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي المشهور بابن بطوطة، ولد في طنجة في العام ١٣٠٤م، وينتسب إلى قبيلة لواته البربرية من أسرة عالية أتيح لكثير من أبنائها الوصول إلى منصب القضاء والنبوغ في العلوم الشرعية، ويعد من أعظم الرحالة المسلمين قاطبة، وأوسعهم شهرة، وأكثرهم طوافاً حتى سمي بشيخ الرحالين^(٣). بدأ ترحاله في العام ٧٢٥هـ/١٣٢٥ وهو في سن الثانية والعشرين من عمره، وقضى ثمان وعشرين سنة من حياته في أسفار متصلة ورحلات متعاقبة قام خلالها بثلاث رحلات جاب فيها أطراف العالم الإسلامي، والممالك المعروفة في زمنه، ودون رحلاته في كتابه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"^(٤) الذي تُرجم إلى معظم اللغات الأوروبية، وتحدث فيه ابن بطوطة عن البلدان التي زارها والشعوب التي عرفها، ومواقع البلدان والمسافات بينها، وعن أحداث من تاريخها، وعن العادات والتقاليد السائدة فيها والعلاقات بينها، كما وصف مظاهر العمران وألوان الحضارة، وتكاد تكون رحلاته دائرة معارف مصغرة للعصر الذي عاش فيه ابن بطوطة^(٥).

وصل ابن بطوطة خلال رحلاته إلى الساحل الشرقي لإفريقيا في العام ٧٣٢هـ/١٣٣٢ تقريباً^(٦). ومما ذكره في ذلك "وسافرت من مدينة عدن في البحر أربعة أيام ووصلت إلى مدينة زيلع وهي مدينة البرابرة وهم طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم صحراء مسيرة شهرين أولها زيلع وآخرها مقديشو، ومواشيهم الجمال ولهم أغنام كثيرة، ولها سوق عظيمة.. وسافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة ووصلنا إلى مقديشو، وهي مدينة متناهية الكبر، وأهلها لهم

(١) - زكي، الجغرافيون والرحالة العرب وما كتبوه عن الساحل الإفريقي الشرقي، ص ٣٦٥.

(٢) - قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ص ٤٥١.

(٣) - أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٣٦٩. فهيم، أدب الرحلات، ص ٢٢.

(٤) - الشاطر بصيلي، ابن بطوطة وشرق إفريقيا، مجلة نخضة إفريقيا، عدد ٥٥، ص ٩-١٠.

(٥) - ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج ١، ص ٩.

(٦) - فليحة، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، ص ٢٥.

جمال كثيرة .. وهم تجار أقوياء وفيها تصنع الثياب المنسوبة إليها التي لا نظير لها ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها... وسلطان مقدشو يقولون له الشيخ واسمه أبو بكر ابن الشيخ عمرو هو في الأصل من البرابرة وكلامه بالمقدشي ويعرف اللسان العربي"^(١).

ثم توجه بعد ذلك قاصداً بلاد الزوج باتجاه مدينة كلوا عن طريق البحر فوصل إلى ممباسة، ووجدها مدينة كبيرة تكثف فيها أشجار الموز والليمون والاترج، وأكثر طعام سكانها الموز والسّمك، وكانوا مسلمون شافعية المذهب أهل دين وعفاف وصلاح، وبات فيها ليلة ثم ركب البحر باتجاه مدينة كلوا؛ ووجدها مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها من الزوج شديدي السواد، وكانت على حد قوله من أحسن المدن وأتقنها عمارة في عصرها، والأمطار فيها كثيرة، وسكانها أهل جهاد لأنهم في بروج متصلة مع الزوج، وكانوا مسلمون على المذهب الشافعي، ويغلب عليهم الدين والصلاح، وكان سلطانهم في عهد وصوله إليهم هو أبو المظفر حسن، ويكنى أبا المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه، وكان كثير الغزو إلى أرض الزوج، يغير عليهم ويأخذ الغنائم، وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواهما"^(٢).

د- ابن ماجد ٨٣٦-٩٢٣هـ / ١٤٣٢-١٥١٧م:

هو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمر بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي ابن أبي الركائب، ولد بجفار على الساحل الجنوبي من الخليج العربي حيث تقوم إمارة رأس الخيمة الحالية، ولا يعرف تاريخ ميلاده بالتحديد، وينحدر من أسرة عملت بقيادة السفن فكان والده بحاراً ماهراً، كما كان جده من قبله متمكناً من علم البحار^(٣). وقد بلغ ابن ماجد في علم الفلك والملاحة ومسالك البحار ما لم يبلغه غيره ممن تقدمه أو عاصره، وخلف الكثير من القصائد والأراجيز التي اشتملت على معظم المعلومات النظرية والعملية التي تهتم الملاحين في البحر الأحمر والمحيط الهندي وبحر الصين، وجمع فيها خبراته الكبيرة التي اكتسبها في هذه البحار^(٤). ونُسب إليه إرشاده للبرتغاليين في العام ١٤٩٨ على الطريق

(١) - ابن بطوطة، تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ص ٢٦١-٢٦٢.

(٢) - ابن بطوطة، تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ص ٢٦٦.

(٣) - حسن شهاب، أحمد بن ماجد والملاحة في المحيط الهندي، مركز الدراسات والوثائق، الإمارات، ط ٢، ٢٠٠١، ص ٢٢-٣٠.

(٤) - حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٦١٦.

الطريق التي تصل إفريقيا الشرقية بالهند، ولكن لا يوجد من الحجج والبراهين ما يثبت ذلك^(١)، وقد تضمنت قصائده الكثير من المعلومات التاريخية كالأرجوزة المسماة السفالية (نسبة إلى سفالة من شواطئ إفريقيا الشرقية) التي تحوي وصفاً للساحل الإفريقي الشرقي، وما فيه من مدن كرأس غردفوي ومقديشو ممباسة وزنجبار، كما وردت فيها بعض المعلومات حول البرتغاليين وسيطرتهم على ساحل إفريقيا الشرقية مثل قوله:

وساحل البحر وكل جزره فحكمها للبرتغال الكفرة
والبرتغالي حكم الجميعا كفيت كل الشر والتصديعا
وجاء لكاليكوت خذ ذي الفائدة لعام تسعمائة وسنة زائدة^(٢).

٢- الرحالة الأوروبيين:

عندما بدأت حركة الكشف الجغرافية في القرن الخامس عشر لم يكن الأوروبيون يعرفون عن جغرافية إفريقيا أكثر من الحدود الساحلية لها، وامتدادها لمسافة قصيرة إلى الداخل في بعض المناطق المتفرقة^(٣)، وكانت معلوماتهم عن شرقي إفريقيا ضئيلة جداً، ويشوبها الكثير من الخرافات والقصص الخيالية^(٤)، ولما كان الهدف الأساسي من وراء تلك الحركة التي بدأتها البرتغال موجهاً بالدرجة الأولى للبحث عن طريق يصل إلى الهند حيث منابع تجارة التوابل لانتزاعها من أيدي التجار المسلمين^(٥)، فقد قام ملوك البرتغال - إضافة للحملات البحرية التي بدأوا بإرسالها جنوباً على طول ساحل إفريقيا الغربي - بإرسال العديد من الرحالة إلى البلدان الإسلامية الواقعة على تلك الطريق لجمع المعلومات عن أوضاع الشرق، ولمعرفة مصادر تجارة التوابل، وطرق التجارة عبر العالم الإسلامي، ولمحاولة الوصول إلى مملكة القس يوحنا^(٦)

(١) - شهاب، أحمد بن ماجد، ص ٤٣.

(٢) - حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٦١٩-٦٢٢.

(٣) - دافيدسن، إفريقيا القديمة تكتشف من جديد، ص ٥.

(٤) - رياض، استعمار إفريقيا، ص ١٦.

(٥) - الشيخ، إفريقيا في التاريخ المعاصر، ص ١٥.

(٦) - القس يوحنا: تعد قصة الراهب يوحنا من أكثر التصورات الخيالية إلحاحاً على الأذهان في العصور الوسطى، وقد اخترعت هذه القصة على يد بعض الرهبان لرفع المعنويات الدينية لدى القوى والشعوب الأوروبية، وكانت تنطوي عن وجود راهب وملك مسيحي يحكم في الشرق كان بانتظار وصولهم ليضم قواته إلى العالم المسيحي الأوروبي، وأصبح لقب الراهب يوحنا يطلق على حاكم أي مملكة مسيحية تكتشف في الشرق، وحددت هويته في وقت لاحق على أنه ملك أثيوبيا أو الحبشة،

للتحالف معها ضد المسلمين^(١)، ومن أهم الرحالة الذين وفدوا إلى شرقي إفريقيا الآتي:

أ- رحلة بيدرو دي كوفلهاو (pedro de covlhao) في العام ١٤٨٧:

في الوقت الذي أرسل فيه ملك البرتغال جون الثاني (١٤٨١-١٤٩٥) بارتلمي دياز على رأس حملة بحرية متتبعاً ساحل إفريقيا الغربي باتجاه ساحلها الشرقي في العام ١٤٨٧، قام بإرسال أثنان من رجاله يتحدثان العربية، وينتحلان أسماء وأزياء عربية على رأس بعثتان باتجاه الشرق، كانت الأولى بقيادة بيدرو دي كوفلهاو^(٢)؛ وتهدف إلى التعرف على الطرق التي يسلكها العرب المسلمون إلى جزر الهند الشرقية، والثانية بقيادة الفونسو دي بايفا؛ وتهدف إلى عبور إفريقيا من شمالها الشرقي والوصول إلى مملكة الحبشة، وسافر الرجلان سوياً من مصر عن طريق البحر الأحمر إلى عدن وافتقرا هناك^(٣). وتمكّن الرحالة بيدرو دي كوفلهاو من الوصول إلى كاليكوت على الساحل الغربي للهند التي كانت مركزاً لتجميع حاصلات الصين وجزر الهند من توابل وحرير وخزف ثم تنقل بين الخليج العربي وشرقي إفريقيا، وفي طريق عودته قام بزيارة معظم المدن الإسلامية الواقعة على الساحل الشرقي لإفريقيا حيث مرّ بمدينة زيلع ثم أتجه جنوباً مروراً بمقديشو وماليندي وممباسا وزنجبار وكلوة ومصب نهر الزامبيزي حتى وصل إلى سفالة^(٤). وفي العام ١٤٩٠ توجه كوفلهاو شمالاً ليقابل بايفا في القاهرة، ولكن وجده قد توفي هناك، وحمل إليه رسل الملك جون أمراً بمواصلة مهمة بايفا، وتمكّن فعلاً من الوصول إلى البلاد الأثيوبية حيث لم يعثر للقس يوحنا على أي أثر واحتجزه ملك الحبشة ولم يسمح له

وكانت هذه الأسطورة إحدى الدوافع التي شجعت الأوروبيين، ولاسيما البرتغاليين للبحث عن طرق جديدة نحو الشرق للوصول إلى مملكة الراهب يوحنا، ناهيك عن الثروات الدنيوية. عن هول، إمبراطوريات الرياح الموسمية، ص ١٨٩-١٩٢.

(١) - السديس، العثمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقيا، ص ٨٣-٨٦.

(٢) - دي كوفلهاو: جاسوس برتغالي شديد الذكاء وبارع في اللغات، ولد في بلدة كوفيلهاو الجبلية القريبة من الحدود مع إسبانيا، أرسله الملك جون الثاني سفيراً إلى المغرب لاسترداد وفاة الأمير فرناندو الذي قضى نحبه في زنزانة مغربية بعد أسره في طنجة في العام ١٤٣٧، وسمحت له الفترة التي أمضاها في المغرب بتعلم اللغة العربية ودراسة طريقة حياة المسلمين، وأرسله الملك جون في رحلة إلى الشرق للبحث عن الطرق المؤدية إلى بلاد التوابل، ووصل في ترحاله في آخر المطاف إلى الحبشة التي لم يستطع أن يغادرها أبداً. عن هول، إمبراطوريات الرياح الموسمية، ص ٢٠١.

(٣) - عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٠، ص ١٤٥-١٤٧.

هول، إمبراطوريات الرياح الموسمية، ص ٢٠٠.

(٤) - فاروق عثمان أباطة، أثر تحول التجارة العالمية الى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٤، ص ٣٩-٤٠.

بالعودة^(١)، وعلى أية حال مهدت جهود الرحالة بيدرو دي كوفلهاو السبيل أمام فاسكو ديغاما، وكانت المعلومات التي أوردها أساساً للرحلة التي قام بها ديغاما حول رأس الرجاء الصالح في العام ١٤٩٧، ووصل خلالها إلى الإمارات العربية في شرقي إفريقيا ثم الهند^(٢).

ب- رحلة القس بيدرو بيز في العام ١٦٠٣ وجيروم لوبو في العام ١٦٢٢:

بعد نجاح البرتغاليين في الوصول إلى الهند والسيطرة على الطريق التجاري أنشأوا عدداً من المراكز التجارية على طول الطريق المؤدي إلى الهند، وعلى طول الساحل الشرقي لإفريقيا؛ لتأمين طريقهم التجاري، وبدأوا بالتوغل إلى داخل القارة حيث أصبحت الحبشة هدفاً لنشاطهم التبشيري، وكان من بين من وصلوا إليها رحالة مشهورين من أمثال القس بيدرو بيز (Pedro Baz) وجيروم لوبو (j. lebo)^(٣). كان بيدرو بيز شخصية بارزة قام برحلته إلى الحبشة في العام ١٦٠٣، ولكنه وقع أسيراً بيد العرب لبضع سنين تمكن بعدها من الوصول إلى الحبشة، وحققت بعثته نجاحاً كبيراً تمثل في تحول امبراطور الحبشة وحاشيته للعقيدة المسيحية على المذهب الكاثوليكي الروماني، كما تمكن من الوقوف على منابع النيل الأزرق المتمثلة بحيرة تانا الذي يسبب فيضان النيل^(٤).

أما عن جيروم لوبو فقد قام برحلته في العام ١٦٢٢، وحاول اكتشاف طريق جديد يصل الحبشة بالهندي حيث تتبع في هذه الرحلة الساحل الشرقي لإفريقيا في المنطقة المحصورة بين جزيرتي باته ونهر جوبا ولكنه لم ينجح في ذلك^(٥)، وقد عاود الكرة سنة ١٦٢٥ فاختار طريقاً جديداً يبدأ من ميناء صغير على ساحل البحر الأحمر، وصعد الحافة الشرقية الوعرة حتى وصل إلى بحيرة تانا التي تُعد منبع النيل الأزرق، وسجل وصفاً دقيقاً للبحيرة والرافد الذي ينساب إليها، ولصورة الفيضان، وارتفاع المناسيب التي تترتب على زيادة المطر في موسم الصيف^(٦).

(١) - إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ص ١٤٥-١٤٧.

(٢) - الجمل، إبراهيم، تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم، ص ١٧-١٨.

(٣) - كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٣٨-٣٩.

(٤) - آلان مورهد، النيل الأزرق، ترجمة إبراهيم أبو الريش، دار الثقافة، بيروت، ط ١، ١٩٦٩، ص ٥٤-٥٥.

(٥) - هريدي، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص ٥١-٥٢.

(٦) - صلاح الدين الشامي، نهر النيل دراسة جغرافية تحليلية، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٩٥، ص ٥٠-٥١.

ج- رحلة شارل بونسيه في العام ١٦٩٩ وثيرودور كرمب في العام ١٧٠١:

لم تقتصر الرحلات فيما قبل القرن التاسع عشر على الرحالة البرتغاليين فقد أذكت المحاولات البرتغالية الحماس والاهتمام في نفوس الأوروبيين في القرن الثامن عشر الميلادي، وما من شك في أن فرنسا كانت قد بدأت في توجيه اهتمامها منذ أواخر القرن السابع عشر بهذه المنطقة^(١)، ففي العام ١٦٩٩ وصل إلى الحبشة فريق من المبشرين كان بصحبته طبيب فرنسي يدعى تشارل بونسيه (Charles Poncet)، وعين سفيراً من قبل ملك فرنسا لويس الرابع عشر (١٦٤٣-١٧١٥)، وكان بونسيه قد بدأ رحلته من القاهرة إلى السودان، ومرّ من خلال مدينة سنار عاصمة إمبراطورية الفونج الواقعة على النيل الأزرق، ووصل إلى العاصمة غندار، ووصف بونسيه رحلته كما وصف أيضاً مدينة سنار وشعبها^(٢)، وتمكّن هناك من معالجة الإمبراطور إياسو (Iyasou) (١٦٨٢-١٧٠٦) من مرض أصابه^(٣)، ولكنه ما لبث أن غادرت تحت تأثير الإحساس بالعداء الشديد، وقد حاول أن يصلها مرة أخرى بطريق البحر الأحمر ولكنه فشل في تحقيق أهدافه التي جمعت حول توسيع دائرة المعرفة الجغرافية بالحبشة^(٤). ووصل إلى هذه المنطقة في عام ١٧٠١ مبشّر من بافاريا يدعى ثيودور كرمب، وكان قد سلك الطريق نفسه الذي سلكه بونسيه حيث مرّ من خلال مصر فالسودان ثم سنار وقام بوصف سنار أيضاً ثم عبر النهر وسافر إلى غندار عاصمة الحبشة الواقعة إلى الشمال من بحيرة تانا، وأعقب ذلك فترة من الركود الكشفي الطويل، ومرّ نحو سبعون عاماً قبل أن يرى أوروبي آخر منبع النيل الأزرق^(٥).

د- رحلة فريدريك نوردن وريتشارد بوكوك في العام ١٧٣٧:

في عام ١٧٣٧ قام كل من الدانيماركي فريدريك لويس نوردن (Frederic Louis Norden)، والإنجليزي ريتشارد بوكوك (Richard Pococke) برحلة منفردة انطلاقاً من القاهرة؛ بهدف استكشاف منابع النيل، ولكنهما لم يتمكنوا من التوغل إلى أكثر من الشلال الأول، وقد تمكّن نوردن من أن يستخلص مجموعة رائعة من الرسومات والنحوت، وبعض الآثار الفرعونية،

(١) - الشامي، نهر النيل، ص ٥٢.

(٢) - كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٣٨-٣٩.

(٣) - زاهر رياض، تاريخ إثيوبيا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، ١٩٦٦، ص ١٠٧-١٠٨.

(٤) - الشامي، نهر النيل، ص ٥٢.

(٥) - كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٣٩.

ولكن لم يتمكن أي من السائحين من أن يقوموا بأكثر من تسليط الضوء على مغامرتهم الشخصية في هذه المنطقة^(١)، وكانت نتائج هذه الرحلات كلها مفيدة وقيمة على اعتبار أنها وجهت أهم رحلة في القرن الثامن عشر إلى الهضبة الحبشية وهي الرحلة التي قام بها الاسكتلندي جيمس بروس التي اعتبرت البداية الحقيقية التي عبّرت عن الرغبة الملحة السائدة في أوروبا للكشف عن منابع النيل^(٢).

هـ- رحلة الاسكتلندي جيمس بروس (James Bruce) في العام ١٧٦٨-١٧٧٣:

بدأت منذ أواخر القرن الثامن عشر المحاولات الفعلية للرحالة الأوروبيين لاستكشاف منابع النيل، وكان في طليعة أولئك الرحالة الاسكتلندي جيمس بروس الذي حظي بشهرة كبيرة فيما بعد نتيجة لاستكشافاته^(٣). ولد جيمس بروس عام ١٧٣٠ في مقاطعة كنيارد التابعة لإسكتلندا، والتحق بجامعة أدنبرة لدراسة القانون، ثم عاد بعد ذلك إلى لندن، وتولى وظيفة في شركة الهند الشرقية^(٤). وبعد وفاة زوجته اتجهت أفكاره صوب قارة إفريقيا التي كانت لا تزال أجزاء كثيرة منها غير معروفة للعالم؛ ولأسيما الغموض الذي خيم على نهر النيل، فبدأ بتجهيز نفسه للرحلة والاستكشاف، وقضى سنوات عدة في السفر والدراسة؛ فتعلم اللغة الأمهرية، ودرس فن العمارة والرسم، وفي عام ١٧٦٣ عينته الحكومة البريطانية قنصلاً لها في الجزائر تعلم خلالها اللغة العربية تحضيراً للرحلة المرتقبة، فضلاً عن تعلمه مهنة الطب تعلماً كافياً، كما قام بشراء بعض

(١) - مورهد، النيل الأزرق، ص ٣٥.

(٢) - الشامي، نهر النيل، ص ٥٣-٥٥.

(٣) - جلال يحيى، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، ١٩٩٩، ص ٢٢٠.

(٤) - شركة الهند الشرقية الإنجليزية: كانت نواة هذه الشركة؛ الهيئة التي تكونت في لندن في العام ١٥٩٩ تحت اسم اتحاد التجار المغامرين؛ بهدف الاتجار مع الشرق، وحصلت الشركة على الامتيازات من الملكة اليزابيث الأولى في العام ١٦٠٠، وتأسست تحت اسم "حاكم وشركة تجار لندن للتجارة في جزر الهند الشرقية"، وبدأت على الفور بالتنافس مع البرتغاليين ثم الهولنديين في الهند، ومن ثم راحت تحاول اكتساب مناطق أو أقاليم تتبع للتاج البريطاني، ولأسيما بعد تفكك الدولة المغولية التي حكمت الهند ووحدها سياسياً لمدة مائتي عام تقريباً في بداية القرن الثامن عشر، وتوسع النفوذ الإنجليزي بعد ذلك سريعاً، وكان لهذه الشركة دوراً رئيساً في احتلال الهند، وتدمير الصين، وتخريب ونهب البصرة، وأخضعت لهيمنتها مدناً عديدة في اليابان وسنغافورة وغيرهما، وحكمت هذه الشركة الهند حتى العام ١٨٥٨ حيث حلت الحكومة الإنجليزية محلها في السيطرة على الهند. عن نك روبينز، الشركة التي غيرت العالم، ترجمة كمال المصري، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٩، ص ١٠-٣٩، ١١. نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند ١٦٠٠-١٨٥٧، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة، ١٩٩١، ص ٣٤-٤١.

الأجهزة العلمية التي تضمنت التلسكوب، وجهاز كبير لقياس الارتفاع والزوايا، وكاميرا متنقلة للتصوير، وفي عام ١٧٦٨ تسلم بروس من حكومة إنجلترا التصريح كي يبدأ رحلته فغادر الجزائر متجهاً إلى الاسكندرية حيث بدأت رحلته^(١).

ومن مصر بدأ بروس رحلته متخفياً في زي عربي كونه يتكلم اللغة العربية بطلاقة، وحصل فيها على كتب توصية من بكوات الممالك ولاسيما علي بك إلى الشخصيات المهمة في سواحل البحر الأحمر والحبشة لتسهيل رحلته^(٢) ثم سار مقتفياً آثار كل من بوكوك ونوردن على طول نهر النيل حتى بلدة أسوان، ثم غير طريقه؛ بسبب الحروب القبلية القائمة في المنطقة مخترقاً الصحراء الشرقية حتى البحر الأحمر، وأبحر إلى جدة حيث أمد له القنصل الإنجليزي فيها يد العون لإتمام رحلته، ثم عبر البحر ثانياً إلى مصوع على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر، ومنها أخذ طريقه إلى داخل الحبشة^(٣)، وكانت حملته مكونة من عشرين رجلاً مع عدد من الحماليين كانت مهمتهم أن يحملوا مزولة ضخمة، وعدداً من الآلات العلمية، وتمكّنوا من اجتياز السهل الساحلي، ثم أخذوا في الصعود عبر الدروب الجبلية إلى أن وصلوا مدينة عدوة، وواصل بروس طريقه حتى وصل إلى غندار قاعدة الحكومة في ذلك الوقت في منتصف شباط عام ١٧٧٠ بعد مضي خمسة وتسعين يوماً على مغادرتهم مصوع، واستقر بروس في منزل بحي المسلمين^(٤)، وتصادف وجوده مع انتشار وباء الجدري في العاصمة الأثيوبية، وتمكّن بروس من إنقاذ حفيد الملك من ذلك المرض فكسب ثقة الملك مما ساعده على التجول في البلاد بسهولة، وتمكّن في العام ١٧٧٠ من زيارة منابع النيل الأزرق بدءاً بنهر آباي؛ وهو نهر صغير ينبع على مسافة ١١٠ كم إلى الجنوب من بحيرة تانا، كما رأى نقطة خروج النيل الأزرق من هذه البحيرة، وسقوطه في شلالات تسيسات على بعد ٣٢ كم؛ واقتفى أثر النيل الأزرق داخل بلاد الحبشة، وسار معه حتى التقائه بالنيل الأبيض، ثم سافر بعد ذلك عبر النوبة إلى مصر ثم إلى بلاده^(٥). وقد استغرقت

(١) - كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٥١-٥٣.

(٢) - James Bruce, travels to discover the source of the Nile, in the years 1768-1873, Edinburgh, London, v1, p39-40.

(٣) - محمد محي الدين رزق، إفريقيا وحوض النيل، مكتبة عطايا، القاهرة، ط ٢، ١٩٣٤، ص ٨٠-٨١.

(٤) - مورهد، النيل الأزرق، ص ٤٥-٤٦.

(٥) - إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ص ١٦٤-١٦٦.

رحلته قرابة ٣ سنوات امتدت من سنة ١٧٧٠ إلى سنة ١٧٧٣، ونشر بروس وصفاً كاملاً لرحلاته في خمس مجلدات صدرت في العام ١٧٩٠ تحت عنوان: (رحلات لكشف منابع النيل في سنوات ١٧٦٨-١٧٧٣)،

"Travels to Discover the Source of the Nile, in the years 1768-1773"

تناول فيها أحوال الحبشة، وتعرض لعادات سكانها، وللنظام السياسي فيها، والواقع الاجتماعي، كما قدم وصفاً لمناظرها الطبيعية مبيناً بخرائط توضيحية مجرى النيل الأزرق وعطبرة، وأعطى وصفاً كاملاً لبحيرة تانا والجزر التي تنتشر فيها. فضلاً عن أنه قدم صورة عن حياة السكان في كل الممالك التي تجول فيها^(١)، وقد اعتقد بروس أنه كشف منابع النيل في حين أنه لم يتوصل سوى لكشف جزء ضئيل منها، ومع ذلك فقد اكتسبت رحلته هذه أهمية علمية جغرافياً وتاريخياً؛ فهي من المصادر الأصلية التي يمكن للباحث المتخصص أن يعتمد عليها في دراسة أحوال هذا الإقليم في القرن الثامن عشر، ويمكن القول أن بروس كان أول مستكشف علمي لبعض مناطق إفريقيا، وبهذه الطريقة يكون قد فتح آفاقاً جديدة للرحالة الذين جاءوا من بعده.

(١) - كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٨٢.

نتائج الفصل الأول:

يمكن إيجاز أبرز النتائج التي نستقيها من هذا الفصل بما يلي:

١- الموقع الجغرافي البارز والأهمية الاستراتيجية والتاريخية التي تمتعت بها منطقة شرقي إفريقيا عبر مراحل تاريخها.

٢- تنوع الطبيعة الجغرافية لشرقي إفريقيا بما تحتويه من جبال وأنهار وبحيرات وجزر والتي كانت من أهم الموضوعات التي ركز عليها الرحالة الأوروبيون خلال رحلاتهم، لاسيما نهر النيل ومنابعه.

٣- تشعب الخارطة السكانية لشرقي إفريقيا؛ إذ تحتوي على عدد كبير من القبائل والعشائر التي تنتمي إلى أصول عرقية وأثنية مختلفة (البانتو- الحامية - النيلية).

٤- المستوى الاقتصادي الرفيع، والحضارة المزدهرة التي حظيت بها ممالك ومدن الساحل الإفريقي الشرقي خلال فترة العصور الوسطى، والدور التجاري المهم الذي قامته به على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب. على خلاف الوضع الذي كان قائماً في الداخل الإفريقي الذي غلب عليه عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي نتيجة حركات الهجرة التي شهدتها المنطقة والحروب الداخلية وفترات القحط الطويلة والمجاعات، لكنها عرفت مع ذلك أنماطاً من التنظيم الاجتماعي والسياسي فيها تمحورت حول المجالس العائلية والقروية والعشائرية، كما عرفت دولاً وممالك ذات نظم مركزية كان أشهرها مملكة كيتارا التي انقسمت فيما بعد إلى دويلات وممالك عدة.

٥- الموقع المهم والبارز لشرقي إفريقيا الذي جعل منها مقصداً للرحالة والمغامرين في مختلف العصور، إذ وصلها العديد من الرحالة العرب منهم والأجانب.

٦- رغم التقدم الاقتصادي الذي تميزت به مدن وممالك الساحل الإفريقي الشرقي خلال العصور الوسطى ولاسيما التجاري، إلا أنهم لم يواكبوا التطورات العالمية في النظم الاقتصادية، ولم يحققوا تقدماً يذكر في جمع الثروات المادية في المنطقة بل حافظوا على نمط الاقتصاد التبادلي التقليدي، وعلى المتاجرة بالسلع التي كانت رائجة آنذاك، وهذا ما جعلهم يتأخرون عن الأوروبيين الذين سبقوهم في هذا المجال، وسعوا لاستعمار المنطقة واستثمار ثرواتها وخيراتها عندما اتحت لهم الفرصة، وبذلك تقدمت أوروبا وتراجع الدور الاقتصادي لسكان تلك البلاد بما فيهم العرب.

الفصل الثاني

التطورات السياسية والاقتصادية على الساحة الأوروبية في القرن التاسع عشر ودوافع رحلات الكشف العلمي إلى منطقة شرق إفريقيا.

كان للقارة الأوروبية رغم مساحتها الضيقة نفوذاً واسعاً وقوة حاضرة في مختلف أنحاء العالم في العصر الحديث، وكان ذلك بسبب توسعها الذي مكّنها من صياغة صور المجتمعات القديمة في كل من آسيا وإفريقيا. فالأوروبيون رغم فرقتهم كان عندهم خارج أوروبا عاطفة تضامن ساعدتهم على أن يكون لهم نفوذ جماعي على شعوب القارات الأخرى، وبدأ هذا التوسع في القرن السادس عشر مع بداية الاكتشافات الجغرافية التي كانت تهدف أولاً إلى تنمية العلاقات التجارية، وثانياً إلى البحث عن طرق للوصول إلى السلع والمواد التي كانت أوروبا بحاجة لها، واستمر نمو هذا التوسع باضطراب حتى قيام الحرب العالمية الأولى، وساهم في ذلك التنافس بين الدول الأوروبية التي فهمت وأدركت نفع المؤسسات الاستعمارية التي مكّنتها من اقتسام مناطق النفوذ في العالم، ولاسيما إفريقيا، وربط مقدراتها بعجلتها. وحتى وصلت أوروبا إلى تلك المرحلة كانت قد شهدت على ساحتها جملة من المتغيرات على الصعيد كافة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية.

أولاً- أهم التطورات الاقتصادية والسياسية على الساحة الأوروبية في القرن التاسع عشر: بدأت الاتصالات الأوروبية مع ساحل شرقي إفريقيا في العصور الحديثة منذ مطلع القرن السادس عشر ممثلة بالحملة الكشفية التي أرسلتها البرتغال؛ والتي كان الهدف منها الوصول إلى الهند. وانفردت البرتغال بالسيطرة على هذا الساحل قرابة قرنين من الزمن، ولم تجد آنذاك من ينافسها من القوى الأوروبية، واستمرت في سيطرتها عليه حتى أواخر القرن السابع عشر إلى أن تم إجلائهم على يد اليعاربة من عمان، وانحصر الوجود البرتغالي في ساحل موزمبيق فقط، ولكن ما لبث أن دخلت كل من هولندا وإنجلترا^(١) وفرنسا في هذا المجال، وسعت هذه القوى للحصول على بعض المراكز والمحطات على ساحل شرقي إفريقيا؛ لغرض القيام بالمبادلات والمعاملات التجارية، ولخدمة طرق المواصلات المؤدية إلى الهند والشرق الأقصى؛ وهو الهدف الرئيس لتلك القوى في تلك المرحلة. وتركز نشاط هذه المحطات حول التعامل في السلع العديدة

(١) - كانت إنجلترا منذ مطلع القرن التاسع عشر الموجه الرئيس للسياسة الأوروبية تجاه شرقي إفريقيا، وبالتحديد منذ ترعّمها حركة إلغاء تجارة الرقيق، وفرضها الرقابة وحق التفتيش على جميع السفن العابرة للمحيط الهندي، فضلاً عن المعاهدات التي وقعتها مع سلطان مسقط وزنجبار التي حظرت بموجبها تجارة الرقيق في شرقي إفريقيا؛ لذلك تم التركيز على التطورات السياسية والاقتصادية على الساحة الأوروبية ولاسيما ما يخص إنجلترا التي دفعتها لبسط نفوذها على شرقي إفريقيا، ومن ثم دعمها لرحلات الكشف العلمية إلى داخل الشرق الإفريقي.

التي تنتجها القارة وكان من أهمها الذهب والعاج، إضافة إلى تجارة الرقيق^(١). ونتيجة لما سبق ذكره لم يكن التأثير الأوروبي في شرقي إفريقيا قوياً بل بقي سطحياً، ومقتصرًا على هذه المراكز الساحلية، في حين ظل العالم الداخلي لتلك القارة غامضاً بالنسبة لأوروبا حتى أواخر القرن الثامن عشر، واقتصرت معلومات الأوروبيين عنه على التخمينات والفرضيات^(٢). ولكن ما كاد هذا القرن يوشك على الانتهاء حتى بدأ الأوروبيون، ولاسيما الإنجليز بتشجيع رحلات الاستكشاف والتوغل إلى داخل القارة، ولم يكن ذلك محض صدفة بل كان له أسبابه ومبرراته بالنسبة للسياسة الأوروبية تجاه هذا التوجه الجديد نحو إفريقيا. إذ شهدت القارة الأوروبية منذ أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر جملة من المتغيرات التي طالت كل جوانب الحياة فيها، وانعكست نتائجها على القارة الإفريقية، وأدت إلى تغيير وجهها وجعلتها نهياً للدول الأوروبية^(٣)، ولا يمكن فهم هذه المتغيرات إلا بدراسة أصولها ونشأتها ومن ثم تطورها خارج القارة الإفريقية وعلى الساحة الأوروبية.

كانت أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية في تلك المرحلة تعيشان مرحلة مخاض جديد أسفرت عن أحداث مهمة دفعت بإنجلترا أولاً، ومن ثم بقية الدول الأوروبية للتوجه على هذا النحو. ففي أواخر القرن الثامن عشر كانت أوضاع أوروبا قد تغيرت عما كانت عليه في مطلع عصر النهضة، ليس فقط من حيث ظهور دول جديدة، مثل الأراضي المنخفضة (هولندا) وروسيا وبروسيا، ولكن من حيث النمو الكبير في القدرات الاقتصادية والعسكرية لبعض الدول، وتفوقها على دول كان لها المكان الأول في أوروبا، فإيطاليا تحولت إلى إمبراطورية مترامية الأطراف، وأصبحت صاحبة أكبر أسطول محيطي، تفوقت به على إسبانيا والبرتغال وفرنسا وهولندا^(٤). كما بدأ يظهر تغير كبير في الاقتصاد الأوروبي في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ترك أثره على علاقات الإنتاج الموجودة فيها بشكل واضح؛ إذ استخدمت الآلات البخارية مكان الأيدي العاملة في الصناعة، كما استخدمت الآلات والمخترعات الحديثة لتحسين إنتاج

(١) - الحريري، جغرافية القارة الإفريقية، ص ٦٣-٦٤.

(٢) - رينيه كلوزيه، تطور الفكر الجغرافي، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٨٢، ص ٨٧.

(٣) - الشيخ، متولي، إفريقيا في العلاقات الدولية، ص ٨١.

(٤) - عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٢٨٣.

الأراضي^(١)، وكان التقدم العلمي ولاسيما في العلوم الفيزيائية أساس هذه التغيرات والتحويلات التي بشرت بعصر جديد في تاريخ الإنسانية، بدأ بثورة اقتصادية كان لها انعكاساتها في تحويل مجرى تطور كل نواح الحياة فيها^(٢).

وقد حدث كل ذلك في الوقت نفسه الذي انتشرت فيه آراء المفكرين والفلاسفة في أوروبا، وظهرت فيه الإمكانيات الضخمة أمام الطبقة الوسطى أو البرجوازية، وظهرت المذاهب الإنسانية التي نادى بالمساواة بين البشر، ولا شك أن مثل هذه الأفكار كانت تؤثر على تجارة الرقيق التي كانت تمثل أبشع صور استغلال الإنسان لأخيه^(٣). ويمكن إجمال أهم التطورات الكبرى التي شهدتها الغرب الأوروبي، وأحدثت تغييراً كبيراً على مختلف المستويات العالمية بالآتي:

١- الثورة الصناعية:

شهدت أوروبا الغربية منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر حدثاً جديداً وصف بأنه أهم تحول في تاريخها الحديث والمعاصر، وهو ما عرف بالثورة الصناعية، وارتبط مفهوم هذه الثورة بما شهدته أوروبا الغربية من تحول في قوة البخار والتكنولوجيا الجديدة في الإنتاج الصناعي^(٤)، وقد كانت المواد النسيجية الأكثر أهمية فيها، ويعود الفضل في ذلك إلى الابتكارات الجديدة في قطاعي الغزل والنسيج^(٥). ويمكن القول أن الفحم والبخار قد صبغا معاً كل جوانب التصنيع في القرن التاسع عشر، فضلاً عن تشييدهما لحضارة الحديد في القرن التاسع عشر؛ إذ كان الفحم هو الوقود المتاح لصهر خام الحديد وتوليد البخار على السواء، وأستخدم الحديد المصهور في بناء محركات بخارية أقوى وسكك حديدية أكبر^(٦). كما أدى استخدام البخار في

(١) - محمد قاسم، حسين حسني، تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا منذ عهد الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العظمى، دار الكتب المصري، القاهرة، ط ٦، ١٩٣٩، ص ١-٢.

(٢) - نور الدين حاطوم، تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا والعالم، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٩٥، ج ٢، ص ٣٩٧.

(٣) - يحيى، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص ١٩٦.

(٤) - جي. إم. بلاوت، نموذج المستعمر للعالم الانتشار الجغرافي وتاريخ المركزية الأوروبية، ترجمة هبة الشايب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط ١، ٢٠١٠، ج ١، ص ٣٠٩.

(٥) - ريغوري كلارك، الاقتصاد العالمي نشأته وتطوره ومستقبله، ترجمة أمين الأيوبي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٣١١.

(٦) - كافين رايلي، الغرب والعالم، ق ٢، ترجمة عبد الوهاب المسيري، عالم المعرفة، الكويت، ع ٩٧، ١٩٨٦، ص ١٢٣.

وسائل النقل الداخلي والخارجي إلى تقريب المسافات، وسهولة نقل السلع التجارية من أوروبا إلى خارجها وفيما بين دول القارة، ونقل الأفراد من وإلى المستعمرات فيما وراء البحار، وساعد على ربط الموانئ بالمناطق الصناعية وأماكن المواد الخام، الأمر الذي أدى إلى خلق ثورة تجارية رافقت الثورة الصناعية^(١).

كما أدت الثورة الصناعية إلى تحرر قوى الإنتاج البشري في القارة الأوروبية وفقاً لتطور النظام الاقتصادي فيها، وعلى نحو سمح بتعدد وتضاعف الخدمات والبضائع بشكل لم يسبق له مثيل، وترافق ذلك مع التطور في المجالات المختلفة اجتماعياً وفكرياً. وبدأ الإنسان يتحول من القرى إلى المدن الكبرى، ومن العمل اليدوي إلى استخدام الآلات، ومن المصانع المحلية إلى المصانع الكبرى في مختلف الصناعات، وتوالت هجرة المزارعين من القرى إلى المراكز الصناعية الكبرى^(٢)، حتى أنه لم يكد ينقضي الربع الأول من القرن التاسع عشر حتى كانت الثورة الصناعية آخذة في الاستقرار، وبدء عصر الإنتاج الحديث.

وسبقت إنجلترا بما يربو على نصف قرن سائر بلاد أوروبا بثورتها الصناعية، واتخاذها طابع الدولة الحديثة ذات المستوى العالي في الإنتاج الصناعي، ولم يشهد العالم من قبل مثيلاً لهذا المشهد الذي مثلته إنجلترا من الاختراع والابتكار، مشهد المواصلات التي أصبحت سريعة، والمصانع التي ازدحمت بالآلات الموفرة للجهد الإنساني، ومشهد المدن الضخمة^(٣). وجاءت أسبقية إنجلترا لكونها أول أمة قومية في أوروبا إنهار فيها النظام الإقطاعي فأتيح للعمال الحرية في الانتقال من المزارع إلى المصانع، إضافة لما تمتعت به من استقرار سياسي، ونظم ديمقراطية ونيابية، فشككت بذلك بيئة جذب أمام الراغبين بالاستثمار، ولاسيما من العمال المهرة الهولنديين والفرنسيين، ومن أنحاء أوروبا كافة؛ فضلاً عما حظيت به من نهضة علمية^(٤)، وسرعان ما انتقلت منها عدوى هذه الثورة إلى فرنسا، والولايات المتحدة الأمريكية، وبقية الدول الأوروبية، وأصبح لهذه الدول في القرن التاسع عشر أساطيل تتراد الموانئ الآسيوية والأفريقية؛

(١) - الشيخ، متولي، إفريقيا في العلاقات الدولية، ص ٨٤-٨٥.

(٢) - أحمد حسن البرعي، الثورة الصناعية وآثارها الاجتماعية والقانونية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٩-١٠.

(٣) - هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، ٢٠٠١، ص ٤٣٢-٤٣٣.

(٤) - الشيخ، متولي، إفريقيا في العلاقات الدولية، ص ٨٥-٨٦. رياض، استعمار إفريقيا، ص ١٢٦-١٢٧.

لتصريف الفائض من إنتاجها.

هذا ويرجع أصحاب نظرية "المركزية الأوروبية"^(١) قيام أوروبا بنهضتها الصناعية، وتفوقها في القوة والغنى على المجتمعات الأخرى إلى أربعة عوامل تكمن داخل أوروبا نفسها وهي: الدين المسيحي؛ باعتبار الأوروبيون يؤمنون بالإله الحق، وهو مرشدهم على مر التاريخ. والعرق: حيث يتمتع الجنس الأبيض بتفوق وراثي على الأجناس الأخرى. والبيئة: بيئة أوروبا الطبيعية، وتفوقها على غيرها. والثقافة حيث قام الأوروبيون منذ القديم بإنتاج ثقافة متفردة في تطورها وابتكارها. وكان عامل الدين هو السائد في بداية القرن التاسع عشر، فضلاً عن العوامل الأخرى المتمثلة بالعرق والبيئة والثقافة، ولكن ما لبث أن فقدت الشروح الدينية شهرتها، وأصبحت مرجعية التميز الأوروبي ممثلة بالعرق والثقافة والبيئة، وبعد رفض العنصرية واستهجانها بقي تاريخ المركزية الأوروبية مستنداً على البيئة والثقافة كون أوروبا نهضت وهزمت العالم بسبب تميز بيئتها وثقافتها، وهما العاملان اللذان طورا أوروبا بشكل أسرع وأكبر من أي مجتمع آخر^(٢)!

ورغم شمولية العناصر السابقة الذكر إلا أن نهضة أوروبا وتفوقها على غيرها من الحضارات الأخرى لم يكن نتيجة عوامل داخل القارة الأوروبية أكثر من كونه نتيجة عوامل خارجية تمثلت بالحركة الاستعمارية إلى جانب أهمية العوامل الداخلية الفكرية والسياسية والاجتماعية، وأهمية ما وقع من تطور في عصر النهضة، وما ساهمت به هذه الفترة من جذب الانتباه والفضول إلى الظواهر المادية والفنية والطبيعية، ومساهمتها في خلق فكر جديد، وعقلية جديدة مكنتها من استيعاب الأحداث والوقائع الاقتصادية، والعمل على تطويرها فاعتبرت بحق مقدمة علمية وفنية لعصر الثورة الصناعية، إلى جانب ظهور مبدأ القوميات الذي وفر المناخ السياسي الملائم، وساعد على ازدهار أفكار النهضة، فضلاً عن بروز المذاهب الليبرالية

(١) - نظرية المركزية الأوروبية: معتقد تاريخي جغرافي ينظر إلى الأوروبيين على اعتبار أنهم صناع التاريخ والحضارة، ويسلم بفكرة تفوق الأوروبيين على غيرهم، ويتمثل هذا المعتقد في الافتراض السائد بأن الحضارة الأوروبية أو الغرب يتمتع ببعض المزايا التاريخية الفريدة، وبعض الصفات الخاصة في العرق أو الثقافة أو البيئة أو العقل مما أعطى هذا المجتمع الإنساني تفوقاً دائماً على ما عداه من مجتمعات في الماضي وحتى وقتنا الحاضر؛ أي أن أوروبا تتطور وتسير نحو التحديث دائماً وأبداً، بينما يتقدم باقي العالم ببطء، وينظر إليه على أنه مجتمع تقليدي، ومن جهة أخرى يعني هذا المصطلح أن العالم لديه مركز جغرافي دائم وهو أوروبا، وطرف خارجي دائم أي بقية العالم، وفي قول آخر لديه جزء داخلي وجزء خارجي، وبينما يقود الداخل فإن الخارج دائماً ما يتبع، أي الداخل يبدع والخارج يقلد. عن بلاوت، نموذج المستعمر للعالم، ج ١، ص ١٥.

(٢) - بلاوت، نموذج المستعمر للعالم، ج ٢، ص ١٣.

الاقتصادية وما انتهى إليه المفكرون في ميادين العلوم الإنسانية من ضرورة تحرير الفرد واطلاق العنان للحافز الفردي في إحداث الثورة الصناعية^(١).

وإذا كانت بوادر الانقلاب الصناعي في أوروبا قد ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر، واكتملت مظاهرها في منتصف القرن التاسع عشر، إلا أن جذورها ترجع إلى تاريخ أسبق من ذلك بكثير، فالثورة الصناعية لم تكن وليدة اللحظة، بل تعود بجذورها إلى بداية الاستكشافات الجغرافية الأوروبية في مطلع القرن الخامس عشر. وبناء على ذلك فإن التدفق الضخم للثروة إلى أوروبا من التراكبات الاستعمارية في أمريكا ومن ثم آسيا وإفريقيا بعد ذلك هو ما يفسر في الحقيقة تحول أوروبا السريع إلى مجتمع رأسمالي^(٢). ويعد توفر رأس المال شرطاً أساسياً لنجاح أي نمو صناعي أو اقتصادي عموماً، لذلك لم يكن من الممكن أن تقوم الثورة الصناعية لو لم تتوفر للبلاد الأوروبية الأموال اللازمة للتمويل. وبالنسبة لأوروبا بدأت عوامل تكوينه تتجمع وتتلور منذ القرن السادس عشر، أي مع بدايات اكتشافات الطرق البحرية ونشأة الحركة الاستعمارية، فمنذ هذا التاريخ بدأ التراكم الهائل للثروة من المناجم والمزارع الأمريكية، والتجارة مع آسيا وإفريقيا، واستمر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر حتى التقى في منتصف القرن الثامن عشر بالاختراعات الفنية والعلمية مما ترتب على ذلك نشأة الثورة الصناعية^(٣).

كانت البرتغال وإسبانيا أسبق الدول الأوروبية إلى الاستعمار؛ إذ فتحت رحلات كريستوف كولومبوس في المحيط الاطلنطي في العام ١٤٩٢، وفاسكو ديغاما حول إفريقيا إلى الهند فيما بين العامين ١٤٩٧-١٤٩٩ آفاقاً لم يسبق لها مثيل لإثراء البرجوازية، وتشجيع التجارة، والملاحة، والصناعة، ودخلت هولندا وبريطانيا وفرنسا وغيرها من الدول في حلبة الصراع من أجل السيادة على البحار، والاستيلاء على المستعمرات^(٤)، ورافق هذه التوسعات الاستعمارية نهب سافر لشعوب المستعمرات، لم يكتف فيها الأوروبيون بنهب الكنوز الهائلة من الشعوب التي

(١) - البرعي، الثورة الصناعية، ص ٩١-٩٦.

(٢) - بلاوت، نموذج المستعمر للعالم، ج ١، ص ٢٣٨.

(٣) - باتريسيا ديلبيانو، العبودية في العصر الحديث، ترجمة أماني حبشي، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبوظبي، ط ١، ٢٠١٢، ص ٦٨-٧٠. البرعي، الثورة الصناعية، ص ١١-١٧.

(٤) - سافلييف، موجز تاريخ إفريقيا، ص ٣٣. جفري براون، تاريخ أوروبا الحديث، ترجمة علي المزروقي، الأهلية للنشر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٦، ص ٣٢٦-٣٢٧.

استعمروها، بل عمدوا إلى استعباد سكانها وإرغامهم على العمل في مزارعهم ومناجمهم. ونتج عن تلك المعاملة القاسية أن انخفض عدد السكان الهنود الحمر انخفاضاً شديداً؛ لذلك شرع المستعمرون في استبدالهم بالعبيد من إفريقيا^(١). واستطاعت إنجلترا بعد سيطرتها على البحار، وتفوقها على الدول الأوروبية الأخرى من توسيع مستعمراتها في أمريكا الشمالية والهند، وتمكنت بفضل الاستغلال الاستعماري، ونهب ثروات البلاد المستعمرة، وتسخير سكانها للعمل لصالحها لمدة عدة قرون من أن تصبح مصنع العالم^(٢).

ولا يمكن أن نغفل في هذا المجال ما كان لتجارة العبيد من أثرهم في إحداث التنمية الصناعية في إنجلترا وفرنسا وبقية أوروبا؛ إذ كانوا الأيدي العاملة التي عملت في مناجم الفحم، وصهر الحديد، وتعبيد الطرق، وكانوا الوقود الذي أضاء أفران الصناعة البريطانية، إضافة إلى استغلالهم في العمل في حقول القطن وقصب السكر، وفي المناجم والمحاجر في المستعمرات، هذا فضلاً عن الأرباح الهائلة التي تمّ جنيها من المتاجرة بهم، فكانوا يدفعون قرابة ٧٠-٢٠٠ فرنك ثمناً للعبد في إفريقيا، ثم يبيعونه بعشرة أضعاف هذا الثمن أو أكثر في أمريكا وغيرها^(٣)، وبذلك كانت الأرباح العائدة من تجارة العبيد والمزارع القائمة على العبيد عاملاً أساسياً في تراكم رأس المال الذي مهد بدوره الطريق للثورة الصناعية في أوروبا^(٤)، ومما يدل على ذلك أن الموانئ والمدن التي كانت مرتبطة بتجارة العبيد كانت من أوائل المراكز الصناعية في أوروبا الغربية، ومثال على ذلك مقاطعة لانكشاير بإنجلترا التي اعتمد التقدم الاقتصادي فيها في المقام الأول على نمو ميناء ليفربول وغيره مثل بريستول وغلاسكو من عائدات تجارة الرقيق^(٥). وما يهمني في هذا المجال هو ما آلت إليه هذه الثورة من تغييرات دفعت الأوروبيين وفي مقدمتهم بريطانيا إلى توجيه ودعم استكشاف إفريقيا ككل ولأسيما شرقيها، والتي يمكن إيجازها بالآتي:

- كان من نتائج الثورة الصناعية أن تحولت أوروبا إلى عالم صناعي سريع الحركة مملوء بالمعامل الجبارة التي أخذت تنتج من البضائع أكثر من حاجة أوروبا، وبالتالي زاد استهلاك المواد

(١) - البرعي، الثورة الصناعية، ص ١٨-٢٠.

(٢) - سافلييف، موجز تاريخ إفريقيا، ص ٣٣-٣٤. البرعي، الثورة الصناعية، ص ٢٢-٢٣.

(٣) - ديلبيانو، العبودية في العصر الحديث، ص ٧٠. فيصل محمد موسى، موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، الجامعة المفتوحة، بنغازي، ١٩٩٧، ص ٨٨. سافلييف، موجز تاريخ إفريقيا، ص ٣٧.

(٤) - بلاوت، نموذج المستعمر للعالم، ج ١، ص ٣١٣.

(٥) - ديلبيانو، العبودية في العصر الحديث، ص ٧٥-٧٦. رودني، أوروبا والتخلف في إفريقيا، ص ١٠٨.

الخام الأولية اللازمة للصناعة والمواد الغذائية؛ واشتدت الحاجة الأوروبية للتوسع، والبحث عن المواد الأولية الزراعية منها والمعدنية اللازمة للصناعة، مما استلزم البحث عن أسواق جديدة تضمن لها الربح والنفوذ^(١)، ولاسيما بعد معاناة انتاجها من الركود، وقد صور جول فيري^(٢) رئيس الوزراء الفرنسي في العام ١٨٨٠ هذا الوضع بتأكيد على "أن السياسة الاستعمارية هي وليدة سياسة التصنيع" كما أن السرعة في الانتاج تحتاج إلى سرعة نقله من المصانع إلى مناطق الاستهلاك والذي لم يعد يستوعب الانتاج المتعاظم للمصانع الجديدة، وأصبحت هناك حاجة متزايدة للتصدير من الموانئ إلى مناطق الاستهلاك فيما وراء البحار^(٣). وكان المجال لتحقيق هذه الحاجة مفتوحاً في إفريقيا بالذات وآسيا والعالم الجديد^(٤).

- لما كانت إنجلترا أسبق الدول الأوروبية في مجال الصناعة كانت منتجات مصانعها تجد لها أسواقاً رائجة في العالم الجديد وفي آسيا وحتى في أوروبا ذاتها، ولكن ما أن اهتمت الدول الأوروبية الأخرى بالصناعة، وبدأت تنافس إنجلترا في هذا المجال حتى ظهرت اهتمام إنجلترا بإفريقيا لاسيما الساحل الشرقي المواجه لأملاكها في الهند؛ باعتبارها مصدراً كبيراً للمواد الخام اللازمة للصناعة، ويمكن أن تكون كذلك سوقاً للبضائع الإنجليزية، لاسيما وأن فرنسا بدأت تأخذ التوجه نفسه نحو إفريقيا باحتلال الجزائر في العام ١٨٣٠ ثم السنغال، وما عرف بإفريقيا الغربية الفرنسية حتى يمكن القول أنه أصبح من الواضح أن الاستعمار الأوروبي لإفريقيا لم يكن إلا مرحلة من مراحل التطور الاقتصادي في أوروبا^(٥).

وهكذا فرض عصر المكننة على إفريقيا أن تلعب دوراً جديداً في النهضة الأوروبية، وشكل جزءاً من مجموعة من المتغيرات التي كان لها تأثير كبير في نهج أوروبا الجديد تجاه إفريقيا.

(١) - براون، تاريخ أوروبا الحديث، ص ٤٧٧.

(٢) - جول فيري (Jules François Ferry): سياسي ووزير فرنسي، ولد في العام ١٨٣٢ في مدينة سان ديب، وتوفي في العام ١٨٩٣ في باريس. استهل حياته في سلك المحاماة، وعين وزيراً للتربية في العام ١٨٧٩، وترقى في العام ١٨٨٠ إلى منصب رئاسة الحكومة. كان من أشد أنصار الحركة التوسعية الفرنسية، وداعمي التوسع الاستعماري في إفريقيا وآسيا. عن دحو فغور، جول فيري مهندس الإمبراطورية الفرنسية، مجلة عصور الجديدة، الجزائر، عدد ١١١، ٢٠١١، ص ١١٢-١١١.

(٣) - زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن ١٦ إلى نهاية القرن الثامن عشر، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ٤٣.

(٤) - شوقي الجمل، عبدالله إبراهيم، تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة، المصري، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٠٩-٢١١.

(٥) - الشيخ، متولي، إفريقيا في العلاقات الدولية، ص ٨٦-٨٧.

فللتنقيب عن موارد إفريقيا الزراعية والمعدنية وتحديد أماكن تواجدها، والإشراف عند الحاجة على مصادرها الإنتاج، وامتلاك أوسع الأسواق لتصريف المنتجات، كل ذلك دفع الدول الأوروبية، وفي مقدمتها إنجلترا إلى دعم وتوجيه سلسلة من البعثات الكشفية لاستطلاع الداخل، وما يحتويه من موارد وثروات، ولمعرفة أفضل الطرق للقيام بالاتصالات التجارية مع شعوبه.

٢- الثورة الأمريكية وإعلان قيام الولايات المتحدة الأمريكية:

شهدت هذه المرحلة أيضاً نشوب الثورة في المستعمرات الأمريكية الثلاثة عشر^(١) ضد سلطة الدولة الأم إنجلترا التي تعد واحدة من أبرز معالم القرن الثامن عشر^(٢). وترجع أسباب هذه الثورة إلى رغبة الحكومة الإنجليزية ممثلة بالملك جورج الثالث^(٣) (١٧٦٠-١٨٢٠) ورئيس وزرائه جورج جرينفل، ولاسيما بعد انتصار إنجلترا في حرب السنوات السبع^(٤) وتراجع الخطر الفرنسي، بفرض ضرائب جديدة على مستعمراتها الأمريكية؛ لتخفيف الأعباء الناجمة عن تلك الحرب التي كلفت إنجلترا مبالغ باهظة، فنازعتها المستعمرات في شرعية تلك الضرائب، ولاسيما ضريبة الدمغة التي أقرها البرلمان الإنجليزي في العام ١٧٦٥، وقضت بوجوب كتابة كل حكم قضائي في المستعمرات على ورق عليه خاتم أو طابع الدولة على أن يباع لصالح الدولة. وكان إقرار هذه الضريبة السبب في صدام طويل استمر لمدة ستة عشر عاماً انتهى بثورة المستعمرات، ونشوب

(١) - ترتيب هذه المستعمرات وفق امتدادها من الشمال إلى الجنوب كالآتي: نيو هامبشير، مساتشوستس، نيويورك، رود آيلاند، كنتيكت، بنسلفانيا، نيوجيرسي، ديلاوير، ماريلاند، فرجينيا، كارولينا الشمالية، كارولينا الجنوبية، جورجيا. عن عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧، ج ٢، ص ١٥٣.

(٢) - نوار، بطريق، التاريخ الأوروبي الحديث، ص ٢٦٩.

(٣) - جورج الثالث: جورج وليم فريدريك، ملك بريطانيا العظمى وإيرلندا، ولد في العام ١٧٣٨، وتولى الحكم بين عامي ١٧٦٠-١٨٢٠ خلفاً لجده الملك جورج الثاني. تميزت فترة حكمه الطويلة بسلسلة من الصراعات العسكرية؛ كحرب السبع سنوات، وحروب ثورة الاستقلال الأمريكية، والحروب النابليونية، وفي الجزء الأخير من حياته أصيب بمرض عقلي دائم، وكانت وفاته في قلعة وندسور في العام ١٨٢٠. عن The encyclopedia Britannica, New York, eleventh edition, 1911, v11, p740-742.

(٤) - حرب السبع سنوات: دارت رحاها بين فرنسا تسانداها روسيا والنمسا، وبين إنجلترا وحليفاتها بروسيا، واستمرت لسبع سنوات بين العامين ١٧٥٦-١٧٦٣، وانتهت بهزيمة فرنسا، وإجبارها على توقيع معاهدة باريس في العام ١٧٦٣ التي تنازلت بموجبها عن مستعمراتها في كندا والهند لإنجلترا. عن عبد العزيز نوار، محمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، نصر، ١٩٩٩، ص ٢٦٥-٢٧٠.

الحرب بينهما في العام ١٧٧٤^(١)، واستمرت لمدة ثمانية أعوام (١٧٧٤-١٧٨٢)، وأعلنت خلالها المستعمرات استقلالها في العام ١٧٧٦، وكونت جيشاً قوياً بقيادة جورج واشنطن^(٢) ضم عدداً كبيراً من المتطوعين الفرنسيين الذين سعوا للانتقام لفرنسا من عدوتها إنجلترا التي سلبت كثيراً من مستعمراتها في حرب السبع سنوات، وحققوا بعض الانتصارات على الجيش الإنجليزي، وتمكنت المستعمرات بمعونة الحكومة الفرنسية من الانتصار في معركتها، والحصول على استقلالها^(٣) بموجب معاهدة فرساي الموقعة في ٣ أيلول عام ١٧٨٣ التي اعترفت فيها إنجلترا باستقلال الدولة الجديدة تحت مسمى "الولايات المتحدة الأمريكية"^(٤).

وكان من النتائج التي اسفرت عنها ثورة المستعمرات الأمريكية واستقلالها أن فقدت إنجلترا مستعمراتها في العالم الجديد التي كانت تمثل سوقاً استهلاكية مهمة للسلع الإنجليزية الزائدة عن حاجة سكانها؛ لذلك بدأت تبحث عن أسواق جديدة لتعويض خسائرها^(٥)، وكانت السوق الإفريقية خياراً مهماً أمام إنجلترا؛ فأخذت تسعى للهيمنة على تلك السوق عن طريق اتخاذ إجراءات عدة تمثل إحداها في إرسال المغامرين إلى إفريقيا للكشف عن المناطق المجهولة فيها هذا من ناحية، وللوقوف على ما تحتويه هذه المناطق المجهولة من ثروات طبيعية ونباتية، وغيرها من ناحية أخرى^(٦).

(١) - جلال يحيى، التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الأولى، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، ج ٢، ص ٢٢٠-٢٢٧.

(٢) - جورج واشنطن: ولد في فرجينيا في العام ١٧٣٢، وتوفي في العام ١٧٩٩. كان أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية، والقائد العام للقوات المسلحة أثناء الحرب الأمريكية الثورية. وقاد التمرد الذي انتهى بإعلان انفصال الولايات المتحدة عن إنجلترا في العام ١٧٧٦، كما ترأس الاتفاقية الدستورية التي صاغت الدستور الأمريكي الحالي، وانتخبه الأمريكيون كأول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية بين عامي (١٧٨٩-١٧٩٧)، ويصنف من بين أعظم الرؤساء الأمريكيين. عن بول جونسون، جورج واشنطن الأب المؤسس، ترجمة محمد إبراهيم السيد، دار كلمات عربية، القاهرة، ط ١، ص ٩-١٢.

(٣) - أحمد جلال، الثورة الفرنسية، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٧، ص ٨٠-٨١.

(٤) - يحيى، التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ج ٢، ص ٢١٧.

(٥) - فرنسوا دريفوس، رولان ماركس، ريمون بوادوفان، موسوعة تاريخ أوروبا العام، ترجمة حسن حيدر، عويدات، بيروت، ط ١، ١٩٩٥، ج ٣، ص ١١١.

(٦) - كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٢٥١-٢٥٣.

٣- الثورة الفرنسية والحروب النابليونية:

كانت إنجلترا وفرنسا منذ مطلع القرن الثامن عشر تمثلان القوتين الأوروبيتين الاستعماريتين الأهم والأكثر تنافساً في المحيط الهندي، مما كان له انعكاساته السياسية والعسكرية على منطقة الشرق الإفريقي، الأمر الذي أدى إلى تعرض ساحل زنجبار لمنافسة إنجليزية- فرنسية كانت جزءاً من الصراع الدائر بينهما في سواحل المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر^(١)، وانتهت تلك المنافسة بتدعيم النفوذ الإنجليزي في المنطقة، واستبعاد النفوذ الفرنسي منها بعد هزيمة فرنسا في حرب السبع سنوات وفقدانها لمعظم ممتلكاتها في الهند، ولكن ما لبث أن اشتدت المنافسة بينهما من جديد للسيطرة على هذه المنطقة، ولأسيما بعد قيام الثورة الفرنسية في العام ١٧٨٩، وتسلم نابليون الحكم فيها، فأخذت كل منهما تضع الخطط والعراقل أمام الأخرى للتغلب عليها.

ولم تقتصر نتائج الثورة الفرنسية على فرنسا وحدها دون غيرها بل شملت نتائجها بقية البلاد الأوروبية وغير الأوروبية ومن بينها إفريقيا، إذ انشغلت أوروبا بأحداث الثورة الفرنسية، وكادت العلاقات الأوروبية-الإفريقية خلال أحداث الثورة الفرنسية، وعهد نابليون (١٧٨٩-١٨١٥) تقتصر على انتقال أجزاء من المناطق الإفريقية من يد دولة أوروبية إلى يد دولة أوروبية أخرى، وخاصة إنجلترا التي انتزعت من الفرنسيين والهولنديين مناطق ومراكز التجارة الخاصة بهما على السواحل الإفريقية^(٢).

كانت إنجلترا العدو الأول لفرنسا الثورة نظراً لما كانت تمثله من خطر على النظم الأوروبية الارستقراطية ومصالح الأمراء والملوك^(٣)؛ لذلك سعت إلى تكوين الأحلاف ضدها لأجل قمع الثورة في مهدها، ولما تخلصت فرنسا من أعدائها من أعضاء الحلف الأوروبي الواحد تلو الآخر بقيت إنجلترا العدو العنيد لفرنسا منتصرة ومتفوقة بحراً^(٤)، ولما كان الهجوم على إنجلترا في أراضيها من الأمور المستعصية بسبب تفوقها البحري، اتجهت أنظار الفرنسيين إلى توجيه الضربة

(١) - موسى، موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص ١٦٠-١٦٢. فاطمة سبّاك، التاريخ السياسي لسلطنة زنجبار الإسلامية ١٨٣٢-١٨٩٠، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٨٩، ص ٦٤.

(٢) - الشيخ، متولي، إفريقيا في العلاقات الدولية، ص ٨٤.

(٣) - يحيى، التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ج ٢، ص ٢٨١.

(٤) - زينب راشد، تاريخ أوروبا الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ط، د. ت، ص ١٦٢-١٦٣.

لإنجلترا في الهند جوهر المستعمرات الإنجليزية، ولأهمية موقع مصر الاستراتيجي في الطريق إلى الهند والشرق كانت حملة نابليون على مصر في العام ١٧٩٨^(١) والتي سعى من خلالها الفرنسيون إلى استرداد نفوذهم السابق فضلاً عن أن وصول قوة فرنسية إلى برزخ السويس سيشكل تهديداً لمركز الإنجليز في الهند؛ لأن فرنسا ستصبح أقرب إليها من إنجلترا، كما أنها ستفتح أمامهم أبواب الشرق جميعها، لذلك كان الهدف الأول للتعليمات التي أعطيت لنابليون عند إرساله إلى مصر طرد الإنجليز من الأماكن جميعها التي يستطيع بلوغها^(٢).

كانت إنجلترا بحكم وجودها في الهند تعمل على المحافظة على طريق مواصلاتها إليها؛ لذلك كانت تهديدات حكومة الثورة الفرنسية وحروب نابليون وأطماعه وحملته على مصر قد فتحت أذهان الإنجليز إلى أهمية مصر وموانئ شرق إفريقيا الطريق الطبيعي إلى الهند، وكانت من دوافع اتجاه إنجلترا لتأسيس إمبراطورية في الشرق التي كان يعنىها أكثر من غيرها أن تجد سفنها في هذه الموانئ تسهيلات ممكنة^(٣)، وما كان صدامها مع حملة نابليون على مصر سوى مظهراً لهذا التوجه الإنجليزي، وقد دفعها ذلك أيضاً للاستيلاء على المحطة الهولندية في رأس الرجاء الصالح في العام ١٧٩٥ كرد فعل لتحركات نابليون في أوروبا^(٤).

على هذا الأساس كان للعامل الهندي أولاً ثم الحروب النابليونية ثانياً أثرهما الكبير في زيادة اهتمام إنجلترا بشرقي إفريقيا؛ لذلك سعت بعد انتهاء الحروب النابليونية إلى تدعيم سيطرتها البحرية في المحيط الهندي وشرقي إفريقيا، وقامت إنجلترا في سبيل الاستحواذ على مستعمرات في إفريقيا بدعم وتشجيع الرحالة والمغامرين تمهيداً لوضعها تحت السيادة الإنجليزية.

٤- إلغاء تجارة الرقيق:

لم يكن الاستعباد والعبودية بالحدث الجديد في تاريخ أوروبا وإفريقيا بل هو قديم قدم الإنسان، وكان في الأصل إحدى نتائج الحروب، إذ استرق الغزاة أسراهم وباعوهم في أسواق النخاسة. وفي العصر الحديث تجدد الاستعباد وتفاقم شره مع بداية ما سمي بالكشفوف

(١) - الجمل، إبراهيم، تاريخ أوروبا، ص ١٢٩. نوار، جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٢) - أ. ج. جرانت- هارولد تمبلي، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٧٨٩-١٩٥٠، ت جهاد فهمي، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، د. ت، ص ١٥٤-١٥٥.

(٣) - رياض، استعمار إفريقيا، ص ٨٤-٨٥.

(٤) - الشيخ، إفريقيا في التاريخ المعاصر، ص ٤٢-٤٣.

الجغرافية في مطلع القرن الخامس عشر^(١). كان البرتغاليون أول الشعوب الأوروبية التي عملت بتجارة الرقيق، وسيطرت على تجارة القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ثم جاء في ركبهم الإسبان والهولنديون في القرن السابع عشر، وتبعهم الإنجليز والفرنسيون في القرن الثامن عشر، ثم الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر^(٢). كما مارس العرب والهنود هذه التجارة في شرقي إفريقيا، وعلى الرغم من المساوئ التي لحقت بتجارة الرقيق العربية إلا أنها لم تكن لتقارن بما كانت عليه تجارة الرقيق الأوروبية^(٣).

استأثر الساحل الغربي لإفريقيا بنشاط الدول الأوروبية الأكبر في اقتناص الرقيق، ويرجع ذلك إلى قرب هذا الساحل من أوروبا، فضلاً عن كونه أول السواحل الإفريقية اكتشافاً وارتداداً من قبل الدول الأوروبية، هذا إلى جانب مواجهته للأمريكتين اللتين صارتا الميدان الفسيح لاستقبال الأعداد الغفيرة من الرقيق الذي كان يشحن من إفريقيا للعمل في مناجمها ومزارعها^(٤). ولا يمكن تصور مدى الخراب والدمار والتفكك الذي لحق بالمجتمع الإفريقي نتيجة لتحول جزء كبير من إفريقيا إلى أرض صيد شاسعة بعد أن أقام الأوروبيون الحصون والمراكز التجارية على سواحل القارة الإفريقية، وأسسوا الشركات والأساطيل المتخصصة بتجارة الرقيق، وبينما كانت هذه التجارة مصدر ثراء وازدهار بالنسبة لأوروبا، فإنها كانت من جانب آخر وبالاً على المجتمع الإفريقي نتيجة لما مارسوه من استرقاق جماعي، كما تجاوزت فظائع النقل كل الوصف، فلأجل توفير المساحة كان الرقيق يعبأ حتى في أصغر جزء على متن السفينة، ولقيت أعداد كبيرة منهم حتفها من جراء الأمراض والحرارة والعطش والانتحار بحيث أصبح من المستحيل تقدير أعداد

(١) - إبراهيم حركات، تجارة الرق بإفريقيا من خلال الموقفين العربي والأوروبي، مجلة دار الحديث الحسنية، عدد ٥، ٣٢٥-٣٥٣، المملكة المغربية، ١٩٨٥، ص ٣٢٥. روكز، إفريقيا السوداء سياسة وحضارة، ص ٤٩-٥٠. دافيدسون، إفريقيا القديمة تكتشف من جديد، ص ٥٨.

(٢) - ديلبيانو، العبودية في العصر الحديث، ص ٢٨، ٥٥. ويدنر، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ص ٩٣. سافلييف، موجز تاريخ إفريقيا، ص ٣٥-٣٦. نعيم قداح، تجارة الرقيق عمل أوروبي مهد للاستعمار في إفريقيا، المعرفة، عدد ٨، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٦٢، ص ٥٨.

(٣) - عابدة العزب موسى، تجارة العبيد في إفريقيا، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٧، ص ١٧. قاسم،

الأصول التاريخية للعلاقات، ص ٢٠٠-٢٠٤. Johnston, Africa, p300-302.

(٤) - ديلبيانو، العبودية في العصر الحديث، ص ٣٦. الشيخ، متولي، إفريقيا في العلاقات الدولية، ص ٥٧.

البشر الذين كانوا ضحية هذه التجارة الشائنة^(١). وإذا كان عدد الرقيق المسجل الذي أرسل إلى الممتلكات البريطانية وحدها فيما بين عامي ١٦٨٠-١٧٨٦ مليونين ومائة وثلاثين ألفاً، فإن ما خرج من إفريقيا كان أضعاف هذا العدد خلال هذا القرن^(٢).

وجدت تجارة الرقيق منذ بدايتها بعض المعارضة، ولاسيما من جانب الكنيسة التي اعتبرتها تجارة لا أخلاقية، وندد رجال الدين بسوء المعاملة التي تلقاها الرقيق، وطالبوا بضرورة معاملتهم معاملة إنسانية^(٣). كما ظهر بعض دعاة الإنسانية من المفكرين والكتاب الإنجليز والفرنسيين الذين هاجموا تلك التجارة، ونادوا بتحريمها طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر^(٤) من أمثال ريتشارد باكسترفي العام ١٦٧٣ الذي وصف تجار الرقيق بأنهم أعداء البشرية، وجون لوك في العام ١٦٨٩، ومونتسكيو في العام ١٧٤٨ وغيرهم، بينما كانت جماعة الكويكرز (Quakers)^(٥) أول جماعة ثارت عليها، وفي العام ١٧٨٥ صدر كتاب توماس كلاركسن بعنوان "الاستعباد والاتجار بالجنس البشري" وهو بجملته حملة على تجارة الرقيق، ترك أثراً بالغاً في مختلف البلدان الأوروبية، فأخذت تنشأ الجمعيات المناهضة لهذه التجارة؛ إذ تأسست في إنجلترا في العام ١٧٨٣ أول جمعية لتحرير الرقيق، كانت أول جمعية من نوعها في العالم، وأنشئت في باريس في العام ١٧٨٨ جمعية أصدقاء الزنوج، وبذلت جهوداً مرموقة للقضاء على الاستعباد، أما ملك الدنمارك كريستيان السابع (١٧٦٦-١٨٠٨) فقد أصدر في العام ١٧٩٢ مرسوماً يقضي بإلغاء الاستعباد في المستعمرات الدانماركية ابتداء من العام ١٨٠٣^(٦).

(١) - Reclus, the earth and its inhabitants, Africa, v1, p26.

(٢) - رياض، استعمار إفريقيا، ص ٧٠.

(٣) - روكز، إفريقيا السوداء، ص ٥٠.

(٤) - الشيخ، متولي، إفريقيا في العلاقات الدولية، ص ٦٤.

(٥) - الكويكرز: وتعني الأصدقاء؛ وهي حركة دينية تأسست في إنجلترا في القرن السابع عشر على يد الواعظ جورج فوكس، وكانت تتبنى نزعة صوفية عميقة تنأى عن التعاليم البروتستانتية التي تتمحور حول القراءة الفردية للكتاب المقدس، وركزت على فكرة العلاقة المباشرة مع الله، والمدفوعة بنور داخلي يميز في اللون أو الجنس أو الوضع الاجتماعي فالجميع متساوون أمام الله. أدانت هذه الحركة العبودية، وكانوا أول من ألف نصوصاً مناهضة لتجارة الرقيق واستعباد السود، وانتشروا بالإضافة إلى المقاطعات المتحدة في المستعمرات الإنجليزية. عن ديليانو، العبودية في العصر الحديث، ص ١٤٧-١٤٩.

(٦) - رياض، استعمار إفريقيا، ص ٧٧. روكز، إفريقيا السوداء، ص ٥١-٥٢.

ولكن رغم كل تلك الجهود إلا أن المحاولات الفعلية لوضع نهاية لتجارة الرقيق لم تظهر إلا في القرن التاسع عشر، وكانت إنجلترا الأسبق للقيام بهذه المهمة فأصدرت في العام ١٨٠٧ قوانين نصت على تحريم تجارة العبيد في المناطق التي تسيطر عليها، كما حثت الدول الأوروبية الأخرى لتنهج السياسة نفسها كما هو الحال مع فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية. ولم يكن صدور المراسيم يعني إنهاء هذه التجارة، بل انتهى ما كان شرعياً منها في حين ظلت تجارتها قائمة عن طريق التهريب ما دام القانون لم يفرض عقوبة على من يزاولها، ولم يتم هذا الأمر إلا في العام ١٨١١ حين صدر مرسوم ينص على عقوبات معينة لكل من يعمل في هذه التجارة سواء بالنقل أو أي وسيلة أخرى، وكان هذا القانون قد وضع حداً لهذه التجارة في الأملاك الإنجليزية، وعد قانون العام ١٨١٤ الاتجار بالرقيق قرصنة^(١)، واستغلت إنجلترا فرصة قيام مؤتمر فيينا الذي عقد في العام ١٨١٥ بعد انتهاء الحروب النابليونية لاتخاذ قرارات دولية حاسمة تجاه هذه التجارة وعقدت كل من إنجلترا وفرنسا بناء على هذا المؤتمر اتفاقاً يقضي بالتعاون على عدم إدخال الرقيق إلى ممتلكاتهما على أن تتوقف هذه التجارة نهائياً في العام ١٨١٩، وما لبث أن حذوها كل من البرتغال وإسبانيا بعد أن دفعت لهما إنجلترا التعويضات، وحصلت نظير ذلك على حق تفتيش سفنهما، وخصصت أساطيل حربية للمراقبة أمام سواحل غربي وشرقي إفريقيا مزود بالتعليمات اللازمة لمصادرة أي سفينة يشك في قيامها بنقل العبيد بصرف النظر عن جنسية العلم الذي ترفعه^(٢).

يدفعنا هذا الطرح للتساؤل عن سبب مسارعة الحكومة الإنجليزية لتبني إلغاء هذه التجارة عندما ارتفعت الأصوات بوجوب إيقافها؟ علماً أن إنجلترا كانت المستفيد الأكبر من هذه التجارة، وساهم فيها ملوكها مساهمة فعالة، وحققوا من ورائها أرباحاً هائلة حتى أن البعض عدّها من أسباب عظمة الإمبراطورية الإنجليزية، وكان إلغاؤها يعني القضاء على الربح التجاري الذي تحصل عليه من خلال اشتراك سفنها في عملية النقل أو فتح أسواق في أراضيها لبيع الرقيق أو استخدامهم في مزارع ومناجم المستعمرات.

(١) - ديلبيانو، العبودية في العصر الحديث، ص ١٩٥-١٩٦. رياض، استعمار إفريقيا، ص ٧٩-٨٠. كولن ماكفيري، أطلس التاريخ الإفريقي، ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٧، ص ١٦٣-١٦٤. موسى، تجارة العبيد في إفريقيا، ص ١٩٠-١٩١.

(٢) - اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، ٦م، ص ٩٧. رياض، استعمار إفريقيا، ص ٨٢-٨٣.

وبالمقارنة بين السياسات التي اتخذتها الحكومة الإنجليزية، والنتائج التي آلت إليها يتضح لنا أن المصلحة الإنجليزية كانت الهدف الأول والأخير من وراء اتخاذ هذه السياسة الجديدة، فعلى الرغم من أهمية دور الإنسانيين من مفكرين ورجال دين في الدعوة إلى إيقاف هذه التجارة إلا أن الساسة الإنجليز اتخذوها ستاراً، واستخدموها كسلاح ذي حدين لتحقيق مصالحهم بالدرجة الأولى، إذ أدى قيام الثورة الصناعية فيها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، واستخدام الآلة في الصناعة إلى قلة الحاجة للأيدي العاملة فأصبح العبيد الأفارقة عالية على المجتمع الصناعي الحديث الأمر الذي دفع إنجلترا إلى اتخاذ موقف حاسم للقضاء على هذه التجارة^(١). وكان لرغبة إنجلترا أيضاً في خلق المصاعب أمام الدول التي تعتمد على العبيد في الانتاج الزراعي والصناعي، ولاسيما المستعمرات الأمريكية التي ثارت ضدها، وحصلت على استقلالها بعد السيف فسعت إنجلترا إلى حرمان الدولة الناشئة من الأيدي العاملة في مزارعها^(٢)، خاصة وأن اقتصادها كان يعتمد بشكل رئيس على تجارة الرقيق، وعلى زراعة القطن الذي يزرعه الرقيق، والذي شكل في ثلاثينات القرن الثامن عشر حوالي نصف قيمة صادرات الولايات المتحدة الأمريكية^(٣).

كما وجدت إنجلترا في محاربة الرق وسيلة لبسط نفوذها وفرض سيطرتها على بعض الأجزاء من القارة الإفريقية، ولاسيما شرقيها لتأسيس إمبراطورية جديدة في إفريقيا تعويضاً عن الخسائر التي منيت بها إمبراطوريتها القديمة في أمريكا الشمالية^(٤)، فسعت إلى فرض نفوذها على سلطنة زنجبار وإبعاد القوى الأوروبية الأخرى عنها، وليست المعاهدات التي وقعتها مع السيد سعيد بن سلطان وخلفائه إلا دليلاً على تلك النوايا الاستعمارية، ولاسيما معاهدة مورسبي في العام ١٨٢٢ التي نصت على القضاء على تجارة الرقيق بين ممتلكاته الآسيوية والإفريقية، وتلتها معاهدة العام ١٨٤٥ التي كانت أكثر تحديداً لتلك التجارة، وأجازت لإنجلترا حق تفتيش السفن ومصادرتها بتهمة اشتغالها بتجارة الرقيق^(٥)، ثم معاهدة العام ١٨٧٣ التي فرضت فيها إنجلترا

(١) - ديلبيانو، العبودية في العصر الحديث، ص ١٩٤. يحيى، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص ١٩٦-١٩٧. كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٢٥١-٢٥٣.

(٢) - قدام، تجارة الرقيق عمل أوروبي مهد للاستعمار في إفريقيا، ص ٦٣. موسى، تجارة العبيد في إفريقيا، ص ٢٢٠.

(٣) - رودني، أوروبا والتخلف في إفريقيا، ص ١١١.

(٤) - سباك، التاريخ السياسي لسلطنة زنجبار الإسلامية، ص ١١٧.

(٥) - يحيى، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص ٢١١. قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية، ص ٢٠٩.

على السلطان منع تصدير العبيد من ممتلكاته، وإغلاق كل أسواق الرقيق العامة، والقبض على كل من يحاول العمل بها، وحماية السلطان للعبيد المحررين^(١).

ولا ننسى أيضاً العامل الاستراتيجي الذي حققته إنجلترا من وراء اتباع هذه السياسة إذ هيمنت بأسطولها على المحيط الهندي، وفرضت سيادتها على البحار الدولية، وهدمت النظام الاقتصادي القائم في شرقي إفريقيا؛ لاعتماده على العبيد في الزراعة والتجارة والرعي من جهة، ولتخطيمها القوة البحرية للأفارقة نتيجة لمصادرة سفنهم وشحناتها وإتلافها من جهة أخرى، وما تبع ذلك من ضياع رؤوس أموالهم، وهدم نظام القوافل والتجارة مع داخل القارة من أساسه مما فتح الباب أمام أصحاب الأموال من الإنجليز وغيرهم من الأوروبيين للبدء في عملية استغلالهم لموارد القارة الإفريقية^(٢).

ولكن رغم صدور القرارات وتوقيع المعاهدات الرسمية لمكافحة الرق وفرض العقوبات استمرت هذه التجارة بوسائل غير شرعية وبطرق فردية، وهذا ما قلل من فعالية الجهود المبذولة في عملية مكافحة الأمر الذي دفع إنجلترا للتفكير بتشجيع المستكشفين الأوروبيين على التوغل إلى داخل شرقي إفريقيا للوقوف على منابع هذه التجارة في قلب القارة الإفريقية، ومحاولة القضاء عليها في مهدها وإحلال التجارة المشروعة في محلها.

ثانياً- أسباب ودوافع رحلات الكشف العلمية في شرقي إفريقيا في القرن التاسع عشر.

دفعت المتغيرات السياسية والاقتصادية الأوروبية بحركة الكشف الجغرافية للنمو والتطور، تلك الحركة التي عرفت برحلات الكشف العلمية؛ وهي عبارة عن رحلات قام بها الرحالة والمغامرون الأوروبيون في القرن التاسع عشر، وكان الهدف الرئيس من وراءها استكشاف الجغرافية الطبيعية والبشرية والاقتصادية لشرقي إفريقيا؛ أي التعرف على تضاريسها الطبيعية، وأقاليمها المناخية والنباتية ومواردها الاقتصادية والمائية- ولاسيما نهر النيل وروافده، والبحيرات التي ينبع منها- والشعوب والأجناس التي تقطن فيها، ومعرفة أنظمتها وتاريخها وعاداتها وتقاليدها، وأنشطتها الاقتصادية ومؤسساتها الاجتماعية والثقافية، والظروف التي أثرت على سير مجتمعاتها^(٣)، فضلاً عن تحديد الطرق والمسافات ورسم الخرائط للأراضي

(١) - رياض، استعمار إفريقيا، ص ٩٠.

(٢) - يحيى، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص ٢٠٠-٢٠١. حركات، تجارة الرق بإفريقيا، ص ٣٤٧.

(٣) - كعدان، تاريخ إفريقيا، ص ٤٩.

التي يستكشفونها^(١)، ولكن مهما كانت الأهداف التي جاء من وراءها الرحالة إلى شرقي إفريقيا واضحة، إلا أن الأسباب والدوافع كانت متباينة ومتعددة بين سياسية واقتصادية ودينية وشخصية وعلمية تعكس في مجموعها الاهتمام الأوروبي بشرقي إفريقيا والتي يمكن إجمالها بالآتي:

١- الأسباب والدوافع الاقتصادية:

تمحورت الدوافع الاقتصادية حول التجارة والربح التجاري؛ إذ تمتلك القارة الإفريقية من المقومات الاقتصادية ما جعلها محط أطماع القوى الأوروبية الصناعية، فثروات القارة من الذهب والعاج والتوابل وغيرها كانت دافعاً رئيساً للتعرف على أراضيها، إذ أرسل الرواد والمغامرون لتحديد أماكن تواجدها، ثم تأسست شركات مارست نشاطها في استغلال المواد الخام التي شملت منتجات القارة من الثروات الطبيعية والمعدنية، وأدى ذلك في نهاية الأمر إلى استعمار تلك المناطق^(٢)، ولم يقتصر دافع الأوروبيين الاقتصادي على مجرد الحصول على المواد الأولية، وإنما شمل ذلك فيما بعد تصريف المنتجات الأوروبية في الأسواق الإفريقية، ولاسيما بعد قيام الثورة الصناعية في عدد من البلاد الأوروبية، وظهر على أثرها هاجس تأمين السيطرة على المناطق المنتجة للمواد الأولية، وإيجاد الأسواق المناسبة لتصريف المنتجات الفائضة عن الحاجة^(٣)، فاتجه الأوروبيون بأنظارهم نحو القارة الإفريقية التي وجدوا فيها ضالهم المنشودة.

وما الحركة التي تزعمتها إنجلترا للقضاء على تجارة الرق إلا وسيلة سعت من خلالها للنفوذ إلى داخل شرقي إفريقيا لتغيير النظم الاقتصادية الموجودة فيها، وإفساح الطريق أمام قوة الرأسمالية الأوروبية للسيطرة على موارد القارة الإفريقية^(٤)، لا سيما أن التقدم الصناعي أدى إلى تطور الآلات والأدوات العسكرية فظهرت البواخر والقوارب المحملة بالمدافع والتي أصبحت قادرة

(١) - خالد محمد الهدار، مجهودات بعض الرحالة الاجانب في الكشف الأثري في ليبيا في نهاية القرن التاسع عشر، مجلة البحوث التاريخية، السنة الثالثة والثلاثون، العدد الثاني، يوليو ٢٠١١، ص ١٥٥-١٥٦.

(٢) - إبراهيم، الفكر الجغرافي، ص ١٢٩.

(٣) - Kenneth pletcher, the Britannica guide to explorers and explorations that changed the modern world, Britannica educational publishing, new York, first edition, 2010, p13-14.

- جوزيف كي زيربو، تاريخ إفريقيا السوداء، ت يوسف شلب الشام، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٤، ق ٢، ص ٧١٥.

(٤) - اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، ٦م، ص ٨٩. يحيى، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص ١٩٥.

على السير عكس التيار مما ساعد على التخلص من مشكلة صعوبة الإبحار^(١)، والناظر إلى مسار الرحالة في شرقي إفريقيا يجد أنهم كانوا حريصين على معرفة منابع الأنهار ومساراتها، ومواقع البحيرات وما حولها، وأماكن تواجد الذهب والمعادن النفيسة، وأقصر الطرق الموصلة إليها، وهذا ما يدعم ويؤيد الدافع الاقتصادي من وراء تلك الرحلات.

٢- الأسباب والدوافع السياسية:

أ- يأتي في مقدمتها السعي لتكوين الإمبراطوريات الاستعمارية، لاسيما بعد فقدان المستعمرات القديمة في القارة الأمريكية، ولكي تحافظ هذه الدول على تقاليد التوسعية ومكانتها الدولية بصفتهما دولاً عظمى اتجهت أنظارها نحو القارة الإفريقية التي كانت معظم أراضيها لا تزال خارج نطاق نفوذها^(٢). ولا يمكن فصل موضوع الكشف عن موضوع الاستعمار الأوروبي لإفريقيا فالأول كان تمهيداً للثاني؛ إذ شحن الرواد والمكتشفون بذور السيطرة والاستغلال بكل أنواعه إلى هذه القارة، ونمت تلك البذور بسرعة حتى أدت إلى السيطرة على كل شبر من أرجائها^(٣). ومن صور دعم الدول الأوروبية للرحالة في سبيل تسهيل مهماتهم ما قدمته الحكومة الإنجليزية للمستكشفين، إذ أمدتهم بالأموال اللازمة لرحلاتهم كما كان الحال مع لفنجستون الذي حصل في العام ١٨٥٥ على مبلغ خمسة آلاف جنيه لتمويل وتجهيز حملته إلى شرقي إفريقيا، حتى أنها عينته في العام ١٨٥٦ في منصب قنصل لإنجلترا في ساحل إفريقيا الشرقي تسهياً منها لمهمته، وأضاف الطابع الرسمي الحكومي عليها^(٤).

ب- يدخل ضمن نطاق الدوافع السياسية الأهمية الجيوستراتيجية لموقع شرقي إفريقيا على طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب والتي زادت من حدة التنافس بين الدول الأوروبية لاسيما إنجلترا وفرنسا، وهناك تطوران لا علاقة لأي منهما بإفريقيا يضعان القارة في هذا المنظور الجديد. كان الإنجليز في آسيا يجدون حصتهم في الهند مريحة بشكل متزايد لذلك تحتم عليهم توسيع مسؤولياتهم لحماية طريق مواصلاتهم إليها، وفي أوروبا أدى اندلاع الحرب الثورية في العام ١٧٩٣ إلى ازدياد المنافسة بين إنجلترا وفرنسا. وفي ظل الظروف التي سبق ذكرها

(١) - البرعي، الثورة الصناعية، ص ٢٦.

(٢) - كعدان، تاريخ إفريقيا، ص ٤٩-٥٠.

(٣) - فليجة، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، ص ٤٩.

(٤) - بابكور، الإسلام والتحدي التنصيري في شرق إفريقيا، ص ٣٢٨.

أصبحت الطرق البحرية التي تتوغل في إفريقيا، وتؤدي إلى الشرق؛ الشرايين البريطانية الحيوية للمحافظة على رخاء بلدهم الاقتصادي أهدافاً فرنسية واضحة في زمن الحرب. ومع كل عقد من القرن التاسع عشر كان عدد مناطق الاحتكاك الأنجلو- فرنسي يتزايد باطراد، ومن صور ذلك التنافس قيام الإنجليز في العام ١٧٩٥ بالاستيلاء على مستعمرة الكاب من الهولنديين - بعد أن أشار مديرو شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ وقت مبكر على أن القوة التي تملك رأس الرجاء الصالح تسيطر على الطريق من وإلى الهند- وما الحملة الفرنسية على مصر في العام ١٧٩٨ بقيادة نابليون بونابرت إلا صورة من صور ذلك التنافس التي مثلت تهديداً مباشراً للإنجليز في الهند^(١)، وجاء افتتاح قناة السويس في العام ١٨٦٩ للملاحة العالمية ليزيد من المنافسة الدولية حول إفريقيا عموماً، ويزيد من أهمية موقع شرقي إفريقيا بشكل خاص، ويؤثر على العلاقات الأوروبية - الإفريقية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين^(٢).

٣- الأسباب والدوافع الدينية:

لاشك أن الرغبة في التبشير الديني السبب الظاهري الأكثر تأثيراً في النفوس كان من أهم الدوافع التي أخرجت الكثير من الأوروبيين من بلادهم لارتياح هذه البيئة القاسية المحفوفة بالمخاطر، إذ شهد القرن التاسع عشر يقظة في العواطف الدينية^(٣) جاءت كامتداد للعصور الوسطى التي شهدت حروب الفرنجة ضد المسلمين من جهة، والرغبة في نشر المسيحية عن طريق البعثات التبشيرية بين الوثنيين من سكان تلك البلاد من جهة أخرى^(٤). وعلى الرغم من أن منطقة شرقي إفريقيا قد عرفت المسيحية في فترة مبكرة جداً من تاريخها إلا أن المرحلة الأهم بالنسبة إلى الغالبية العظمى من سكان القارة الإفريقية جنوب الصحراء عموماً وشرقي إفريقيا خصوصاً تبدأ من أواخر القرن الثامن عشر، وبالتحديد منذ العام ١٧٩٢، أي ما عرف بالعصر المسيحي الحديث لدى الباحثين الغربيين المتخصصين بالشؤون الإفريقية^(٥)، إذ تسابقت الجمعيات التبشيرية المختلفة إلى إرسال رجالها بدعوى التبشير بين الأفارقة ونشر الحضارة

^(١) - J. D. Fage and Roland Oliver, the Cambridge history of Africa from 1790-1870, Cambridge university press, 2008, v5, p492-493.

^(٢) - الشيخ، إفريقيا في التاريخ المعاصر، ص ٣٥.

^(٣) - عبد الجليل شلي، الرسائل التبشيرية، منشأة المعارف، الاسكندرية، ص ١٥١. كعدان، تاريخ إفريقيا، ص ٥٠.

^(٤) - إبراهيم، الفكر الجغرافي، ص ٩٧.

^(٥) - محمود، الإسلام والمسيحية في شرق إفريقيا، ص ١٨٣.

بينهم، ورأت في هذا واجباً مفروضاً على شعوب القارة الأوروبية^(١)، وما يؤكد ذلك أن بعض الرحالة والمستكشفين كانوا في الأصل من المبشرين، ولكنهم انخرطوا مع ذلك في مجال الكشف الجغرافي، وقدموا دراسات مهمة عن المناطق التي ارتادوها كما هو الحال مع كرابف ورييمان ولفنجستون، والبعض الآخر نجده قد عمد إلى تشجيع إرسال البعثات التبشيرية إلى المناطق التي وصلوها كوسيلة لنشر الحضارة والمدنية فيها كما فعل كل من ستانلي وبيكر^(٢)، وما يؤكد ذلك أيضاً ما كتبه بيكر في مقدمة كتاب رحلته^(٣) "إن الهدف الأساسي من الاستكشاف الجغرافي هو الانفتاح على العلاقات العامة لأجزاء من الأرض قد تصبح صالحة للجنس البشري، والمستكشف هو رائد للمستعمر، والمستعمر هو الأداة الإنسانية التي يجب من خلالها بناء العمل العظيم- أعظم وأصعب كل المهمات - تمدن العالم"، ومع ذلك نجد أن دافع التبشير يتضمن بعض الجوانب السياسية أكثر منها رغبة بالتبشير الديني الفعلي؛ إذ عمدت الدول المرسله لهؤلاء الرحالة، ومن ورائهم الجمعيات التبشيرية^(٤) إلى الحد من انتشار الإسلام في القارة الإفريقية والذي كان يقف سداً منيعاً أمام تقدمهم في القارة وسيطرتهم على مواردها؛ فعمدوا إلى تشجيع التبشير بالمسيحية كوسيلة لوقف انتشار الإسلام، وتسهيلاً لسيطرتهم على تلك المناطق.

٤- الأسباب والدوافع العلمية:

شهد القرن التاسع عشر في أوروبا تقدماً بارزاً في المجال العلمي والتقني، وجميع فروع المعرفة الإنسانية لم تعرفه أوروبا فيما سبق من عصورها، وشكل دافعاً قوياً للقيام بحركة الكشف العلمية التي جاءت كرد فعل على الجهل الأوروبي المطلق بجغرافية القارة الإفريقية، على الرغم من قدم الاتصالات الأوروبية معها من جهة، واستجابة لروح المغامرة وحب

(١) - إبراهيم، الفكر الجغرافي، ص ١٢٧.

(٢) - اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، م ٦، ص ٧٠.

(٣) - Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1, introduction.

(٤) - الجمعيات التبشيرية: هيئات مسيحية تكونت في سنوات وظروف مختلفة. كانت مهمتها نشر الدعوة المسيحية وإعداد دعايتها، وكان الباعث الأهم على قيامها ما لاحظته مؤسسوها من انتشار للفساد والظلم في بلادهم، وانقياد رجال الدين للحكام طمعاً في المال والجاه، فرأى هؤلاء أن الحياة الروحية هي الأساس الأول لإصلاح هذا الفساد، ثم تطورت دعواتها وتعددت وسائلها وكثرت مدارسها، وكان يعوقها تضارب نشاطها واختلاف مذاهبها. عن عبد الجليل شلي، الإرساليات التبشيرية، منشأة المعارف، الاسكندرية، د. ط، د. ت، ص ١٦٧.

الاستطلاع العلمي والفضول الجغرافي الذي تميز به القرن التاسع عشر من جهة أخرى^(١). ويمكن إجمال الدوافع العلمية في عاملين أساسيين شكلا جوهر هذه الكشف في شرقي إفريقيا: الأول يتعلق بإفريقيا للكشف عن لغز منابع نهر النيل، والثاني يتعلق بأوروبا وهو نشأة الجمعيات الجغرافية التي كرسَتْ جهودها لتعزيز استكشاف إفريقيا ورعاية وتمويل الرحلات إليها.

أ- لغز منابع نهر النيل:

شكلت منابع نهر النيل لغزاً محيراً للعالم أجمع شغل خواطر العلماء منذ القدم، وسعى الرحالة والمغامرون في مختلف العصور التاريخية للكشف عنها وحل لغزها^(٢)، وعلى الرغم من أن نهر النيل يُعد أطول أنهار العالم وينظر إليه على أنه يمثل أكثر من نظام نهري واحد إلا أن منابعه بقيت مجهولة حتى منتصف القرن التاسع عشر، وكانت المعلومات المتداولة عنه حتى ذلك الوقت غامضة ومشوشة حتى أن البعض خلط بين منابعه و منابع الأنهار الإفريقية الأخرى^(٣). وكان هيرودوت^(٤) أول من تكلم فيها، وبيّنها بطليموس بعض التبيان^(٥)، واشتغل فيها جغرافيو الرومان والعرب والبرتغاليين في مطلع العصور الحديثة^(٦)، ويعود التأخر والبطء الذي اعترى البحث عن منابع النيل إلى ما يلي:

١- انتشار العقبات والجنادل والشلالات التي تعترض مجراه وتجعل الصعود فيه صعباً.

٢- قسوة الصحراء التي لا تساعد الإنسان على الحركة والمرور فيها.

(١) - كي زيريو، تاريخ إفريقيا السوداء، ص ٧٠١-٧٠٢. رياض، استعمار إفريقيا، ص ١٠٧.

(٢) - كانت مسألة فيضان النيل إحدى الأسباب التي دفعت السكان القاطنين على ضفتيه منذ أقدم العصور للكشف عن منابع النهر لمعرفة أسباب فيضانه، فدرجوا على إرسال الحملات لتتبع النهر حتى المنبع، لكنها كانت تصدم بالسدود والمستنقعات التي تعيق عبورها فتعود أدراجها. عن مجهول، مجاهل إفريقيا، ص ٨.

(٣) - إبراهيم، الفكر الجغرافي، ص ١٦١.

(٤) - هيرودوت: مؤرخ يوناني ولد في هاليكارناس، ولقب بأبي التاريخ؛ لأن مصنفاته في التاريخ تعد من أنفس الآثار التي تركها الكتاب المتقدمون. عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وكان قد زار مصر ووصفها وصفاً دقيقاً، وهو الذي قال عنها (هبة النيل). عن جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٤٥٣.

(٥) - بطليموس: من أشهر علماء مدرسة الإسكندرية، عاش في القرن الثاني الميلادي، ومن أشهر مؤلفاته المجسطي، قال عن منابع النيل أنها تلتقي في بحيرتين كبيرتين توجدان في أنحاء خط الاستواء، ولا يستطيع الغرباء التحول إلى ما وراءها؛ لأن الأذهان ممتلئة بالروايات عن وجود الوحوش والحيوانات الضارية التي تفتك بكل من أراد المسير في غاباتها. عن أنطون زكري، النيل في عهد الفراعنة والعرب، مطبعة المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٢٦، ص ١٧.

(٦) - مجهول، مجاهل إفريقيا، ت شاعر شقير، مطبعة جاورجيوس، بيروت، ١٨٨٥، ص ٩٧. الشامي، نهر النيل، ص ٢٨-٣٩.

٣- طول النهر وتشعب روافده العليا التي تضرب بداياتها على سطح الهضبة الحبشية الوعرة من ناحية وعلى سطح الهضبة الاستوائية في قلب إفريقيا من ناحية أخرى^(١). وبقيت منابع النيل مجهولة عن الأوروبيين، ولا تتعدى معرفتهم بها منطقة التقاء النيلين الأبيض والأزرق^(٢) حتى القرن التاسع عشر إذ تجمعت الدوافع السابقة في بوتقة واحدة فتحت الباب أمام تدفق الرحلات الكشفية ذات الطابع العلمي التي ما لبثت أن أزالَت الغموض عن جميع المناطق المجهولة في شرقي إفريقيا.

ب- نشأة الجمعيات الجغرافية:

تميزت الحياة الفكرية لأوروبا في القرن التاسع عشر بتأسيس جمعيات ومؤسسات علمية في مختلف عواصم أوروبا؛ كرست نفسها لتعزيز البحث في تخصصات معينة سواء بالجغرافيا أو الاثنوجرافية أو الأنثروبولوجيا، ووجه بعضها اهتماماً خاصاً بقارة إفريقيا وكانت ترنو إلى الكشف الجغرافي ورعايته وتمويله^(٣)، وعملت على تمويل البعثات، وعقد المناظرات، وطبع نتائج الرحلات في كتب أو مجلات تصدر سنوياً أو دورياً في مجلدات مدعمة بالخرائط الجديدة والصور والمعلومات، وكانت أول جمعية جغرافية قد تأسست هي الجمعية الجغرافية في باريس في العام ١٨٢١، وتلاها جمعية برلين في العام ١٨٢٨، ثم الجمعية الجغرافية الملكية في لندن (The Royal Geographical Society) في العام ١٨٣٠^(٤)، التي كانت أبرز الجمعيات التي عرفتها أوروبا وانبثقت وانبثقت فكرة تأسيسها عن بعض أوجه المعرفة والمال الإنجليزيين اللذين شكلوا ناد خاص بهم في العام ١٧٨٨ لتعزيز اكتشاف الأجزاء الداخلية في إفريقيا، وكان السيد جوزيف بانكس (Joseph Banks)^(٥) أحد الأعضاء البارزين في ذلك التجمع، وصاحب شخصية بارزة لها وزنها في المحافل العلمية، وانتخب ليكون أول رئيس للجمعية الجغرافية الملكية الإنجليزية التي

(١) - الشامي، نهر النيل، ص ١٥-١٦.

(٢) - فليجة، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، ص ٥٤-٥٥.

(٣) - Fage, Oliver, the Cambridge history of Africa, v5, p466-467.

(٤) - إبراهيم، الفكر الجغرافي، ص ١٠٤-١٠٥.

(٥) - جوزيف بانكس: (١٧٤٣ - ١٨٢٠) عالم نبات إنجليزي، ولد في لندن في العام ١٧٤٣، والتحق بجامعة أكسفورد في العام ١٧٦٠، وكان عنده اهتماماً كبيراً في التاريخ والطبيعة وعلم النبات. شارك في رحلة الكابتن جيمس كوك الأولى (١٧٦٨-١٧٧١)، وله ما يقرب من ٨٠ نوعاً من النباتات تحمل اسم بانكس. كان أيضاً من مؤسسي الجمعية الجغرافية الملكية الإفريقية؛ وهي منظمة بريطانية مكرسة لاستكشاف إفريقيا، وأصبح رئيساً لها في العام ١٧٧٨ وكانت وفاته في العام ١٨٢٠ بعد أن قدم الكثير لرفع مكانة العلم في إنجلترا. عن The encyclopedia Britannica, v3, p333.

حلت محل النادي المذكور في العام ١٨٣٠^(١). ولم يتجاوز عدد أعضاء الجمعية حينئذ ٨٠٠ عضو، وتنامت مكانة الجمعية في منتصف القرن التاسع عشر، لاسيما في ظل مراحل رئاسة السير رودريك مورشيزون (Roderick Murchison)^(٢)، وتضخمت مواردها المالية بصورة كبيرة، وحصلت على الدعم المالي من الحكومة الإنجليزية، ومع نمو الاهتمام العام بالاستكشاف والتبشير في إفريقيا زادت شعبية الجمعية، وزاد معها عدد أعضائها بشكل كبير، ووصل بحلول العام ١٨٧٢ إلى أكثر من ٣ آلاف عضو. وظلت الجمعية المؤسسة الجغرافية الأكثر أهمية في إنجلترا خلال القرن التاسع عشر، وأشرفت على أعمال البعثات العلمية، ومسح ورسم الخرائط على نطاق عالمي، واحتلت موقعا محورياً بين المؤسسات العلمية الإنجليزية^(٣)، وكانت وراء إرسال أشهر الرحالة والمستكشفين إلى شرقي إفريقيا، وتكفلت بتمويل رحلاتهم كما هو الحال مع كل من (دافيد لفنجستون، والسير ريتشارد بيرتون، وجون سبيك، وجيمس جرانت) وغيرهم الكثير في مناطق أخرى من إفريقيا^(٤).

٥- الأسباب والدوافع الشخصية:

يدخل ضمن هذا المجال الدوافع الذاتية التي تتصل بشخصية الرحالة أو المستكشف نفسه، كالرغبة في معرفة العالم وحب المغامرة واكتشاف المجهول، والسعي وراء الشهرة والثروة وتحقيق المجد الشخصي، فضلاً عن المكافآت العملية^(٥)، وغير ذلك من الأسباب التي عززت لدى المستكشفين الشجاعة والقوة لخوض غمار الترحال في هذه الأراضي المجهولة عنهم، وجعلتهم يتحملون الكثير من الصعاب والعقبات، ودفع البعض منهم حياته ثمناً في سبيل الوصول إلى هدفه، كما هو الحال مع لفنجستون الذي توفي في خضم ترحاله وحيداً في العام

(١) - Lawrence s. Dritsas, local information and British explorers: the search for the source of the Nile, 1850-1875, master degree, Virginia, copyright 2001, p9-28.

جورج هارب، الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي، ت عبد العزيز شرف، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٣، ص ١٩٣.

(٢) - السير رودريك مورشيزون: (١٨٧١-١٧٩٢) عالم جيولوجي ولد في اسكتلندا في العام ١٧٩٢، وتلقى تعليمه في الكلية العسكرية في جامعة مارلو العظمى، وبعد ثمان سنوات من الخدمة ترك مورشيزون الجيش وحول اهتمامه إلى العلم وأصبح مفتوناً بعلم الجيولوجيا والتاريخ الطبيعي وانضم إلى الجمعية الجيولوجية في لندن وسرعان ما أصبح أحد أعضائها النشطين وقام باستكشاف أجزاء كبيرة من إنجلترا و اسكتلندا، وخلال السنوات الأخيرة من حياته كرس جزءاً كبيراً من وقته لشؤون الجمعية الجغرافية الملكية التي كان أحد مؤسسيها في العام ١٨٣٠، وتولى رئاستها بين أعوام ١٨٤٣-١٨٧١، توفي في العام

١٨٧١ ودفن في مقبرة برومبتون في لندن. عن 32-31، v19، The encyclopedia Britannica

(٣) - دافيد لفنجستون، الجغرافية والثورة، تر عاطف معتمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط ١، ٢٠١٧، ص ١٤-١٥.

(٤) - pletcher, the Britannica guide to explorers, p242.

(٥) - pletcher, the Britannica guide to explorers, p14.

ثالثاً- معوقات سير الرحلات والعوامل المساعدة على القيام بها في القرن التاسع عشر:

١- معوقات توغل الرحالة الأوروبيين في الشرق الإفريقي:

تعددت الأسباب التي أعاققت وأخرت توغل الأوروبيين إلى داخل الشرق الإفريقي حتى مطلع القرن التاسع عشر، أي بعد مرور ما يزيد على ثلاثة قرون ونصف على بدء الاتصال المباشر بين أوروبا والقارة الإفريقية، ويمكن تصنيفها إلى عوامل متعلقة بأوروبا وعوامل متعلقة بإفريقيا وفق الآتي:

أ- أسباب وعوامل تتعلق بأوروبا:

١- أسباب معرفية:

تكمن في جهل الأوروبيين بجغرافية القارة الإفريقية وثرواتها من معادن ثمينة ومواد زراعية، وندرة معلوماتهم عنها، وما وجد منها كان يشوبه الغموض وتغلب عليه الخرافات، ونتج عن ذلك جهل مطلق بطرق القارة ومسالكها ومخاطرها، وعدم توفر أي خرائط صحيحة لهذه المساحات الشاسعة^(٢)، لذلك عدّ التوغل نحو الداخل مخاطرة كبرى لا تؤمن عواقبها، وواجه الرحالة الكثير من المصاعب المترتبة على ذلك الجهل حتى تمكنوا من القيام برحلاتهم وتحصيل المعرفة العلمية حول تلك المناطق المجهولة عنهم.

٢- أسباب سياسية:

- تركز اهتمام الدول الأوروبية حتى القرن التاسع عشر على الشرق (الهند وجزر الهند الشرقية) والعالم الجديد (الأمريكتين وجزر البحر الكاريبي) لما يتمتعان به من شروط أسهل في التوغل وطبيعة مناسبة ومناخ ملائم وأنهار صالحة للملاحة، مما صرف نظر الأوروبيون عن القارة الإفريقية لفترة طويلة^(٣).

- انشغال الدول الأوروبية بمشاكلها الخاصة، إذ كانت منصرفة كلية إلى تدعيم وجودها في أوروبا من جهة (حرب الثلاثين عام ١٦١٨-١٦٤٨، حرب الوراثة الأسبانية والنمساوية، حرب السبع سنوات، الحروب النابليونية)، وفي المستعمرات التابعة لها في كل من الأراضي الجديدة

(١) - إبراهيم، الفكر الجغرافي، ص ١٣٢-١٣٣. كلوزيه، تطور الفكر الجغرافي، ص ٨٩.

(٢) - ماكيفيدي، أطلس التاريخي الإفريقي، ص ١٥٧.

(٣) - كعدان، تاريخ إفريقيا، ص ٥٤-٥٥. فليجة، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، ص ٥٠-٥١.

ونيوزيلندا وأستراليا والهند من جهة أخرى، وقد تطلب وجودها في بعض الأحيان الاصطدام مع الثورات المحلية التي كانت تنشب من حين لآخر^(١).

- الصراع بين الدول الأوروبية لأجل السيادة على البحار لاسيما إبان ذروة نشاط تجارة الرقيق^(٢).

٣- أسباب تجارية:

اقتصرت وفقها استراتيجية الدول الأوروبية تجاه إفريقيا على إقامة بعض المراكز والمحطات التجارية على السواحل كمحطات للسفن ومراكز لتجميع المنتجات والسلع الإفريقية من ذهب وعاج ورقيق وغيرها^(٣)، لاسيما أن أفارقة الساحل قاموا بدور الوسيط التجاري بين أفارقة المناطق الداخلية والوكالات التجارية الأوروبية القائمة على السواحل، الأمر الذي ثبط همم الأوروبيين، وأدى إلى تقاعسهم عن السعي للتعرف على داخل القارة^(٤).

ب- أسباب وعوامل تتعلق بإفريقيا:

كانت هناك عقبات عدة اعترضت كشف الأجزاء الداخلية لشرقي إفريقيا على نطاق واسع، وتعلق بإفريقيا بحد ذاتها، ومن أهمها ما يلي:

١- العوامل الطبيعية:

مثلت العقبات الطبيعية أبرز العوامل التي أخرت استكشاف شرقي إفريقيا والتوغل إلى قلب القارة الإفريقية، ويمكن إجمالها بما يلي:

أ- قسوة المناخ الاستوائي والمداري، وشدة الحرارة، وارتفاع نسبة الرطوبة في إفريقيا الاستوائية التي لا تتناسب مع الأوروبيين فجعلتهم يتخوفون من التوغل نحو الداخل، وكان هذا العامل من أكبر العقبات التي اعترضت مسار الكشوف الجغرافية^(٥).

ب- عدم ملائمة شواطئ القارة لاستقبال السفن الكبيرة، إذ تتميز بقصرها ووعورتها، وصعوبة اجتيازها فهي إما قاسية وعرة أو مسطحة مليئة بالبحيرات المستنقعية أو مليئة

(١) - موسى، موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص ١٢٥-١٢٧.

(٢) - رياض، كشف إفريقيا، ص ١٥.

(٣) - الجمل، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص ٩-١٠.

(٤) - كعدان، تاريخ إفريقيا، ص ٥٥.

(٥) - هارب، الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي، ص ١٨٨. رياض، كشف إفريقيا، ص ٢٩.

بالحواجز الرملية والصخرية^(١)، إضافة إلى فقرها بالرؤوس والخلجان مما ترتب عليه قلة وجود الموانئ الطبيعية التي تطل منها على العالم الخارجي^(٢)، ويضاف إلى ذلك قلة عدد الجزر القريبة من الساحل باستثناء مدغشقر وبعض الجزر الصغيرة، والتي يمكن أن تتخذ كمراكز للتزود بالموثون الغذائية، وتجديد النشاط ومناطق يستقر فيها الرحالة قبل نفوذهم إلى داخل القارة^(٣).

ج- تضاريسها الوعرة المتمثلة بالجبال الشاهقة، والصحراء الشاسعة، والمناخ القاسي والطرق غير المعبدة، والغابات الاستوائية الكثيفة، والأمطار الغزيرة والحيوانات البرية المفترسة والحشرات الضارة^(٤).

د- عدم صلاحية معظم أنهارها للملاحة فهي إما تعترضها الجنادل والشلالات والمستنقعات التي تعيق استخدامها كوسيلة مواصلات نحو المناطق الداخلية أو أن مصباتها مسدودة بالحواجز الرملية^(٥).

٢- عوامل صحية:

تتمثل تلك العوامل في انتشار الحشرات الضارة والأمراض والأوبئة في إفريقيا جنوب الصحراء ككل؛ ولاسيما في المناطق الاستوائية حيث تكثر المستنقعات، كذبابة تسي تسي والبعوض وأمراض النوم والملاريا والبلهارسيا والدوسنتاريا وغيرها، والتي شكلت حاجزاً منيعاً أمام تقدم الرحالة نحو الداخل الإفريقي، ومن هذه الأمراض ما يؤثر على الإنسان، ومنها ما يؤثر على الحيوان (الذي يعد مصدر الغذاء، ووسيلة النقل الرئيسة في أماكن كثيرة من القارة)، ومنها ما يؤثر في كليهما معاً^(٦). ولم يحدث أن سلم أحد من المستكشفين من الإصابة بأحد الأمراض المختلفة مرات عديدة، إذ كانت معظم مساحة منطقة البحيرات متأثرة بها، إذا تعرض كرابف ورييمان للحمل مرات عدة، وكذلك الحال مع بيرتون وسبيك وستانلي، وكثيراً ما انتشرت حمى

(١) - بولم، الحضارات الإفريقية، ص ٦.

(٢) - رزق، إفريقيا وحوض النيل، ص ٤.

(٣) - روكز، إفريقيا السوداء، ص ١٣. فليجة، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، ص ٥٠-٥١.

(٤) - عبد العليم خلاف، كشوف مصر الإفريقية في عهد الخديوي إسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ٧-٨. يحيى، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص ٣.

(٥) - كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ١٥-١٦. هارب، الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي، ص ١٨٨.

(٦) - رونالدو أوليفر، أنتوني أتمور، إفريقيا منذ عام ١٨٠٠، ترجمة فريد بوري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٥، ص ٤٢. فليجة، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، ص ٥٠-٥١.

الملاريا والدوسنتاريا بين جنود السير صمويل بيكر في أعالي النيل مما تسبب بهلاك الكثير منهم، كما أصيب لفنجستون بالحمى والدوسنتاريا الحادة مرات عديدة، وكانت سبباً في وفاته في النهاية^(١).

٣- تحكم الدويلات الإسلامية بساحل شرقي إفريقيا، فضلاً عن عداء الأفارقة للأوروبيين ومقاومتهم لهم مما شكل حتى مطلع القرن التاسع عشر سداً منيعاً أعاق محاولات الأوروبيين للتوغل إلى داخل القارة^(٢).

٤- الصعوبات البشرية:

تمثلت بتعدد اللغات الإفريقية التي كانت في معظمها محكية ولا يوجد لها قواعد ثابتة، وترتب على ذلك صعوبة العثور على مترجمين للتواصل مع السكان المحليين^(٣)؛ أضف إلى ذلك صعوبة الحصول على العدد الكافي من الحمالين الذين تحتاجهم الرحلات الكشفية والذين سرعان ما كانوا يهربون ويتركون أفراد البعثات الكشفية لمصيرهم، هذا إلى جانب الحروب الدائرة بين القبائل التي تقطن المنطقة والتي كانت من السمات الغالبة على المنطقة طوال فترة تاريخها الحديث نتيجة للتحركات المستمرة للقبائل^(٤).

٢- العوامل المساعدة على القيام برحلات الكشف العلمي في القرن التاسع عشر:

ظلت القارة الإفريقية لاسيّما شرقيها فترة طويلة من الزمن بعيدة عن ميدان الكشف الجغرافية نتيجة لما سبق من أسباب حتى القرن التاسع عشر؛ إذ استجدت بعض التطورات على الساحة الأوروبية التي سهلت من عمليات الكشف، وأوجدت الدوافع المحفزة لذلك، وساعدت الرحالة على التوغل نحو الداخل الإفريقي، وبناء على ذلك شهد القرن التاسع عشر سلسلة من الرحلات المنظمة قام بها بعض الرواد والمتطوعين، كانت ممولة من قبل دول أو من قبل جمعيات تأسست لهذا الغرض، وزودت بأجهزة حديثة مكنتها من الكشف عن معظم المناطق التي كانت مجهولة عنهم لقرون طويلة، وسعت إلى دراسة جغرافية القارة الطبيعية والاقتصادية والبشرية دراسة علمية دقيقة، وأطلق على هذه المرحلة اسم مرحلة الكشف

(١) - زاهر رياض، كشف إفريقيا، معهد الدراسات الإفريقية، القاهرة، ١٩٦١، ص ٣٩-٤٠. مجهول، مجاهل إفريقيا، ص ٤٠.

(٢) - كعدان، تاريخ إفريقيا، ص ٥٥-٥٦.

(٣) - فليجة، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، ص ٥٠-٥١.

(٤) - رياض، كشف إفريقيا، ص ٤١-٤٣. مجهول، مجاهل إفريقيا، ص ٣٦-٣٧.

العلمي المنظم، ويمكن إيجاز أهم العوامل التي يسرت سبيل الرحالة ومكنتهم من التوغل إلى داخل شرقي إفريقيا بالآتي:

أ- كان للثورة الصناعية والانجازات العلمية التي تحققت في أوروبا دوراً كبيراً في المساعدة على ارتياد المناطق المجهولة، وتمثل ذلك سواء في الأجهزة التي تتعلق بمعرفة الطرق وتحديد الأماكن ورسم الخرائط، أو في ازدياد أعداد سفن الأساطيل التابعة للدول المختلفة والتي أضحت تعمل بالمحركات البخارية التي تعتمد على الفحم كوقود لها^(١)؛ مما ساعد على تقريب المسافات والوصول إلى المكان المطلوب بوقت زمني أقصر.

ب- استفاد المستكشفون الأوروبيون من التقدم العلمي الذي تمّ على مستوى التقنيات الطبية، واكتشاف الدواء الشافي لعلاج الأمراض الإفريقية أو الوقاية منها وعلى رأسها الملاريا في إتمام عملية الكشف التي استغرقت حوالي قرن من الزمان (١٧٧٠ - ١٨٧٥)^(٢)، إذ اكتشف أحد الأطباء العاملين في الأسطول الإنجليزي في العام ١٨٤٧، أن تناول جرعة يومية من مشروب الكينين (quinine) (وهو مادة شبه قلوية شديدة المرارة) تعطي المناعة وتوفر الحماية من الإصابة بالملاريا مما أدى إلى حماية أعداد لا تحصى من البشر من الألم أو الموت العاجل، وأصبحت أكثر الأماكن خطورة في إفريقيا مفتوحة أمام الأوروبيين^(٣).

ج- تطور صناعة الأسلحة النارية التي وفرت الإمكانيات المادية والمعنوية للرحالة الأوروبيين، ومنحتهم الثقة الزائدة بأنفسهم، ومكنتهم من التوغل نحو الداخل، وكثيراً ما لاقى المكتشفون الصعاب، وتعرضوا للموت لولا البنادق التي كانوا يحملونها معهم^(٤).

د- نشأة الجمعيات الجغرافية التي تولت مهمة تنظيم الكشف وإرسال المستكشفين إلى المناطق المجهولة، وتبنت مسألة تمويلهم وتزويدهم بالأدوات والأجهزة اللازمة لرحلاتهم.

هـ- ترجمة مؤلفات الرحالة العرب، ومعرفة كنوز القارة، وطرقها البحرية، وطبيعتها الجغرافية^(٥).

(١) - إبراهيم، الفكر الجغرافي، ص ١٣١-١٣٢.

(٢) - د. ك. تيرنر، الكشف العلمي، ترجمة أحمد سليمان، دار الكاتب العربي، القاهرة، ص ١٩٦-١٩٧. الشيخ، إفريقيا في التاريخ المعاصر، ص ٣٤.

(٣) - Page, Oliver, the Cambridge history of Africa, v5, p487.

(٤) - علي الاسطى، أثر تجمع دول الساحل والصحراء في تطور القارة الإفريقية ١٩٩٨-٢٠٠٩، جامعة أم درمان، السودان، ص ٧٠.

(٥) - فليحة، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، ص ٥٢-٥٣. موسى، موجز تاريخ إفريقيا الحديث، ص ٦٨.

و- المساعدات التي قدمتها كل من سلطنة زنجبار والإدارة المصرية في السودان للمكتشفين والرحالة الأوروبيون. كذلك لا ننسى الضغط الذي مارسه الإنجليز على سلطان زنجبار السيد سعيد وخلفائه من بعده، ووجود القنصل الإنجليزي الذي تمثل بشخص هامرتون^(١) ثم كيرك^(٢) اللذان أديا دوراً كبيراً في تقديم المستلزمات كافة للرحالة الأوروبيين، والتوسط لدى سلطان زنجبار ليقدم لهم المساعدات اللازمة.

ز- وجود الجزر على الساحل الشرقي، ولاسيما زنجبار وبمبا ومافيا التي اعتمد عليها كمناطق للوثوب منها إلى الداخل.

ح- افتتاح قناة السويس للملاحة العالمية في العام ١٨٦٩ الذي اختصر وقصر المسافة بين أوروبا وشرقي إفريقيا، وسهل على الرحالة مشاق الطريق ومصاعبه^(٣).

^(١) - أتكينز هامرتون (Atkins Hamerton): ولد في العام ١٨٠٤ في دبلن في إيرلندا، ووصل إلى بومباي في العام ١٨٢٥ كجندي في فوج المشاة، وترقى في العام التالي إلى رتبة ملازم، وحصل على رتبة كابتن في العام ١٨٣٧. عين في العام ١٨٤٠ وكيلاً بريطانياً في مسقط، وفي العام التالي حصل على منصب القنصل، ولما نقل السيد سعيد بن سلطان بلاطه إلى جزيرة زنجبار انتقل هامرتون أيضاً معه، وبقي في منصب القنصل حتى وفاته في العام ١٨٥٧. R.L. Bidwell, G. Rex Smith, new Arabian studies 2, university of Exeter press, p1, 1994, p26.

^(٢) - جون كيرك (John Kirk): (١٨٣٢-١٩٢٢) طبيب ومستكشف وعالم طبيعي بريطاني، ولد في العام ١٨٣٢ في اسكتلندا، وحصل على شهادة الطب من جامعة أدنبره. رافق لفنجستون في رحلة الزامبيزي الثانية بين عامي ١٨٥٨ - ١٨٦٤ باعتباره عالم نباتات، وكان من أوائل الرجال البيض الذين شاهدوا بحيرة نياسا، وقد أدت السمعة التي اكتسبها خلال هذه الحملة إلى تعيينه في العام ١٨٦٦ جراحاً لدى الوكالة السياسية في زنجبار، وفي العام ١٨٦٨ أصبح وكيلاً سياسياً مساعداً، وتم ترقيته إلى رتبة قنصل في العام ١٨٧٣، وغطت السنوات الـ ٢١ التي قضاها كيرك في زنجبار الفترة الأكثر حرجاً في تاريخ التدخل الأوروبي في شرق إفريقيا، وخلال ذلك الوقت كان الحاكم الفعلي للبلاد، وشهد عمله إنهاء تجارة الرقيق في شرق إفريقيا، توفي في العام ١٩٢٢ عن عمر يناهز ٨٩ عاماً، ودُفن في باحة كنيسة القديس نيكولاس في كينت في إنجلترا. the encyclopedia Britannica, v15, p829-830

^(٣) - رياض، كشف إفريقيا، ص ٢٧. ماكفيدي، أطلس التاريخ الإفريقي، ص ١٨٦. فليجة، إفريقيا دراسة عامة، ص ٥٢-٥٣.

رابعاً- الاسهامات العربية في رحلات الكشف العلمية في القرن التاسع عشر:

في الوقت الذي ركزت فيه الدراسات الاستعمارية على دور الأوروبيين في اكتشاف القارة الإفريقية وتحضيرها، فإنها سعت للتقليل من دور العرب الحضاري في هذا المجال، رغم أن أوروبا لم تستطع الوصول إلى داخل القارة الإفريقية إلا باعتمادها على سجلات العرب ومدوناتهم التي ترجم أكثرها إلى مختلف اللغات الأوروبية^(١)، ولم تقتصر معلومات العرب عن هذه المناطق على ما ورد من أخبار على ألسنة التجار بل تطلعوا إلى الوقوف شخصياً على المعالم الجغرافية الطبيعية والبشرية، وإخضاعها للملاحظة المباشرة أو المشاهدة والمعاينة، وهكذا ظهر الرحالة الجغرافيون الذين شاركوا بأنفسهم في حركة الكشف، وليس مجرد الكتابة عنها^(٢). وكان من أبرزهم ابن حوقل وابن بطوطة والمسعودي والإدريسي الذين ارتادوا سواحل شرقي إفريقيا قبل أن تصل إليها الحملات الكشفية البرتغالية بقرون عدة، وقدموا معلومات قيمة عن مجاهلها وعن صحرائها وغاباتها وجبالها وأنهارها^(٣)، وتركوا لنا ثروة عظيمة من أخبار شعوبها وملوكها ونظام حكمهم وصناعاتهم وتجارتهم ودياناتهم، كان لها أثر كبير في إيضاح ما غمض من تاريخ إفريقيا وأعانت المكتشفين والباحثين الأوروبيين في رحلاتهم واستكشافاتهم^(٤). فضلاً عن ذلك برز دور كل من سلطنة زنجبار والإدارة المصرية في السودان الرائد في هذه الكشوف؛ حيث مهدوا السبيل للرحالة للقيام برحلاتهم وأمدوهم بالمعلومات التي لولاهما لما تمكن هؤلاء الرحالة من المضي قدماً في كشوفاتهم، وساهموا في هذه الكشوف بشكل مباشر، وكان لهم فضل كبير في تعريف العالم بهذا الجزء المهم من القارة الإفريقية.

١- دور مصر في رحلات الكشف العلمية:

شهدت مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر بدايات تكوين الدولة الحديثة بعد وصول محمد علي إلى سدة الحكم فيها في العام ١٨٠٥، وشهدت معها الرغبة في مد نفوذها، وتحقيق المشروعات التوسعية سواء باتجاه المناطق العربية كالجزيرة وبلاد الشام أو في القارة الإفريقية ومنها الحملة على السودان في العام ١٨٢٠، والتي كان من أبرز دوافعها السعي وراء

(١) - قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، ص ١٥.

(٢) - يوسف حوالة، ابن حوقل ورحلاته الجغرافية للجنح الغربي من الدولة الإسلامية، جامعة الكويت، ١٩٩٢، ص ٨-٩.

(٣) - الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء، ص ١٢٤-١٢٥.

(٤) - فليحة، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، ص ١٨.

الرقيق والذهب، ولاشك في أن تدهور الأوضاع في بلاد السودان وعزلتها عن العالم الخارجي، وانتشار الفوضى والاضطرابات السياسية، وتدهور الأحوال الاقتصادية، وضعف دولة الفونج^(١)، عوامل يسرت كثيراً من أسباب التوسع^(٢). ومما يسترعي الانتباه أن الحملات العسكرية التي تتابعت من مصر إلى أقاليم السودان المختلفة كانت تصحبها بعثات من العلماء بهدف توسيع نطاق المعارف الخاصة بالأقاليم التي تصل إليها القوات المصرية^(٣).

ومع الشدة والقسوة التي رافقت بسط سلطانهم على أرجاء السودان المختلفة، وفرض سيطرتهم عليه. إلا أن التوسع المصري وما تبعه من فرض للنظام وإقامة الحكم المنظم، وتأسيس سلسلة من المراكز الإدارية على النيل، وتعيين الولاة على الأقاليم المختلفة، وتحقيق كل أسباب الأمن والطمأنينة في قطاع من حوض النيل الأوسط، وتنميتها وبناء المدن فيها لاسيما منها الخرطوم التي كانت من أهم المدن التي أنشئت وأصبحت عاصمة السودان فيما بعد والقاعدة الأمامية للكشف الجغرافي عن منابع النيل^(٤). الأمر الذي أفسح المجال للرحالة والمغامرين الأوروبيين للتقدم باتجاه هذه الأنحاء بعد أن كانت عصية عليهم، وفُتح طريق الكشف الجغرافي في القارة الإفريقية عامة وحوض النيل بوجه خاص، وعرف العالم من جراء هذا ذلك أن للنيل منبعاً آخر غير ذلك الذي اكتشفه جيمس بروس في العام ١٧٧٠.

كما يسّر الحكم التركي- المصري للسودان دخول الرحالة والمستكشفين وشملهم بعنايته وأمدهم بحاميات عسكرية في رحلاتهم البعيدة، إذ رحب محمد علي بجميع زائريه من الغرب من إنجليز وفرنسيين على السواء واستقبلهم بكل حفاوة وإكرام دون استثناء، كما كان لا يتردد في أن يمنح الرحالة الغربيين مهما كانت مكانتهم ما يحتاجون إليه من فرمانات ورسائل توصية ليرتادوا

(١) - دولة الفونج: (١٥٠٤-١٨٢١) أو مملكة سنار أو السلطنة الزرقاء كما يسميها آخرون، قامت هذه المملكة الإسلامية في السودان في مطلع القرن السادس عشر على انقراض ممالك النوبة وعدوة المسيحية ودامت ما يقارب ثلاثمائة وسبعة عشر عاماً حتى تم إخماتها علي يد ولاية محمد علي باشا حاكم مصر في العام ١٨٢١. عن حسن مكي محمد أحمد، الثقافة السنارية المغزى والمضمون، جامعة إفريقيا العالمية، مركز البحوث والترجمة، ٢٠١٢ ص ٣١-٣٥.

(٢) - السيد يوسف نصر، الوجود المصري في إفريقيا، في الفترة من ١٨٢٠ إلى ١٨٩٩، دار المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٨١، ص ١٥-١٦. مورهد، النيل الأزرق، ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٣) - مورهد، النيل الأزرق، ص ٣٠٨. قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، ص ٢٧٤.

(٤) - محمد أحمد الجابري، تاريخ السودان كما يروي أهله، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧، ص ٢٢-٢٣. الشامي، نهر النيل، ص ٥٨. ضرار صالح ضرار، تاريخ السودان الحديث، مكتبة دار الحياة، بيروت، ط ٣، ١٩٦٨، ص ٥٠-٥٥.

مناطق النيل العليا^(١). فقام عدد كبير منهم بزيارة السودان في السنوات التي أعقبت ذلك، واقتصرت رحلاتهم على أقاليم السودان الشمالي التي امتدت إليها الإدارة المصرية مثل النوبة وستاروكردفان والتاكا، ولولا المساعدات التي قدمت من الحكومة التركية- المصرية لما تمكن هؤلاء من أن يحققوا أي نجاح يذكر، ولما استطاع الكثير منهم القيام باستكشافات جغرافية عدة في أقاليم النوبة والسودان^(٢). ولعل جون لويس بوركهارت^(٣) يعد نموذجاً من أولئك الرحالة الأوروبيين الذين استفادوا من استتباب الأمن في تحقيق عملياتهم الكشفية، كما استعان في أسفاره في بلاد النوبة بالأدلاء العرب الذين لهم معرفة جيدة بتلك المناطق، واعتمد كذلك على خطابات التوصية التي حصل عليها من محمد علي ومن بعض كبار موظفيه في صعيد مصر^(٤). كذلك كان الحال مع كل من جون بتريك^(٥) وصمويل بيكر وغيرهما الكثير ممن أخذوا يتوغلون في مجاهل السودان المختلفة حتى استكملوا لنا صورته وملاؤوا ما كان يبدو كرقعة خالية من الخرائط الجغرافية^(٦). كما تهيأت الظروف لبعض الرحالة العرب الذين جابوا بعض

(١) - مورهد، النيل الأزرق، ص ٢٣٦.

(٢) - رياض، كشف إفريقيا، ص ١٠٢. جمال زكريا قاسم، دور العرب في كشف إفريقيا، مجلة عالم الفكر، مجلد ١، عدد ٤، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧١، ص ٢٣٠.

(٣) - جون لويس بوركهارت (١٧٨٤-١٨١٧): ولد بمدينة لوزان في سويسرا، والتحق بجامعة ليزر ثم انتقل إلى جامعة جوتنجن، رحل إلى إنجلترا بحثاً عن الملاذ الآمن الذي افتقده في بلاده خلال فترة الثورة الفرنسية، كلف باكتشاف سر نهر النيجر الذي كان يعتقد بأنه أحد روافد نهر النيل، إلا أن القدر لم يمهله لاستكمال المهمة، مع أنه قضى ثمان سنوات في رحلته إلى بلاد النوبة التي صادف خلالها صعوبات حمة. عن جون لويس بوركهارت، رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، ترجمة فؤاد أندراوس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ١-٢.

(٤) - قاسم، دور العرب في كشف إفريقيا، ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٥) - جون بتريك (١٨١٣ - ١٨٨١): وصل بتريك للسودان في العام ١٨٤٧ قادماً من مقاطعة ويلز، والتحق في البداية بخدمة محمد علي في مجال التنقيب عن المعادن في سيناء ولم يصادف نجاحاً كبيراً في مهمته تلك فُنقل إلى كردفان للتنقيب عن الحديد. ترك بتريك خدمة الحكومة المصرية عقب وفاة محمد علي وعمل بتجارة الصمغ والعاج واستغل علاقاته المتميزة مع ذوي النفوذ في إنجلترا، فتم تعيينه قنصلاً فخرياً في السودان وكانت مهمته الحفاظ على مصالح البريطانيين في السودان إضافة لعمله كتاجر، تنقل بتريك في معظم مناطق السودان واستطاع النفاذ إلى بحر الغزال الوصول إلى حدود بلاد الزاندي ونهر الكونغو وعمل بالتجارة مع سكانه من القبائل النيلية من دينكا ونوير ولو وبقي بتريك مقيماً في السودان حتى مغادرته النهائية في العام ١٨٦٤. عن رياض، كشف إفريقيا، ص ١٤٠-١٤٧.

(٦) - مورهد، النيل الأزرق، ص ٣١٢-٣٢١.

أقاليم السودان في تلك الفترة وكان أبرزهم محمد بن عمر التونسي^(١) الذي قام برحلات في بلاد سنارودارفور ووادي في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، وتضمنت رحلاته معلومات هامة ومفيدة عن مختلف نواحي الحياة السياسية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية في هذه الأقاليم^(٢).

ولم يقتصر الدور الذي قامت به الإدارة التركية- المصرية عند حد تهيئة الظروف الملائمة للرحالة وتشجيعهم للقيام برحلاتهم، بل حملت على عاتقها عبء القيام بعمليات الكشف الجغرافي بشكل مباشر بهدف الكشف عن منابع النيل، إذ عهد محمد علي للبكباشي سليم قبطان للقيام برحلة لاستكشاف مجرى النيل الأبيض واستقصاء عادات أهله ومعتقداتهم وأحوالهم وخصائصهم على اختلاف شعوبهم وتفرق مواطنهم، وإتمام البيانات والخرائط التي تضمنتها الرحلات القديمة^(٣)، فقام بثلاث رحلات بين عامي ١٨٣٩-١٨٤١ رافقه فيها بعض الرحالة والمغامرين والعلماء الأجانب، ووصلت حملة البكباشي سليم حتى غوندوكرو عند خط عرض ٤٢، ٤ شمال خط الاستواء، ووضع خلالها تقريراً مفصلاً عن مجرى النيل والفروع التي تصب فيه والقبائل المتوطنة على ضفافه، لاسيما في أراضي الدينكا والشلك، والنوير والباري وأجرى اتصالات مع السكان وزعمائهم، وتم رسم خريطة كبيرة توضح الطرق والمسالك التي قطعتها البعثة، ونشرت نتائجها في مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية^(٤).

وعلى الرغم من أن حملات سليم قبطان الثلاثة لم تؤت ثمارها بالكامل ولم تحقق الهدف المرجو من إرسالها إلا أنها كانت فاتحة عصر جديد في مجال الكشوف الجغرافية في إفريقيا فكانت الأساس الذي بني عليه حل مشكلة منابع النيل وذلك بفضل ما توصلت إليه من دراسات طبيعية وجغرافية لمجرى النيل الأبيض وساعدت على فتح طريق الملاحة والتجارة في النيل

(١) - محمد بن عمر التونسي: ولد في تونس في العام ١٧٨٩، نشأ وترعرع في مصر، وتلقى تعليمه في الأزهر. بدأ رحلته في إقليم دارفور وهو في سن الرابعة عشرة، وكان غرض الرحلة اللحاق بوالده الذي كان قد نزح من مصر إلى السودان. عاش في إقليم دارفور مدة سبع سنوات تقريباً ثم خلالها بأحوال الإقليم وصفات أهله، ومظاهر الحياة الاجتماعية، وقام برحلات أخرى إلى تونس ووادي. صدر كتابه بعنوان (تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان) نشره في العام ١٨٥٠. كانت وفاته في العام ١٨٥٧. عن فهم، أدب الرحلات، ص ٤٨-٤٩.

(٢) - محمد بن عمر التونسي، تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل عساكر، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٠.

(٣) - سليم قبودان، الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض، ت محمد مسعود، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٦، ص ٧-٨.

(٤) - سليم قبودان، الرحلة الأولى، ص ٨-٧٣. الشامي، نهر النيل، ص ٦١-٦٣. كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٢٩٢.

الأبيض والسودان الجنوبي بعد أن كان هذا الجزء في عزلة تامة عن الشمال^(١). كما أثارت اهتمام الشركات التجارية والهيئات العلمية والتبشيرية بثروات السودان فأخذت بعثات الاستكشافات الجغرافية تتوافد للعمل في هذه المناطق النائية. وقال عنها السيد فرانسوا جومار أحد مؤسسي الجمعية الجغرافية في باريس: أنها كانت (باكورة ثمار الحضارة التي انبعث ضوءها في مصر منذ خمس وعشرين سنة، لهذا كانت جديرة في ما يتعلق بالبلاد التي هي موضوعها، والأشخاص الذين قاموا بالاهتمام والعناية، وإن لم تتم نتائجها وتنضج ثمارها)^(٢).

وتابع حكام مصر بعد محمد علي سياسته في تشجيع الرحالة والمغامرين ومد يدي العون لهم، وإرسال البعثات الاستكشافية؛ لاسيما منهم الخديوي إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) الذي أرسل البعثات في اتجاهين مختلفين: الاتجاه الأول نحو المناطق الجنوبية للبحر الأحمر، والاتجاه الثاني نحو أعالي النيل، إذ كلف المستكشف صمويل بيكر في الفترة بين عامي ١٨٧١-١٨٧٣؛ للقيام باستكشاف منطقة أعالي النيل الأبيض ولإلغاء تجارة الرقيق، وتسيير الملاحه في نهر النيل بين شمال السودان وجنوبه، وهي المنطقة التي ضمها إلى إمبراطوريته تحت اسم المديرية الاستوائية^(٣). وأرسل بعثة أخرى تحت قيادة غوردون باشا^(٤) في العام ١٨٧٤ لإتمام الأهداف السابقة نفسها، وتمكن خلالها الضابط الأمريكي شايبه لونج العامل في الجيش المصري من اكتشاف بحيرة كيوجا- إحدى البحيرات التي ينبع منها نهر النيل- فأسمها بحيرة إبراهيم نسبة لوالد الخديوي إسماعيل، ومع ذلك فقد تمّ إغفال الاسم الصحيح لبحيرة إبراهيم وظلت البحيرة معروفة باسمها المحلي^(٥). وهذا ما يثبت دور مصر الحضاري في هذه الجهات رغم تجاهل الأوروبيين لهذا الدور وأهميته في كتاباتهم.

(١) - خلاف، كشوف مصر الأفريقية في عهد الخديوي إسماعيل، ص ١٣-١٤.

(٢) - قبودان، الرحلة الأولى، ص ٥-٦. كمال محمد الريامي، مشاهير الرحالة العرب، كنوز، القاهرة، ط ١، ٢٠١٣، ص ١٠٩.

(٣) - ماكيفيدي، أطلس التاريخي الإفريقي، ص ١٨٣. كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٣٠٣.

(٤) - شارلز جورج غوردون (١٨٣٣-١٨٨٥): ضابط وإداري في الجيش البريطاني، ولد في ولوش في لندن، وتلقى تعليمه في الأكاديمية العسكرية الملكية، وشارك في حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦) وتطوع للخدمة في الصين في العام ١٨٦٠. جاء إلى السودان بصفته حاكماً للمديرية الاستوائية في العام ١٨٧٤ خلفاً لصمويل بيكر، واستقر في غوندوكرو، وعمل على محاربة تجارة الرقيق وإرسال الحملات المنظمة في مختلف الأنحاء التي كانت لا تزال مجهولة من النيل والبحيرات الكبرى، عُين بعد ذلك حاكماً عاماً على السودان بين عامي (١٨٧٧-١٨٧٩)، واستدعي عقب الاحتلال الإنجليزي لمصر وقيام الثورة المهدية في السودان لإخلاء السودان، وقتل في الخرطوم على يد قوات الثورة المهدية في العام ١٨٨٥. عن الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال المنشورة، الرياض، ط ٢، ١٩٩٩، ج ١٧، ص ١٣٧. رياض، كشف إفريقيا، ص ١٣٠-١٣٦.

(٥) - س. هوارد، أشهر الرحلات في غرب إفريقيا، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة، ١٩٩٦، ج ١، ص ١١-١٢.

٢- دور سلطنة زنجبار في رحلات الكشف العلمية:

كان لوجود دولة متحضرة على ساحل إفريقيا الشرقي مثل سلطنة زنجبار التي أنشأها السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦-١٨٥٦) عاملاً مهماً في تسهيل رحلات الأوروبيين في مجاهل القارة الداخلية. وبالمقارنة بين توغل الأوروبيين في شرقي إفريقيا وبقية المناطق الأخرى منها في القرن التاسع عشر، والصعوبات التي لقيها الرحالة في الجانبين؛ يتضح لنا بجلاء أهمية وجود سلطنة زنجبار التي قدمت كل التسهيلات الممكنة للرحالة لمتابعة رحلاتهم وإنجاز المهام الموكلة إليهم، كما شكلت سلطنة زنجبار بمراكزها المنتشرة في مختلف مناطق الشرق الإفريقي المدخل الرئيسي لتوغل الأوروبيين إلى الداخل، والمركز الأساسي للحصول على التموين اللازم خلال رحلاتهم، وكذلك الحصول على أدلاء ومترجمين وحمالة ليرافقوهم خلال رحلاتهم، ويمكن تصنيف المساعدات التي قدمتها سلطنة زنجبار للرحالة الأوروبيين وفق الآتي:

أ- نشر الأمن وتوفير الرعاية اللازمة:

على الرغم من أن سلطنة زنجبار لم يكن لها سوى سيطرة إسمية داخل شرقي إفريقيا إلا أن الجهود التي بذلتها في تأديب القبائل الداخلية، ومحاولة نشر الأمن، وتنظيم طرق القوافل بين الساحل والمراكز الداخلية؛ كان من شأنه أن فتح المجال للرحالة الأوروبيين للاستقرار، وتسيير رحلاتهم^(١)، وساروا في الطرق التي خطها العرب لقوافلهم، وتمتعوا بالأمن الذي أقاموه على طول هذه الطرق، وفي المحطات والمراكز التجارية سواء في أوجيجي أو في باجامويو أو في أوزانجا أو في تابوره وفي جازنجا وغيرها من المحطات التجارية^(٢).

ولا ننسى أيضاً الرعاية التي تمتع بها الرحالة من قبل سلاطين زنجبار؛ ومما يؤكد ذلك التقارير التي أرسلها الرحالة والمبشرون الأوروبيون إلى الجمعيات التبشيرية أو الجغرافية التي أوفدوا من قبلها، والتي أشاروا فيها إلى حسن استقبالهم من قبل سلاطين زنجبار العرب، وإلى أهمية حصولهم على خطابات التوصية الموجهة إلى رؤساء المقاطعات الخاضعة لهم؛ لأجل تقديم المساعدات اللازمة، وكان عرب الداخل وغيرهم من رؤساء الولايات الإفريقية يحترمون الأوامر والتعليمات التي تصدر إليهم من حكام السلطنة العربية في زنجبار^(٣). ويذكر على سبيل المثال كل من المبشر والرحالة جون كرابف وجون ريمان اللذين وفدا إلى شرقي إفريقيا بصفة

(١) - العقاد، قاسم، زنجبار، ص ١٣٧.

(٢) - الشيخ، إفريقيا في التاريخ المعاصر، ص ٣٤٢.

(٣) - الشيخ، إفريقيا في التاريخ المعاصر، ص ٣٤١-٣٤٢.

مبشرين في أول الأمر، واستقروا في بعض المقاطعات التابعة لسلطنة زنجبار يبشران بالمسيحية، وساهما بشكل كبير في مجال الكشف العلمية لداخل شرقي إفريقيا، ويذكر كرابف في الكتاب الذي وضعه عن شرقي إفريقيا مقدار ما منحه السيد سعيد من تسهيلات، وكيف كان يستعين بنفوذه في التوغل في مقاطعات الشرق الإفريقي، وفي مباشرة نشاطه التبشيري، وأمدده السيد سعيد بخطابات توصية للرؤساء التابعين له، شكلت جواز سفر لرحلته، وجاءت صياغتها على النحو الآتي "يأتي هذا من السيد سعيد بن سلطان، تحية إلى جميع رعايانا وأصدقائنا وحكامنا، هذه الرسالة مكتوبة باسم الدكتور كرابف الألماني، وهو رجل طيب يرغب في تحويل العالم إلى عبادة الله، عاملوه بشكل جيد وكونوا في خدمته في كل مكان".^(١)

كذلك كان الأمر بالنسبة للرحالة الاسكتلندي دافيد لفنجستون الذي كان منصفاً في تقدير المساعدات التي قدمت له من قبل السلطان ماجد بن سعيد (١٨٥٦ - ١٨٧٠)^(٢) سلطان زنجبار في العام ١٨٦٥، وكان السلطان قد استقبل لفنجستون استقبالاً طيباً، وزوده بكثير من خطابات التوصية إلى الرؤساء العرب التابعين له داخل إفريقيا الشرقية، وأكد ذلك أيضاً الرحالة الأمريكي هنري ستانلي الذي اشترك مع لفنجستون في استكمال كشف بحيرة تنجانيقا عام ١٨٧١، وقام بعدها برحلات عديدة في مختلف مناطق شرقي إفريقيا ووسطها وقد أشاد بدوره بقيمة المساعدات التي قدمت له من قبل السلطان برغش بن سعيد (١٨٧٠ - ١٨٨٨)^(٣) سلطان زنجبار الذي أمدّه بقوة عسكرية لحمايته أثناء رحلاته داخل القارة.^(٤)

ب- تقديم المعلومات عن المناطق الداخلية:

لما وصل الرحالة الأوروبيون إلى شرقي إفريقيا في القرن التاسع عشر كان عرب سلطنة زنجبار على اطلاع تام بجغرافية المنطقة الطبيعية والبشرية، وطرق القوافل التي تمر عبرها،

(١) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p127.

(٢) - ماجد بن سعيد: ولد في العام ١٨٣٤، وكان أول سلاطين زنجبار بعد انفصالها عن مسقط بعد وفاة والده السيد سعيد بن سلطان في العام ١٨٥٦، كان على سيرة أبيه السيد سعيد في اللين والرأفة بالرعايا، وفي الاقتصاد في مصاريف الحكومة وعدم البذخ والإسراف، وكان صديقاً مخلصاً للإنجليز على نحو ما كان والده، واستمر في الحكم حتى وفاته في العام ١٨٧٠. عن المغيري، جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص ٢٨٥-٢٨٧.

(٣) - برغش بن سعيد: ولد في العام ١٨٣٧، وتولى الحكم في سلطنة زنجبار في العام ١٨٧٠ خلفاً لأخيه ماجد، وشهد عهده تزايد النفوذ الإنجليزي في جزيرة زنجبار والشرق الإفريقي عموماً، كما شهد توقيع اتفاقية عام ١٨٧٣ التي قضت بتحريم تجارة الرقيق في شرق إفريقيا، وإغلاق أسواق الرقيق في جميع ممتلكاته، وقام بزيارة لندن في العام ١٨٧٥، واستمر في الحكم حتى وفاته في العام ١٨٨٨. عن المغيري، جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص ٣٢٧، ٣٥٦-٣٥٨.

(٤) - قاسم، دور العرب في كشف إفريقيا، ص ٢٢٢-٢٢٣.

ومجاري أنهارها وبحيراتها؛ ولاسيما منهم التجار الذين كانوا يجوبون مناطقها المختلفة بقصد التجارة، فشكّلوا بذلك مصدراً مهماً للمعلومات بالنسبة للرحالة والمبشرين الأوروبيين، وذلك جنباً إلى جنب مع الفئات السكانية الأخرى التي تقطن الشرق الإفريقي، وهم قبائل البانتو، والسواحليون، والتجار الهنود^(١). وما ورد في كتابات كل من الرحالتين كرابف وريمان أكبر دليل لإثبات هذا الدور فمن خلال اتصالهم مع العرب والأفارقة في ممباسة والمناطق المجاورة لها سرعان ما وصلت لأسماعهم قصص ومعلومات رائعة عن المناطق غير المكتشفة في الداخل^(٢).

كما أخبرهم السكان المحليون عن الجبال العالية التي تبعد مسافة ١٠ إلى ٣٠ يوماً عن الساحل والتي تغطي قممها الثلوج، وبناء على هذه المعلومات تمكّن رييمان من اكتشاف جبل كليمنجارو في العام ١٨٤٨ كما تمكن كرابف في العام التالي من اكتشاف جبل كينيا، ومع ذلك فإن تقاريرهم عن جبال الثلج في إفريقيا الشرقية التي أرسلوها إلى الجمعية الجغرافية الملكية قوبلت في معظمها بالسخرية من الجغرافيين الإنجليز^(٣). كما أرسلوا إلى أوروبا في الوقت نفسه قصصاً وروايات تفيد بوجود بحر داخلي كبير وصلتهم أخباره من التجار العرب، ويبدو أنهم قد جمعوا التقارير المتعلقة ببحيرة نياسا وتنجانيقا وأوكيروني نيانزا، وتصوروا أن هذه البحيرات المنفصلة عبارة عن أجزاء من بحيرة ضخمة، تمّ توضيحها بخريطة قام برسمها رييمان بمساعدة إرهاردت الذي انضم إليه لاحقاً وعنونها باسم بحر أونيامويزي نشرت في العام ١٨٥٥^(٤).

كما استفاد كل من بيرتون وسبليك من المعلومات التي تمّ جمعها من السكان المحليين، ففي طريق قافلتهم من زنجبار باتجاه منطقة البحيرات الإفريقية توقفوا في كازه (تابوره) في العام ١٨٥٧ والتي تقع في منتصف الطريق تقريباً بين زنجبار وبحيرة تنجانيقا، وكانت سوقاً تجارياً كبيراً يدار بواسطة التجار العرب والسواحليين الذين أحسنوا استقبالهم، ولاسيما الشيخ ثاني بن عمر الذي أعد لهم منزلاً خاصاً بهم، ويقول عنه بيرتون: "أن ثاني كان مصدراً رئيسياً للمعلومات حول

^(١) - Dritsas, local information and British explorers, p26.

^(٢) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p126.

^(٣) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p235-236. Sir Harry Johnston, the Nile quest a record of the exploration of the Nile and its basin, Lawrence and Bullen, London, 1903, p112-113.

^(٤) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p486. Dritsas, local information and British explorers, p62-63.

شرقي إفريقيا جغرافياً وإثنوجرافياً، وكان رجلاً صادقاً وشريفاً ورحالة مثقفاً^(١). ومن أهم ما قام به ثاني أنه صحح لهم معلوماتهم عن البحيرة الكبيرة، وأخبرهم بوجود ثلاث بحيرات منفصلة عن بعضها؛ وهي نياسا، وبحر أوجيجي "بحيرة تنجانيقا"، وأوكيروي "بحيرة فكتوريا"^(٢)، وكانت المعلومات على درجة من الدقة بحيث استطاع سبيك أن يرسم خريطة تقريبية لموقعها قبل أن يصل إليها، وقال عندما وقف على ضفاف بحيرة أوكيروي التي أطلق عليها اسم "فكتوريا" "إن حكاية العرب كانت صحيحة بالنسبة لهذه البحيرة الأخيرة، إذ كانت أكثر اتساعاً من بحيرة تنجانيقا، وواسعة بحيث لا يمكن الرؤية من خلالها، وكان من دواعي سروري أن الخريطة التي رسمتها بناء على معلومات العرب التي أرسلتها إلى الجمعية الجغرافية الملكية قبل مغادرتي أونيانيمي كانت صحيحة في خطوطها العامة إلى حد كبير، وليس لدي أي شيء لتغييره، وكنت قد رسمت تلك الخريطة بعد إثبات أقوالهم الأولى عن بحيرة تنجانيقا، والآن لدي كل الأسباب التي تجعلني أشعر بالثقة عن صحة وصدق رحلاتهم شمالاً عبر كاراجوي وإلى كيبوغا في أوغندا"^(٣).

ونستنتج من ذلك كله أهمية المعلومات التي قدمها السكان المحليين لسلطنة زنجبار للرحالة والمبشرين الأوروبيين وكانت من أسباب نجاحهم في رحلاتهم الكشفية.

ج- تقديم العناصر اللازمة للرحالة من حرس ومترجمين ومرشدين ومرافقين:

لم يكتف عرب زنجبار بإمداد الرحالة والمبشرين الأوروبيين بالمعلومات اللازمة عن جغرافية شرقي إفريقيا، بل ساعدوهم أيضاً على تنظيم قوافلهم، وزودوهم بما يحتاجون إليه من مؤن ومعدات كما زودوهم بالأدلاء (guides)، والمترجمين (interpreters)، والحمالين (porters)، وعناصر الحماية (protectors)، والخدم (servants) الذين كانوا يشكلون عناصر مهمة للمستكشفين للقيام برحلاتهم. فعندما وصل الرحالة إلى زنجبار سواء منهم بيرتون وسبيك

^(١) - Richard Burton, the Lake Regions of Central Africa, 2 volumes, spottiswoode and co. London, 1960, p324. Draitsas, local information and British explorers, p79.

^(٢) - John Speke, What led to the Discovery of the Source of the Nile, William blackwood and sons, Edinburgh and London, 1864, p198. William Kingston, great African travelers from mungo park to Livingston and Stanley, George routledge and sons, London and new York, 1874, P236.

^(٣) - Speke, What led to the Discovery the Source of the Nile, p307-308. Johnston, the Nile quest, p123.

وستانلي ولفنجستون كانت الصعوبة الكبرى التي واجهتهم هي معرفة الضروريات الأساسية التي تحتاجها القافلة، فتعلموا في زنجبار كيفية تجهيز القافلة وتدرج العناصر فيها، والفائدة المرجوة من توظيف الأدلاء والمرشدين التي تنحصر في معرفة الطرق المناسبة للسفر عبرها، والفصول المناسبة للترحال، والمواد التي يجب شراؤها والأشياء المطلوبة من طعام ومؤونة تكفيهم طوال مدة الرحلة، بالإضافة إلى ضرورة دفع الأتاوات للزعماء المحليين التي تمر القافلة بأراضيهم، ومرتبات الرجال الذين سيوظفون في خدمتهم^(١). ورافق بيرتون وسبيك على سبيل المثال خلال رحلتهم الشيخ سعيد بن سالم اللاميكي من سكان زنجبار وعُدَّ القائد الحقيقي للرحلة؛ إذ تكفل بتجهيز الحاجيات المطلوبة للرحلة من رجال ودواب لحمل الأثقال وغير ذلك، كما تكفل سلطان زنجبار بتزويدهم بمجموعات حمايه من رجاله البلوش^(٢) لمرافقة الرحالة والحفاظ على سلامتهم (كذلك فعل مع كل من لفينجستون وستانلي)^(٣). وهذا يثبت أن قوافل الرحالة كانت تسير تحت سلطة وحماية سلطان زنجبار.

ويتبين لنا دور المترجمين وأهميتهم بالنسبة للرحالة عندما نعلم أن اللغات التي يتكلمها السكان في شرقي أفريقيا في تلك المرحلة كانت اللغة السواحلية واللغة العربية، وكان معظم الرحالة يجهلون هاتين اللغتين، ففي حالة بيرتون وسبيك نجد أن بيرتون كان باستطاعته التكلم باللغة العربية والهندية، بينما يتكلم سبيك اللغة الهندية فقط، لذلك كانوا بحاجة ماسة للمترجمين، وكان أغلبهم من العرب والسواحليين خاصة، وعن طريقهم تمكنوا من التواصل مع السكان المحليين والتحدث معهم حول جغرافية هذا الإقليم^(٤).

(١) - Dritsas, local information and British, p65. Kingston, great African travelers, P510.

(٢) - البلوش: وهم عبارة عن مرتزقة من مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية وبلاد فارس والهند. تم تجنيدهم أول الأمر في عهد سلطان بن أحمد، والد السيد سعيد الذي فضلهم على قواته العربية؛ لكونهم أكثر انضباطاً، ومنحهم لقب العسكر. وبحلول الخمسينيات من القرن التاسع عشر، كان البلوش يُكلفون بانتظام بأهم المهام بما في ذلك توفير مرافقين مسلحين للمستكشفين الأوروبيين الذين يكون السلطان مسؤولاً عن سلامته. ومع ذلك فإنهم لم يثيروا إعجاب بيرتون الذي قال عنهم أنهم رماة سيئون، ولكنهم يتمتعون بمهارة عالية بالسيف والدرع. وحددت رواتبهم عموماً بنحو ٢-٣ دولار شهرياً، وتركزوا بشكل رئيس في الحصون المنتشرة في أنحاء البلاد، ويذكر أنه تم حل البلوش في العام ١٨٨١، ولكن استمر العديد منهم في الخدمة في قوات السلطان حتى نهاية القرن التاسع عشر. عن Richard Burton, Zanzibar; city, island and coast, 2 volumes, Tinsley brothers, London, 1872, v2, p162-164.

(٣) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p9-10. Kingston, great African travelers, P234.

(٤) - Dritsas, local information and British explorers, p78.

د- دور العناصر العربية في الداخل:

ذاع صيت العديد من الشخصيات العربية من سكان زنجبار في داخل شرقي إفريقيا ممن حصلوا على نفوذ سياسي واقتصادي في المنطقة، وسيطر بعضهم على مناطق واسعة من الشرق الإفريقي، وكان لهم دور كبير في تسهيل رحلات الأوروبيين في المنطقة حيث استقبلوهم، وأحسنوا ضيافتهم، وقدموا لهم المساعدات في ظل الظروف الصعبة التي مرت عليهم خلال ترحالهم في مجاهل إفريقيا، ومن أشهر هذه الشخصيات:

ثاني بن عمر: يرد اسمه في معظم المراجع والمصادر العربية والأجنبية "سناي بن عامر"، ولكن ورد اسمه في سيرة تيبوتيب المعاصر له باسمه ثاني بن عمرو وهو الأرجح^(١). وهو تاجر من أب عربي وأم إفريقية، كان قد أمضى خمسة عشر عاماً في داخل إفريقيا، وسافر خلالها ثلاث مرات بين أونيامويزي والساحل، وأبحر في بحيرة تنجانيقا، وزار مملكتي كاراجوي وأوغندا الشماليين، وكان على دراية باللغات والدين والإثنولوجيا الإفريقية، واستقبل العديد من الرحالة الأوروبيين لاسيما بيرتون وسبيك في العام ١٨٥٧، وسبيك وجرانت في العام ١٨٦٢ وقدم لهم كل المساعدات اللازمة^(٢).

حمد بن محمد بن جمعة المرجبي الملقب بـ "تيبوتيب": أحد أشهر التجار العمانيين في شرق إفريقيا في القرن التاسع عشر، ولد في زنجبار في العام ١٨٤٠، وينتمي إلى قبيلة المراجعة العمانية التي قدمت من الجزيرة العربية، وتغلغت في الشرق الإفريقي، ونشأ في زنجبار وتلقى فيها تعليماً دينياً، وبدأ عمله بالتجارة في سن مبكرة، وما لبث أن برزت مهارته التجارية فأخذ يقوم بتجارته الخاصة في العاج والخرز ومختلف البضائع مخضعاً الزعماء المحليين لسلطوته، ومكوناً جيشاً من الحمالين المسلحين. وظهر نشاطه السياسي والاقتصادي في عهد كل من ماجد وبرغش ابني السلطان سعيد اللذين استعانا به لتأكيد نفوذ السلطنة العربية في الداخل، وكانت كل من أوجيجي وتابوره والكونغو من أهم مناطق نشاطه السياسي والاقتصادي^(٣)، وقدم مساعدات كبيرة للرحالة، ورافق بعضهم في رحلاتهم، ولاسيما لفنجستون وستانلي، وقدم لهم معلومات عن الطرق الآمنة والمسالك المأهولة بالسكان المتحضرين، والمحطات العربية في هذه

(١) - حمد المرجبي، مغامر عماني في أدغال إفريقيا حياة حمد بن محمد بن جمعة المرجبي (١٨٤٠-١٩٠٥)، سيره ذاتية، ترجمة محمد المحروقي، منشورات الجمل، بغداد، ط٢، ٢٠٠٦، ص٣٨.

(٢) - الشيخ، إفريقيا في التاريخ المعاصر، ص٣٤٢. قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص٢٢١-٢٢٢.

Burton, the Lake Regions of Central Africa, p324

(٣) - المرجبي، مغامر عماني في أدغال إفريقيا، ص٢١-٣٣، ٢٣. الشيخ، إفريقيا في التاريخ المعاصر، ص٣٤٤. قاسم، دور العرب في كشف إفريقيا، ص٢٢٣.

الجهات مما مكّنه من التوغل أكثر في هذه الأنحاء^(١)، وعندما بدأ الاستعمار الأوروبي للقارة قاوم تيوتيب البلجيكيين في الكونغو، وخاض معارك عدة ضدهم قتل خلالها ابنه سيف، وأجبر على الانسحاب إلى زنجبار التي توفي فيها في العام ١٩٠٥^(٢).

محمد بن خلفان البرواني "روماليزا" "الجسور": ولد في زنجبار سنة ١٨٥٠، وينحدر من عائلة البرواني التي تعود أصولها إلى مدينة مسقط عاصمة عمان الحالية، عمل في أيام السلطان ماجد بن سعيد بسلك الجمارك في زنجبار ثم ما لبث أن غادرها إلى منطقة تنجانيقا في الداخل، وأكتسب فيها نفوذاً كبيراً^(٣)، وتولى الإشراف الكلي على تنجانيقا ومناطقها حتى نهايات القرن التاسع عشر بتكليف من سلطان زنجبار برغش بن سعيد، وقام بهذه المهمة بكل حنكة وإقدام ووسع نفوذه ليشمل المناطق المحيطة بالبحيرة كلها، وأتخذ من مدينة أوجيجي مقراً لسكنائه. وكان روماليزا يحسن للأوروبيين الذين كانوا يأتون إليه كرحالة أو كرجال دين، ويعاملهم معاملة حسنة فيكرم وفادتهم باعتبارهم مسافرين غرباء، فيستضيفهم ويوفر لهم الحماية، ويحيطهم بالعناية اللازمة، وذلك رغم كره الأهالي ورؤسائهم للأوروبيين فلولا الحماية العربية التي كان هؤلاء يتمتعون بها لثمّ الانقضاء عليهم من قبل السكان المحليين^(٤). ومن الشخصيات العربية أيضاً الذين استقبلوا الرحالة الأوروبيين وقدموا لهم المساعدات الممكنة نذكر سيف بن سالم، وخلف بن سليم، وعيسى بن حجي، وسعيد بن محمد، وخلفان بن خميس، وسالم بن رشيد، وعبدالله بن نسيب، وسعيد بن ماجد، ومهنا بن سليمان، وسعيد بن علي الحناوي، وسالم بن سعيد، ومسعود بن مسلم الورد، وحמיד بن إبراهيم العموري ومنصور بن سالم وغيرهم الكثير^(٥)، ومع ذلك لم يقدر الأوروبيون هذه المعاملة ولاسيّما الألمان في تنجانيقا والبلجيك في الكونغو الذين ما لبثوا أن أسسوا مستعمرتهم في المنطقة بالقوة، ودخلوا في معارك ضارية ضد العرب والسواحليين الموجودين هناك وسعوا لاجتثاثهم من المنطقة.

(١) - العقاد، قاسم، زنجبار، ص ١٤١. المرجعي، مغامر عماني في أدغال إفريقيا، ص ٥٥-٥٦، ١١١.

(٢) - عبده بدوي، شخصيات إفريقية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ص ٩-١١.

(٣) - عبد القادر زيادية، دراسة عن تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت، ص ٣٢.

(٤) - زيادية، دراسة عن تاريخ إفريقيا، ص ٣٣.

(٥) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, p179,208,257,264,277,322.

نتائج الفصل الثاني:

يمكن إيجاز أبرز النتائج التي نستقيها من هذا الفصل بالآتي:

- مدى تأثير المتغيرات السياسية والاقتصادية والعلمية التي تمت على الساحة الأوروبية في القرن التاسع عشر في التوجهات السياسية الأوروبية الجديدة تجاه إفريقيا، والتي وضحت لنا أسباب مجيء الرحالة والمستكشفين من أوروبا ولم يأتوا من مكان آخر.
- أهمية العامل الاقتصادي في قيام الثورة الصناعية الأوروبية واحتياجات هذه الثورة في إقامة المستعمرات واستغلالها أرضاً وسكاناً فضلاً عن الاتجار بالرقيق.
- تنوع الدوافع التي جاءت من وراءها رحلات الأوروبيين إلى شرقي إفريقيا بين دوافع سياسية واقتصادية ودينية وشخصية وعلمية.
- تعدد العقبات والصعوبات التي واجهت الرحالة الأوروبيين وأخرت استكشافهم لشرقي إفريقيا حتى القرن التاسع عشر سواء الصعوبات التي تتعلق بأوروبا؛ ولاسيما انشغالها بأوضاعها الداخلية، أو الصعوبات التي تتعلق بإفريقيا، وفي مقدمتها الصعوبات والعقبات الطبيعية والصحية، والتي تم تجاوز معظمها في القرن التاسع عشر مما فتح الباب أمام المغامرين والرحالة الأوروبيين للتوغل نحو الداخل الإفريقي.
- الدور الكبير الذي قامت به كل من سلطنة زنجبار والإدارة المصرية في السودان من تسهيل لمهمات الرحالة الأوروبيين، وتشجيعهم وتقديم المساعدات والمعلومات اللازمة لهم والتي كانت من أسباب نجاحهم في رحلاتهم الكشفية، فضلاً عن مساهمتهم بشكل مباشر في تعريف العالم بهذه المنطقة من قارة إفريقيا. ولولا الجهود التي بذلها العرب والتسهيلات التي قدموها لما تمكن الرحالة من المضي قدماً في استكشافاتهم في تلك الأنحاء.

الفصل الثالث

الرحالة الأوروبيون في شرقي إفريقيا بين عامي ١٨٤٣-١٨٦٣

أصبح شرق ووسط إفريقيا معروفاً للعالم الخارجي خلال ما يزيد على قرن من الزمن تقريباً، أي من العام ١٧٦٨ الذي بدأت فيه رحلة جيمس بروس إلى الحبشة، وحتى العام ١٨٨٩ الذي شهد إتمام استكشاف معظم مناطق الشرق الإفريقي، وحل مشاكلها الجغرافية، ورسم الخرائط التوضيحية لها. ففي وقت واحد تم اختراق الجانب الشرقي من القارة الإفريقية من نقاط كثيرة، وكانت بدايتها من جهة الشمال عندما بدأ بعض الرواد الأوروبيين يتوغلون في القارة صاعدين مع مجرى نهر النيل بينما بدأ البعض الآخر بالتقدم من موانئ البحر الأحمر مروراً بأراضي الصومال، واندفع بعضهم الآخر من جزيرة زنجبار الواقعة على مقربة من الساحل متخذين طريقهم عبر هضبة إفريقيا الشرقية نحو البحيرات العظمى الواقعة في وسط إفريقيا، ووصل بعض هؤلاء الرحالة إلى المنطقة نفسها قادمين من الجنوب والغرب^(١). وسميت هذه الرحلات برحلات الكشف العلمية؛ لأنها أرسلت في الواقع من قبل جمعيات مخصصة لهذا الغرض، وكانوا قد أعدوا مسبقاً مخططات لأهداف رحلاتهم ومساراتها، ومزودين أنفسهم بجميع الأجهزة والوسائل اللازمة لأخذ القياسات والملاحظات الفلكية، وتحديد مواقع الجبال والتعرف على ارتفاعاتها، وقياس مساحة البحيرات وسر أعماقها، وكشف منابع الأنهار ومعرفة مدى صلاحيتها للملاحة، والتعرف على الشعوب التي تقطن فيها، ودراسة عاداتها وتقاليدها ودياناتها، ومعرفة مكامن الثروات الطبيعية والمعدنية فيها. أي كان الغرض منها باختصار؛ دراسة الجغرافية الطبيعية والبشرية والاقتصادية التي تضيف شيئاً من المعرفة الجديدة بالداخل الإفريقي لغرض تمهيد الطريق لاستثمارها واستغلالها من قبل الدول المرسلة لهؤلاء الرحالة؛ لذلك اختلفت هذه الكشف عن سابقتها التي كان الهدف الأساسي منها التعرف على طريق جديد إلى الهند والشرق الأقصى لأجل كسر احتكار المسلمين لطرق التجارة العالمية، وليس القيام بالاستكشافات الجغرافية العلمية بحد ذاتها^(٢).

ومهما كانت الدوافع من وراء أعمال الكشف هذه إلا أنه من الإنصاف أن نذكر أن الفضل الأول في كشف شرقي إفريقيا، وحسم مشكلة منابع النيل يرجع إلى الرحالة والمستكشفين الإنجليز بالدرجة الأولى، والألمان بشكل ثانوي، فمعظم رواد الرحلات الذين قاموا بالاستكشافات العظيمة في هذه المنطقة ك بيرتون، وسبيك، وجرانت، ولفنجستون، وصمويل بيكر، وستانلي يعودون بأصولهم لإنجلترا^(٣)، وللحقيقة فإن هؤلاء المستكشفين عانوا من الأمراض والمتاعب الشيء الكثير في سبيل كشف المناطق المجهولة للعالم الخارجي، وإلهم يرجع الفضل في تعرف

(١) - كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٢١٣.

(٢) - موسى، موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ص ١٠٧-١٠٨.

(٣) - رياض، كشف إفريقيا، ص ١٠١.

العالم على الأراضي الإفريقية وطبيعتها وسكانها والمواد الخام المتوفرة فيها وطرقها ومجاري الأنهار فيها، وإن كانت هذه المعرفة قد صبت في مصلحة القوى المستعمرة في أوروبا في المقام الأول^(١). لذلك كان من الضروري دراسة هذه الرحلات وما استكشف خلالها. غير أن كتابة تاريخ الرحلات، وكيف أسهمت في توليد المعلومات الجغرافية يتطلب دراسة كل ما يتعلق بهذه البعثات، وليس مسار الرحلات فحسب بل حتى التحضيرات التي تمت قبلها، ومعرفة الأشخاص الذين تكونت منهم البعثة في المقام الأول، فضلاً عن الأشخاص الذين رافقوا البعثة، والذين استقبلوا المستكشفين الأجانب من السكان المحليين في أراضيهم متبعين التسلسل الزمني الذي أرسلت بموجبه هذه الرحلات وفق الآتي:

أولاً- رحلات جون لودفيغ كرابف وجون ريبمان ١٨٤٤-١٨٥٥:

١- لمحة عن حياة جون كرابف (Johann Ludwig Krapf) ١٨١٠-١٨٨١:

ولد كرابف في ١١ كانون الثاني ١٨١٠ في قرية ديرندنجن (Derendingen) الواقعة بالقرب من توبنجن (Tubingen) في ألمانيا. كان والده يعمل بالزراعة. وأحب كرابف منذ صغره قراءة كتب العبادة والكتاب المقدس، ولاسيما الأجزاء التاريخية من العهد القديم^(٢)، والتحق في الثالثة عشر من عمره بمدرسة تابعة للكنيسة في توبنجن، وأظهر نوعاً من الاجتهاد في مدرسته، واكتسب فيها معرفة اللغة اللاتينية، وتعلم فيما بعد الفرنسية والإيطالية. أعجب كرابف بقصص الرحالة وحكاياتهم الأمر الذي دفعه إلى قراءة القواميس الجغرافية وكتب الرحلات، ولاسيما رحلات جيمس بروس إلى الحبشة، فتعززت لديه الرغبة في الترحال^(٣)، ولما كان في الخامسة عشر من عمره قرأ عليهم مدير المدرسة مقالاً عن انتشار المسيحية بين الوثنيين، وشرح فيه ماهية البعثات التبشيرية وكيفية إجرائها والفائدة الكبيرة التي حققتها في مختلف أنحاء العالم، وكانت هذه المرة الأولى التي يسمع فيها كرابف عن بعثات بين الوثنيين، وقرر عندها كرابف الشاب أن يكون رجلاً من رجال التبشير، وأبدى استعداداً لتكريس حياته لعمل المبشرين^(٤)، وتطورت رغبته في أن يصبح مبشراً حتى التحق بالكلية التبشيرية في بازل في العام

(١) - الشيخ، إفريقيا في العلاقات الدولية، ص ٨٧.

(٢) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p1-3.

(٣) - Heinrich Bursik, Wissenschaft u. Mission soll sich aufs innigste miteinander befreunden, Magister der Philosophie, Betreuerin, 2008, p19. Daniel Patte, the Cambridge dictionary of Christianity, Cambridge University Press 2010, p698.

(٤) - Daniel Patte, the Cambridge dictionary of Christianity, Cambridge University Press 2010, p698.

١٨٢٧، وبقي فيها سنتين حتى أتم دراسته، وتمكن على إثرها عن طريق أحد أصدقائه من التواصل مع الجمعية التبشيرية الكنسية الإنجليزية (CMS) ^(١) التي كلفته بمهمة مرافقة المبشر بلومهارت (C.H. Blumhardt) ^(٢) إلى الحبشة، وقبل كرابف المهمة على الفور، وسارع بالتحضير للرحلة من خلال دراسة اللغة الأثيوبية والأمهرية والاطلاع على تاريخ أثيوبيا ^(٣).

بدأ كرابف رحلته الطويلة والصعبة إلى الحبشة في شباط ١٨٣٧، وتنقل فيها بين عدوة عاصمة تيغري (Tigre)، ومملكة شوا (Shoa) المسيحية التي كان يحكمها الملك سهلا سيلاسي (Sahela Selassie) ^(٤) الذي استقبلهم بكل ود، ومنحهم مسكناً خاصاً بهم. وافتتح كرابف في شوا مدرسة استقبال فيها العديد من الأولاد، وعلمهم الكتاب المقدس بالأمهرية إلى جانب دروس في الجغرافية والتاريخ، وقام خلال فترة إقامته بتحقيقات خاصة عن قبائل الجالا ^(٥) ومفاهيمهم الدينية، وأخلاقهم، وعاداتهم، وامتدادهم الجغرافي. ورافق ملك شوا في العديد من الحملات العسكرية ضد القبائل الوثنية في الجنوب مما مكنه من الاطلاع على أحوال الجالا الجنوبيين، والتبشير بالإنجيل فيما بينهم، وانتهت رحلته في الحبشة بعودته إلى القاهرة في العام ١٨٤٢ للزواج من السيدة روزين ديتريش، وعدم السماح له بالعودة إلى شوا بأمر من ملكها. وعاد كرابف إلى شرقي إفريقيا مرة أخرى برفقة زوجته في أواخر العام ١٨٤٣، ولكن هذه المرة نحو ساحل زنجبار، حيث أسس بعثة جديدة في قرية تدعى راباي بالقرب من ممباسا، ومارس عمله

^(١) - الجمعية التبشيرية الكنسية (Church Missionary Society): تأسست في لندن في العام ١٧٩٩ باسم جمعية الإرساليات إلى إفريقيا والشرق، وتعد أول الهيئات البروتستانتية الإنجليزية التي اهتمت بالتبشير في إفريقيا الشرقية والوسطى، فأنشأت أول مركز تبشيري لها في راباي بالقرب من ممباسا في العام ١٨٤٤ عن طريق مبشرها الألماني كرابف، ومن ثم ريمان وإرهاردت، وتركزت نشاطها في البداية في ممباسا غير أنها لم تحرز تقدماً يذكر في تلك الأنحاء، وعزا البعض ذلك إلى عدم كفاءته مبشرها، وتنبهت الجمعية إلى المشكلة فيما بعد الحرب العالمية الأولى، وسعت إلى تدريب المبشرين الأفارقة، واستطاعت افتتاح مركز لها في أواسط تنجانيقا في العام ١٩٢٧، ومن ثم قامت بافتتاح مراكز عدة في مختلف أنحاء تنجانيقا، وارتفع عدد أتباعها من ٣٧٤٣ في العام ١٩٢٧ إلى حوالي ١٠٠٠٠ في العام ١٩٤٤. عن عثمان، المؤثرات الإسلامية والمسيحية في الثقافة السواحلية، ص ٢٤١-٢٤٤. محمد عبدالله النقيز، انتشار الإسلام في شرقي إفريقيا ومناهضة الغرب له، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٢، ص ٣٤٤-٣٤٦.

^(٢) - لم أقف له على ترجمة.

^(٣) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p11-12.

^(٤) - سهلا سيلاسي: ملك شوا وإيفات والجالا، ولد في العام ١٧٩٥، وعين ملكاً في العام ١٨١٣، واستمر بالحكم ما يقرب من ٣٤ عاماً حتى وفاته في العام ١٨٤٧. كان قد نادى بنفسه ملكاً على ملوك الحبشة؛ لأنه ينتسب إلى سلالة ملوك يزعمون أنهم من نسل سليمان الحكيم، وجعل الملك بطريق التوارث في أسرته. عن عبدالله حسين، المسألة الحبشية، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط ١، ٢٠١٢، ص ٢٤-٢٥.

^(٥) - يرجع اهتمام كرابف بقبائل الجالا لكونه شعب ينتشر على نطاق واسع في شرقي إفريقيا، وكان تأسيس بعثة تبشيرية فيما بينهم سيؤدي في نظره إلى السيطرة على وسط إفريقيا بشكل كامل. عن Krapf, travels, researches, and missionary, p24-25.

التبشيري من خلالها، وقام برفقة صديقه وزميله جون ريمان (Johannes Rebmann)^(١) برحلات متعددة انطلاقاً من ممباسة باتجاه الداخل وهو ما سيتم تفصيله فيما بعد^(٢).

عاد كرابف إلى أوروبا في أواخر العام ١٨٥٣ بسبب سوء صحته، وقام بعدها برحلة أخرى إلى أثيوبيا في العام ١٨٥٥، ولم يستطع أن يتابع منها إلى راباي بسبب الحمى والحرارة، فعاد إلى القاهرة، ومنها إلى أوروبا، وكانت تلك نهاية أعماله في إفريقيا بينما استمر ريمان في محطة راباي حتى العام ١٨٧٥، العام الذي عاد فيه إلى أوروبا مريضاً وضريراً، وتوفي في العام الذي تلاه في حين توفي كرابف بعده بخمس سنوات^(٣).

٢- تأسيس المركز التبشيري في قرية راباي بالقرب من ممباسة:

وصل كرابف برفقة زوجته إلى جزيرة زنجبار في ٧ كانون الثاني عام ١٨٤٤، واستقبلهم فيها الرائد هامرتون؛ القنصل الإنجليزي في زنجبار، وقدمهم إلى السيد سعيد بن سلطان إمام مسقط وزنجبار الذي أحسن استقبالهم، واستمع باهتمام لمغامرات كرابف في أثيوبيا، وخططه للتبشير في المنطقة ووعد بتقديم كل المساعدات الممكنة. واستقر كرابف في زنجبار حتى أذار ١٨٤٤ قام خلال ذلك بتقديم الوعظ للسكان الإنجليز والأمريكيين في أيام الأحاد، وجمع معارف العرب والهنود والسواحليين، ومعلوماتهم فيما يتعلق بالساحل والمناطق الداخلية، ومن ثم سعى إلى إيجاد مكان مناسب ليؤسس فيه مركزه التبشيري، فأخذ معه رسائل توصية من السلطان سعيد موجهة إلى حكام الساحل لتقديم المساعدات اللازمة له، وقام برحلة بحرية على طول الساحل حتى تانجا وممباسة التي استقبله فيها حاكم المدينة علي بن ناصر، وقابل فيها بعض وثنى وانيكاً^(٤) الذين جاؤوا من الجبال المجاورة، وفكر كرابف في ممباسة كمكان مناسب لإنشاء

(١) - جون ريمان (١٨٢٠-١٨٧٦): ولد في ١٦ كانون الثاني عام ١٨٢٠ في فورتمبرغ في ألمانيا، وتلقى تعليمه في بازل. ذهب إلى شرقي إفريقيا كمبشر برعاية جمعية التبشير الكنسية، والتحق بكرابف في راباي بالقرب من ممباسة في العام ١٨٤٦، وعاش هناك حتى وفاته (١٨٧٦)، كان مشغولاً مع كرابف بالمعلومات الأنثروبولوجية واللغوية والجغرافية للمنطقة على مدى أكثر من ثلاثة عقود، ومع أنهم لم يحولوا إلا القليل من السكان إلى المسيحية، إلا أن المعلومات التي جمعوها كانت قد مهدت الطريق للاحتلال الأوروبي لشرقي إفريقيا. اشتهر ريمان بأنه أول أوروبي شاهد قمة جبل كليمنجارو المغطاة بالثلوج، وأثارت تقاريره عنه الكثير من الشكوك، كما أثارت كذلك الفضول الجغرافي، وشجعت المزيد من المغامرين الأوروبيين على

النجي إلى شرق إفريقيا. عن Pate, The Cambridge dictionary of Christianity, p1053.

(٢) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p13,23,25,86,107.

(٣) - Bursik, Wissenschaft u. Mission soll sich aufs innigste miteinander befreunden, p26.

(٤) - الوانيكا: أو شعب السهول، ينتمون إلى قبائل البانتو، ويشكلون حوالي اثني عشر قبيلة. يبلغ عددهم ٥٠ ألفاً تقريباً، ويشغلون المنطقة التي تنحدر من ساحل ممباسة حتى شمال وادي بنجاني، وتختلف لغتهم عن اللغة السواحلية، وتعد واديجو والوادارومو أكبر قبائلهم. عن Elisee, the earth and its inhabitants, Africa, v 4, p359.

محطة تبشيرية؛ وذلك لقربها من القبائل الوثنية مما يمكّنه من زيارة قراهم خلال النهار والعودة إلى ممباسة في الليل، فضلاً عن الاستقبال الودي من قبل سكان ممباسة ومسؤوليها للأوروبيين، ولاسيّما الإنجليز، وبسبب وضعها الصحي المناسب ووسائل الراحة المتوفرة، لذلك قرر كرابف إقامة مسكن له في ممباسة ومن ثم العودة إلى زنجبار لاصطحاب زوجته^(١).

وسعى كرابف إلى تعلم اللغتين السواحيلية ووانيكاف؛ ليتسنى له الوعظ بالإنجيل في أقرب وقت ممكن، والقيام برحلات بين قبائل وانيكا الوثنية، وواجهته صعوبة كبيرة خلال ذلك تركزت في عدم توفر أي وسائل مساعدة للتعليم، إذ لم يتم جمع أي قواعد أو قواميس لهما بعد، وبمساعدة اللغة العربية تجاوز كرابف العوائق بالتدريج، وما إن تمكن من اللغة حتى بدأ بترجمة كتاب العهد القديم بمساعدة الشيخ علي بن مدين قاضي ممباسة، ولكن ما كاد ينخرط في هذا العمل المهم حتى تعرض لمحنة شديدة، إذ تعرضت زوجته التي كانت على وشك الولادة لحى شديدة فارقت على إثرها الحياة بعد أن أنجبت ابنة سليمة، وما لبثت أعراض المرض أن ظهرت على الطفلة الصغيرة، وتوفيت في ١٥ تموز عام ١٨٤٤، ودفنت بجانب والدتها، ومضت عدة أسابيع حتى تمكن كرابف من تجاوز تلك المحنة، واستعادة اتزانه وصحته، وحماسه لدراسة اللغة السواحيلية^(٢).

وقام إثر ذلك برحلات بين قرى وانيكا وواكامبا؛ لإيجاد مكان مناسب يؤسس فيه المحطة التبشيرية، فزار بدءاً من ١٩ آب قرى راباي كو (Rabbai Ku) "راباي الكبيرة أو القديمة"، وماكارونج (Makarunge)، وريب (Ribe)، وكامبي (kambe)، وجيبانا (Jibana)، وإنديلا (Endila)، وليكوني (Likoni)، وبعض القرى إلى الجنوب منها، وتلقى ترحيباً حافلاً من الوانيكا في كل القرى التي عبرها من الرؤساء والسكان على السواء، وأعلن لهم بأنه ليس جندياً، ولا تاجراً، ولكنه معلم مسيحي يرغب في توجيه الوانيكا والجالا وحتى "واتسومبا" (Watsumba)^(٣) إلى المعرفة الحقيقية لله. وفي ٢٥ آذار عام ١٨٤٥ قام كرابف برحلة أخرى إلى راباي ميبا (Rabbai Mpia) "راباي الجديدة أو الصغيرة" وهي قرية تتكون من عشرين إلى خمسة وعشرين كوخاً، وتقع في أعلى تلة تحيط بها غابة جوز الهند، وتطل شرقاً على البحر وممباسة، بينما امتدت إلى الشمال والغرب سهول وانيكا وواكامبا، وشكل التل نفسه قلعة طبيعية بارزة، ووجد فيها كرابف نتيجة

(١) – Krapf, travels, researches, and missionary labours, p120-129.

(٢) – Krapf, travels, researches, and missionary labours, p129-133.

(٣) – واتسومبا: تعني المسلمون في لغة الونيكا، في حين يطلق على الأوروبيين اسم مسونغو أو أزونغو (Asungu). L. Krapf and J. Rebmann, A Nika-English dictionary, society for promoting Christian knowledge, London, 1887, p183.

للمميزات السابقة الذكر؛ فضلاً عن مناخها الصحي، وميول سكانها الودية، وقربها من البحر، المكان الأكثر ملاءمة للمحطة التبشيرية^(١).

وعندما وصل المبشر ريمان زميل كرافف قاما سوياً في ١٠ حزيران عام ١٨٤٦ بالتوجه إلى قرية راباي مبيا، وقابلوا رؤساءها وشرحوا لهم موضوع البعثة، والتمسوا إقامة المحطة التبشيرية فيما بينهم، ووافق الرؤساء على الفور دون أي شرط، وأكدوا لهما أن البلد كله سيكون مفتوحاً أمامهم، واستقر كرافف وريمان في كوخ قديم بعد أن قاما بإصلاحه، وألحقا به عدداً من الأبنية المرفقة، ولأسيما كوخ العبادة، وبدأ كرافف على الفور بالتحدث مع السكان، ودعاهم للقدوم إلى كوخ العبادة كل يوم أحد للاستماع إلى كلمة الله المقدسة، وسعى إلى تعريف السكان بيوم الأحد المسيحي من خلال عدم شراء أي شيء، وعدم السماح للخدم القيام بأي عمل، وارتداء ملابس العيد لتعزيز أهمية ذلك اليوم، كما قام بزيارة القرى والمزارع المجاورة للتبشير فيما بينهم. وفي الوقت نفسه بدأ ريمان بتعلم اللغة المحلية حتى يتمكن من الانخراط في مجال العمل التبشيري المباشر، ولأسيما أن هدف التبشير لم يقتصر على قبائل الساحل، بل وضعوا في اعتبارهم أيضاً قبائل وأمم إفريقيا الداخلية، وهذا ما دفعهما إلى القيام برحلات متعددة إلى الداخل^(٢).

٣- رحلة ريمان إلى جبل كاديرو (Kadiaro) في العام ١٨٤٧: (ملحق ٥)

أمضى كرافف وريمان العام الأول بعد استقرارهما في رباي مبيا في الوعظ والتبشير ما بين قبائل الوانيكا والواكмба والسواحليين في رباي مبيا والقرى المحيطة بها، وحققا خلالها مستوى مقبولاً في اللغة^(٣)، وفتحا مدرسة لتعليم الصغار، واستقبلا الغرباء وبشرا بينهم؛ لأنهم كانوا في وضع يمكنهم من نشر ما يسمعون من المبشرين في مناطق بعيدة، وأصبحت على دراية بعادات وأخلاق السكان، فضلاً عن محاولتهما دحض الخرافات والتقاليد المنتشرة بين الوانيكا والواكмба واحتفالاتهم الدورية التي تنتهي مع السكر والفواحش والأعمال غير الأخلاقية^(٤). كما تابع كرافف

(١) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p135-151.

(٢) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p152-160.

(٣) - يذكر أنه كان للمبشرين الأوروبيين في إفريقيا ميزة تفوقوا بها على غيرهم من الرحالة المستكشفين، وتلخص في الانكباب والمثابرة على دراسة لغات القبائل الإفريقية ولهجاتها، ومن ثم أصبحوا الأداة الفعالة التي تستعين بها الحكومات الأوروبية في شؤون التعليم في المستعمرات الإفريقية فيما بعد. عن العقاد، قاسم، زنجبار، ص ١٣٨.

(٤) - من بين تلك التقاليد المنتشرة آنذاك ما عرف باسم أوغنارو (Ugnaro)؛ وهي رياضة مرعبة يمارسها الشباب عند بلوغهم سن معينة، يتم خلالها تلطيخ الجسم باللون الأبيض والرمادي بحيث لا يمكن التعرف عليهم، ويكونون في حالة كاملة من العري الكامل، ويقفون في الغابة إلى أن يقتلوا رجلاً، ثم يغسلون أنفسهم، ويعودون إلى ديارهم، ويقومون وليمة يشربون فيها الخمر بإسراف، ويشكل المسافرين المنفردون ولاسيما العبيد فريستهم المفضلة. عن Krapf, travels, researches, and missionary labours, p147.

وريمان دراستهما للغة، وأعد كرابف كتاباً تمهيدياً في لغة كينيكاف. وفي خضم العمل تلقياً زيارة من خمسة رجال من جبل كاديوارو في منطقة تيتا (Teita)^(١) حصلاً منهم على بعض المعلومات فيما يتعلق بشعب تيتا، وعزماً إثر ذلك على القيام برحلة إلى جبل كاديوارو في بلاد تيتا التي تقع على مسافة نحو ست وثلاثين فرسخاً^(٢) من ساحل البحر في ممباسة، وفي ٢٣ أيلول ١٨٤٧ بدأوا باتخاذ الترتيبات اللازمة للرحلة، ووقع الاختيار على ريمان للقيام بهذه الرحلة، وافتتاح الرحلات الاستكشافية نحو الداخل، بينما بقي كرابف في راباي. وما إن تمت الاستعدادات حتى انطلق ريمان برحلته في ١٤ تشرين الأول ١٨٤٧، يرافقه ستة رجال من وانيكا واثنين من المسلمين مقابل ثلاث دولارات لكل شخص، واستمرت الرحلة ١٠ أيام مرّ خلالها ريمان عبر بلاد مستوية غنية بالمراعي بعضها مغطى بالأشجار والشجيرات، ولا يوجد فيها أية مزروعات رغم صلاحية تربتها للزراعة، ومرّ بقرى إنغوني، وإندونغو (Endungu)، وكوروندو (Kurundu)، وكاديمو (Kadimu) التي تشكل القاعدة الأمامية لجبال تيتا، ووصل في ١٩ تشرين الأول إلى الجزء الجنوبي من بلاد تيتا الذي يسمى كاديوارو، وكان عبارة عن كتلة جبلية ضخمة ترتفع إلى قرابة ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ قدم، وتمتد لنحو فرسخ ونصف من الجنوب إلى الشمال، بينما تشكل الجهات الشمالية والشمالية الغربية من أرض تيتا سلسلة جبال إندارا (Endara) وبورا (Bura) اللذين يمتدان في اتجاه واحد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي^(٣).

وبعد صعودهم الجبل وصلوا إلى قرية ماغواسيني (Magwasini): أول قرية على جبل كاديوارو، واستقبل فيها ريمان استقبالاً ودوداً من سكانها الذين منعتهم طبيعتهم الجبلية الهادئة من إحداث ضجة كبيرة في استقبال أول رحالة أوروبي يصل إلى أراضيهم، كما هو العرف بين وانيكا الذين يقومون بالرقص والغناء تكريماً للغريب. وشرح لهم ريمان مهمته، وبأنه جاء

(١) - تيتا: من الشعوب الناطقة بلغة البانتو، يقطنون في تلال تيتا بالقرب من ساحل شرق إفريقيا غرب ممباسة، ويتكلمون لغات مختلفة تماماً عن شعوب ماجيكيندا الذين عاشوا في القرون الأخيرة في المناطق الساحلية، ولغتهم أكثر ارتباطاً بلغة تشاجا في تنزانيا، ويتحدث آخرون لغة ساجالا (Saghala) التي تنتمي إلى مجموعة البانتو الساحلية. وربما عاش أسلافهم في أوائل الألفية الأولى في منطقة جبل كليمنجارو، ثم انتقلوا شمالاً على مدار القرون التالية، وتفاعلوا مع أشخاص يتحدثون لغات البانتو، بالإضافة إلى الكوشية والخويسان؛ إذ يبدو أن تلال تايكا كانت بوتقة انصهار للشعوب، واحتل التيتا في النهاية الوديان والمنحدرات في تلال تايكا التي تبرز في وسط صحراء تارو، ومارسوا الاقتصاد المختلط، واستغلوا البيئات المختلفة في المنطقة. عن Robert Maxon, Thomas Ofcansky, Historical Dictionary of Kenya, The Scarecrow Press, London, 2 E, 2000, P242.

(٢) - الفرسخ: (الجمع فراسخ) أصل الكلمة فارسية معربة، وهو من مقاييس المسافة قديماً، ويعادل ٣ أميال، أو ٥.٨ كيلومتراً.
(٣) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p178-180,221-225.

لإخراجهم من ظلام الوثنية ووعظهم وتبشيرهم بالمسيح. وفيما يتعلق بالسكان؛ فقد أشار ريبمان إلى أن هناك ثمانى قرى في كاديرو فقط، تضم بما في ذلك قرية ماغواسيني حوالي ٢٠٠٠ نسمة، بينما تحتوي جبال بورا على ٥٠٠ قرية، وإندارا على ١٠٠ قرية، وهو تقدير إن لم يكن مبالغاً فيه، فمن شأنه أن يعطي عدد سكان إجمالي حوالي ١٥٢،٠٠٠ نسمة لكامل بلاد تيتا.

وعاد ريبمان أدراجه في ٢٢ تشرين الأول عبر المحطات نفسها التي كان قد مرّ بها، ووصل بعد مسيرة صعبة استغرقت ثلاثة أيام إلى قرية راباي بأمان وصحة جيدة حاملاً معه معلومات قيمة عن جغرافية المنطقة وسكانها وعاداتهم وتقاليدهم، وأكد أن شعب تيتا استقبله استقبالاً ودوداً وسمح له بالإقامة فيما بينهم، وإقامة بعثة للتبشير في أراضيهم، ورفعت نتائج رحلة ريبمان الروح المعنوية للمبشرين، لدرجة أنهم فكروا بتمديد أعمالهم التبشيرية على أن يكون هناك مبشر مستقر في شمال وانيكا في كامبي أو جوجني، وآخر على جبل كاديرو، وثالث في جاغا، ورابع في أوزمبارا، وخامس في أوكامباني عندما تتوفر لديهم الإمكانيات والوسائل اللازمة^(١).

٤- رحلات ريبمان إلى جاغا (Jagga): (ملحق هـ)

أ- رحلة ريبمان الأولى إلى جاغا ٢٧ نيسان - ١١ حزيران ١٨٤٨:

سعى كرابف وريبمان إضافة إلى عملهما بالتبشير بين قرى وانيكا، وإرشاد أطفالها ممن يرغبون بالتعلم، وإعداد كتب وقواميس للغات الإفريقية، وترجمة الكتاب المقدس إليها- إلى القيام برحلات في المناطق الداخلية من وقت إلى آخر من أجل التعرف على خصوصياتها الجغرافية والإثنوجرافية ولغاتها والتبشير بالإنجيل، وجاء ذلك لاعتبار أن من واجبه جعل المسيحيين في الوطن على دراية بالبلدان المجهولة في المناطق الداخلية الإفريقية، الأمر الذي قد يساعد في تنشيط التبشير في ذلك الجزء من العالم؛ فضلاً عن تمهيد الطريق للأوروبيين في شرق إفريقيا من خلال التعرف على بلدانها غير المستكشفة، وطرقها، ولغاتها، وحكوماتها عندما تصبح المنطقة في محور اهتماماتهم. وعلى هذا الأساس جاءت رحلات ريبمان الثلاثة إلى جاغا^(٢) التي جرى التحضير لأولها فيما بين ١٩-٢١ نيسان ١٨٤٨، وتمّ شراء الحاجات الضرورية للرحلة من ممباسة التي حاول حاكمها ثني ريبمان عن القيام بالرحلة خوفاً مما قد يتعرض له من

(١) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p225-229.

(٢) - جاغا أو تشاجا: من الشعوب الناطقة بلغة البانتو، ويعد ثالث أكبر مجموعة عرقية في تنزانيا، كانوا يعيشون على سفوح جبل كليمنجارو، ويعملون بالزراعة على سفح الجبل، إذ طور شعب جاغا نظام ري يحمل المياه إلى ارتفاع ٦٠٠ قدم (١٨٠ متر) فوق مستوى النهر. عن Thomas Ofcansky, Rodger Yeager, The Historical Dictionary of Tanzania, Scarecrow Press, London, 2 Edition, 1997, p146.

أخطار من الجالا، والواكوافي، والماساي^(١)، وكذلك من الوحوش البرية، وحذره من الصعود على جبل كليمنجارو؛ لأنه مليء بالأرواح الشريرة، ولاسيما أن كل الذين صعدوا الجبل قد قتلوا وتيبست أطرافهم، وأصيبوا بأنواع كثيرة من الكوارث^(٢).

ومع ذلك انطلق ريمان برحلته في ٢٧ نيسان برفقة دليل سواحي يدعى بانا خيرى مع تسعة رجال من وانيكا لحمل الأمتعة والمؤن اللازمة للمرور عبر هذه المساحات الشاسعة، ووصلوا خلال سبعة أيام إلى كاديوارو، ومنها اتجهوا نحو الشمال الغربي، ومروا في الأول من أيار بجبل بوغادا (Bugada)؛ وهو جبل مغطى بالغابات خالٍ من السكان، وفي الثالث منه مروا بنهر مادادي (Madade) الذي يتدفق من السفح الشرقي لجبل بورا، ومن ثم وصلوا إلى قرية جويوا (Jawia) التي تقع على قمة الجبل، واستقروا فيها حتى السادس من أيار، وتابعوا سيرهم في اليوم السابع منه غرباً حتى توقفوا بالقرب من قرية ماساغنومبي (Muasagnombe)، وشرح ريمان لرئيس القرية ماينا (Maina) وشقيقه لوغو (Lugo) سبب رحلته وهدفها، ووضح رغبته بترجمة الكتاب المقدس إلى لغتهم؛ لجعل الكبار والصغار على دراية بمحتوياته، ولكنهم لم يتحمسوا للتحديث معه عن المسائل الدينية. وتابع ريمان رحلته في ٩ أيار مروراً بنهر غنارو (Gnaro)، وفي صباح ١١ أيار لاح لريمان جبل كليمنجارو الذي كان أكثر وضوحاً من أي وقت مضى مغطى بالثلج، وفي وصفه للمنطقة يقول ريمان: "إن البلاد بأكملها ما بين تيتا وجاغا لها طابع عظيم، فإلى الغرب يوجد جبل كليمنجارو البارز^(٣) مع الثلوج الدائمة عليه، وإلى الجنوب الغربي يوجد

(١) - الواكوفي والماساي: وهي أسماء تطلق عليهم من قبل قبائل الساحل، بينما يطلقون على أنفسهم اسم أورلويكوب (Orloikob)؛ أي أصحاب الأرض، وهم طوال القامة ونحيلين مع ميزات وسيمة. ويحتلون السهول الكبيرة في المناطق الداخلية من شرق إفريقيا التي تمتد من درجتين شمال خط الاستواء إلى حوالي أربع درجات جنوبية، ويعيشون حياة الترحال حيث الماء والعشب. ويتكون غذائهم من الحليب والزبدة والعسل واللحوم، وينفرون من الزراعة. ويقومون بحملات للنهب والغزو في أراضي واكمبا، وغالا، وجاغا، وحتى وانيكا على الساحل. وهم يخيفون كمحاربين حتى أن القبائل الضعيفة لا تغامر بمقاومتهم في المجال المفتوح، وترك لهم قطعانهم وتلوز بالفرار. ويعد الواكوافي وماساي أنفسهم المالكين الحصريين للسهول والبرية مع ينابيعها وأنهارها، ولا يهاجمون سكان الجبال ما داموا يقتصرون على جبالهم. ومع أنهم قبائل رعوية، إلا أنهم شعب منظم ومقسم حسب الفئات العمرية إلى الأطفال، والشبان الذين يشكلون جيشاً ثابتاً، والشيخوخ، ويقف على رأسهم الرئيس الذي يتميز بالحكمة والشجاعة والثروة ويدير شؤونهم بالاشتراك مع الساحر الذي له مكانة مرموقة. ولديهم فكرة مبهمة عن كائن أعلى يدعونهم إنغاي (engai) يسكن الجبل الأبيض، ويأتي بالماء أو المطر، وهو عنصر لا غنى عنه لمروجهم وقطعانهم. عن Krapf, travels, researches, and missionary labours, p317-366.

(٢) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p188-192.

(٣) - جبل كليمنجارو: يطلق عليه السواحيلية اسم "الجبل الضخم"؛ وقد يعني أيضاً "جبل القوافل" (كيليمبا، الجبل، جارو، القوافل)، فهو معلماً للقوافل ينظر إليه في كل مكان من بعيد، ولكن سكان جاغا يطلقون عليه كيبو (Kibo)، أي قمة الثلج. عن Krapf, travels, researches, and missionary labours, p255.

جبل أوغانو (Ugano) الضخم، وإلى الشمال الغربي سلسلة الجبال الممتدة لـ كيكومبوليا (kikumbulia)، وإلى الشرق جبال تيتا مع أعلى قمة لها وتدعى فيروغا (veruga) التي ترتفع بين ٤٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ قدم فوق السهول المحيطة بها^(١).

وفي ١٢ أيار عبر ريبمان ورفاقه نهر لومي (Lumi)، ثم نهر غونا (Gona) الذي يتلقى مياهه من القمة الثلجية في كليمنجارو، وفي اليوم التالي وصلوا إلى مملكة كيلما (kilema) الصغيرة، واستقبلهم ملكها ماساكي (Masaki) بكل ود، وقدم له ريبمان بعض الهدايا من الأقمشة والخرز بما يعادل تقريباً اثني عشر دولاراً، وتلقى في المقابل مؤناً لقافلته الصغيرة، مؤلفة من بقرة وعدد من الأغنام والماعز^(٢)، وبين لهم ريبمان هدفه من الرحلة الذي يتمحور حول تعليم ما جاء في الكتاب المقدس، وقام بانا خيرى بترجمة كلامه وفسره بشكل جيد مما دفع الملك لطلبه للعمل كمدرس في قريته، ومنحه إذن كامل للقيام بالرحلات في الوقت الذي يريد، وبعد إقامة قصيرة في كيلما اطلع فيها ريبمان على عادات السكان وتقاليدهم بدأ رحلة العودة في ٢٩ أيار بعد أن منحه الملك الإذن بالسفر، وطلب منه العودة قريباً إلى بلدهم والإقامة فيها، وعدم الذهاب إلى أي بلد آخر، وتم إنجاز رحلة العودة إلى بورا بأمان في ثلاثة أيام من المشي الصعب، ووصلوا إلى كاديرو في ٧ حزيران ولسوء الحظ كان الطريق بين كاديرو ورباي مقطوعاً بسبب هجمات قبائل الماساي مما اضطر ريبمان إلى السير نحو شيمبا التي تبعد عن رباي مسيرة يوم، ومنها نحو ممباسا التي وصلها في ١١ حزيران بعد أن قضى ستة أسابيع في رحلته إلى جاغا^(٣).

ب- رحلة ريبمان الثانية إلى جاغا ١٤ تشرين الثاني ١٨٤٨ - ١٦ شباط ١٨٤٩:

بدأت رحلة ريبمان الثانية إلى جاغا في ١٤ تشرين الثاني ١٨٤٨ يرافقه بانا خيرى مرة أخرى كدليل مع خمسة عشر رجلاً من السواحيلية لحمل الأمتعة، وكانوا مسلحين بالبنادق والأقواس والسهم، ووصلت الحملة إلى بورا في ٢٦ تشرين الثاني، وبعد مسيرة استمرت ثلاثة أيام قطعوا فيها حوالي ٨٠ ميلاً عبر البرية وصلوا بأمان إلى كيلما، وتلقوا استقبلاً ودياً من ماساكي، ومع ذلك عندما وجدهم عازمون على متابعة الرحلة، وزيارة ملك مجامي (Majame) بدأ بوضع الصعوبات في طريقهم. ولحسن الحظ كان يوجد لدى ماساكي بعض جنود الملك مامكينغا (Mamkinga)؛ ملك مجامي الذي كان أعظم ملوك بلاد جاغا، فأخبرهم ريبمان عن خطته،

^(١) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p230-236.

^(٢) - تجدر الإشارة هنا إلى أن الثروة الحيوانية من الأبقار والماعز والماشية كانت تمثل مصدر الثروة الأول في شرقي إفريقيا، وكان الفارق بين الغني والفقير هو مقدار ما يملك من قطع بصرف النظر عن نوعه. وكان حب الرجل لماشيته مضرب الأمثال، وحتى من يملك منهم بضعة مئات من الرؤوس فإنه يعرف كل حيوان يملكه. عن لتون، شجرة الحضارة، ج ٣، ص ٦٥-٧٣.

^(٣) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p236-242.

فأجابه الجنود بأنه سيتلقى استقبلاً حسناً من سيدهم الذي كان قد أرسل مؤخراً رسلاً إلى الساحل لبعض الأوروبيين للإقامة معه كسحرة، فاضطر ماساكي إلى السماح بمغادرتهم، ولكن بعد أن قام بنهب معظم ممتلكاتهم. وبدأت رحلتهم نحو مجامي في ٤ كانون الثاني ١٨٤٩، وبينما كانوا يسرون نحو اثنين أو ثلاثة فراسخ باتجاه الشمال الغربي من كليمنجارو تمكن ريمان من رؤية قمته الثلجية المهيبة بوضوح^(١).

وفي ٥ كانون الثاني وصلوا رحلتهم باتجاه الشمال الغربي، وعبروا بعض الوديان العميقة التي تنحدر نحو مجامي التي تقع في منطقة منخفضة، وتمتد بين السفح الجنوبي الغربي من كليمنجارو والشمال الشرقي من جبال شيرا (Shira) التي تغطيها الثلوج أيضاً في بعض الأحيان، ومروا عبر مناطق أورو، ولامبونغو (Lambongo)، وكيمدي (Kimdi)، وكيمبو (Kimbo) حتى وصلوا في ٧ كانون الثاني إلى نهر فيرفيري (Veriveri) الذي يشكل الحدود الشرقية لمجامي، واضطروا إلى البقاء على ضفاف النهر حتى أقيم حفل كيشوغنو (Kishogno)^(٢) الذي من دونه لا يمكن لأي شخص غريب دخول البلد، وبعد الحفل قدم له كوخ للإقامة فيه، واضطر ريمان إلى الانتظار حتى ١٢ كانون الثاني لمقابلة الملك مامكينغا شخصياً، وقدم له الهدايا القليلة المتبقية معه، وأخبره أن هدفه ليس شراء العبيد ولا العاج بل تكوين صداقة معه والتعريف بالكتاب المقدس الذي يحتوي على كلمة الله التي يود تعليمها لجميع الأمم، ولم يسمح له مامكينغا بالمغادرة حتى ٢٩ من الشهر نفسه، وأكد لريمان مدى حبه له ورغبته بأن يبقى معه لفترة أطول، وكان يسعده لو استقر في مجامي ليقدم له ابنه كتلميذ. وخلال رحلة العودة التي تمت في الموسم الحار تمكن ريمان من رؤية القمم البارزة لجبل كليمنجارو بوضوح، وتبين له وجود قمتين رئيسيتين على قاعدة تتسع لمسافة عشرة فراسخ، وكانت القمة الشرقية منخفضة وحادة في حين كانت الغربية أعلى ولها تاج ثلجي دقيق^(٣)، وتبقى مغطاة بكتلة من الثلج حتى في المواسم الحارة، وتابع ريمان رحلة العودة عن طريق كيلما، وبورا، وكاديوارو، ووصل إلى راباي بأمان في ١٦ شباط عام ١٨٤٩^(٤).

^(١) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p248-250.

^(٢) - كيشوغنو: وهو تقليد يقام عند وصول شخص غريب للمنطقة لأول مرة، والهدف منه التحقق من نوايا الشخص الغريب، إذ يقوم السحرة بصنع خليط من نبات معين مخلوط بدم الغنم أو الماعز، ويتم رش الغريب بهذا الخليط قبل أن يسمح له

بمقابلة الملك. عن Krapf, travels, researches, and missionary labours, p252.

^(٣) - تعرضت تقارير ريمان عن جبل الثلج للسخرية في إنجلترا، ولاسيما من السيد ديورج كولي أحد أعضاء الجمعية الجغرافية الملكية الذي قال أن هذا التقرير يمثل أحد شطحات الخيال العقلي الذي لا يستند على أي دليل ملموس. عن كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٢٢٩.

^(٤) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p250-256.

ج- رحلة رييمان الثالثة إلى جاغا ٦ نيسان- ٢٧ حزيران ١٨٤٩:

قرر رييمان بعد الاستقبال الودي الذي تلقاه من الملك مامكينغا ووعدته بمساعدته في القيام بالمزيد من الرحلات في بلده أن يعود مرة أخرى إلى جاغا؛ وأن يسعى للوصول إلى بلاد أونيامويزي، وعليه بدأ رحلته الثالثة في ٦ نيسان ١٨٤٩ محملاً بأنواع مختلفة من الهدايا التي استأجر لها ثلاثين رجلاً من الوانيكا كحمالين، ولسوء الحظ كان موسم الأمطار قد بدأ للتو، الأمر الذي جعل رحلتهم صعبة للغاية؛ إذ غالباً ما كانت تمطر طوال الليل، في حين كان رييمان ورفاقه مستلقين في العراء دون أي مأوى، كما كانت أنهار جاغا متدفقة، فعبروا في ١٩ نيسان نهراً لومي، وكان في نيّتهم تجنب كيلىما والذهاب مباشرة إلى مجامي، ولكن نقص المؤن والمطر المستمر أجبرهم على الذهاب إلى عرين الأسد مرة أخرى، وبعد مواجهة المضايقات المتوقعة من ماساكي نجح رييمان في اقناعه بأن يسمح لهم بمواصلة الرحلة^(١).

وفي ١٥ أيار تجاوزوا خلال الليل المسافة بين كيلىما ومجامي، وأصبحوا على مسافة فرسخ عنها، واضطروا إلى قضاء ليلة في العراء، ووصلوا في اليوم التالي إلى مجامي حيث وضعت لهم الأكواخ على الفور، وجاء الملك مامكينغا لرؤيتهم، وللحصول على الهدايا المخصصة له، ولكنه في هذه المرة قام بابتزاز رييمان للحصول على الهدايا مقابل السماح له بمتابعة رحلته إلى أونيامويزي، وبالفعل الملك وحاشيته بنهبه حتى نفذ مخزونه الذي كان قد أعده لرحلته إلى أونيامويزي، وعانى رييمان إضافة إلى السرقة من المرض، وتحطمت معنوياته تحت تأثير الطقس البارد والرطب؛ لذلك رغب في العودة إلى الساحل في أقرب وقت ممكن. وفي السادس من حزيران استلم رييمان الإذن بالمغادرة من الملك، وخوفاً من مقابلة ماساكي عقدوا العزم على تجنب كل فرصة للاتصال به، والعودة من خلال البرية التي تمتد على طول جنوب جاغا، ووصلوا بعد مسيرة صعبة بورا، ثم كاديرو، وتابعوا سيرهم منها باتجاه راباي التي وصلوها في ٢٧ حزيران بعد مسيرة صعبة وشاقة عانى فيها رييمان ورفاقه صعوبات جمة، وعند وصوله إلى راباي وجد أن عائلته التبشيرية قد زادت بوصول اثنين من الأعضاء الجدد وهما: المبشرين إرهاردت (J.Erhardt)^(٢)، وجوهان فاغنر (Wagner) اللذين كانا قد وصلا قبل أسابيع قليلة من أوروبا،

^(١) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p257-259.

^(٢) - جاكوب إرهاردت: ولد في العام ١٨٢٣ في شتوتغارت، وأرسل في العام ١٨٤٩ إلى شرق إفريقيا من قبل جمعية التبشير الكنسية لينضم إلى كرافف ورييمان. قام بعمليات استكشافية في المناطق الداخلية ولاسيما في أوزامبارا وتانجا، وكان أعظم إنجاز قام به إرهاردت في الاستكشاف الجغرافي هو قيامه برسم خريطة جغرافية للمنطقة تظهر وجود بحيرة ضخمة، أطلق عليها اسم "بحر أونيامويزي"، وذلك بناء على المعلومات الشفهية التي حصل عليها من السكان المحليين، وتم نشرها في العام ١٨٥٦، وكانت خريطته السبب المباشر لمزيد من الرحلات الاستكشافية إلى هذه المناطق. في العام ١٨٥٥ اضطر إرهاردت إلى العودة إلى أوروبا وإنهاء عمله التبشيري في إفريقيا لأسباب صحية، وتوفي في شتوتغارت في العام ١٩٠١. عن Bursik, Wissenschaft u. Mission soll sich aufs innigste miteinander befreunden, P30

وتعرضاً على الفور للحمى التي كانت قاتلة في حالة فاغنز، وانتهت بوفاته في ١ آب عام ١٨٤٩^(١).

٥- رحلات جون لودفيغ كرابف:

أ- رحلة كرابف الأولى إلى أوزمبارا (Usambara) ١٢ تموز- ١ أيلول ١٨٤٨: (ملحق ٦)

بعد عودة ريبمان من رحلته الأولى إلى جاغا، قرر كرابف أن يقوم بزيارة البلدان الواقعة إلى الجنوب والجنوب الغربي من ممباسا؛ للتبشير بالإنجيل في المناطق القريبة من زنجبار، واستكشاف إمكاناتها لجعلها مقراً للمحطات التبشيرية، كما أخذ بالحسبان زيارة الملك كيمري (Kimeri) ملك أوزمبارا^(٢)، والحصول منه على إذن للبقاء في بلده، والقيام بالتبشير في إطار حمايته، لاسيما أن إمكانية الوصول إلى بلده متاحة دائماً عن طريق تانجا وبنجاني اللتين تخضعان لسيطرته^(٣)، وبناء على ذلك بدأ كرابف استعداداته للرحلة المرتقبة، فتفاوض مع بانا خيرى ليكون دليل رحلته إلى أوزمبارا مقابل مبلغ خمسة عشر دولاراً مع سبعة رجال من السواحيلية كحمالين للأمتعة مقابل خمسة دولارات للرجل الواحد، وجهاز المواد اللازمة من القماش، والخرز، والسكاكين ليقدمها كهدايا، وكمقابل لشراء المؤن، وغادروا في ١٢ تموز ١٨٤٨ ميناء ممباسا متجهين نحو الجنوب عبر قرى متونغو (Mtongwe)، ولونغوما (Lunguma)، وكويل (Kwale)، وبونديني (Bundini)، وتلقى فيها كرابف استقبلاً ودياً للغاية، وقدم لرؤسائها مقابل كرم الضيافة بعض الأقمشة، وقام بالتبشير بين سكانها وأعطى الإرشادات لفتيانها^(٤).

^(١) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p259-264.

^(٢) - أوزمبارا: وتعرف باسم شامبا (Shambaa) وهي كتلة جبلية ترتفع فوق وادي بانجاني قبالة الطريق الرئيسي للقوافل العابرة إلى بحيرة تنجانيقا. تم توحيدها لأول مرة في القرن الثامن عشر تحت حكم الملك مبيغا (Mbegha)، وتم تنظيم مملكة مركزية قوية تحت حكم مبيغا وأبنة بوجه (Bughe) الذي غزا وضم بوندي الواقعة إلى الشرق، وأنشأ عاصمة كبيرة في فوجا على حافة السهول. ويعد كيميري بي نيامباي (Kimweri ye Nyumbai) حفيد بوجه أعظم ملوك شامبا الذي استلم العرش حوالي العام ١٨١٥، وزاره كل من كرابف في العام ١٨٤٨، وبيرتون وسبيك في العام ١٨٥٧، وتوفي بعدها بخمس سنوات في العام ١٨٦٢، واندلعت بعد وفاته حرب أهلية في البلاد انتهت باحتلال الألمان للإقليم. عن Chris Peers, armies of the nineteenth century: east Africa, tribal and imperial armies in Uganda, Kenya, Tanzania and Zanzibar 1800 to 1900, foundry books, Nottingham, 1p, 2003, p74-75.

^(٣) - تبين أن تقرير كرابف فيما يتعلق بـ تانجا وبانجاني بكونها تحت سيطرة الملك كيميري ملك أوزمبارا غير دقيق، إذ كانت ملكيتها تعود إلى سلطان زنجبار، وهذا ما أكدته الرحالة ريتشارد بيرتون الذي وصل إلى زنجبار في العام ١٨٥٦. عن Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p6-7.

^(٤) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p266-269.

وفي ١٥ تموز واصل كرابف طريقه ولكن باتجاه الشرق نحو ساحل واسين وتانجا^(١) عبر بلد مستوٍ في معظمه ومغطى بالعشب والأشجار والغابات الكثيفة باستثناء بعض التلال هنا وهناك، كما وُجدت العديد من البرك التي تتردد عليها الفيلة البرية، وتزايدت الغابة كثافة كلما تقدموا أكثر، وأصبحت التربة أكثر ملاءمة للزراعة. وفي ١٩ تموز عبروا نهر لينى (Leni) نحو قرية غونجا (Gonja) إحدى قرى واديغو التي تقع على نهر أومبا (Umba) حيث رافقهم رئيسها موا ميري (Mua Muiri) كدليل مقابل هدية من الأقمشة، وتابعوا طريقهم عبر قرية كوسي (Kusi)، ثم عبروا نهر إنغامبو (Engambu)، ووصلوا في ٢٤ تموز إلى قرية فوموني (Fumoni) التي دخلوا بموجبها أراضي ملك أوزمبارا. وبعد المرور بقرى عدة في منطقة واشينسي (Washinsi) وصلوا إلى قرية نوغنييري (Nugniiri) الكبيرة التي تحكمها ابنة الملك كمييري التي استقبلتهم مع زوجها، وقدمت لهم كوخاً للإقامة ووفرت لهم المؤن، وقدم كرابف لها ولزوجها بالمقابل بعض الهدايا من الملابس والخرز التي قاموا بإخفائها تحت ملابسهم حتى لا يراها أحد ويعلم الملك بذلك؛ إذ كان لا يجوز لأحد أن يأخذ شيئاً من الغرباء ضمن مناطق سيطرته دون علمه أو إذن منه، وسرعان ما تبين لكرابف طابع الهدوء والاحترام اللذين اتسم به الشعب، إذ لم يوجد فيهم أحد يتسول، وتبين أن هذا النظام يسود في كامل إقليم الملك كمييري، وقد قدر كرابف عدد سكان واشينسي التي تخضع للملك كمييري في السهل نحو ٣٠,٠٠٠، وفي الجبال إلى ٦٠,٠٠٠ نسمة، في حين تشمل إمبراطوريته كلها ما لا يقل عن نصف مليون نسمة، وتمتد من الساحل إلى جبال باري (Pare)، وحدودها الجنوبية نهر بنجاني، والشمالية براري الواكوفي وأرضي واديغو^(٢).

وفي ٢٨ تموز وصل رسول من فوجا (Fuga)^(٣) مقر إقامة الملك مع أوامر بأن يتوجه كرابف إلى العاصمة فوراً، لذلك بدأوا سيرهم على الفور مروراً بسفح جبل بامبير (Pambire) الذي يرتفع ٢٠٠٠ قدم فوق مستوى البحر، وعبروا منطقة وعرة تتناوب بين صعودات التلال وهبوط الوديان، وعبروا نهر إمغامبو (Emgambo)، وساروا في وادٍ عميق قادهم إلى جبل ماكويري (Makueri) الذي لا يقل ارتفاعه عن ٣٠٠٠ قدم، وبعد مسير خمسة أيام من السفر المتعرج

(١) - تانجا: مدينة تنزانية ساحلية، تقع على بعد ١٣٦ ميل (٢١٨ كم) شمال دار السلام. أسست في القرن الرابع عشر من قبل التجار الفرس، ونمت خلال الحقبة الاستعمارية الألمانية حتى أصبحت ميناء تجارياً مهماً يصدر ضعف ما يصدره ميناء دار السلام. عن Ofcansky, Yeager, The Historical Dictionary of Tanzania, p171.

(٢) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p269-275.

(٣) - فوجا: عاصمة مرتفعات أوزمبارا ومقر إقامة الملك كمييري، زارها العديد من الأوروبيين من بينهم كرابف، وهي مدينة تضم حوالي ٣٠٠٠ نسمة مبنية على قمة مستديرة على ارتفاع ٤٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، وتنحدر الوديان إلى أعماق كبيرة من جميع جوانبها، ولا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الخدوب شديدة الانحدار. عن Johnston, Africa, p290

وصلوا في ٧ آب إلى سفح الجبل الذي تقع فيه فوجا، عاصمة الملك كميري، وهناك تم استجوابه بشأن موضوع رحلته من قبل ممثل الملك؛ لأن الملك كميري كان غائبا في سالالا (Salla) عاصمته الثانية، وتابع كرابف طريقه إلى سالالا التي وصلها في ٩ آب، وقابل فيها الملك كميري في اليوم التالي، وقدم له الهدايا وقص له عن رحلاته في أثيوبيا، وعن استقراره في راباي ورحلات شقيقه ريبمان، وبين للملك أنه جاء إلى أوزمبارا؛ ليعلمهم الكتاب المقدس، وفي حال رغبته في ذلك سيأتي هو أو أحد أصدقائه ليبقى في بلده. وأعرب الملك من جانبه عن موافقته على ذلك، وطلب منه كرابف أن يحظى بخمسة أولاد ليقوم بتعليمهم في راباي، لكن كميري أجاب بأن شعبه لن يفهم هذه الأشياء، وأن الآباء سيعتقدون أن أطفالهم سيكونون عبيداً ويتم بيعهم، ولكن إذا كان سيعود إلى بلده فإنه سوف يعهد له بالشباب لإرشادهم، وتمنى أيضاً بعض المختصين، ولاسيما من رجال الطب- مما يدل على أن شرقي إفريقيا لم تعد الحكام المنفتحين كالملك كميري الذي أقام النظام ضمن مملكته، وسعى للحصول على مختصين في العديد من المجالات للرقى بمستوى بلاده- وقدم لكرابف المؤن لرحلة العودة، وأوعز لجنوده بحمايته، وفي ١٣ آب حصل كرابف على الإذن بالمغادرة، وعاد أدراجه إلى قرية بنجاني التي أبحر منها إلى زنجبار، ثم إلى ممباسا، وانضم إلى ريبمان في رباي في الأول من أيلول بعد أن أمضى ٦ أسابيع في الترحال^(١).

ب- رحلة كرابف الأولى إلى أوكمباني ١ تشرين الثاني-٢١ كانون الأول ١٨٤٩: (ملحق ٨)
جاءت رغبة المبشرين في رباي مبيا في زيارة قبائل واكامبا^(٢) في الداخل؛ لاجتياز الأخيرة جزءاً كبيراً من شرق إفريقيا لأغراض تجارية، الأمر الذي يجذب اهتمام أي مبشر؛ لذلك بعد عودة ريبمان من رحلته الثالثة إلى جاغا، ووصول إرهاردت من أوروبا، تقرر أن يقوم كرابف برحلة إلى واكامبا التي تبعد حوالي ١٠٠ فرسخ عن رباي، واختراق المنطقة حتى كيتوي (Kitui)؛ لزيارة رئيسها كيفوي (Kivoi) الذي تعرفوا عليه في راباي في تموز ١٨٤٨، والوصول بمساعدته إلى نهر دانا (Dana) بغرض التبشير في تلك الأنحاء من جهة، وللاستفسار عما إذا كان هناك طريق من أوكمباني إلى أونيامويزي إلى مصادر النيل من جهة أخرى. وبناء على ما تقدم بدأ كرابف

^(١) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p276-282.

^(٢) - الواكامبا: ينتمون إلى عرق الزنوج، ويقال أنهم جاءوا من الجنوب الشرقي بالقرب من جاغا مدفوعين بتقدم قبائل الواكواي والماساي، وهم عراة تقريباً؛ إذ يغطون أنفسهم بحرقاة واحدة يلفونها حول عورتهم، وترتدي النساء قطع من الفراء مزخرفة بالخرز، في حين يترك الجزء العلوي من أجسادهم وأقدامهم في عري كامل، وتتكون زينتهم من الخرز والسلاسل النحاسية. ويعمل واكامبا بالزراعة وتربية الماشية إلى جانب التجارة مع الساحل والمناطق الداخلية، ويتكون غذائهم من الحليب واللحوم، وعصيدة الذرة. وفي حين تعتنى النساء بالمنزل والحقول يجلس الرجال من دون عمل، ويعد تعدد الزوجات أمر شائع بين الواكامبا بعد دفع المهر من الأبقار. ويقدر عددهم بحوالي ٧٠,٠٠٠ نسمة، وليس لديهم رئيس معترف به من قبل الأمة بأسرها، كما أنهم لا يلتزمون بأية قوانين، ويحكم رئيس كل قرية رعاياه وفقاً للعادات والتقاليد القديمة للبلد، ولدى واكامبا مثل بقية قبائل شرق إفريقيا فكرة ضعيفة عن كائن أعلى يسمونه مولونغو، وليس لديهم أصنام ولا أي طقوس دينية. عن Elisee, the earth and its inhabitants, Africa, v 4, p362.

استعداداته للرحلة فاستأجر بعض السواحليين كمرافقة وحمّالين للأمتعة مقابل ثمانية دولارات إلى كيتوي، ودولارين إلى دانا، واتخذ من منيكا (Mnika)^(١) يدعى مانا زاهو (Mana Zahu) قائداً لقافلته الصغيرة التي انطلقت من راباي في ١ تشرين الثاني ١٨٤٩ باتجاه الغرب عبر نهر موجي (Muaje)، وقرية أبي غوم (Abbe Gome) الصغيرة، وغابة كومبولو (Kumbulu) التي دخلوا منها إلى البراري الإفريقية الواسعة، وتابعوا تقدمهم عبر غابة زكا (Zakka) التي عرقلت تقدمهم، وسهل كاديذا (Kadidza) الذي كان المسافرون يتخوفون منه دائماً؛ لأن قبائل الجالا غالباً ما تختبئ في الغابة المجاورة لنهب القوافل العابرة، وواصل كرابف مسيره حتى وصل في ٩ تشرين الثاني إلى سفح جبل مونغو (Maungu) الذي يعد نقطة مهمة للمسافرين بين أوكمباني والساحل، وشاهد منه كرابف جبل كليمنجارو في جاغا، ولاحظ أن تاجه الأبيض يجب أن يكون ثلجاً كما أكد رييمان من قبل.^(٢)

وفي إلى ١٤ تشرين الثاني وصلوا إلى نهر تزاو (Tzawo) بعد أن نفذ مخزونهم من المياه، وتابعوا سيرهم في مناطق كيكنمبوليو (Kiknmbuliu)، وإدومو (Idumuo)، ووصلوا في ٢١ تشرين الثاني إلى نهر عدي (Adi) الذي يشكل الحدود الجنوبية الغربية لأوكمباني، وبدأوا بصعود سلسلة الجبال التي تمتد من إندونغوني (Endunguni) إلى أوكمباني، ويطلق على المنطقة بأكملها اسم ياتا (Yata)، وساروا عبر برية تنغاي (Tangai) الخالية من السكان حتى وصلوا إلى نهر تيفا (Tiva) الذي يقال: إنه ينبع من أولو (Ulu)؛ مقاطعة أوكمباني الشمالية الغربية، وبعد عبورهم عدداً من المحطات وصلوا في ٢٦ تشرين الثاني إلى كيتوي قرية كيفوي الذي استقبلهم بكل ود وترحاب، وجهز لهم كوخاً للسكن، وقدم له كرابف الهدايا التي أحضرها، وتحدث معه فيما يتعلق بموضوع رحلته، وما إذا كانت واكمبا ستلقى المعلمين المسيحيين، وطلب مرافقته للوصول إلى نهر دانا، وأجاب كيفوي بأنه سيساعده في مسعاه، ولكن عليه أن ينتظر حتى الشهر المقبل، إذ يمكنه أن يرافقه عندما يذهب إلى مويّا (Muea) في بلد واندوروبو (Wandurobo)، وإلى كيكويو لجلب العاج من هنالك، وأعرب كيفوي عن رغبته في أن يقوم حاكم ممباسة بإرسال قوارب على نهر دانا الذي كان صالحاً للملاحة، لإخراج عاجه عبر المياه؛ لأن نقله براً إلى ممباسة كان صعباً للغاية، ورغم وعد كيفوي لكرابف بمرافقته إلى نهر دانا إلا أن الأخير صمم على العودة إلى الساحل لاسيّما بعد أن شعر بالتوعك والتعب بعد رحلته الطويلة، فضلاً عن أن المطر حال دون رحلته إلى دانا. وفي ٣ كانون الأول بدأ كرابف رحلة العودة إلى الساحل بعد أن

(١) - إن البادئة "وا" wa في اللغة السواحلية تدل على القبيلة أو العرق، في حين أن البادئة "م" m أو "مو" mu تدل على المفرد، والبادئة "أو" U تدل على مكان القبيلة. وهكذا، فإن "وانيكا"، تعني عرق وانيكا، و"منيكا"، تعني فرد من القبيلة؛ و"أونيكا" تعني مقاطعة وانيكا. عن Krapf, travels, researches, and missionary labours, p144.

(٢) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p283-287.

أخذ الإذن من كيفوي ماراً في المحطات نفسها التي عبرها من قبل، ووصل في ٢١ كانون الأول إلى رباي مبيا، وأنضم إلى زميليه ريبمان وإرهاردت بعد أن أمضى ٥١ يوماً في الترحال، وكانت أهم أحداثها اكتشاف جبل كينيا أو كيجينا المغطى بالثلوج في طريق عودته من كيتوي^(١).

ج- رحلة كرابف وإرهاردت من ممباسا إلى رأس ديلغادو ٢ شباط-٢٣ آذار ١٨٥٠: (ملحق٧)
بعد قيام كرابف برحلاته سابقة الذكر ففكر بالعودة إلى وطنه الأم الذي لم يره منذ العام ١٨٣٧، ولكنه صمم قبل ذلك على القيام بمسح الساحل الجنوبي من ممباسا حتى رأس ديلغادو الذي ينتهي عنده الحكم العربي، ويبدأ الساحل الذي يخضع للبرتغال، ففي حين كان الساحل من ممباسا إلى جزيرة زنجبار مألوفاً بالنسبة له، لم يكن لديه اطلاع على المنطقة الساحلية التي تمتد من جزيرة زنجبار باتجاه الجنوب، ولم يسبق له زيارتها من قبل، وكان زملاؤه في أوروبا يرغبون في الحصول على بعض المعرفة عن هذا الجزء غير المستكشف من ساحل إفريقيا الشرقي؛ ليصبحوا على دراية أفضل بمختلف الطرق التي يمكن من خلالها النفوذ إلى الداخل الإفريقي. وبناء على ما تقدم قام كرابف بإرفاقه إرهاردت في ٢ شباط عام ١٨٥٠ بترتيبات في ممباسا مع ربان سفينة صغيرة من السواحية لزيارة جميع المرافئ والمدن والقرى الواقعة جنوب ممباسا حتى رأس ديلغادو. وفي الرابع من شهر شباط أبحرا من ميناء ممباسا في أقرب مسافة ممكنة من الشاطئ حتى يتمكنوا من مسح كامل خط الساحل، وكان الساحل الإفريقي- الشرقي جنوب خط الاستواء عموماً وعراً من شدة الموجات البحرية، وتوجد فيه العديد من الجزر والشعاب المرجانية، فمرا في طريقهم بخليج واسين، وشاهدا بوضوح قرى كيروغو (Kirugu)، ومريما (Mrima)، وجومبو (Jombo) التي يسكنها واديجو- وانيكا، ثم خليج وانغا (Wanga) وماغوغو (Magugu). وفي السابع من شباط وصلا إلى خليج تانغا البارز، وفيها سمع كرابف أن الملك كميري ينتظره بفارغ الصبر، وفي ٩ شباط وصلا إلى تانغاتا (Tangata) التي استقبلها فيها بكل ود من سيد الميناء الديوان (Diwan)^(٢)، وفي ١٠ شباط تابعا سيرهما عبر مصب نهر بنجاني، وقرية بويي (Buyeni) التي تقع إلى الجنوب منه، وميناء مساسامي (Msasami)، وقرية متوتانا (Mtotana)، وجزر سيندا (Sinda)، وشونجيمبيلي (Shungimbili) ونيوفرو (Niovro)، ومافيا^(٣).

وفي ١٩ شباط وصل كرابف وإرهاردت إلى ميناء كيلوا كيبنجي (Kilwa Kibenge) التي تقع على

^(١) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p288-299.

^(٢) - ديوان: لقب رئيس أو حاكم محلي، يخضع لسلطة سلطان زنجبار ويتم تعيينه من قبله، وتنعكس أهميتهم وأعدادهم حسب الأماكن، يتمتع الديوان بامتيازات فرض الغرامات والضرائب، ولديه أيضاً علامات تمييز معينة، ويستمد دخله بشكل رئيس من القوافل التي تجلب العاج والعبيد من المناطق الداخلية البعيدة. عن Burton, The Lake Regions of Central Africa, v1, p16-17

^(٣) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p411-422.

البر الرئيسي، وتعد أهم مدينة على الساحل بين موزامبيق وزنجبار، وقدر كرابف عدد سكانها من ١٢ إلى ١٥ ألف نسمة، وكانت مركزاً تجارياً مهماً للثروات المتدفقة إليها من الشمال والجنوب، ومحركاً لتجارة العاج والأرز والفحم والتبغ ولاسيما العبيد الذي يتم جلبه من أونيامويزي، ومن مناطق بحيرة نياسا. وفي ٢١ شباط تركا كيلوا كيبنجي، وأبحرا إلى كيلوا كيسيواني أو جزيرة كيلوا، وقاما بزيارة حصنها، وتابعا سيرهما في ٢٢ شباط عبر خليج كيسويري (Kisueri)، وليندي (lindi)، وقرية موتينج (Muitinge)، وخليج موانيا (Muania)، وخليج مكداني (Mkindani) الكبير، ووصلا في ٢٦ شباط إلى مصب نهر روفوما، وأكد لهما الربان أنه ينبع من بحيرة نياسا، وإلى الجنوب من النهر يقع رأس ديلغادو الذي يدعى من قبل السواحليين سواهو (Suahu)، وفي جواره قرية تونغ (Tungue) أخر معاقل سلطان زنجبار، في حين تقع المنطقة التي تمتد إلى الجنوب منها تحت حكم البرتغاليين في موزامبيق وبذلك وصلت رحلتها إلى نهايتها^(١).

وكان من أبرز المعلومات التي استخلصها كرابف من هذه الرحلة أن تعرّف على القبائل التي تقطن هذا الساحل، وكانت على النحو الآتي: - قبائل واسيجوا (Wasegua) الوثنية التي تقطن فيما بين الضفة الجنوبية لنهر بنجاني وقرية سادان السواحلية المقابلة لزنجبار، وإلى الجنوب منها يقطن الوادوي (Wadoie) الذين يقال إنهم أكلة لحوم البشر، وإلى الجنوب من وادوي يقطن وازارامو (Waseramu)، وواكاتوا (Wakatoa)، وواتومي (Watumbi)، وواغيندو (Wagnindo)، ووامويرا (Wamuera) في كيلوا كيبنجي، وماكوندي (Makonde)، وماكوا (Makua) التي يبدأ عندها الجزء من الساحل البحري الذي يخضع للبرتغال، وتعيش كل هذه القبائل على الساحل، وتحفظ بعلاقات ودية مع بعضها بعضاً، وتخضع جميعها وإن لم يكن بصورة مباشرة لحكم سلطان زنجبار، وازدهرت بين هذه القبائل تجارة الرقيق إلى حد مخيف. وشرع كرابف وإرهاردت بعد ذلك برحلة العودة حيث وصلا مرة أخرى إلى كيلوا في ٥ آذار، ثم زنجبار في ١٢ آذار، ووصلا في ٢٣ آذار إلى محطتهم التبشيرية في راباي، ومنها عاد كرابف إلى أوروبا للمرة الأولى بعد غياب دام ثلاث عشرة سنة منذ العام ١٨٣٧^(٢).

د- رحلة كرابف الثانية إلى أوكمباني ١١ تموز- ٢٨ أيلول ١٨٥١: (ملحق ٨)

بعد عودة كرابف من أوروبا قرر أن يقوم برحلة ثانية إلى أوكمباني؛ وذلك بناء على قرار لجنة جمعية التبشير الكنسية؛ لإنشاء محطة تبشيرية في أوكمباني، ومن ثم إقامة سلسلة من المحطات التبشيرية عبر إفريقيا من الشرق إلى الغرب. وبناء على ذلك بدأ كرابف بالاستعداد للرحلة المرتقبة، فاستأجر ثلاثين رجلاً من الوانيكا بين حمالين ومرافقين، واختار مانا زاهوزعيماً

^(١) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p422-428.

^(٢) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p429-431.

للقافلة التي انطلقت من راباي في ١١ تموز، وانضم إليها على الطريق نحو ١٠٠ مكامبا كانوا عائدين إلى ديارهم، ووصلوا في ١٤ تموز إلى برية ندونغوني (Ndunguni). وبعد مسيرة شديدة الإرهاق استمرت يومين وصلوا إلى جبل مونغو (Maungu) حيث ارتاحوا لبعض الوقت، وتابعوا في ١٩ تموز طريقهم نحو الشمال، وعبروا نهر ووي (Woi)، وقرية كانغونغو (Kangongo)، وتابعوا منها إلى نهر تساو، وتعرضوا خلال الطريق لهجوم من قبل اللصوص غير أن الواكмба تصدوا لهم، بينما ألفت الوانيكا أحمالها ولاذت بالفرار، وبعد أن تجمعوا مرة أخرى سارعوا للخروج من الغابة الكثيفة قبل عودة اللصوص، ووصلوا بأمان إلى نهر تساو، وتابعوا منه إلى كيكومبوليو، وعبروا نهر عدي في ٢٦ تموز، ثم توجهوا إلى قرية متانجي و نسوكي (Mtangi wa Nsuki) رئيس إحدى قرى واكامبا الذي استقبلهم بود مع الشيوخ الآخرين، وقدم لهم كرابف الهدايا وشرح لهم الهدف الرئيس من رحلته، وأعلنوا أنهم سيسمحون له أن يقيم بينهم مؤكدين حمايتهم له، ومن ثم تابع كرابف سيره في ١ آب يرافقه أربعة واكامبا، وواحد من خدمه الوانيكا بينما ترك الآخر لرعاية أغراضه باتجاه المناطق الداخلية من أوكمباني حتى نهر دانا، ووصل في ٤ آب إلى قرية صديقه القديم كيفوي الذي استقبله بكل ود، وأخبره بأنه سيرافقه إلى نهر دانا، ثم سيذهب معه إلى ممباسا، ويستأجر من هناك بعض السواحليين ليبنوا له مسكناً كبيراً في أوكمباني، إضافة إلى أنه سيساعده في زيارة جميع البلدان الواقعة حول منطقته^(١).

وبدأ مسيرهم إلى نهر دانا في ٢٤ آب متجهين نحو الشمال والشمال الغربي عبر بلد مناسب للزراعة والرعي، وخيموا في المساء بجانب جدول يتدفق نحو كيتوي، وعبروا بعد ذلك وادي أنديلي (Andilai)، وشاهدوا جبل موكا مكو (muka mku) العالي وراء السفح الشرقي الذي يقال أن نهر ديك (Dika) يتدفق منه ويصب في دانا، ودانا نفسه يتدفق إلى الغرب من موكا مكو. وفي ٢٧ آب وصلوا إلى جبل كنس (Kense) الذي يرتفع في السهل العظيم الذي يؤدي إلى دانا، وقد بلغ العطش بهم مبلغاً شديداً، وكان يفصلهم عن النهر عدة ساعات عندما تعرضوا لهجوم من اللصوص قتل على إثره كيفوي وهرب من بقي، ولاذ كرابف بالفرار، وتابع الجري حتى خرج عن مسار اللصوص، ثم تبصر في حالته الحرجة، وإمكانية العودة إلى قرية كيفوي التي تبعد مسافة خمسة وثلاثين فرسخاً من دون دليل وبلا طعام وماء إلى جانب ذلك لم يكن على يقين من أنه قد يلتقي باللصوص مرة أخرى، وكان أكثر ما يلح عليه حاجته الفورية للماء؛ لأنه لم يشرب شيئاً طوال اليوم، وكان يعرف أن دانا في متناول اليد عندما رأى الجبل الذي عند سفحه كما قال كيفوي يتدفق النهر؛ لذلك صمم على المضي قدماً إلى النهر، ولم يكن مدفوعاً بالفضول الجغرافي ولكن بالعطش الشديد، وشق طريقه بين الأشجار خوفاً من اللصوص حتى وصل إلى

^(١) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p300-314.

وقام كرابف بعد أن روى عطشه باستكشاف طفيف للنهر الذي كان عرضه حوالي ١٥٠ قدماً، وعمقه من ستة إلى سبعة أقدام، ويجري نحو الشرق في مسار أعوج حيث يقوم بجولات التفافية قبل وصوله إلى المحيط الهندي، وعلى الجانب الآخر من النهر شاهد كرابف جبلاً عالياً أطلق عليه اسم ألبرت^(٢) تكريماً لزوج الملكة فكتوريا الذي استقبله في العام ١٨٥٠، وبعد أن أنتعش بمياه دانا، بدأ سيره مرة أخرى بحيث كان يمشي ليلاً ويستريح في نهراً، وعانى كثيراً من الأشواك والعشب الطويل حتى وصل إلى الجبل الذي لاحظته في مسار رحلته، وكان له إطلالة على منطقة دانا بأكملها، ويعد معلماً للقوافل، وأطلق عليه اسم وليام تكريماً لفريدريك وليام الرابع^(٣) ملك بروسيا. وبينما كان يفكر في كيفية الوصول إلى كيتوي التقى باثنين من واكмба من قرية كيفوي كانا قد هربا من اللصوص فراقباه حتى وصلوا إلى قرية أماما (Umama) التي يوجد فيها أقارب كيفوي، وقابله فيها واكмба بسلوك بارد ولم تقدم له ما يكفي من طعام، وقالوا أن الأوروبي رجل شرير لعدم حمايته كيفوي وقافلته، وفي ٣١ آب أخذه أثنان من واكмба إلى قرية كيتيتو (Kitetu) قريب كيفوي الذي احتجزه، ولم يسمح له بالمغادرة، وكان من الواضح أنه يهدف إلى قتله، فما كان من كرابف إلا أن هرب ليلاً، وعزم على الذهاب نحو ياتا التي ترك فيها أغراضه مع خادمه قبل أن تستولي جماعته على ممتلكاته، وبعد مسيرة شاقه عانى فيها كرابف الجوع والعطش شعر باستحالة الوصول إلى ياتا بمفرده، فقام بتسليم نفسه إلى إحدى قرى واكмба، وطلب نقله إلى قرية كيفوي حيث استقبله فيها مويندا (Muinda) شقيق كيفوي بمرافقة من زوجة كيفوي الرئيسية التي مثل جميع زوجات شقيقة المتوفى أصبحت تنتمي إليه، وأخبره كرابف بكل ما حصل، وبما فعل قريبه كيتيتو، وأجابه مويندا أنه لم يكن لديهم أي تصميم

^(١) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p315-324.

^(٢) - الأمير ألبرت: اسمه الأصلي (فرانسيس تشارلز أوغست ألبرت إيمانويل) (١٨١٩-١٨٦١): وُلد في روزيناو في ألمانيا في العام ١٨١٩. وكان الابن الثاني لدوق ساكس كوبورغ غوثا الذي ينتمي إلى الفرع الأكبر لعائلة ساكسونيا الملكية. تلقى تعليمه في جامعة بون حيث درس العلوم الطبيعية والاقتصاد السياسي والفلسفة، وتزوج من ابنة عمته فيكتوريا ملكة إنجلترا في العام ١٨٤٠، وساعد الملكة في التعامل مع المسؤوليات السياسية، وكان بالفعل رجلاً يتمتع بأفكار مثقفة وليبرالية تولى زمام المبادرة في العديد من الإصلاحات التي قامت في إنجلترا آنذاك، وكان مهتماً بشكل خاص بمساعي التطبيق الأكثر مثالية للعلوم والفنون على الصناعة التحويلية. توفي في العام ١٨٦١ بعد إصابته

بحمى التيفوئيد. عن The Encyclopedia Britannica, v1, p495.

^(٣) - فريدريك وليام الرابع (١٧٩٥-١٨٦١): ملك بروسيا فيما بين عامي ١٨٤١-١٨٦١، تولى الحكم خلفاً لوالده فريدريك وليام الثالث. عن Barry Jones, Dictionary of world Biography, Anu e press, Australian nation university, Australia, 2013, p311.

على قتله، وأن ما حصل كان عملاً تعسفياً من قبل كيتيتو بسبب رغبته في أن يستولي وحده على ممتلكاته في ياتا، وأنهم سيسمحون له بالمغادرة. وكان من الواضح أن أقارب كيفوي قد تخلوا عن كل نية لقتله، ولكن من ناحية أخرى كانوا قد عزموا على الحصول على أكبر قدر ممكن من ممتلكاته في ياتا، وبالفعل انطلقوا في ٩ أيلول باتجاه ياتا التي وصلوها في ١٣ أيلول حيث سلم كرابف أقارب كيفوي جزءاً من أغراضه كمكافأة لمرافقته، وبدأ على الفور رحلة العودة إلى راباي التي وصلها في ٢٨ أيلول بعد رحلة شاقة بعد أن كان يظن الجميع أنه قد قتل^(١). ويمكن تلخيص النتائج التي أسفرت عنها هذه الرحلة إلى أوكمباني على النحو الآتي:

١- صعوبة الإقامة الدائمة في أوكمباني؛ لأن الطريق إليها خطير للغاية، ويرجع ذلك إلى قبائل الجالا من جهة، وإلى اللصوص من جهة أخرى، فضلاً عن حالة الفوضى والخروج على القانون، والخيانة والجشع الشائعة لدى واكامبا.

٢- مع أنه لا يوجد طريق مباشر من أوكمباني إلى أونيامويزي، إلا أن كرابف وجد أن أوكمباني تفتح الطريق إلى العديد من القبائل الأخرى التي من المحتمل أن تسكن المناطق حول منابع نهر النيل، كما يؤدي الطريق عبر أوكمباني إلى الاتصال مع قبائل الوكوافي والكيكيو.

٣- وجد كرابف أنه لا بد من إنشاء محطة وسيطة في كاديرو أو ندارا أو على جبل بورو على الطريق بين الساحل وياتا؛ للحفاظ على التواصل مع راباي، وذلك قبل القيام بمهمة أوكمباني التي قد تحتاج إلى وقت طويل لاسيما أنه لا يوجد ما يكفي من المبشرين في راباي في الوقت الحالي.

٤- ينبغي أن يأخذ المبشر معه إلى الداخل خدماً من الساحل، وبعض المسيحيين من السكان الأصليين من معلمي الدين المسيحي، وإذا كان هذا الأخير لا يمكن العثور عليه في راباي، يجب تدريبهم على وظائفهم في بومباي أو في موريشيوس^(٢).

هـ- رحلة كرابف الثانية إلى أوزمبارا ١٠ شباط - ١٤ نيسان ١٨٥٢: (ملحق ٦)

بعد أشهر عدة من عودة كرابف من أوكمباني قرر القيام برحلة ثانية إلى أوزمبارا للحصول على تجديد وتأکید للإذن الذي منحه إياه ملكها في العام ١٨٤٨؛ لإيجاد محطة تبشيرية في أراضيها، ولاسيما أن رحلته الأخيرة إلى أوكمباني قد أكدت له أن الطريق إلى أونيامويزي يجب العثور عليه في أوزمبارا، والبلدان الواقعة إلى الجنوب منها، فإذا تم إنشاء سلسلة من المحطات التبشيرية بين شرقي وغربي إفريقيا، كان من المقرر أن يجتمع طرفا السلسلة في أونيامويزي،

(١) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p325-349.

(٢) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p350-352.

لذلك فإن أوزمبارا ستكون المكان الذي يتم فيه تأسيس المحطة الأولى، وبناء على ذلك بدأ كرابف استعداداته للرحلة، وقرر هذه المرة اختراق أوزمبارا من مصب نهر بنجاني، وليس كما في الرحلة الأخيرة عبر برية واكوفي، فاستأجر قارب في ممباسا، وذهب مباشرة إلى تانجا للحصول على إذن الحاكم للرحلة، ولكنه رفض منحه الإذن دون أوامر مكتوبة من السلطان سعيد، فتابع كرابف إلى مصب نهر بنجاني في ١١ شباط، وأرسل من هناك رسالة إلى فوجا وضح فيها هدف رحلته، ومن ثم ذهب إلى زنجبار وحصل فيها على إذن السلطان بالرحلة^(١).

وعاد كرابف إلى بنجاني في ٢٠ شباط، وبدأ منها رحلته نحو فوجا في ٢٦ شباط عبر طريق مستوٍ حتى وصل إلى قرية جومبي (Jumbi) الكبيرة، وتابع منها سيره متجهاً نحو الشمال وعبر جدول مروكا (Mruka) الذي يتدفق إلى نهر مغامبو (Mgambo)، ومرّ بقرية كادانغو (Kadango) التي تحكمها مبيكييري (Mbikiri) ابنة كمييري. وفي ٢٩ شباط صعد كرابف جبل كومبورا (Kombora) العالي الذي يبلغ ارتفاعه ٤٠٠٠ قدم، وعانى كثيراً من التسلق نتيجة الانحدار الشديد للجبل بحيث كان يستلقي على الأرض كل ثلاثين أو أربعين خطوة ليأخذ قسطاً من الراحة بينما اختلف الأمر مع السكان المحليين الذين تعودوا على تسلق الجبال منذ طفولتهم مع الأحمال على رؤوسهم، وواصل كرابف صعوده إلى قمة الجبل حتى وصل إلى قرية هينغو (Hingo)، وتابع طريقه في اليوم التالي إلى قرية كيسارا (kisara) التي يحكمها ابن كمييري، واستقروا فيها طيلة اليوم التالي^(٢).

وفي ٣ آذار تابع كرابف رحلته عبر قرى أوتيندي (Utinde)، وجيري (Jairi)، وبومبي (Pombe) التي تحكمها واحدة من بنات كمييري، ووصل إلى فوجا في ٨ آذار حيث تم استقباله في كوخ مشيد على النمط السواحلي، وقام مبيريكو (Mbireko) الحارس الشخصي للملك بتجهيز كل ما يحتاجه، وانتظر كرابف حتى ١٣ آذار حتى تمكن من مقابلة الملك كمييري، وشرح له عدم قدرته على الوفاء بالوعد الذي قطعه في العام ١٨٤٨ بالعودة، وأخبره عن رحلاته إلى أوكمباني، وعودته إلى أوروبا، وشرح له رغبته في إقامة محطة تبشيرية في تونغو، ومن ثم قدم له الهدايا التي أحضرها. وفي ١٨ آذار قابل كرابف الملك مرة أخرى لأخذ إذن المغادرة قبل بدء موسم الأمطار، ووعدته الملك بمنحه مطلبه، وأوكل إلى مبيريكو تنفيذ إرادته ومرافقة كرابف إلى الساحل، وأن يزوده بالعاج واثنين من العبيد، وبعض الأغنام للرحلة وقبل كرابف عرض الخراف، ولكن رفض العاج والعبيد، وبدأوا على الفور رحلة العودة، ووصلوا إلى زنجبار في ٦ نيسان حيث أطلع كرابف مبيريكو على أسماء بعض الأوروبيين والشركات الأمريكية التجارية؛

(١) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p367-369.

(٢) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p369-382.

وذلك لتصريف منتجات أوزمبارا عن طريقهم بدلاً من السواحليين، ومن ثم رتب له أمور عودته إلى بنجاني، وأعرب له مبيريكو عن امتنانه الشديد ووعد ببذل قصارى جهده لتحقيق رغباته^(١).

ومن أبرز المعلومات التي استقاها كرابف من رحلته الأخيرة إلى أوزمبارا نورد الآتي:
- فيما يتعلق بسلالة الملك كميري وجد كرابف أنه كان الملك الرابع الذي يحكم أوزمبارا منذ أن تم تأسيس المملكة من قبل جده الأكبر الذي جاء من جبال نغو (Ngu) التي تبعد ثلاثة أو أربعة أيام إلى الجنوب الغربي من أوزمبارا، وفي أيام صغر كميري كان محارباً عظيماً قام برحلات تفتيش في مملكته كلها حتى بنجاني، وكانت مملكته سابقاً أكثر اتساعاً قبل أن يخسر جزءاً من أرض واديغو (Wadigo) ومناطق أخرى في وسيجوا (Wasegua) بسبب حركة التجارة الأوروبية، التي جلبت الأسلحة النارية إلى زنجبار، وكانت واسجوا أول من استخدمها ضد جيوشه.

- يسود النظام والأمن في مملكة أوزمبارا، إذ كانت في وضع أفضل بكثير مما عليه الحال فيما بين وانيكا وواكامبا، كما أن مملكة أوزمبارا على حد قول كرابف كانت أكثر أماناً من أي بلد أوروبي شريطة أن لا تكون البلاد في حالة الحرب، وكان سلوك الناس فيها محترماً جداً، ولم يحاول أحد التسول أو على الأقل إذا وجد كان يطلب بشكل متواضع جداً^(٢).

- وجد كرابف نقاط شبه مشتركة كثيرة بين مملكة شوا التي زارها في العام ١٨٣٨، ومملكة أوزمبارا، ففي كلا البلدين كان الملك هو السيد الوحيد للأرض وسكانها. وفي البلدين كانت تحركات الغريب تتم وفقاً لإرادة الملك، فلا يمكنه الدخول أو المغادرة دون إذن من الملك، وعلاوة على ذلك من الواجب على المسافرين أن يقدم هدية للملك. وكلا البلدين كانتا بلاد جبلية، ولكن تختلف تشكيلات جبالهم، ففي شوا تكون الجبال أعلى بكثير ولها سهول واسعة على قممها، وتنتج محاصيل كبيرة من القمح والحبوب الأخرى، في حين أن جبال أوزمبارا حادة ولا تفسح قممهم المجال لكثير من السكان أو الزراعة، وإنما فقط للقرى الصغيرة والبساتين، وتكثر على قممها مزارع الموز. وفيما يتعلق بالحضارة المسيحية فإن شوا حازت تقدماً أكبر من أوزمبارا الوثنية، ومع ذلك وجد كرابف أن دعوة المبشر شاقة أكثر بكثير في شوا مما كان عليه الحال في أوزمبارا؛ لأنه في البلد السابق كان عليه التعامل مع الكهنوت المتعصبين، بينما في أوزمبارا خصمه الوحيد هو السحرة فقط، ولعل خرافتهم وخوفهم من الأرواح الشريرة قد تقف عقبة في طريق الإنجيل لبعض الوقت^(٣).

- فيما يخص السكان ذكر كرابف أن مملكة أوزمبارا تضم الكثير من الأعراق والأجناس من

(١) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p385-404.

(٢) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p378.

(٣) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p370-372.

مسلمين ووثنيين، وكان سكان أوزمبارا يطلقون على السواحيلية اسم "وونغوانا" (Waungwana)، أي الأحرار تمييزاً لهم عن أنفسهم، إذ ينظرون إلى أنفسهم على أنهم عبيد بالمقارنة مع المسلمين من الساحل الذين هم رعايا كميري أيضاً، ولكن يسمح لهم بحرية أكثر بكثير من واشينسي وأوزمبارا حتى إن هذه الأخيرة قد لا تركب الخيول ولا الحمير ولا ترتدي ملابس باهظة الثمن ولا تسافر إلى بلدان بعيدة، في حين أن كل هذا مسموح به للسواحليين. فكميري يعرف جيداً أن السواحليين من خلال علاقتهم بالعرب قد يصبحون خطراً عليه؛ لذا لم يكن يعاملهم بصرامة مماثلة. هنا أيضاً يقارن كرابف مرة أخرى بين شوا وأوزمبارا، فملك شوا سمح لمواطنيه المسلمين بالسفر إلى الساحل، ولكنه حظر ذلك بشدة على رعاياه المسيحيين، ولم يسمح لهم باستخدام الفضة أو الذهب أو ارتداء الملابس الباهظة الثمن دون إذنه الخاص، في حين لم يتم منع المسلمين من ذلك. كذلك فإن سكان أوزمبارا لا يهتمون بجمع الثروات، لأن قيامهم بذلك يجعلهم يعيشون في رعب مستمر من إثارة الغيرة وطمع الملك وحكامه.

- كان سكان أوزمبارا متوسطي الحجم عموماً، ولون بشرتهم مصفر، وبنيتهم الجسدية قوية بما فيه الكفاية لتحمل الأعباء، وأسلوب حياتهم بسيط، والموز هو كل ما يحتاجون إليه في طعامهم. حياتهم بسيطة وهادئة في جبالهم العالية والمعزولة، ويميل بعضهم لتربية الماشية وبعضهم الآخر إلى زراعة التربة، ويبدو أن الهواء البارد وبساطة أسلوب حياتهم أسهمت بالصحة الممتازة التي يتمتعون بها فالمرض غير معروف بالنسبة لهم باستثناء ما يظهر في شكل الروماتيزم والاضطرابات الجلدية. ولا يملك الرجال سوى زوجة واحدة، ولا يحظر التعدد^(١)، ولكنهم فقراء بحيث لا يستطيعون ذلك، ويقومون بتصريف منتجاتهم من الأرز والذرة والأبقار والأغنام والماعز والعاج والعبيد إلى السواحليين المسلمين الذين يبيعونهم الملابس والأسلاك النحاسية والخرز والبنادق.

- تتعدد اللغات في هذه المملكة بشكل كبير، وينبغي على المبشر في هذا البلد أن يتعلم لغات كيشينسي (Kishinsi)، وكيسامبارا (Kisambara)، وكيسيفوا (kisegua)، وكيبار (Kipare) وكينغو (Kingu) وهي مهمة شاقة؛ إذ ليس من السهل إنشاء قاموس شامل لأسرة اللغات في هذه

(١) - كان تعدد الزوجات أمر شائع في كل أنحاء إفريقيا الزنحية، وهو مرتبط بزيادة عامة في عدد النساء، ويرجع ذلك إلى أوجه النشاط الخطرة التي يمارسها الرجال من جهة، وإلى زيادة عدد الإناث على الذكور في نسبة الولادة ونسبة البقاء من جهة أخرى، ودفع مهر العروس أمر شائع، وكان يقصد منه في أول الأمر أن يكون تعويضاً لعائلة المرأة عن الخسارة التي تلحق بهم لفقدانهم لخدماتهم، وكان لكل زوجة وأبنائها مسكن خاص. عن رالف، شجرة الحضارة، ج ٣، ص ٦٥-٦٦.

المنطقة^(١).

أما عن النتائج التي توصل إليها كرابف من رحلته إلى أوزمبارا نورددها بالآتي:
١- عدم اعتراض ملك أوزمبارا على قبول المبشرين في بلاده، والسماح لهم باختيار مواقعهم الخاصة.

٢- تتألف بلاد أوزمبارا من العديد من القرى الكبيرة التي يمكن للمبشر التعامل مع سكانها حين يتمكن من تعلم اللغة، واعتاد سكانها على النظام والطاعة، ويقل بينهم السكر والتسول والعنف لذلك فهم مسلمون ولديهم رغبة في تحسين ذاتهم.

٣- يمكن للمبشر التجول بأمان في البلاد إذا ما كان لديه صداقة مع الملك، باستثناء إذ ما كانت البلاد في حالة حرب، ولا غنى للمبشر من أن يتصرف باحترام تجاه الملك، وأن يتجنب أي شكل من أشكال التدخل السياسي في شؤون البلد، ومن الضروري أيضاً أن يقدم للملك هدايا مناسبة كرمز للاحترام والامتنان للفوائد التي يتلقاها منه.

٤- لا توجد مشكلة بالنسبة إلى وسائل النقل في هذا البلد، فإذا لم يتكفل الحكام بنقل أمتعة المسافرين، يمكن للمبشر السفر على نفقته الخاصة، وبإمكانه بما يعادل نصف دولار أو دولار، استئجار الجمالة للذهاب معه مسافة يمكن تحملها، ويمكن شراء الضروريات الشخصية التي يطلبها المبشر من زنجبار، إن لم تكن موجودة في البلد لأنها أقرب من راباي وممباسا إلى أوزمبارا.

٥- لا يمكن لأي بلد أن يكون أكثر ملاءمة من أوزمبارا للتبشير في المناطق الداخلية؛ إذ يمكن للمبشرين أن ينتقلوا منه إلى واسيغوا، وباري، وجاغا، ونغو، وأونغينو (Ungunu)، وأونيامويزي. والمناخ في أوزمبارا مناسب لاستقرار الأوروبيين؛ بسبب طبيعة البلاد الجبلية، وبرودة الجو بشكل عام، ومع ذلك يجب على المبشر أن يكون مستعداً للتعرض للحمى التي لم يسبق لأي أوروبي في أي بلد أفريقي أن نجا منها ولو مرة واحدة^(٢).

٦- نتائج رحلات كرابف ورييمان:

لا شك أن هناك أهداف أخرى تكمن وراء رحلات كرابف ورييمان إلى داخل شرق إفريقيا غير التبشير، ولكن ما هو واضح وجلي أن رحلاتهم التي كانت تهدف إلى التبشير بالدرجة الأولى كانت استكشافية بحتة بالدرجة الثانية، ويمكن إجمال النتائج التي أسفرت عنها رحلاتهم على النحو الآتي:

^(١) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p384-385.

^(٢) - Krapf, travels, researches, and missionary labours, p405-408.

- فيما يخص التبشير وجد كرابف وربيمان صعوبة كبيرة في تحويل القبائل الإفريقية إلى المسيحية؛ لأنها لا تكثر بالأديان كثيراً، وتقبل على من يمنحها كمية أكبر من الحبوب والمنافع المادية، وخلال فترة إقامتهم الطويلة في شرقي إفريقيا لم ينجحوا إلا مع عدد قليل لا يكاد يذكر.

- لم يقتصر نشاط كرابف على الناحية التبشيرية البحتة فمن المعروف أن للمبشرين في إفريقيا مهمة سياسية - اقتصادية- اجتماعية لخدمة مصالح الدول الأوروبية بجانب العمل الروحي، ولهذا نجد كرابف يسعى إلى تحييد نفوذ العرب والسواحليين في أوزمبارا، ومحاولة إحلال التجار والشركات الأجنبية بدلاً عنهم لاسيما في المعاملات التجارية وتصريف منتجاتهم المحلية.

- أوضح كرابف وربيمان وجود الجبال المغطاة بالثلوج في شرق إفريقيا، إذ شاهد ربيمان قمة جبل كليمنجارو الثلجية لأول مرة في رحلته الأولى إلى جاغا في العام ١٨٤٨، وفي رحلاته اللاحقة إلى جاغا شاهده مرة أخرى. وكذلك الحال مع كرابف الذي لمح لأول مرة في أول رحلة له إلى أوكمباني، وفي أوكمباني نفسها كانت القبة الثلجية لكليمنجارو واضحة للعيان بالعين المجردة. أما الجبل الثاني المغطى بالثلوج فهو جبل كينا أو كيجنيا الذي شاهده كرابف حينما وصل إلى كيتوي في ٢٦ تشرين الثاني ١٨٤٩ برفقة الرئيس كيفوي، وشاهده بوضوح في طريق عودته من كيتوي، وشاهد أيضاً الثلوج التي تغطي قمته، ومع ذلك تعرض المبشران للهجوم والاستهزاء من قبل العديد من الجغرافيين الأوروبيين الذين أكدوا أنهم كانوا مخطئين بوجود الثلوج على خط الاستواء، وسخروا من قصص السكان الأصليين، وعدوها نوعاً من الحكايات البيئية التي تروى حول المدفنة ولا تستند إلى أدلة حسية.

- قام إرهاردت برسم خريطة لشرقي إفريقيا (ملحق ٣) تتضمن بحراً داخلياً كبيراً أطلق عليه اسم بحر أونيامويزي بالاعتماد على المعلومات التي حصل عليها من تجار العاج في تانجا الذين شرحوا له أن بحر أونيامويزي كان مجرد استمرار لبحيرة نياسا، ويشكلان معاً حاجزاً مائياً ضخماً لا يمكن اختراقه، ويحتوي الجانب الشمالي من هذا الحاجز على منابع النيل، في حين أن الجانب الجنوبي يصرف مياهه جزئياً إلى المحيط الأطلسي عن طريق نهر الكونغو أو زائير، وجزئياً إلى المحيط الهندي عن طريق أنهار جوب، ودانا، وأوسي، وأيضاً إلى هذه البحيرة الكبيرة في الداخل نفسه. وعُدَّت جميع هذه الروايات بالضرورة غامضة وغير دقيقة، ولكن ما دفعهم لتصديقها هو أن جميع الأشخاص الذين يسافرون إلى الداخل من نقاط انطلاق مختلفة على الساحل مثل أويبو، وكلوا، ومبوماجي، وباجامويو، وبنجاني، وتانغا، وهي نقاط متباعدة جداً تمتد نحو ست درجات على خطوط العرض كانوا يصلون إلى بحيرة أو إلى البحر الداخلي، ولكن هذا لم يثبت بالضرورة أن بحيرة أونيامويزي هي استمرار لنياسا، وأن كلاهما يشكلان بحيرة

واحدة في وسط القارة. وكانت خريطة إرهاردت هذه أول خريطة جغرافية للمنطقة دُمجت فيها البحيرات الداخلية بشكل خاطئ في بحيرة واحدة، وشكلت هذه المعلومات الجغرافية والخريطة التي رسمها إرهاردت سبباً أثار الاهتمام بالطريق الذي يبدأ من زنجبار في مجال الكشف عن سر منابع النيل، ودافعاً لقيام بيرتون وسبيك برحلتهم في العام ١٨٥٧؛ لاستكشاف هذا البحر الداخلي العظيم والبحث عن مصادر النيل.

- قدم كل من كرابف وريمان معلومات مهمة عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للسكان في شرقي إفريقيا، فضلاً عن المعلومات والاستكشافات الجغرافية التي سبق ذكرها، هذا بالإضافة إلى ما قدموه من معلومات عن الطبيعة الجغرافية للمنطقة ومناخها وأنهارها والغطاء النباتي فيها وكذلك الحيوانات التي تكثر في تلك الأنحاء.

- تعلم كرابف وريمان عدداً من اللغات المحكية في المنطقة كالسواحلية وكينيكما وقاموا بإعداد كتب قواعد وقواميس لها، فضلاً عن ترجمة العهد القديم والجديد إليها، وتم بفضلهما تحويل العديد من اللغات الإفريقية المحلية إلى لغات مكتوبة، واستكملاً أيضاً دراسة جغرافية وإثنوجرافية المنطقة على قناعة بأن الوقت سيأتي عندما يتم تواصل الأوروبيين مع شرق إفريقيا، وستكون هذه الدراسات التمهيدية ذات قيمة كبيرة، وإن لم يتم التوصل إلى نتيجة تبشيرية كبيرة في الوقت الحاضر.

ثانياً- رحلة ريتشارد بيرتون وجون سبيك ١٨٥٧ - ١٨٥٩

١- لمحة عن حياة ريتشارد بيرتون (Richard Burton) (١٨٢١-١٨٩٠):

ولد السير ريتشارد فرانسيس بيرتون القنصل والمستكشف والمستشرق في هارتفوردشاير (Hertfordshire) في إنجلترا في ١٩ آذار ١٨٢١. كان والده الكولونيل جوزيف بيرتون ضابطاً في الجيش الإنجليزي، وسافرت عائلة بيرتون خلال طفولته كثيراً، وعززت تلك الطفولة التي قضاها في فرنسا وإيطاليا حبّ التجوال والترحال والسلاسة المطلقة في اللهجات العامية القارية. تلقى بيرتون التعليم المبكر من قبل العديد من المعلمين، وبدأ التعليم الرسمي في العام ١٨٢٩ في مدرسة إعدادية في ريتشموند جرين، وقبّل في كلية ترينيتي أكسفورد في العام ١٨٤٠، ولكن تركها قبل أن يصل إلى مرحلة التخرج، واستمر في إشباع حبه للغات من خلال دراسة اللغة العربية. التحق بيرتون بصفوف الجيش الهندي في العام ١٨٤٢؛ وكانت الغاية الوحيدة لخدمة شركة الهند الشرقية في نظره كونها توفر فرصة لدراسة الحياة واللغات الشرقية، وخلال وجوده في الهند أصبح متحدثاً بارعاً بالهندوستانية، والغوجاراتية، والبنجابية، والسندية، والمراثية، بالإضافة إلى اللغة الفارسية والعربية، وأرست سنواته السبعة في الهند أسس معرفته الفريدة مع الحياة والعادات الشرقية، وكانت رحلاته في السند تمهيداً لرحلة الحج إلى مكة التي قام بها

في العام ١٨٥٣ متنكراً بزي تاجر هندي، وجعلت من بيرتون شهيراً، وتم نشرها في كتاب بعنوان "الحج إلى المدينة ومكة" في العام ١٨٥٥^(١).

قام بيرتون بعدها برحلات عدة ففي العام ١٨٥٤ عاد إلى عدن في شبه الجزيرة العربية بدعم من الجمعية الجغرافية الملكية؛ من أجل التحضير لحملة جديدة؛ لاستكشاف المناطق الداخلية لبلاد الصومال على أمل اكتشاف البحيرات الكبيرة التي سمع عنها من المسافرين العرب، ورافقه فيها الملازم جون سبيك، واثنان من الضباط الآخرين، وعدد من الأفارقة الذين عملوا كحمالين، وتعرض خلالها معسكر الحملة لهجوم من قبل مجموعة من الصوماليين بالقرب من بربرة، أصيبوا خلاله بجروح وطعنات عديدة، ويصف بيرتون الهجوم المؤلم في كتابه "الخطوات الأولى في شرق إفريقيا" (١٨٥٦) الذي ترد فيه هذه المغامرات^(٢). وعاد بيرتون إلى إفريقيا في العام ١٨٥٦ بتكليف من الجمعية الجغرافية الملكية؛ للبحث عن منابع النيل، ورافقه أيضاً في رحلته هذه الملازم سبيك، وهي الرحلة التي سيتم تفصيلها فيما يلي والتي نشرها بيرتون في كتابه المعنون بـ "أقاليم البحيرة في وسط إفريقيا" الذي صدر في جزئين في العام ١٨٦٠. وفي العام ١٨٦١ دخل بيرتون في خدمة وزارة الخارجية في منصب القنصل في فرناندو بو، ومن ثم تنقل بشكل متتابع إلى سانتوس في البرازيل (١٨٦٥)، ودمشق (١٨٦٩)، وتريستي (١٨٧١) حيث شغل آخر منصب حتى وافته المنية، وترك خلال ذلك عدداً كبيراً من المؤلفات: منها "رحلات في غرب إفريقيا" (١٨٦٣)، و"بعثة إلى جيلي ملك داهومي" (١٨٦٤)، و"الذكاء والحكمة من غرب إفريقيا" (١٨٦٥)، و"سوريا غير المستكشفة" (١٨٧٢)، ومن أكثر أعماله شهرةً هو ترجمة كتاب (ألف ليلة وليلة) التي كانت أعظم إنجاز له على الإطلاق، وكشفت عن معرفته العميقة بمفردات وعادات المسلمين، ومصطلحاتهم الكلاسيكية. وتوفي بيرتون في ٢٠ تشرين الأول عام ١٨٩٠ بعد حياة مليئة بالمشقة والمشاريع والمغامرات الناجحة^(٣).

٢- التحضيرات الأولية للرحلة:

في ١٩ كانون الأول من العام ١٨٥٦ نزل كل من ريتشارد بيرتون وجون سبيك على ساحل جزيرة زنجبار قادمين إليها من بمباي؛ بهدف القيام برحلة نحو الداخل الإفريقي، بدعم من الجمعية الجغرافية الملكية للتحقق من حدود "بحر أوجيجي أو أونياموزي"، ومعرفة علاقته بمراتب النيل أولاً، ولتحديد المنتجات القابلة للتصدير من الداخل ثانياً، ولمعرفة اثنوجرافية قبائلها ثالثاً. ومنحتهم وزارة الخارجية الإنجليزية مبلغ ١٠٠٠ جنيه استرليني من أجل نفقات

(١) - The encyclopedia Britannica, v4, p864.

(٢) - كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٢٥٨-٢٦٠.

(٣) - The encyclopedia Britannica, v4, p865.

الاستكشاف، وسمح لهم مجلس إدارة شركة الهند الشرقية بغياب سنتين من واجبات فيلقهم، لغرض القيام بالبعثة^(١). واستقبلهم في زنجبار القنصل الإنجليزي الكولونيل هامرتون الذي كان صاحب نفوذ عظيم في الجزيرة، فأمن لهم إقامة في منزله وأكرمهم بلا حدود، وقدمهم للسلطان السيد ماجد بن سعيد- الذي خلف والده السيد سعيد المتوفى منذ فترة قصيرة في حكم الجزيرة والساحل- الذي أكرم وفادتهم، وأمدهم برسائل إلى موسى مزوري^(٢)، عميد التجار الهنود الذين استقروا في أونياموزي، وللعرب المقيمين هناك، وجميع رعاياه الذين كانوا يسافرون إلى الداخل لتقديم المساعدة وكل التسهيلات الممكنة لهم في رحلتهم^(٣).

ولما كان وصولهم إلى جزيرة زنجبار قد ترافق مع بدء موسم الجفاف؛ حيث يكون الماء نادراً في المناطق الصحراوية في الجزء الداخلي من القارة، ويكون السفر فيه غير مستقر^(٤)، عمد بيرتون وسبيك إلى اكتساب تدريب على السفر الإفريقي عن طريق قضاء ما تبقى من موسم الجفاف باستكشاف سريع للساحل والتوغل نحو الداخل إذا ما اتاحت لهم الفرصة تحت رغبة الحصول على نظرة سريعة على جبل كليمنجارو الثلجي الذي اكتشفه السيد ريمان من بعثة ممباسة التبشيرية في العام ١٨٤٩^(٥). وبناء على ذلك قاما باصطحاب دليل عربي يدعى سعيد بن سالم، وأبحرا في ٥ كانون الثاني ١٨٥٧ متجهين نحو ممباسة التي وصلها في ١٦ كانون الثاني، وتواصل فيها مع المبشر ريمان الذي كان لا يزال مقيماً في مركز البعثة القديم في رابي، ونتيجة

(١) – Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p1-5.

(٢) – موسى مزوري: هندي مسلم من طائفة كوجا، جاء إلى زنجبار مدفوعاً بالفقر من مسقط رأسه سورات، متبعاً شقيقه الأكبر "سايدان"، عمل بتجارة القماش والخرز والعاج وحقق منها الثروة. قام برحلات متنوعة إلى الداخل، وزار أونياموزي أو أرض القمر لأول مرة في العام ١٨٢٥، ومنذ ذلك الوقت قام بخمس رحلات إلى الساحل وعدة رحلات إلى الممالك الشمالية. توسع عمل موسى، واستقر في كازه وأصبح عميد الهيئة التجارية المعترف بها، وعمل كوكيل وأمين مستودع وعادة ما تكون قاعته مملوءة بالمشتريين والبائعين العرب والأفارقة، ويتم توجيه استثمارات كبيرة من الأسلاك والخرز والملابس القطنية، بعضها ذو قيمة، له بانتظام مع وسائل الراحة والرفاهية من الساحل. عن J. A. Grant, summary of observations on the geography, climate, and natural history of the region of equatorial Africa, the journal of the royal geographical society of London, vol. 42, 1872, p243-342, p246. Burton, the Lake Regions, p223-224.

(٣) – Speke, What led to the Discovery of the Source of the Nile, p160-161. Robert Brown, the story of Africa and its explorers, cassell and company limited, London, 1909, v2, p51.

(٤) – تقع معظم مناطق شرقي إفريقيا ضمن نطاق المناخ الصيني حيث يكون المطر صيفي، بينما يكون فصل الشتاء فصل الجفاف. يوسف فايد، الأقاليم المناخية في إفريقيا، مجلة الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ع ١٢٦، ١٨٨٣، ص ٦٤-٦٥.

(٥) – Speke, What Led to the Discovery of the Source of the Nile, p161-162.

لاضطراب الطريق المباشر نحو كاديوارو وكلمنجارو الذي تسببت به هجمات قبائل الماساي، وجدا أنه من غير المستحسن المغامرة على هذا الطريق. وأبحرا في ٢٤ كانون الثاني جنوباً باتجاه تانجا وبنجاني بعد أن سمعا أن جبل كلمنجارو كان في المتناول من خلال تلك الأنحاء، ووصلا إلى بنجاني في ٣ شباط، واستقبلهم رئيس القرية وسكانها أحسن استقبال، ومنها تمكنا برفقة بعض الجنود البلوش والحمالين من التوغل في بلاد أوزمبارا متبعين نهر بنجاني حتى العاصمة فوجا، وقاما بزيارة خاطفة للملك كميري، ومن ثم عادا إلى بنجاني في ٢٦ شباط^(١)، وتعرضا خلالها للحمي التي كانت سائدة في كل إفريقيا ونادراً ما كان ينجو منها أحد من الأوروبيين، فعادا إلى زنجبار في ٦ آذار حيث اعتنى بهما القنصل هامرتون حتى شفايا تماماً في بضعة أشهر كانا خلالها يتأهبان للرحلة الكبرى إلى البحيرات الداخلية، إذ قام بيرتون بشراء المستلزمات الضرورية من الأقمشة والخرز والأسلاك النحاسية، وشراء الحمير للركوب ونقل الأحمال، في حين قضى سبيك معظم الوقت في تقييم وفحص الكرونومتر والبارومتر^(٢) والترمومتر^(٣) والسدس^(٤) والبوصلات وجميع أدوات المسح الأخرى^(٥)، وفي الوقت نفسه تم إرسال سعيد بن سالم -دليلهم السابق- إلى البر الرئيسي لاستئجار الحمالين اللازمين، وعندما تمت الاستعدادات أبحرت البعثة باتجاه البر الرئيس في ١٦ حزيران ١٨٥٧ برفقة كل من القنصل هامرتون والسلطان السيد ماجد بن سعيد لتقديم وداع أخير لهم، وهبطت البعثة على الساحل في كاوي (Kaole) على بعد حوالي ٤٨ كم من مدينة باجامويو في ٢٧ حزيران ١٨٥٧^(٦).

(١) - Richard Burton and Speke, A coasting voyage Mombasa to the pangani river; visit to sultan kimwere and progress of the expedition into the interior, the geographical society of London, vol. 28, 1858, pp.188-226.

(٢) - البارومتر: وهو عبارة عن حوض زئبقي معرض للهواء، تنغمس فيه أنبوبة زجاجية فيها عمود من الزئبق طرفها الأعلى مغلق والأسفل مفتوح، ويستخدم هذا الجهاز لقياس الضغط الجوي، إذ كلما زاد الضغط الجوي على سطح الحوض يرتفع عمود الزئبق في الأنبوبة، ويحدث العكس إذا انخفض الضغط الجوي. عن يسري الجوهري، الخرائط الجغرافية، مكتبة الإشعاع للطباعة، الاسكندرية، ١٩٩٧، ص ١٤٦.

(٣) - الترمومتر: وهو عبارة عن أنبوبة شعرية ضيقة متصلة بمستودع من الزئبق، يستخدم لقياس درجة الحرارة، إذ يرتفع الزئبق ويتمدد مع ارتفاع درجة الحرارة، وينكمش مع انخفاضها، وتوضح درجات الحرارة على الأنبوبة عن طريق التدرج المرسوم عليها بالدرجات المئوية. عن الجوهري، الخرائط الجغرافية، ص ١٤١.

(٤) - السدس: وهو جهاز خفيف يحمل باليد يستخدم في مسح المناطق التي تغطيها المسطحات المائية. عن الجوهري، الخرائط الجغرافية، ص ١٧٠.

(٥) - Speke, What Led to the Discovery of the Source of the Nile, p188-189.

(٦) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p1-8.

٣- سير الرحلة: (ملحق ٩)

تم تنظيم البعثة الاستكشافية في كاوي^(١) وبلغ عدد أفرادها نحو ١٢٠ فرداً، وتم ترتيبها على النحو الآتي: بيرتون وسبيك العضوان الأوروبيان في رئاسة القافلة، وسعيد بن سالم رأس للقافلة ومعه امرأته وأربعة عبيد، تلقى ٥٠٠ دولار من الكولونيل هامرتون مع وعد بمكافئة كبيرة وساعة ذهبية إذا عمل بنشاط معهم، ومبارك بومباي خادم سبيك وحامل سلاحه مع شقيقه موني مبروكي تلقى كل منهما خمسة دولارات في الشهر إلى جانب الحصص الغذائية والملابس، والغواني فالتين وغايتانو، و١٣ من الجنود البلوش مع الجامدار المسلحين بالبنادق والسيوف والخناجر المقدمين من قبل السلطان ماجد، وقد حددت رواتبهم بخمسة دولارات شهرياً مع المخصصات الغذائية والملابس، كما أعطاهم الكولونيل هامرتون هدية من ٢٥ دولاراً للجامدار، و٢٠ لكل من الجنود ليقوموا برحلتهم بانضباط مع وعد بمكافأة كبيرة عند عودتهم إذا خدموا بشكل جيد، فضلاً عن أربعة وثلاثين رجلاً من حامية كاوي لتجنب أخطار الطريق، و١٠ من عبيد رامجي موظف الجمارك في زنجبار الذين جندوا للحراسة والتعامل مع الزعماء المحليين على خط المسيرة، إذ كانوا على دراية بالطريق إلى أوجيجي، وكانوا أصدقاء مع الرؤساء المحليين، وأيضاً تم تحديد رواتبهم بـ ٥ دولارات في الشهر. أما بالنسبة إلى الحماليين فقد تم تأمين ٣٦ حمالاً من قبل سالم بن سعيد أرسلوا مسبقاً مع حمولات بقيمة ٦٥٤ دولاراً برفقة اثنين من العبيد المسلحين مع أوامر بانتظار البعثة الرئيسية في زونغوميرو (Zungomero) في أرض خوتو (Khutu)، وتم شراء ثلاثين حملاً لحمل الحمولات المتبقية التي تكونت بشكل رئيس من الأقمشة القطنية والأسلاك النحاسية والخرز والأسلحة والذخائر والمؤن وأثاث المخيمات والأجهزة والأدوات العلمية والكتب والقرطاسية ومواد الرسم والأدوية. وعندما أنهوا كل التجهيزات قاموا بدواع الكولونيل هامرتون، وبدأوا الرحلة نحو الداخل في ٢٧ حزيران ١٨٥٧^(٢)، والتي يمكن تقسيم مسارها في الداخل الإفريقي تبعاً للمناطق التي مرّوا خلالها إلى خمس مراحل على النحو الآتي:

(١) - يدعى الساحل المقابل لجزيرة زنجبار على البر الإفريقي من قبل سكان الجزيرة بـ ماريم (Mrima) أي التلة، ويعرف شعبها من الزنوج المسلمين بـ واماريم (Wamrima) أي شعب التلال، ويقطنها بشكل رئيس العرب والسواحلية، وتحكم واريم من قبل ديوان (Diwans) أو الرؤساء الذين لديهم ولاء رمزي لسلطان زنجبار، ويتمتعون بالحكم الذاتي، ولدى واماريم نفور شديد تجاه مسؤولي الحكومة المحلية، ويستأثرون من وجود الغنم فيما بينهم ولاسيما الأوروبيين ويعدونهم متطفلين، ويستغلون أي فرصة لإحباطهم ومنعهم من السفر نحو الداخل. عن Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p8,29-31.

(٢) - Speke, What Led to the Discovery of the Source of the Nile, p193-195.
Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p9-20.

أ- المنطقة الأولى البحرية: وتمتد من شواطئ المحيط الهندي إلى سلسلة جبال أوزاجارا (Usagara)، ويبلغ عرضها ٩٢ ميلاً، ومتوسط طولها ١١٠ ميلاً محدودة بأنهار كنغاني (Kingani)^(١) شمالاً وروفيجي جنوباً، وتنقسم إلى حوضين: حوض نهر كنغاني الشرقي الذي يضم إقليم أوزارامو (Uzaramo)، وحوض نهر مجيتا (Mgeta) الغربي ويضم أقاليم خوتو وأوزيرها (Uziraha)، ويقسم السكان الأصليون البلاد إلى مناطق توندا (Tunda)، ودوثومي (Duthumi)، وزونغوميرو^(٢). يغلب على هذه المنطقة الغطاء النباتي الكثيف مع الغابات المتناثرة هنا وهناك، وتقطعها الوديان العميقة ومجري المياه التي تجف خلال المواسم الحارة، ولكنها تكون غير قابلة للعبور عند سقوط الأمطار، وتزدهر فيها زراعات التبغ، والذرة، والرز والسمسم، والفول السوداني، والبطاطا الحلوة، والكاكاو والمانجو، والموز، والليمون وغيرها. والقرى في هذه المنطقة مخبأة في الأدغال أو الأعشاب، وهي في معظمها صغيرة مكتظة بالسكان الذين يتكونون في معظمهم من قبائل وازارامو (Wazaramo)^(٣)، واخوتو (Wakhutu)^(٤)، وزيراها (Waziraha) التي

(١) - هو ذاته نهر بنجاني الذي تم الحديث عنه في الفصل الأول، وقد يكون اختلاف التسمية تبعاً لاختلاف اللهجات المحلية، أو تبعاً للواحق التي تضاف إلى أسماء المناطق والقبائل المعتمدة في اللغة السواحلية والتي سبق الحديث عنها.
(٢) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p100-101.

(٣) - وازارامو: عرق صاحب شديدة العنف، كان فيما سبق العقبة الرئيسية أمام دخول العرب وغيرهم من المسافرين إلى شرق إفريقيا، وعادة ما يطلب رؤسائهم كمية معينة من القماش من جميع التجار في طريقهم إلى الداخل، ومن أولئك العائدين يأخذون الماشية أو معاول الحديد، ولا يتمتع رؤساء وازارامو بالقوة إلا عندما تكسبهم ثرواتهم أو صفاتهم الشخصية احترام رعاياهم. ليس لهذه القبيلة وشم خاص رغم تزين الوجه بثلاث ندوب طويلة تمتد على كل خد من فصوص الأذن إلى زوايا الفم، وعلامتهم المميزة تلبس شعرهم بغطاء من الطين. و قبيلة وازارامو غنية بما يكفي لارتداء ملابس القماش، وتكون حليهم من قلائد الخرز من ألوان مختلفة، ولا يظهر الرجال بدون أسلحتهم المكونة من الرماح والأقواس والسهام والسكاكين التي يصنعونها بأنفسهم. ولا يوجد في تجمعات وازارامو أية قيود على تعدد الزوجات، وهم أكثر تحضرًا من جيرانهم، إذا يقومون بدفن موتاهم، ويعملون بالزراعة، ويبيع عائلاتهم للتجار المسافرين أو ينقلونها إلى الساحل، كما يعملون بالصيد وعند ندرة الطرائد يذهبون إلى الساحل حيث عادة ما يجدون عملاً. عن Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p107-119

(٤) - واخوتو: عرق أدنى جسدياً وعقلياً من وازارامو، ليس لديهم أي وشم خاص، وغطاء الرأس الخاص بهم هو طلاء الطين، وحليهم مثل تلك التي لدى وازارامو. لا أحد من واخوتو سوى الأثرياء يمكنه تحمل ارتداء القماش ويتكون لباس الأغلبية من الألياف والجلود. لكل منطقة رئيس مع وزراء ورؤساء أدنى يعيشون بشكل رئيسي على إنتاج حقولهم التي يبيعونها إلى القوافل. عمل بعض أفراد واخوتو كحمالين، لكنهم أثبتوا أنهم غدارون، ولا يمكن الوثوق بهم، ومن قبائلهم الفرعية وزيراها الذين يسكنون الأراضي المنخفضة بالقرب من جبال أوزاجارا، وهي مميزة فقط بأن لديهم لحى أكثر تطوراً مما كانت عليه في الأعراق الأخرى. عن Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p119-123

تشكل عناصر السكان الأساسية، في حين تعد قبائل وادوي ووزيغورا (Wazegura)^(١) قبيلتين ثانويتين مهاجرتين^(٢).

بدأت المسيرة في هذه المرحلة من كاوي على الساحل في ٢٧ حزيران عام ١٨٥٧ في اتجاه جنوبي غربي فوق تربة رملية مغطاة بالأشواك والأشجار نحو كونجاني (Kuingani)؛ وهي مستوطنة صغيرة تقع على بعد ساعة ونصف من كاوي، وتعد محطة أولية للمسافرين العرب، وتم التوقف فيها يوم ٢٨ حزيران لتصفية جميع الحسابات مع التجار الهندوس، ومن ثم استؤنفت الرحلة عبر قرى بوماني (Bomani)، ومكواجو مفواني (Mkwaju la Mvuani) الصغيرة التي تتكون من عدد قليل من الأكواخ، وتتوفر فيها المؤن والمياه، وكثيراً ما يتوقف فيها المسافرون لإعداد أنفسهم لعبور أوزارامو، فهي آخر محطة تخضع لولاية باجامويو، وحصل بيرتون من رئيسها على خدمات ابن أخيه مويي وزيراً (Muinyi Wazira) الذي تلقى سبعة عشر دولاراً لمرافقتهم إلى الداخل، وعمل كمساعد لغوي لسعيد بن سالم، وتابعوا مسيرتهم في اليوم التالي عبر طريق مكسو بالغابات، وعبروا مستنقعات عدة حتى دخلوا قرية نزاسا (Nzasa) أول حي مستقل من أوزارامو، ومن ثم قادهم الطريق إلى كيرانغا-رانغا (Kiranga-Ranga) وهي منطقة جبلية تضم العديد من القرى الصغيرة المليئة بالأشجار، وتطل على السهول المزروعة حيث تخيم القوافل بالقرب من الآبار، وتوقفوا فيها ليوم واحد للراحة بسبب التعب من أعبائهم المفرطة، وتابعوا سيرهم في ٥ تموز عبر قرى تومبا إيهيرا (Tumba Ihere)، وموهوغوا (Muhogwe)، وموهونيرا (Mhonyera) التي تشغل حافة الهضبة المكونة للشرفة الجنوبية لنهر كينغاني. ويندر وجود السكان في ذلك الجزء من البلاد بسبب مناخها الموبوء بالمalaria، وتزخر بالحيوانات البرية التي شكلت تهديداً لحيوانات النقل، وتم التوقف في موهونيرا ليوم واحد؛ للحصول على المؤن، وفيها وصلتهم أنباء وفاة الكولونيل هامرتون بعد وقت قصير من عودته إلى زنجبار^(٣)، وكاد خبر وفاته أن يكون كارثة على الرحلة؛ لأن الجنود البلوش اعتقدوا أن كفيهم قد ذهب، وكانوا سيعودون أدراجهم لو لم تتبدد مخاوفهم بعد أن أخبرهم الشيخ سعيد أن قنصلهم آخر سيأتي ليفي بالتزامات القنصل الراحل ويحقق لهم العدالة^(٤).

(١) - وازيغورا: تشغل الأراضي جنوب نهر بنجاني، وكانت في الأصل قبيلة مسالمة وأصبحت مرعبة بعد حيازة الأسلحة النارية، وهي مختلفة بالنسبة لشكل الحكومة عن بقية القبائل، فهم يطيعون الرئيس الأقوى والأكثر ثراء، وهذا عملياً يؤدي إلى حدوث عداء دموي دائم، وإلى طمع عدد من الرؤساء الثانويين الذين يتطلعون إلى مواقع أعلى. عن Burton, The

Lake Regions of Central Africa, v1, p125-126

(٢) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p101-107.

(٣) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p42, 49, 52-59, 67.

(٤) - Speke, What Led to the Discovery of the Source of the Nile, p196.

وفي ٨ تموز ساروا في سهل نهر كينغاني الموبوء بالمalaria وأصيبوا فيه بالمرض، ومع الضعف المتزايد قاموا بمسيرات طويلة على أرض برية تفاوتت بين بقع الحقول والغابة والمستنقعات على طول الضفة اليمنى لنهر كينغاني، وتوقفوا في توندا التي أصيب فيها بيرتون بالحصى المترافقة مع ألم الرأس وحروق العينين والأطراف المرتجة، كذلك الحال مع سبيك والشيخ سعيد، ومع ذلك واصلوا المسيرة عبر قرى بانا ديرونغا (Bana Dirunga)، وديغا لامهورا (Dege la Mhora)^(١)؛ القرية التي قتل فيها ميزان^(٢)، ومديغا مدوغو (Madege Madogo)، ومديغا مكوبا (Madege Makuba)، وكيدوندا (Kidunda)، ومنها قادهم الطريق إلى وادي نهر مجيتا الذي عبروه في ١٤ تموز ودخلوا بموجبه أراضي خوتو المكان الآمن للتجار الأجانب. وفي ١٥ تموز وصلوا إلى قرية كيرورو (Kiruru) وتوقفوا فيها ليومين بسبب السيول، وأشرك فيها بيرتون ستة حمالين جدد لمساعدة الحيوانات المتهاكة، وتابعوا مسيرتهم في ١٨ تموز عبر المستنقعات العميقة، والسافانا المقطوعة بالوديان الحادة حتى وصلوا إلى مستوطنة دائومي التي احتجزوا فيها حوالي أسبوع؛ بسبب هجمات الملاريا المتكررة التي استمرت في حالة بيرتون حوالي ٢٠ يوماً، وفي دثومي غادرهم الحراس من حامية كاوي، وشعر بيرتون بالارتياح لذلك نتيجة لمضايقاتهم المتكررة، ورفضهم الخدمة، وتعاملهم السيء مع السكان المحليين، وتابعوا سيرهم في ٢٤ تموز إلى منطقة زونغوميرو^(٣) التي وجدوا فيها الحمالين الست والثلاثين الذين سبقوهم، وبذلك انتهت المرحلة الأولى من المسيرة التي استمرت أربعة أسابيع من ٢٧ حزيران إلى ٢٥ تموز عام ١٨٥٧^(٤).

ب- المنطقة الثانية: الهضبة الإفريقية الشرقية:

تمتد المنطقة الثانية أو الجبلية من الحدود الغربية لمنطقة خوتو إلى مقاطعة أوغوي (Ugogi) الواقعة على الحدود الشرقية لـ أوغوغو (Ugogo)، ويبلغ عرضها ٨٥ ميلاً تقريباً،

(١) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p69-73.

(٢) - يوجين ميزان: ولد في مونتوبان بجنوب غربي فرنسا، ودرس في الكلية التقنية في باريس، والتحق بعد تخرجه بالبحرية الفرنسية. ألم ببعض المعلومات عن المحيط الهندي خلال زيارته لمدغشقر وريونيون وشبه الجزيرة العربية، ولكن شرق إفريقيا هو ما أثار اهتمامه، وراودته فكرة استكشافه، وكتب بذلك إلى وزارة البحرية والمستعمرات الفرنسية في العام ١٨٤٤، ووافقت الوزارة على مشروعه، وزودته بالأدوات العلمية والتمويل اللازم، ووصل ميزان في العام نفسه إلى جزيرة زنجبار، وتلكأ في رحلته حتى منتصف العام ١٨٤٥، وعرض عليه السلطان سعيد أن يزوده بمراقبين مسلحين غير أن ميزان رفض قبول العرض، وسار رفقة خادمه وعدد محدود من الحمالين شاقاً طريقه إلى الداخل حتى وصل إلى قرية ديغا لامهورا التي أقدم زعيمها هيمي على قتله طمعاً بممتلكاته، وعندما وصلت تقارير مصيره إلى زنجبار ضغط الفرنسيون على السلطان سعيد للقبض على الجناة ومعاقتهم، فأرسل مجموعة من رجاله لمعاقبة الجناة والقبض عليهم، وكان مصرع ميزان بشكل عام نكسة للطموحات الفرنسية في شرقي إفريقيا. عن هول، إمبراطوريات الرياح الموسمية، ص ٥٦٧-٥٧٠.

(٣) - زونغوميرو: هي مركز حركة المرور في الشرق، كما هي منطقة أونيانيمبي وأوجيجي في المناطق الوسطى والغربية من شرقي إفريقيا. تقع على طريق القوافل الرئيسي، ويتم عبورها من قبل القوافل صعوداً وهبوطاً خلال موسم السفر بين حزيران ونيسان، وتقر فيها جماعات كبيرة تقدر بالآلاف من الرجال كل أسبوع. عن Burton, The Lake Regions of Central Africa, v1, p95.

(٤) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p79-93.

وتجتازها القوافل المحلية عادة في غضون ثلاثة أسابيع، وتضم هذه الهضبة سلسلة جبال أوزاجارا التي تعد الارتفاع الوحيد المهم في الخط المباشر من الساحل إلى غرب أونيامويزي، وتباين فيها السمات الطبيعية بين الحقول الجرداء، والغابات، والمساحات الرتيبة للسهول العشبية، والمستنقعات والمجاري المائية، وهي أرض غنية بالغطاء النباتي وتزخر بالميموزا والتمر الهندي الذي ينمو في كل مكان، وتصرف جبال أوزاجارا مياهها في اتجاهات مختلفة، فالأجزاء الوسطى تتدفق مياهها باتجاه الشرق، وتغذي نهر كنگاني وغيره من الأنهار الأخرى، وتصرف الأجزاء الجنوبية مياهها باتجاه الجنوب والجنوب الغربي عبر نهر مارورو (Maroro)، والروافد الصغرى الأخرى إلى نهر "رواحة"؛ المجرى الأعلى لنهر روفيجي. والقرى في أوزاجارا قليلة وتبنى على القمم والمنحدرات العالية كما هي العادة في البلدان الجبلية؛ لأجل التصريف السريع بعد نزول المطر، وللهواء النقي، والحماية من اللصوص، ونادراً ما يسير المسافرون بالقرب من القرى والمستوطنات خوفاً من الميول اللصوصية في وازاجارا، والطرق فيها وعرة جداً لدرجة أن الحمير يجب أن تعفى من أحمالها. مناخ أوزاجارا بارد ورطب بينما تكون المناطق العالية صحية تكون المناطق المنخفضة ضارة، وتستمر ماسيكا "الأمطار الربيعية" التي تبدأ هنا في أوائل يناير ثلاثة أشهر، بينما تبدأ فولي (Vuli) "الأمطار الخريفية" في آب، أما بالنسبة إلى القبائل التي تقطن هذه الهضبة من شرق إفريقيا فهي وازاجارا (Wasagara)^(١) مع عشائرها الفرعية الرئيسة واهيهي^(٢) (Wahehe)، وواكوفي (Wakwivi)^(٣).

بدأت المسيرة في هذه المرحلة في ٧ آب ١٨٥٧ بعد توقف دام أسبوعين في زونغوميرو؛ بانتظار وصول الأحمال الموعودة من الساحل، وبعد مسيرة خمس ساعات عبر طريق يحده على اليمين تلال ويغو (Wigo)، وعلى اليسار نهر مجيتا صعدوا التدرج الأول لجبال أوزاجارا الذي

^(١) - وازاجارا: شعب صاحب من ساكني الجبال طويل القامة ومتين البنية الجسدية، ويعد أكثر جنس ملتحي في هذه المنطقة، ويعرض اختلافات كبيرة في لون البشرة بين الأسود الداكن والفتح، ولكل قرية في وازاجارا رئيس يحمل اللواء ل موتوا (Mutwa) أو رئيس المنطقة، وتستمد وازاجارا قدراً من إيراداتها من الاتجار بالعبيد، ويتكون لباسهم من القماش، أما الفقراء فيكسون أنفسهم بجلود الحيوانات، وتتكون حليهم من الخرز والأسلاك النحاسية، وأسلحتهم من الأقواس والسهم والرمح والدروع. عن. Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p234-239.

^(٢) - يقطن الواهيهي بين وازاجارا وواوغو، وهم شعب بسيط وشجاع، ورغم مظهرهم اللطيف والحبب إلا أنهم يميلون إلى اللصوصية والسرقعة، يهاجمون القوافل ويقطعون الطريق إلى أوغوغو، تتكون علامتهم المميزة من نديين على الخدين، ويستخرج بعض الرجال ثلاثة أو أربعة من القواطع السفلية. يرتدي واهيهي الأقمشة والجلود، ويحملون إضافة إلى الأسلحة الموصوفة بين واساجارا السكاكين ذو الحدين التي يقدر طولها بقدمين، ويعملون بتجارة العبيد، ويملكون قطعان كبيرة من الماشية. عن

Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p239.

^(٣) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p225-234.

ارتفع حوالي ٣٠٠ قدم في منطقة عرفت ب مزيبي مدوغو (Mzizi Mdogo) التي لم يكن فيها أي أثر للبناء ولا للسكان بسبب الحروب المحلية وتجارة الرقيق اللذين كانا بمثابة كارثة للأرض، وشهدوا فيها تغييراً عجيباً في المناخ حيث استعادوا قوتهم وصحتهم في ظل الهواء الجبلي البارد والحيوي، وبعد يوم من التوقف تابعوا السير في ٩ آب عبر سلسلة من التلال شديدة الانحدار مغطاة بشكل جيد مع العشب نحو مخيم يدعى تشاكينجي (Cha Khenge) الذي توقفوا فيه قسراً؛ إذ ظهر المرض مرة أخرى بين أعضاء البعثة ولاسيما الأعراض الأولية للجدي والملاريا، وتابعوا مع ذلك المسيرة عبر بلد تقطعه الأودية الجافة، واجتازوا وادي روفوتا (Rufuta)، وصعدوا في ١٢ آب ممر غوما في روفوتا، ووصلوا إلى بقايا مخيم على قمة تل يدعى مفوني (Mfuuni) أمضوا الليلة فيه، وتابعوا في اليوم التالي صعود الممر عبر الغابات الكثيفة التي توجت التلال، وفي ١٤ آب قاموا بعبور نهر زونهوي (Zonhwe) الصغير نحو قرية "زونهوي" التي كانت نقطة تحول في الصعوبات التي واجهت البعثة، فقد توالى موت حمير النقل، وتكررت المشاكل بين أعضاء البعثة ولاسيما البلوش الذين طالبوا بالمزيد من القماش والمؤن، وتابعوا في ١٧ آب نحو موهاما (Muhama) التي توقفوا فيها ثلاثة أيام لتأمين المؤن للمسيرة التالية^(١).

واستأنفوا المسير في ٢١ آب بعبور السهل الذي ينحدر غرباً ويفصل روفوتا عن النطاق الثاني للجبال أو موكوندوكوا (Mukondokwa) ومرروا على الجانب القريب من نهر مكاتا (Makata) الذي تتدفق مياهه بعد هطول الأمطار إلى نهر موكوندوكوا، وعانوا في هذه المناطق من البعوض الذي يكثر على ضفاف الأنهار والبرك الموحلة، كما عانوا هناك من اللسع القاسي للنمل الأحمر الصغير والأسود الضخم، ومن ذبابة تسي تسي التي تكثُر في المنطقة الممتدة من أوزاجارا باتجاه الغرب حتى البحيرات الوسطى. وبعد مسيرة ست ساعات وصلوا إلى مقاطعة "كاديتماري" (Kadetamare) التي كانت في السابق محطة تموين مزدهرة، وغادروها في ٢٥ آب عبر موييني (Muinyi)، وندابي (Ndabi)، ونزلوا في ٢٩ آب المنحدرات السريعة نحو حوض نهر روموما (rumuma)؛ رافد نهر موكوندوكوا الذي يستنزف التلال إلى الجنوب الغربي من منطقة روموما، ويعد مكان الراحة المفضل للقوافل؛ بسبب وفرة إمداداتها النسبية، وتوقفوا فيها يومين كاملين للراحة ولإصلاح الأحمال والتجهيزات الأخرى للحمير^(٢).

وفي ٢ أيلول عبروا السهل الذي يفصل موكوندوكوا أو النطاق الثاني عن روبهيو (Rubeho) أو النطاق الثالث الأقصى الغربي لجبال أوزاجارا، وقادهم نزول السفح الغربي للجبال في ٤ أيلول نحو حوض إينينج (Inenge) الذي يقع عند سفح روبهيو، حيث توافد قرويو المستوطنات

(١) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p158-179.

(٢) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p180-197.

التي تطل على الوادي لمقايسة منتجاتهم، وهنا لأول مرة منذ مغادرتهم الساحل كانت الإمدادات من العسل والزبدة والحليب متوفرة، والتقوا في إينيج بقافلة متجهة نحو الساحل تحت قيادة عيسى بن حجي وثلاثة تجار عرب آخرين اشترى منهم بيرتون اثنين من حيوانات النقل مقابل عشرة دولارات لكل منهما تدفع في زنجبار مع خدمات ثلاثة حمالين. وقدم لهم عيسى بن حجي خدمات عدة، إذ انتظر عدة أيام لمراقبة استعداداتهم لعبور سلسلة روبهو وقدم لهم معلومات قيمة عن أوغوغو وأوجيجي، ووضع تحت تصرفهم منزله في أونيانيمبي، كما أرسل معه سبيك أوراقاً وخرائط للجمعية الجغرافية الملكية، وأرسل بيرتون مرة أخرى إلى القنصل وجامع الجمارك للأدوية وإمدادات إضافية من القماش والخرز، وفي ١٠ أيلول استأنفت البعثة عبور الممر الجبلي رغم المرض والضعف الجسدي، وكان تحركهم بطيئاً ومؤملاً، وصعدوا في ١٢ أيلول مرحلة ثانية حادة وضععتهم في روبهو قمة النطاق الثالث والأقصى الغربي من جبال أوزاجارا التي ترتفع ٥٧٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، وفي ١٥ أيلول نزلوا على سفح جبال أوزاجارا عبر سافانا صغير كشفت لهم فجأة عن هضبة أوغوغو، وفي ١٨ أيلول وضععتهم مسيرة أخيرة من أربع ساعات في سهول أوغوغو التي أنهت المرحلة الثانية من الرحلة^(١).

ج- المنطقة الثالثة: أوغوغو (Ugogo):

تمتد المنطقة الثالثة أوغوغو من وادي أوغوجي في القاعدة الغربية لجبال أوزاجارا إلى تورا (Tura) المنطقة الشرقية من أونيامويزي، وتحتل عرضاً قطعياً من الشرق إلى الغرب يبلغ نحو ١٥٥ ميلاً، وحوالي ١٢٠ ميلاً من الشمال إلى الجنوب، ويبلغ متوسط ارتفاعها ٣٦٥٠ قدم مع ارتفاع تدريجي نحو الغرب، وتنقسم إلى ثلاث مقاطعات كبيرة: القسم الشرقي مارينغا مخالي (Marenga Mkhali)، وقلب المنطقة أوغوغو البلد الأكثر ازدحاماً بالسكان والأكثر زراعة ومغطى بمساحات من الغابات الكثيفة، والقسم الغربي مغوندا مخالي (Mgunda Mkhali)، ويمر عبر أوغوغو ثلاث طرق رئيسة باتجاه الغرب، شمالي ومركزي وجنوبي^(٢). ومناخ أوغوغو جاف بشكل ملحوظ، وهناك فروقات حرارية كبيرة بين الصيف والشتاء، ففصل الصيف طويل شديد الحرارة، ولا يوجد فصل خريف، ولهذا فإن المناخ لا ينحس بالأقطار الاستوائية الغزيرة، ويتلقى البلد في منتصف تشرين الثاني كمية قليلة من الأمطار الأولية، وفي نهاية شهر كانون الأول تبدأ ماسيكا أو موسم الأمطار ونادراً ما تتجاوز الشهر الثالث؛ ويكون سقوطها غير محدد مما يتسبب في موجات الجفاف المتكررة والمجاعة، ولهذا السبب فإن الأرض أدنى خصوبة من المناطق الأخرى، بل وتعرض بقع مختلفة للجفاف؛ لعدم وجود أنهار دائمة الجريان ولا مياه

(١) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p200-224.

(٢) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p294-295.

وفيرة، ويعاني المسافرون من المناخ، ويشتكون من الزوابع وأسرار الذباب والتغيرات العنيفة بين الحر والقر، وكذلك الحمى والملاريا، فضلاً عن التقرحات الجلدية، وغيرها من الأمراض الأخرى. أما بالنسبة للسكان فهي مُستوطنة بشكل رئيس من قبائل واغوغو (Wagogo)^(١)، وواهومبا^(٢) (Wahumba)^(٣).

بدأت المسيرة في هذه المرحلة في ٢٢ أيلول بعد توقف دام ثلاثة أيام في أوغوجي أعادوا فيها ترتيب المجموعة، وأشركوا خمسة عشر حمالاً، وجهزوا حصص الطعام لأربع مسيرات صحراوية طويلة، ومع الزيادة الكبيرة في النقل ظهر كل رجل في المسيرة التالية محمل بشكل أكبر من ذي قبل؛ لأنهم كانوا يحملون الحبوب لستة أيام والمياه لليلة واحدة، وسارت القافلة عبر بلد عشبي محصور على كلا الجانبين بتلال صخرية متعرجة تعد امتداداً لسلسلة روبيهو، ومع تقدمهم ازدادت الصعوبات التي تواجههم بسبب وعورة الطريق، وأرهق الحمالون من المسيرات الطويلة تحت أشعة الشمس الحارقة. وفي ٢٤ أيلول صعدوا التدرج الأخير من المنحدر الصخري الذي وضعهم فوق النصف الشرقي من مارينغا مخالي، ووصلوا في ٢٦ أيلول إلى زيوا (Ziwa) أو البركة التي تقع على ارتفاع ٣١٠٠ قدم فوق البحر، ويتفاوت مداها إلى حد كبير حسب الفصول، وتخيم فيها القوافل دائماً عندما يجدون الماء، وعندما تكون جافة ينزل المسافرون عادةً في غابة كثيفة على بعد ميل واحد إلى الشمال الغربي منها، إذ توجد المياه في حفر متفاوتة من عشرين إلى ثلاثين قدم في العمق، ويتم دائماً طلب الإذن لسحب الماء مقابل المال، وعادة ما تنتج الصدمات القتالة لهذا السبب. وفي زيوا بدأ نظام الهونغو (honga) أو ضريبة المرور المربعة كثيراً للمسافرين، فحتى هذه النقطة اكتفى جميع الرؤساء بتلقي الهدايا الصغيرة، ولكن في

(١) - واغوغو: شعب شجاع حسن المظهر، يعرض تدرجاً في لون البشرة، علامتهم المميزة إزالة القواطع السفلية، ولا يوجد لهم وشم منتظم. يعرف السلطان في واغوغو باسم ميمي (Mtimi)، ويمارس سلطة كبيرة على رعاياه، ولديه عدد من الوزراء الذين هم إخوة أو أقارب ويعرفون بوازغارا (Wazagira)، كما يعرف أعضاء مجلس الشيوخ من كبار السن بوانيامبارا (Wanyapara)، وتتفوق واغوغو في اللباس على أزازاجارا ووانيامويزي، وتتكون حليهم من الأساور والقلائد من الحديد والأسلاك النحاسية، وأسلحتهم من السكاكين الطويلة ذات الحواف المزدوجة والرماح، وتنتج بلادهم الملح بشكل رئيس، ولا تمر أي قافلة دون الاتجار في هذه المادة. يقضي رجال واغوغو أيامهم في النوم والسكر بينما تعمل النساء في الحقول، والأولاد في رعاية القطعان، ونادراً ما يقوم السكان بمقايضة أغنامهم وأبقارهم، ويقوم واغوغو ببيع زملائهم في القبيلة فقط عند الإدانة بالسحر. عن Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p304-311.

(٢) - واهومبا: شعب حسن المظهر يمتد موطنهم من شمال أوزاجارا إلى الشواطئ الشرقية لبحيرة أوكيروي، وهم رعاة خالصون لا يزرعون، ويحتقرون الطعام النباتي، ويعيشون كلياً على اللحم أو الحليب حسب الموسم. مساكنهم بدائية وتتكون أسلحتهم من الرماح العريضة الرأس، والخناجر الطويلة أو ذات الحواف المزدوجة، ويحتقرون الأقواس والسهام، ويحملون الدروع الضخمة في المعارك. عن Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p311-312.

(٣) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p297-303.

أوغوغو تؤخذ ضريبة المرور بالقوة إذا لزم الأمر، ولا يمكن لأحد أن يهرب من الدفع حتى أن الجمالين يرفضون السفر حتى يتم إرضاء كل رئيس على هذا الطريق؛ خوفاً من أن يقطع عليهم الطريق في المستقبل، وإذا ما حصل شجار فإنهم يرمون أحمالهم ويهربون، ولا توجد تعرفية جمركية محددة، ولكن يتم تحديد المبلغ وفق منزلة المسافر وزيه، وبما أن الزعماء لم يتوقعوا رؤية الرجال البيض مرة أخرى، فإنهم عمدوا إلى تحقيق أقصى استفادة منهم^(١).

وتابعوا المسير في الأول من تشرين الأول برفقة قافلة كبيرة برئاسة سعيد بن محمد مع خلفان بن خميس وآخرون من عرب الساحل الذين اقترحوا - من أجل السلامة- أن تسافر القافلتان معاً تحت راية واحدة في تجمع بلغ عدده ١٩٠ رجلاً، ودخلوا إلى هضبة أوغوغو، ومن ثم وصلوا إلى قرية كيفوكورو (Kifukuru) التي استقبلهم فيها حشود من سكان البلاد، وتوقفوا فيها يوماً واحداً حتى تمت تسوية ضريبة السلطان مياندوزي (Miyandozi)؛ وهو السلطان الأقل قوة من بين سلاطين أوغوغو الأربعة، ثم استأنفوا رحلتهم في اليوم التالي بالسير عبر غابة كثيفة، ثم على سهل عشبي امتد إلى حدود كانيني (Kanyenye) مقر حكم السلطان ماجومبا (Magomba)، وتأخروا فيها أربعة أيام لتسوية ضريبة ماجومبا؛ أقوى رؤساء أوغوغو الذي تلقى ما مجموعة خمسين دولاراً من الأقمشة والأسلاك النحاسية، والتقوا في كانيني بقافلة عربية كبيرة يرأسها عبد الله بن نصيب^(٢) من زنجبار ولقبه الإفريقي كيسيسا (Kisesa) الذي عاملهم بكرم بل وتطوع بالتوقف ليوم واحد ليقوموا بكتابة تقارير ورسائل ومذكرات إلى زنجبار للحصول على إمدادات إضافية من الأدوية والقماش والخرز^(٣).

وفي ١٠ تشرين الأول انطلقوا مبكراً عبر سهل عشبي واسع إلى منطقة خوخو (Khokho) التي يطلق عليها أيضاً نيككا (Nyika) أي البرية، وتعد نواة مشاكل المسافرين في أوغوغو لصعوبة سلطاتها مانا مياها (Mana Miahaha) الذي كان معتاداً على احتجاز القوافل لعزق حقوله، وكثيراً

(١) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p241-256.

(٢) - عبد الله بن نصيب: كان واحداً من أبرز المحاربين العرب في الداخل، حيث كسب لقب كيسيسا (الشجاع) من انتصاراته الكثيرة، كما حصل على عدد كبير من الاتباع المخلصين في أونيانيمي بالقرب من تابوره لكرمه في توزيع غنائم هذه المآثر. وعندما نشأ خلاف بين مجتمع أونيانيمي والوالي السلطان برغش، حل عبدالله محل والي السلطان بدعم من إيساك (Isike) رئيس أونيانيمي، وهرب الوالي المخلوع إلى حماية ميرامبو في أرامبو، واستمر العداء المتبادل وانعدام الثقة بعد ذلك لسنوات بين الوالي السابق والأخير ومؤيديهم، وكذلك بين عبد الله والسلطان. في العام ١٨٨١ استدعى السلطان برغش عبد الله إلى زنجبار، وانضم عبدالله إلى فصيل يسعى للإطاحة بالسلطان برغش، ولكنه توفي في العام ١٨٨٢ بشكل غير متوقع عندما كان يستعد للعودة إلى أونيانيمي، وزعمت بعض التقارير أن برغش أمر بتسميمه. عن Ofcansky, Yeager, The Historical Dictionary of Tanzania, p9.

(٣) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p257-270.

ما طبق أعمال السخرة لخمسة أو ست أيام في الربيع قبل أن يوافق على تلقي ضريبته، وتأخروا في خوخو خمسة أيام؛ لوضع مؤن لأربعة مسيرات مقدماً، وبسبب الذرائع الإفريقية المعتادة لتأخير تسوية الضريبة، وكانت خوخو مكاناً مشؤوماً بالنسبة إليهم، إذ تضرروا من ذبابة تسي تسي ومن أسراب النحل والنمل الأسود والأبيض، وفيها لاذ الحمالون الخمسة عشر - الذين تم إشراكهم ودفع أجورهم في أوغوجي- بالفرار، واضطروا إلى توزيع أحمالهم بين بقية الحمالين بعد دفع أجر إضافي، وتابعوا المسيرة في ١٧ تشرين الأول تحت أشعة الشمس الحارقة حتى وصلوا إلى حدود مديابورو (Mdaburu)؛ وهي أول حي مهم في منطقة أويانزي (Uyanzi) التي تمتد من غرب خوخو حتى تورا، وتأخروا يومين في هذه المنطقة الرابعة الغربية من أوغوجو؛ لوضع المؤن وتسديد ضريبة السلطان كيبويا (Kibuya)، ومن ثم بدأوا في ٢٠ تشرين الأول بعبور مغوندا مخالي "الحقل الناري" عبر مسار ضيق في غابة شائكة مروراً بـ وادي مبانغورو (Mabunguru) الكبير، وجيوي لا مكوا (Jiwe la Mkoa)، وجيوي (Jiweni) على الحدود الغربية لأويانزي، ووصلوا في ٢٧ تشرين الأول بعد تقدم بطيء استغرق سبع ساعات إلى وادي تورا الذي يشكل الحدود الشرقية لأونيامويزي، وكانت هذه نهاية المرحلة الثالثة من الرحلة^(١).

د- المنطقة الرابعة: أونيامويزي "أرض القمر": (ملحق ١٠)

تمتد أونيامويزي من الأطراف الغربية لصحراء مغوندا مخالي إلى الضفة الشرقية لنهر مالاجارازي، وتتسع لـ ١٥٥ ميلاً. يحدها من الشمال أوسوي (Usui) وبحيرة أوكيرو، ومن الجنوب الشرقي أوغالا (Ugala)، ومن الجنوب أوكيمبو (Ukimbu)، والجنوب الغربي أويندي (Uwende)، وتمتد على مسافة خمس وعشرين إلى ثلاثين مسيرة تجتازها القوافل المحلية في خمسة وعشرين يوماً، وتتكون مقاطعاتها الرئيسية من: أوتاكاما (Utakama) في الشمال، وأوزوكوما (Usukuma) في الجنوب^(٢)، وأونيانيمي في الوسط، وأوفيوما (Ufyoma) وأوتومبارا (Utumbara) في الشمال الغربي، وأونيانغورا (Unyangwira) في الجنوب الشرقي، وأوزاغوزي (Usagozi) وأوزومباوا (Usumbwa) في الغرب^(٣).

وتقدم أرض القمر - وهي حديقة وسط إفريقيا الاستوائية- جانباً من الجمال الريفي الذي يبهج العين بعد أراضي أوغوجو القاحلة. وسكانها كثيرون نسبياً. وهي أرض خصبة مزروعة بشكل جيد، وتكثر فيها قطعان الأبقار والماعز والأغنام. وتوجد فيها المياه عموماً على السطح في

^(١) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p271-293.

^(٢) - في لغة أونيامويزي سوكوما (sukuma) تعني الشمال، وتاكاما (takama) تعني الجنوب، وكيا (kiya) الشرق، ومويري (mwere) الغرب. عن Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p5.

^(٣) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p1-6.

برك ضحلة واسعة، وتصرف منحدرات البلاد مياهها باتجاهات مختلفة؛ إذ ينحدر القسم الشرقي نحو الجنوب الشرقي، ويصرف مياهه عبر نهر رواحة إلى المحيط الهندي، بينما تبدو المياه راكدة في المركز، وفي القسم الغربي يتحول الصرف إلى الشمال والشمال الغربي عبر وادي غومبي وهو سلسلة من البرك خلال موسم الجفاف بينما يشكل سيلاً سريعاً غير قابل للعبور خلال موسم الأمطار إلى نهر مالاجازي العظيم؛ الرافد الشرقي لبحيرة تنجانيقا، ويبدأ هطول الأمطار في وسط إفريقيا في وقت أبكر منها على الساحل الشرقي، ففي العام ١٨٥٧ بدأ موسم الأمطار في جميع أنحاء أونيامويزي الشرقية في ١٤ تشرين الثاني، وبدأ في مسين حوالي شهر قبل أونيانيمبي وفي أوجيجي وكاراجوي وبوجدنا قبل ما يقرب من شهرين، ولهذا فإن البلاد الأخيرة لديها موسم أمطار يستمر من منتصف أيلول حتى منتصف أيار، ويمتد الموسم الحار أو الصيف من نهاية شهر حزيران حتى منتصف تشرين الثاني تقريباً، ويؤثر الجفاف خلاله في البلاد بشدة، ويتعرض الرحالة في أونيامويزي لنزلات البرد، والالتهابات التنفسية، والمalaria والروماتيزم، والدوسنتاريا، والحمى القاتلة، وتعد حمى موكونغورو (Mukunguru) أو الحمى الموسمية أشد أنواع الحمى في هذا الجزء من إفريقيا، ويعد الذباب والبعوض - آفات معظم البلدان الإفريقية - مصدر ضرر بسيط. ويقطن في هذه المنطقة كل من وانيامويزي (Wanyamwezi)^(١) وواكيمبو (Wakimbu)^(٢).

بدأت المسيرة في هذه المرحلة من تورا في ٣٠ تشرين الأول مروراً بقرى روبوغا (Rubuga) وأوكونا (Ukona) إلى المنطقة الثالثة من أونيامويزي الشرقية التي تدعى كيغوا (Kigwa)، وعبروا في ٦ تشرين الثاني غابة كيغوا الكثيفة المليئة بالصوص التي كانت تفصلهم عن منطقة أونيانيمبي^(٣)، وفي ٧ تشرين الثاني عام ١٨٥٧؛ أي في اليوم الـ ١٣٤ من تاريخ مغادرتهم الساحل،

(١) - وانيامويزي: شعب طويل القامة، يتدرج لون بشرتهم بين اللون البني الداكن والأسمر، وعلامتهم المميزة خط مزدوج من الدوب الصغيرة من الحاجبين إلى منتصف الحدين. تضم أونيامويزي عدد كبير من الرؤساء الثانويين، ويلقب الرئيس بميمي (Mtemi) وتعني رئيس أو سلطان وهو منصب وراثي يملك قوة الحياة والموت على رعاياه، وتتكون إيراداته من هدايا المسافرين، ومصادرة الممتلكات في حالات الجناية أو السحر. ويرتدي السكان الجلود أكثر من القماش باستثناء السلاطين والطبقات الأكثر ثراءً. وتتكون حلبيهم من الخرز وأساور النحاس وحلقات العاج، وأسلحتهم من الرماح والأقواس والسهام، إضافة إلى السكاكين الطويلة ذات الحواف المزدوجة، وفؤوس القتال الصغيرة والدروع، ويتم الزواج عندما يستطيع الشباب تحمل دفع مهر الزوجة، وتعدد الزوجات شائع لدى الأثرياء. يتولى الرجال مسؤولية القطعان فضلاً عن العمل كحمالين، بينما تتولى المرأة زراعة الحبوب والخضروات. وتقتصر صناعاتهم على نسج القماش والسلال المنسوجة وأوعية الحليب الخشبية وسروج الحمير والأسلحة. عن Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p 20-33.

(٢) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p7-13, 19.

(٣) - أونيانيمبي: المقاطعة المركزية في أونيامويزي، ترتفع إلى حوالي ٣٤٨٠ قدم، وتقع على بعد ٣٥٦ ميلاً عن الساحل. وهي مكان تجمع التجار، ونقطة انطلاق القوافل المتنقلة التي تنتشر إلى المناطق الداخلية، ومنها تشعب خطوط السفر في مختلف الاتجاهات، وبسبب الموقع المركزي والسلامة النسبية لأونيانيمبي أصبحت المسكن الرئيس للعرب العمانيين الذين استقروا فيها

وبعد السير لمسافة ٦٠٠ ميل تقريباً دخلوا كازه (Kazeh)؛ البانداري الرئيسي لشرق أونياموزي، وعاصمة التجار العرب، واستقبلهم التجار العرب الرئيسيون: ثاني بن عمر، وسعيد بن ماجد، ومهنا بن سليمان، وسعيد بن علي الحناوي، وأمن لهم ثاني مسكناً مريحاً، وقام بواجب الضيافة تجاههم، وهنا يؤكد بيرتون على الاستقبال الودي الذي تلقاه من العرب، ويقارن بين كرم الضيافة والمعاملة الطيبة لهذا العرق النبيل العربي، وبين البخل والشح لدى الأفارقة المتوحشين على حد قوله. كما قدم ثاني الكثير من المساعدة لبيرتون وسببك، إذ قام بتجنيد الحمالين لقافلته إلى أوجيجي، وقام بتخزين السلع الخاصة بهم وتصريف متاجرهم الإضافية، وتولى مسؤولية إرسال رسائلهم وأوراقهم إلى المنزل، وتعهد بإعادة توجيه قافلته المتخلفة التي لا تزال متوقعة من الساحل، ومن محادثاته استمد بيرتون وسببك الكثير من المعلومات القيمة التي مكنتهم من رسم الخطوط العريضة والشكل العام للبحيرة الشمالية وبحيرة تنجانيقا؛ إذ كان ثاني قد سافر ثلاث مرات بين أونياموزي والساحل إلى جانب الملاحة في بحيرة تنجانيقا، وزار مملكتي كاراجوي وبوجندا الشماليتين، وكان على دراية باللغات، والدين، والأخلاق، والإثنولوجيا الإفريقية^(١)، ويذكر سببك^(٢) في هذا المجال جانباً من محادثته مع ثاني بن عمر فيما يلي "عند فتحي لخريطة السادة رييمان وإرهاردت، سألته أين كانت نياسا، قال إنها بحيرة متميزة عن أوجيجي تقع إلى الجنوب. وهذا فتح أعيننا على حقيقة أكثر إثارة للاهتمام اكتشفت لأول مرة. ثم سألت ماذا تعنيه كلمة أوكيرووي، وتمت الإجابة عنها بنفس الطريقة، أنها بحيرة تقع إلى الشمال أكبر بكثير من أوجيجي، وهذا حل اللغز. كان المبشرون قد جمعوا البحيرات الثلاث في واحدة وفي حال من الغبطة الشديدة، سألت ثاني من خلال الكابتن بيرتون، ما إذا كان النهر يخرج من تلك البحيرة أم لا؟ ورد على ذلك إنه يعتقد أن البحيرة كانت مصدر نهر جوب، وقد نصحن بقوة إذا كان دافعنا الوحيد في المجيء إلى هنا هو أن نشاهد قطعة كبيرة من الماء، للذهاب إليها بدلاً من أوجيجي".

وبقي بيرتون وسببك في كازه من ٨ تشرين الثاني إلى ١٤ كانون الأول؛ إذ كان من المعتاد للقوافل المتقدمة نحو أوجيجي البقاء ستة أسابيع أو شهرين في أونيانيمي للراحة والانتعاش،

لسنوات، في حين سافر أفراد مجموعتهم حول البلاد، وتم استعمار هذا الجزء من أونيانيمي لأول مرة في العام ١٨٥٢، ويعيش العرب فيها بشكل مريح في منازل كبيرة وحدائق واسعة ومزرعة بشكل جيد، ويحصلون على إمدادات منتظمة من البضائع والكماليات من الساحل ومحاطين بجنود من العبيد، والمؤن فيها رخيصة ووفرة والأرياح كبيرة، والعرب بشكل عام مضيافين ويستقبلون الغرب بالترحيب، ويتم توفير المسكن له وتقديمه لبقية المجتمع في مأدبة عامة. عن Burton, the

Lake Regions of Central Africa, v1, p325-329

(١) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p313-325.

(٢) - Speke, What Led to the Discovery of the Source of the Nile, p198.

كما يتم صرف الحمالة الذين رافقوهم من الساحل في أونيانيمي وتجنيد مجموعة جديدة ولا تكون المهمة سهلة عندما يقترب موسم البذر، ففي صباح اليوم التالي بعد وصولهم إلى كازه، تلقى حمالة وانيامويزي أجهرهم من القماش وغادروا، وتلقى الكيرانجوزي أو الدليل هدية صغيرة، وغادر إلى عائلته في مسين بعد أن حدد مدة خمسة عشر يوماً كإجازة غيابه، وبناء على ذلك رتب بيرتون لاستئناف المسيرة في نهاية الأسبوعين، ولكن أسباباً عدة أدت إلى التأخير من بينها أن أبناء رامي تململوا من المسيرة وحاولوا تأخيرها قدر الإمكان، كما بدأ في ١٤ تشرين الثاني موسم المطر الذي أعلن عن وصوله قبل الأوان، وغمرت الأرض بالأمطار والسيول والأمطار، وعليه رفض وانيامويزي الذين كانوا يزرعون حقولهم العمل كحمالين، وبعد جهد جهيد تمكن ثاني بن عمر من جمع عشرة رجال فقط، إضافة إلى ذلك أصبحت أونيامويزي موبوءة بالمalaria مع بدء موسم الأمطار، وتعرض معظم أعضاء البعثة للحمى، وكانت النتيجة أن تأجل مسيرهم من كازه مراراً^(١)، وفي الآخر تبين لهم أنه لا يمكن الحصول على حمالين آخرين في كازه؛ لذلك بدأوا المسير في ١٥ كانون الأول إلى زيمبيلي (Zimbili) التي تبعد مسيرة ساعتين، وبينما كانوا يستعدون للتقدم أبلغوا أن القافلة المتوقعة منذ فترة طويلة قد توقفت في روبوغا بسبب هرب الحمالين، فاضطر سبيك للعودة إلى كازه لانتظار وصول الإمدادات، بينما تابع بيرتون المسير محمولاً على نقالة، ووضعهم رحلة ساعتين في قرية يومبو (Yombo) التي توقف فيها بيرتون يومين للحصول على المؤن واستئجار حمالين جدد، وغادروها في ١٨ كانون الأول نحو قرية بانو (Pano) الصغيرة، ومنها إلى قرية إيرورا (Irrora) حيث انضم سبيك إلى البعثة بعد أن جلب الأحمال المتخلفة، وفي ٢٣ كانون الأول غادروا إيرورا مروراً بمناطق وقرى ويليانكورو (Wilyankuru)، وموني شاندي (Muinyi Chandi)، وماسينجي (Masenge)، وكيريرا (Kirira)، ووصلوا في ٣٠ كانون الأول إلى مسين؛ البانداري الرئيس في أونيامويزي الغربية التي توقفوا فيها اثني عشر يوماً^(٢).

وغادرت البعثة مسين في ١٠ كانون الثاني عام ١٨٥٨ بصعوبة كبيرة بسبب خوف الجميع من المسير غرباً حيث تكمن قبائل واتوتا المرعبة^(٣)، وحيث تكون القبائل معادية للغرباء، والأرض

(١) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p375-381.

(٢) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p386-395.

(٣) - واتوتا: قبيلة رعوية متنقلة تختقر مثل ماساي والصوماليين المنازل والحقول، ويخيمون تحت الأشجار، ويقودون قطعانهم إلى أكثر المراعي خصوبة، ويتكون لباسهم من قماش اللحاء، ويتحركون في غزواتهم في مجموعات كبيرة نساء ورجال مع الأطفال والأمتعة الموضوعة على الثيران، وتحمل زوجاتهم أسلحتهم وينضممن إليهم في القتال، وتتكون أسلحتهم من رمح قصيران، أحدهما في اليد اليمنى والآخر في اليسار مع درع كبير، ويزدرون القوس والسهم، وعلى الرغم من أنهم يتسمون بالقسوة إلا أنهم يستقبلون الضيوف دائماً بشرف. Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p76.

غير صحية، والغطاء النباتي مفرط، ومروا بقرى مبهالي (Mbali)، وسينجاتي (Sengati)، وسورورا (Sorora) التي تأخروا فيها ثلاثة أيام لجمع إمدادات من الأرز، وفيها قام بيرتون بصرف أبناء رامي الذين أصبحت تصرفاتهم لا تطاق، وتابعت البعثة سيرها في ١٦ كانون الثاني عبر قرى أوكونغوي (Ukungwe)، وباندا (Panda)، ودخلوا في ١٨ كانون الثاني إلى كاجانجيري (Kajjanjeri) التي تعرض فيها بيرتون مرة أخرى للحمى بسبب مناخها السيء، واحتجزتهم هذه المحنة حتى ٢١ كانون الثاني حيث ساروا نحو أوزاجوزي (Usagozi)؛ العاصمة القديمة لمقاطعة أونيامويزي، وواحدة من أهم أقسامها وأكثرها تحضرًا، واحتجزوا فيها ثلاثة أيام بسبب معاناة سبيك من الحمى المتكررة التي أدت إلى فقدانه لبصره بشكل مؤقت، وغادروا أوزاجوزي في ٢٦ كانون الثاني عبر قرى ماسينزا (Masenza)، وموكوزيمو (Mukozimo)، وأوجانزا (Uganza)، ووصلوا في ٢٩ كانون الثاني إلى منطقة أوسني (Usenyi) الخصبة والمزدحمة بالسكان، وتوقفوا في قرية وانیکا (Wanyika) يوماً واحداً لتسوية ضريبة المرور مع مبعوث السلطان (Mzogera)؛ السلطان الرئيسي لأوفينزا وسيد نهرمالاجارازي، ومن ثم استأنفوا المسيرة في ٢ شباط نحو قرية صغيرة تدعى أوغاغا (Ugaga)، وفي ٤ شباط عبروا نهرمالاجارازي إلى قرية مبيتا (Mpeta) الواقعة على الضفة الأخرى من النهر، وكانت هذه نهاية المرحلة الرابعة من الرحلة^(١).

هـ- المنطقة الخامسة ما بين نهرمالاجارازي وبحر أوجيجي: (ملحق ١٠)

تشمل المنطقة الخامسة الوادي الرسوبي لنهرمالاجارازي، وتمتد من هذا النهر شرقاً إلى بحيرة تنجانيقا غرباً لمسافة ١٠٨ ميلاً، وتجتازها القوافل المحلية عادة في ثمانية أيام، وتضم هذه المنطقة على الترتيب من الشرق إلى الغرب أراضي أوفينزا (Uvinza)، وأبوها (Ubuha)، وأوجيجي^(٢)، وعلى الحد الشمالي أوها (Uhha)، وعلى الحد الجنوبي الغربي أوكارانغا (Ukaranga). التربة في محيط نهرمالاجارازي رسوبية خصبة على الضفة اليمنى معظمها صحراوية، وعلى اليسار مساحة واسعة من الزراعات الغنية. وتنحدر البلاد باتجاه الغرب. وتنقسم الأمطار السنة إلى قسمين غير متساويين: موسم المطر؛ ويمتد ثمانية أشهر من أيلول وحتى أيار، وموسم الحر والجفاف؛ ويمتد أربعة أشهر فيما تبقى من أشهر السنة، والمناخ فيها صحي نسبياً، ولا يخشى

^(١) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p400-411.

^(٢) - أوجيجي: تسمى أيضاً مانيوفو (Manyofo) وهو اسم مقاطعة وليس كما تم تصويرها في مدينة واحدة. زارها العرب أول مرة حوالي العام ١٨٤٠ بعد عشر سنوات من وصولهم لأونيامويزي، ووجدوا أنها تقع في مكان مناسب كسوق على بحيرة تنجانيقا، ونقطة مركزية حيث يمكن إنشاء مستودعاتهم، ويمكن لعمالهم وعبيدهم التنقل في المياه، وجمع العبيد والعاج من القبائل التي تقع على ضفافها، ولكن المناخ أثبت أنه غير صحي، والسكان خطرون، وكثيراً ما انتهت الرحلات بنتائج كارثية؛ لذلك لم ترتق أوجيجي إلى رتبة أونيانيمي أو مسين، وتتم زيارتها خلال الفصول المقبولة من أيار إلى أيلول بواسطة قوافل متنقلة تعود إلى أونيانيمي بمجرد تحميل حمولاتهم. عن

Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p56-57.

الغرباء من الحمى كما هو الحال في أونيانيمي، لكن لا أحد ينجو منها، وتستمر من ثلاثة إلى أربعة أيام، وعادة ما تتكرر في أوقات منتظمة مرة في الشهر. أما بالنسبة للقبائل الرئيسية في هذه المنطقة فهي واجيجي (Wajiji)^(١)، ووافينزا (Wavinza)، وواكارانغا (Wakaranga)، وواتوتا (Watuta)، ووابوها (Wabuha)، وواهها (Wahha)^(٢).

وبدأت المسيرة في هذه المنطقة في ٥ شباط من قرية مبيتي الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الملاجارازي مروراً على أرض المستنقعات على طول النهر نحو منطقة كيناواني (Kinawani) على الضفة اليمنى للملاجارازي، ومن ثم تابعوا عبر أرض وعرة متموجة إلى المنطقة الواقعة على الجانب الآخر من النهر المسماة جامباهو (Jambeho)؛ وهي واحدة من أكثر المناطق ازدهاراً في أوفينزا، وتضم قراها أكواخ صغيرة، وحقولها مزروعة بعناية بالحبوب والبطاطا الحلوة، أقاموا فيها الليل وقاموا بشراء المؤن، وتابعوا السير في اليوم التالي نحو نهر روسوغي (Rusugi)، وتبعوا الضفة اليسرى لهذا النهر حتى مكان العبور حيث انقسم الطريق إلى فرعين شمالي وجنوبي يؤدي الشمالي إلى منطقة باروجيرو (Parugerero)؛ وهي مستوطنة وافينزا تحتوي على أربعين إلى خمسين كوخاً وتزخر بحفر الملح الذي يشكل الثروة الرئيسية لأوفينزا، ويجد طريقه إلى جميع أنحاء قلب إفريقيا وتزود الأراضي المتاخمة لكل من بحيرات تنجانيقا ونيانزا^(٣).

أما الطريق الجنوبي الذي تبعوه فيعبر نهر روسوغي فوق مستنقع موحل ثم صعدوا قمة صخرية عالية، وعبروا في ١٠ شباط نهر روجوفو (Ruguvu) أو لوجوفو (Luguvu) الذي يشكل خط الحدود بين أوفينزا وأوكارانغا، ومن ثم قادتهم مسيرة صحراوية إلى نهر أونغوي (Unguwwe)، وصعدوا في ١٣ شباط تلة وعرة مكسوة بالأشجار الشائكة كشفت لهم عن مشهد بارز لبحيرة تنجانيقا، وقال بيرتون في لحظتها: "لا شيء في الحقيقة، يمكن أن يكون أكثر

(١) - واجيجي: سلالة قوية من الزنوج ذات بشرة داكنة، وملامح واضحة، وأطراف متينة وقوية، وتصبح ملامح السكان زنجية أكثر من كونها شبه الزنجية كلما اقتربوا من وسط إفريقيا. كان سلطان أوجيجي في العام ١٨٥٨-٥٩ روسيمبا (Rusimba)، ويندرج تحته رؤساء ثانويين لكل واحد مستوطنة، ويرتدي الرؤساء أقمشة باهظة الثمن يحصلون عليها من القوافل المارة، وتفضل النساء الثريات لباس الساحل بينما يقتصر زي الطبقات الدنيا على جلود الحيوانات، كما ارتدوا القماش المصنوع من لحاء الأشجار، وتتكون حليهم من الأسلاك النحاسية والأساور والخرز، وأسلحتهم من الفؤوس والخناجر والرماح والأقواس. ويعد العرب واجيجي العرق الأكثر إزعاجاً في هذه المناطق فهم جلفون ومبتزون يطلبون الخرز حتى للإشارة إلى الطريق، ويتكون طعامهم من الذرة والحبوب والأسماك، وإلى جانب تجارة العاج والعيبد والقماش وزيت النخيل، كانوا يصنعون المنجل الحديدي والأجراس الصغيرة والسكاكين ذات الحواف الطويلة والمعاول. عن Burton,

the Lake Regions of Central Africa, v2, p62-74

(٢) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p47-50,62.

(٣) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p34-38.

جمالاً من النظرة الأولى لبحيرة تنجانيقا التي تقع في حوض الجبال، وتستلقي تحت أشعة الشمس الاستوائية المدهشة خلف مقدمة قصيرة من التلال الوعرة شديدة الانحدار وتمتد باتساع يتراوح بين ثلاثين إلى خمسة وثلاثين ميلاً^(١). ونزلوا على شاطئ البحيرة في أوكرانجا، واستأجروا قارباً نقلهم إلى قرية كاويلي (Kawele) في أوجيجي التي وصلوها في ١٤ شباط، وأقاموا في كوخ قديم لأحد التجار العرب، وبذلك وصلت البعثة إلى هدفها بعد رحلة طويلة قطعوا خلالها مسافة ٩٥٥ ميلاً من الساحل، وكان عدد أيام السير الفعلية عدا التوقفات ١٠٠ يوم مما يعطي معدل ٢،٢٧ ميلاً في الساعة، وكان الوقت الإجمالي للرحلة سبعة أشهر ونصف من ٢٧ حزيران عام ١٨٥٧ إلى ١٤ شباط عام ١٨٥٨^(١).

و- استكشاف بحيرة تنجانيقا "بحر أوجيجي": (ملحق ١٠)

عانى بيرتون وسبيك في قرية كاويلي من سوء الأحوال الجوية، ومن المناخ الرطب البارد لمنطقة البحيرة، كما عانى بيرتون من المرض أسبوعين، وشكى سبيك من التهاب في العين، وعانى معظم مرافقيهم من البلوش من الحمى، ورغم إصلاحهم للكوخ الذي استقروا فيه، إلا أن سقفه لم يقاوم الأمطار الغزيرة التي راحت تتسرب مثل المصفاة، وغطت الأرضية بركة من الماء، وبسبب الرطوبة الشديدة تلفت كل الكتب، وفقدوا مجموعتهم النباتية التي كانت أكثر ما أسفوا عليه؛ لأن عودتهم إلى الساحل حدثت خلال موسم الجفاف، فضلاً عن ذلك عانوا من تسلط كانينا (Kannena)؛ رئيس كاويلي المندرج تحت سلطة روسيمبا (Rusimba) رئيس أوجيجي الرئيسي الذي ألزمهم دفع مبالغ باهظة تعويضاً له عن عدم قيامهم بالمبادلات التجارية، ورغم دفع التعويضات إلا أن كانينا برهن على سوء نيته بطرق مختلفة، ولم يتوانى شعبه في إظهار الجانب المظلم من شخصيتهم^(٢).

وكان من ضمن أولويات بيرتون وسبيك بعد وصولهم البحيرة أن سعوا للحصول على قوارب للطواف في بحيرة تنجانيقا، واستكشاف الطرف الشمالي منها، ولاسيما بعد أن علموا من عدة مخبرين محليين عن نهركبير يصدر من البحيرة ويتدفق شمالاً؛ لذلك قام سبيك برحلة بحرية إلى جزيرة كاسينجي الواقعة على الطرف الغربي من البحيرة لاستئجار المركب الوحيد الذي كان موجوداً آنذاك من تاجر عربي يدعى حميد بن سليم، ولكن بعد غياب سبعة وعشرين يوماً عاد سبيك في ٢٩ آذار معلناً فشل المهمة بعد أن وعده ابن سليم بأنه سيقدم لهم المركب بعد ثلاثة أشهر مقابل مبلغ ٥٠٠ دولار. ومع انتهاء موسم الأمطار وبدء موسم الملاحة توفرت لهم فرصة أخرى لاستكشاف البحيرة، إذ علم بيرتون أن كانينا كان يستعد لرحلة بحرية شمالاً فسارع إلى

(١) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p40-55.

(٢) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p80-86.

استدعائه والتفاوض معه لنقله إلى الطرف الشمالي من البحيرة ووافق على جميع مطالبه، ووعده بمكافأة كبيرة إذا تصرف وفق كلمته، وتكفل بكامل تكاليف الرحلة من أجرة القوارب وطاقمها، وتقرر أن يبحروا على متن زورقين مع طاقم مؤلف من خمسة وخمسين رجلاً، ثلاثة وثلاثين على الزورق الكبير، واثنين وعشرين على الصغير، وسمح لبيرتون وسبيك بأخذ خمسة من رجالهم كمرافقة، وتم تجهيز المؤن والتبغ والطحين والحبوب والخضراوات، وتم إصلاح الخيمة استعداداً للرحلة^(١)، وفي وقت مبكر من ١٠ نيسان شرعوا على متن الزوارق نحو جزيرة بانغوي (Bangwe) التي تقف فيها القوارب عادة بضعة أيام لاستكمال حصص الإعاشة، وتوديع الأصدقاء والأقارب، وأبحروا منها يوم ١٢ نيسان مباشرة إلى الشمال على طول الشاطئ الشرقي للبحيرة، وتوقفوا في كيغاري (Kigari) للراحة والحصول على المؤن، وتجولوا عدة ساعات بين كيغاري وقرية أخرى تدعى نياسانغا (Nyasanga) بحثاً عن المؤن، ولكن لم يتم عرض الحبوب أو الخضراوات للبيع في هذه المنطقة الحدودية بين أوغيجي وأوروندي (Urundi)^(٢).

وواصلوا رحلتهم في ١٤ نيسان إلى وفانيا (Wafanya) التي يحكمها كانوني (Kanoni) الذي يخضع لموزي (Mwezi) سلطان أوروندي^(٣)؛ وهي قرية من الواجيجي مختلطة مع واروندي (Warundi) توقفوا فيها يومين للتزود بالمؤن، وتابعوا في ١٩ نيسان إبحارهم غرباً نحو جزيرة أوبواري التي ظهرت مقابل أوروندي مباشرة على مسافة من ثمانية عشر إلى عشرين ميلاً؛ وهي عبارة عن كتلة صخرية طويلة وضيقة طولها حوالي عشرين إلى خمسة وعشرون ميلاً، وعرضها أربعة أو خمسة أميال غنية وغزيرة بالنباتات ومزروعة بعناية، توقفوا فيها للطعام ومن ثم أبحروا على طول ساحلها الغربي باتجاه الشمال إلى مزيمو (Mzimu) التي توقفوا فيها يوماً واحداً، ثم تابعوا التقدم نحو متووا (Mtuwwa) وهو خليج صغير على شاطئ الجزيرة الغربي

(١) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p86-94.

(٢) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p98-101.

(٣) - مملكة أوروندي: تقع إلى الشمال من أوغيجي، وتمتلك واجهة بحرية بطول حوالي خمسين ميلاً، وهي بلد فائق الخصوبة يضم مجموعة من التلال العالية التي ترتفع من البحيرة باتجاه الشمال الشرقي، وتبلغ ذروتها في الكتلة الاستوائية من المرتفعات التي شكلت تحت اسم كاراجوه، الامتداد الغربي لجبال القمر، ويقع المقر الرئيسي للسلطان موزي (Mwezi)، بالقرب من مدخل مجرى كيتانغوري (Kitangure) أو نهر كاراجوه، وتختلف أوروندي عن مناطق البحيرة بشكل عام في كونها دولة ملكية، محكومة محلياً من قبل رؤساء ثانويين، ينقلون الجمارك والتحصيلات إلى السيد الأعلى، ويقال أن السلطان يمكن أن يجمع في وقت قصير مجموعة كبيرة من المحاربين الذين يشكلون رعباً للقبائل المجاورة، وشعب أوروندي ذو لون بشرية متدرج بين الأصفر والبني الغامق، ويحمل مظهر عرق رجولي حربي، ويتكون لباسهم من قماش اللحاء، وأسلحتهم من الرماح الثقيلة والسيوف والسهام القوية، وجليهم من الخرز، والأسلاك النحاسية. عن Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p144-146.

توقفوا فيه يوم ٢٢ نيسان حتى دفعوا ضريبة السلطان كيزسا (Kisesa)، وغادروا في اليوم التالي باتجاه الشاطئ المقابل أو الغربي للبحيرة، ونزلوا في مورفومبا (Murivumba) التي تنتمي إلى وابيمبي (Wabembe) الذين تم وصفهم في "خريطة بعثة ممباسة" بأكلي لحوم البشر^(١).

وغادروا مورفومبا في ٢٤ نيسان باتجاه الشمال على طول الشاطئ الغربي للبحيرة حتى هبطوا على الحدود الجنوبية لأوفيرا (Uvira) في مكان يدعى نغوفي (Ngovi)، ودفعتهم مسيرة طويلة أخرى إلى مويكامبا (muikamba) قرية صغيرة في أوفيرا، وهناك تجمعت حشود السكان على الشاطئ لرؤية التجار الجدد، وزار كانينا سلطان ماروتا (Maruta) الذي يملك قرية على ارتفاع مجاور ودعاهم إلى مستوطنته لكن بيرتون وسبيك فضلا التخييم على الساحل والاستعداد لآخر عمل وهو استكشاف رأس البحيرة، وفي ٢٨ نيسان تلقى بيرتون زيارة من أبناء السلطان ماروتا الثلاثة، وخاضوا في موضوع النهر الغامض الصادر من البحيرة مباشرة، وأعلنوا جميعاً أنهم قد زاروه لكنهم أكدوا بالإجماع أن نهروسيزي (Rusizi) يدخل إلى بحيرة تنجانيقا ولا يتدفق منها الأمر الذي جعل بيرتون يشعر بخيبة الأمل، ومع ذلك بقي مصمماً على الوصول إلى الحدود القصوى للبحيرة شمالاً، ولكن رفض كانينا الوفاء بوعده معللاً برفض طاقمه المخاطرة بحياتهم حال دون ذلك، وتمت عرقلة الرحلة على بعد مرحلة واحدة من نهايتها، وبعد إقامة تسعة أيام في أوفيرا عادوا أدراجهم في ٦ أيار عبر المراحل نفسها التي سبق ذكرها، ونزلوا في ١٣ أيار في كاويلي في أوجيجي بعد أن أمضوا ما يزيد عن شهر من ١٠ نيسان إلى ١٣ أيار عام ١٨٥٨ في هذه الرحلة من ضمنها تسعة أيام إقامة في أوفيرا وتسعة في طريق العودة^(٢).

ز- العودة إلى أونيانيمبي واستكشاف سبيك لبحيرة أوكيروبي: (ملحق ١١)

بعد قيام بيرتون وسبيك بالطواف في بحيرة تنجانيقا لم يعد هناك أي سبب لبقائهم في تلك الأنحاء؛ لذلك بدأوا بالتحضير لرحلة العودة إلى أونيانيمبي، ولكن مخازنهم قد انخفضت بشكل رهيب، ولم يصلهم أي رد من ثاني بن عمروكيل أعمالهم في كازه، وكانوا مطالبين بإطعام خمسة وسبعين من الأفواه، وإشراك حمالين جدد للرحلة، ودفع رسم الدخول للعديد من السلاطين، وتحمل نفقات كبيرة على طريق العودة إلى أونيانيمبي، ولحسن حظهم وصلت في ٢٢ أيار قافلة بقيادة تاجر عربي جلبت لهم الإمدادات، ومجموعة من الرسائل من أوروبا والهند وزنجبار، كما أرسل لهم ثاني بن عمرو يخبرهم أنه احتفظ بجميع الحزم التي لم يجد لها حمالين، وإن الإمدادات الثانية المكونة من ٤٠٠ دولار من القماش والخرز التي كان قد طلبها بيرتون من قبل كان متوقعاً أن تصل قريباً، وبناء على ذلك قاموا بالاستعدادات اللازمة لمغادرة أوجيجي، وحددوا

(١) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p106-114.

(٢) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p115-127.

يوم ٢٦ أيار ١٨٥٨ لمغادرتهم، وبالفعل انطلقت القافلة في اليوم المحدد، وكان هناك القليل من التجديد في مسيرة العودة إلى أونيانيمبي، إذ اتخذوا الطريق الشمالي بمحاذاة الحواف السفلية للجبال التي تشكل منطقة أوها، وفي ٥ حزيران وصلوا إلى معبر نهر مالاجارازي، ومن ثم قادتهم مسيرة من اثني عشر يوماً إلى أونيانيمبي، ودخلوا كازه مرة أخرى في ٢٠ حزيران واستقبلهم ثاني بن عمر بكرم الضيافة المعتاد، وقادهم إلى المسكن القديم، وهكذا تم تحقيق عودتهم إلى أونيانيمبي في ستة وعشرين يوماً عبر مسافة تقارب ٢٦٥ ميلاً^(١).

وخلال الأسبوع الأول الذي تلى المسيرة دفع جميع أعضاء البعثة العقوبة التي لا مفر منها لمسيرة منهكة عبر بلد محفوف بالمخاطر، ولكن تحت تأثير الأدوية والمنشطات تقدموا بسرعة نحو النقاهة. وكان التجار العرب آنذاك يستعدون للعودة إلى الساحل من أجل موسم التجارة الهندي الذي يتضمن في زنجبار أشهر كانون الثاني وكانون الأول وشباط، وفكر بيرتون بالعودة برفقتهم، لكن أسباباً عدة أبقتهم في كازه؛ إذ كان هناك حاجة لبعض الوقت للقيام بالأعمال التحضيرية لمسيرة طويلة، ولم يكن بيرتون قد تخلص من مشروع العودة إلى الساحل عبر كلوا، إضافة إلى ذلك كان يرغب بجمع مزيد من التفاصيل المتعلقة بالبلدان الواقعة إلى الشمال والجنوب من الخط الذي اجتازته البعثة. ولما كان التجار العرب قد شرحوا لهم خلال توقفهم الأول في كازه عن اكتشافهم لبحر كبير يقع على مسافة ستة عشر مسيرة إلى الشمال، وأكدوا تفوقها في الحجم على بحيرة تنجانيقا التي من خلال أوصافهم قام سبيك برسم خريطة للبحيرة أرسلها إلى الجمعية الجغرافية الملكية، وجدوا أنه من الضروري التحقق من هذا البحر، والتأكد مما إذا كان العرب قد بالغوا في تقدير أبعاده، وبناء على ذلك تقرر أن يقوم سبيك الذي كان قد استعاد قوته بهذه المهمة ترافقه قافلة مكونة من دليل وعشرين حملاً وعشرة من الحرس البلوش وبومباي وغايتانو^(٢).

وغادرت القافلة كازه في ١٠ تموز باتجاه الشمال عبر سهول أونيانيمبي مروراً بمناطق أوليكامبوري (Ulekampuri)، وأونيامبيوا (Unyambewa) التي تحكمها سلطنة تدعى أونوغو (Ungugu)، وهي أول أنثى رأوها في هذا المنصب، وبعد قضاء يوم في ضيافتها غادروا في ١٥ تموز عبر مناطق إيباندا (Ibanda)، وأوكامبا (Ukamba)، وأوكوني (Ukuni)، ومغوغوا (Mgogua)، وسيناغونغو (Senagongo)، وكاهاما (Kahama)، ونيندو (Nindo)، وأوريمبا (Urima)، وأوكومبي (Ukumbi)، وإيزاميرو (Isamiro)، وصعدوا في ٣ آب تلة طويلة مائلة تدريجياً أطلق عليها سبيك اسم سومرست (Somerset) وعند الوصول إلى قممها تفاجئ سبيك بمياه بحيرة أوكيروني نيانزا

(١) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p155-167.

(٢) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p167-173.

الشاسعة تبرز أمام ناظريه وأذهله اتساعها، وأطلق عليها اسم بحيرة فكتوريا تكريماً لملكة إنجلترا^(١)، وقال عند وقوفه عليها^(٢): "لم يعد لدي أي شك في أن البحيرة عند قدمي قد أنجبت النهر المثير للاهتمام الذي كان منبعه موضوعاً لكثير من التكهنات، وهدف الكثير من المستكشفين. لقد ثبتت صحة حكاية العرب فهذه بحيرة أوسع بكثير من تنجانيقا، وقد كان من دواعي سروري أن أدرك الآن أن الخريطة التي قمت برسمها بناء على شهادة عربية، وأرسلتها إلى الجمعية الجغرافية الملكية قبل مغادرتنا أوغندا، كانت صحيحة إلى حد كبير لدرجة أنه لم يكن لدي أي شيء لتغييره في خطوطها العامة".

وبعد نزول التل تابعوا طريقهم على طول ساحل البحيرة، ودخلوا في البداية إلى قصر السلطان موهايا (Mahaya)، ومن ثم غادروا بسرعة نتيجة لتحذيرات العرب السابقة بشأنه، وتابعوا قدماً إلى حيث قيل أن تاجراً عربياً كان يعيش بالفعل، وشرعوا على طول شاطئ البحيرة في اتجاه شرقي حتى وصلوا إلى العربي المدعو منصور بن سالم الذي عاملهم بلطف، وقدم لهم مساعدة كبيرة، وأبلغهم أن التقارير الشريفة التي انتشرت في أوغندا حول السلطان موهايا لا أساس لها وعلى العكس من ذلك وجده شخصاً ممتازاً جداً وكريماً. وبذلك بلغوا نهاية رحلتهم بعد أن قطعوا مسافة إجمالية قدرها ٢٢٦ ميلاً من كازه استغرقت خمسة وعشرين يوماً، وتجول سبيك برفقة منصور بين سالم على طول شاطئ البحيرة، وسعى إلى جمع كافة المعلومات المتوفرة عن البحيرة وتحديد أبعادها، وعندما استفسر من أحد المحليين عن طول البحيرة "واجه الرجل الشمال وبدأ بالإيماء برأسه إليه، إشارة إلى شيء غير قابل للقياس وأضاف أنه لا أحد يعرف، لكنه يعتقد أنها ربما تمتد إلى نهاية العالم"^(٣).

وكان سبيك يرغب بزيارة جزيرة أوكيروي لجمع مزيد من المعلومات عن البحيرة، لكن كل من السلطان موهايا ومنصور حاولا ثنيه عن رغبته تلك نتيجة ظروف العداء بين الطرفين، ولأن سلطانها ماتشوندا (Machunda) سبق له أن سلب ممتلكات منصور بن سالم، كما أن الأمر سيتطلب منه وقتاً طويلاً؛ إذ كان عليه أن يرسل أولاً إلى ماتشوندا لطلب الإذن بالهبوط، ومن ثم سيعمل على جمع الرجال والقوارب؛ لذلك عدل سبيك عن نيته لكون مخازنه قاربت على النفاد، وبما أنه لم يعد بإمكانه الحصول على مزيد من المعلومات قام بوداع السلطان موهايا والشيخ منصور في يوم ٦ آب، وعاد أدراجه عبر المناطق نفسها التي مر بها، ووصل إلى كازه في ٢٥ آب، وبلغ إجمالي المسافة التي قطعها سبيك بين الطرقات ذهاباً وإياباً نحو ٤٥٢ ميلاً، بمعدل

(١) - Speke, what led to the discovery of the source of the Nile, p260-306.

(٢) - Speke, what led to the discovery of the source of the Nile, p307-308.

(٣) - Speke, what led to the discovery of the source of the Nile, p309-312.

مسيريزيد على ١٠ ميل يومياً، وفي كازه أبلغ سبيك بيرتون على الفور عن اكتشافه لمصدر النيل الذي اعترض عليه بيرتون بطبيعة الحال حتى بعد سماع كل التفاصيل؛ لأن أسبابه كانت ضعيفة ولم يتم استكشاف البحيرة بشكل كامل^(١)، ومن ثم أدى اختلاف الرأي إلى حدوث تنافر بين الرفيقين، وأصبح من الواضح أنه لا يمكن قول كلمة واحدة في موضوع البحيرة أو النيل بشكل عام دون أي مخالفة لذلك تم تجنب الموضوع مؤقتاً^(٢).

ح- مسيرة العودة إلى الساحل:

بعد عودة سبيك من رحلته شمالاً تقرر مسألة عودة البعثة إلى الساحل عبر المسار نفسه الذي جاؤوا من خلاله، ومع حالة مواردهم المالية الجيدة، إلا أن الوقت منهم من القيام بمزيد من الاستكشافات؛ إذ كان موسم الأمطار على الأبواب مما سيجعل السفر مستحيلاً، وكانت إجازة غيابهم عامين قد اقتربت من نهايتها، ولم يبق بالطبع سوى العودة إلى الساحل، لكنهم لم يتخلوا عن الأمل في جعل عودتهم مفيدة للجغرافيا من خلال تتبع مسار نهر واحة أوروبيجي، وزيارة الساحل بين جبال أوزاجارا وكيلوا. وبناء على ذلك بدأت التحضيرات لمسيرة العودة إلى الساحل من شراء للمؤن وتصريف للمخازن الفائضة، وتجنيد للحمالين، وفي ٢٥ أيلول ١٨٥٨ كانت التحضيرات قد اكتملت تقريباً، وأشرف مضيفهم ثاني بن عمر شخصياً على رحيلهم، وبعد تصفية جميع الحسابات معه أثنى عليه بيرتون، ووعد بتقديم تقرير إلى السيد ماجد عن الاستقبال المضيف من رعاياه العرب عموماً^(٣).

وبدأوا مسيرة العودة عبر قرية هانجا (Hanga) التي تقع على الحدود الشرقية لمنطقة أونيانيمني، وتوقفوا فيها حتى ١٣ تشرين الأول بسبب مرض سبيك الذي بدأ كما لو كان يعاني من الملاريا، واحتلت المسيرات السبعة القصيرة التالية بين هانجا وتورا خمسة عشر يوماً ووصلوها في ٢٨ تشرين الأول وتوقفوا فيها ستة أيام لتوفير الطعام لمسيرة أسبوع عبر الحقل الناري الذي عبرته القافلة في ١٢ تشرين الثاني، ومن ثم استأنفوا الطريق عبر أوغوغو التي شغلت ثلاثة أسابيع من ١٤ تشرين الثاني إلى ٥ كانون الأول، وبدأوا في ٧ كانون الأول بعبور جبال أوزاجارا، ودخلوا زونغوميرا في خوتو في ٢٩ كانون الأول، وفيها فتح بيرتون موضوع المسيرة إلى كلوا مع الدليل والحمالين الذين رفضوا مغادرة الطريق المباشر، ومع إصرار بيرتون تخلى الحمالون عن الرحلة، وعادوا أدراجهم وتسبب ذلك في اعتقالهم حتى ٢٠ كانون الثاني عام ١٨٥٩ حتى استطاعوا الحصول على حمالين جدد من القوافل العابرة، وغادروا زونغوميرا في

(١) - Speke, what led to the discovery of the source of the Nile, p313, 326,371.

(٢) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p209.

(٣) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p-227-231.

٢١ كانون الثاني نحو كوندوشي (Kondduchi) في المنطقة البحرية التي وصلوها في ٣ شباط، واحتجزوا في كوندوشي حتى ١٠ شباط، وفي اليوم التالي وصلوا إلى الساحل، ومن ثم قاموا برحلة بحرية على طول الساحل الجنوبي عادوا بعدها إلى زنجبار في ٤ آذار عام ١٨٥٩، وهناك قاموا بتصفية جميع حساباتهم، وغادروا منها إلى عدن، ومن ثم إلى وطنهم الأم إنجلترا^(١).

٤- نتائج الرحلة:

دامت رحلة بيرتون وسبيك في شرقي إفريقيا قرابة السنتين من ٢٧ حزيران عام ١٨٥٧ وحتى ٤ آذار عام ١٨٥٩، وقطعوا خلالها ما يقارب ألفي ميل ذهاباً وإياباً، وحققت العديد من النتائج المهمة نوردها على النحو الآتي:

- كانت رحلة بيرتون وسبيك أولى الرحلات الأوروبية التي اخترقت شرقي إفريقيا، ووصلت إلى بحيرة تنجانيقا، وتمكنت من الإبحار في البحيرة وسبرها والوصول إلى مقربة من حدها الشمالي، وعلموا من المخبرين المحليين أن نهروسيزي يصب في البحيرة من جهتها الشمالية الغربية ولا يخرج منها بعد أن كان موضع شكك في كونه نهر النيل، ومع ذلك بقي بيرتون متمسكاً برأيه بأن بحيرة تنجانيقا هي منبع النيل وأن نهروسيزي ما هو إلا نهر النيل ذاته.

- بينت الرحلة الخطأ الذي ارتكبه ريمان وإرهاردت في جمعهم البحيرات الثلاث أوكيروي وأوجيجي ونياسا في بحيرة واحدة كبيرة، وذلك بالاعتماد على المعلومات التي وصلتهم من التجار العرب ولاسيما ثاني بن عمر، ومن تحققهم من بحيرة تنجانيقا وأوكيروي بشكل خاص.

- تمكن سبيك من الوصول إلى بحيرة أوكيروي في رحلة قاربت الأربعين يوماً قطع خلالها ذهاباً وإياباً نحو ٤٥٢ ميلاً، واستنتج من وقوفه عليها واتساع حجمها وعدم معرفة أبعادها الشمالية، أنها مصدر نهر النيل الذي كان موضوعاً محيراً لكل العلماء على مر العصور.

- قدمت البعثة وصفاً جغرافياً وإثنوجرافياً كاملاً لكل المناطق التي مرت عبرها، وأوردت بعض المعلومات المتعلقة بنظم حكم القبائل وتسلسل إداراتها وعاداتها وتقاليدها ولباسها وزينتها ومعتقداتها وأسلحتها وتنقلاتها، فكانت بذلك مصدراً حياً ومهماً لتاريخ المنطقة في تلك الحقبة.

- أكدت الرحلة وبشهادة أصحابها على الدور البارز الذي أداه العرب في تزويدهم بالمعلومات الجغرافية والإثنوجرافية، فضلاً عن الاستقبال الرائع وكرم الضيافة، وتزويدهم بالحاجيات الضرورية التي سهلت ويسرت لهم متابعة رحلاتهم.

- تضمنت الرحلة معلومات مفصلة عن طبيعة الغطاء النباتي في كل منطقة مروا خلالها وشرحاً موسعاً عن الأشجار التي تنمو فيها والمزروعات التي تشتهر بها، فضلاً عن الحيوانات

^(١) - Burton, the Lake Regions of Central Africa, v2, p-240-377.

والطيور التي تعيش فيها.

- جمع بيرتون وسبيك كمّاً كبيراً من المعلومات عن ممالك وبلدان شرقي إفريقيا في تلك الآونة من التجار العرب والهنود الذين أمضوا نزراً يسيراً من حياتهم في التنقل فيها، ولاسيّما عن ممالك بوجندا وأونيورو وكاراجوي، وقدموا بذلك خدمة جليلة للمعرفة التاريخية.

- كرس بيرتون الكثير من وقت فراغه لجمع عينات من اللهجات المتعددة في شرق إفريقيا، وتعلم اللغة السواحيلية، وهي اللغة العامية في الشرق الإفريقي والأكثر فائدة وشهرة، وكانت العقبة الرئيسية أمامه هي عائق الحاجة للمعلمين والكتب، فالسواحيلية ليست لغة مكتوبة، وكان أفضل معلم له فيها ثاني بن عمر، وبمساعدة أبناء رامي والعبيد الآخرين جمع حوالي ١٥٠٠ كلمة من اللهجات الرئيسية الثلاثة على هذا الخط من الطريق؛ أي السواحيلية، وكيزارامو التي تضم كيخوتو، وكينيا مويزي.

- مهدت هذه الرحلة بشكل مباشر لرحلة سبيك التالية لاستكشاف بحيرة أوكتويو/ فكتوريا للتأكد مما إذا كانت منبع نهر النيل أم لا بعد اعتراض بيرتون ونفيه لكونها المنبع الرئيس لنهر النيل لأنها لم تخضع بعد للفحص والتقصي الدقيق.

ثالثاً- رحلة جون سبيك وجيمس جرانت ١٨٦٠-١٨٦٣:

١- لمحة عن حياة جون سبيك (John Speke) (١٨٢٧-١٨٦٤):

ولد جون هانينج سبيك أحد أهم مستكشفي القارة الإفريقية في جوردن بالقرب من إيلمسترفي إنجلترا في الرابع من أيار عام ١٨٢٧، والتحق بالجيش الهندي في العام ١٨٤٤، واكتسب سمعة كبيرة سواء كجندي أو رياضي أو عالم طبيعي. وقام خلال فترات إجازاته بالترحال في جبال الهيمالايا، وكذلك في الأنحاء الأخرى من الهند وفي التبت؛ لجمع عينات من الحيوانات في تلك المناطق لتشكيل متحف في بيت والده، لكن انتباهه كان قد تحول في وقت مبكر إلى المشاكل الكبرى في الجغرافية الإفريقية، وبدأ حياته المهنية في إفريقيا من خلال الانضمام إلى الكابتن ريتشارد بيرتون في العام ١٨٥٤ في رحلة استكشافية إلى داخل أرض الصومال ثم سرد حوادثها في كتابه "ما الذي أدى إلى اكتشاف مصدر النيل" (لندن، ١٨٦٤)، ورافق الكابتن بيرتون في رحلة أخرى في العام ١٨٥٦ للتحقق من تقارير وجود بحيرات كبيرة في شرق إفريقيا الوسطى، ووصلوا خلالها إلى بحيرة تنجانيقا في العام ١٨٥٨، وتمكن في طريق العودة من استكشاف بحيرة أوكتويو "فكتوريا" وأعلن على الفور أنها بدون شك مصدر نهر النيل، لكن بيرتون لم يصدق نظرية سبيك الأمر الذي أدى إلى تدهور العلاقات بينهما، وبعد عودتهما إلى زنجبار في أوائل العام ١٨٥٩ سارع سبيك إلى إنجلترا، وأعلن هناك عن اكتشافه واستنتاجاته، ورغم شكوك رفاقه الآخرين وكثير من الجغرافيين فقد حصل على دعم السير

رودريك مورتشيسون رئيس الجمعية الجغرافية الملكية آنذاك، وتم في إطار ذلك تكليفه بحملة جديدة يرافقه فيها الكابتن جيمس جرانت^(١)؛ تهدف صراحة إلى حل مشكلة النيل، وهي الرحلة التي بصدد دراستها والتي نشر سبيك تفاصيلها في كتابه المعنون بـ "يوميات استكشاف منابع النيل" الذي صدر في العام (١٨٦٣) وهو عمل غني بالمعلومات الجغرافية والإثنولوجية والطبيعية، وكتب بأسلوب جذاب وسلس، ولكن بما أن سبيك لم يكن قادراً على متابعة النيل على طول الطريق من فيكتوريا إلى غوندوكرو، وبما أن الدور الذي أدته البحيرة في نظام النيل لم يكن معروفاً بعد، فإن بيرتون وآخرين ظلوا غير مقتنعين، وانتقدت استنتاجات سبيك، وجادل بيرتون في أن تنجانيقا وليست فكتوريا هي مصدر النيل الحقيقي، وتم الاتفاق على أن يلتقي سبيك مع بيرتون في مناظرة علنية في باث في ١٦ أيلول عام ١٨٦٤ لمناقشة مسألة مصدر النيل، لكن سبيك كان قد خرج للصيد قبيل يوم واحد من الاجتماع بالقرب من باث، وعند محاولته اجتياز جدار حجري أنفجر سلاحه، والحق به جرحاً بليغاً توفي على إثره، وأقيمت مسلة من الغرانيت لذكراه في حدائق كنسينغتون^(٢).

٢- التحضيرات الأولية للرحلة:

كانت رحلة سبيك الثالثة إلى إفريقيا تهدف بشكل صريح إلى إثبات حقيقة أن بحيرة فكتوريا نيانزا التي اكتشفها في ٣ آب عام ١٨٥٨ هي مصدر النيل. فبعد عودته إلى إنجلترا من رحلته الثانية أعلن على الفور عن اكتشافه واستنتاجاته، وتلقى دعوة من السير رودريك مورشيزون؛ رئيس الجمعية الجغرافية الملكية آنذاك لإلقاء محاضرة عن جغرافية إفريقيا، وللتأكد من المشاريع التي ينوي القيام بها من أجل تحقيق اكتشافه الجديد، وكذلك المساعدة التي يحتاجها لهذا الغرض، وخلال ذلك عرض سبيك تزويده بـ ٥٠٠٠ جنيه استرليني ليعود إلى

(١) - جيمس جرانت (James Grant) (١٨٢٧-١٨٩٢)، المستكشف الاسكتلندي لإفريقيا الشرقية الاستوائية، ولد في نايرن (Nairn) حيث كان والده كاهن أبرشية في العام ١٨٢٧، وانضم إلى الجيش الهندي في العام ١٨٤٦. رافق سبيك في الرحلة الاستكشافية التي حلت مشكلة منابع النيل، ومع أن سبيك كان قائداً، لكن جرانت أجرى العديد من التحقيقات بشكل مستقل، وقدم مجموعات نباتية قيمة، ونشر في العام ١٨٦٤ كتاباً عن رحلتهم بعنوان "نزهة عبر إفريقيا"، تناول فيه بشكل خاص حياة وعادات السكان المحليين، والقيمة الاقتصادية للبلدان التي تم اجتيازها. خدم جرانت في الحملة الحبشية لعام ١٨٦٨، وتقاعد من الجيش في نهاية الحرب برتبة مقدم. وكان قد تزوج في العام ١٨٦٥، واستقر في نايرن حتى وفاته في العام ١٨٩٢. عن The encyclopedia Britannica, v12, p354.

(٢) - The encyclopedia Britannica, 11 edition, v25, p633. Kingston, great African travelers, p230-249. Johnston, the Nile quest, p125-126.

- رياض، كشف إفريقيا، ص ١٠٤-١٠٦. كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٢٥٨-٢٦٨.

زنجبار في نهاية العام، ويسير إلى كازه مرة أخرى، ويجري التحقيقات اللازمة عن بحيرة فيكتوريا، واقترح أيضاً أن يمضي ثلاث سنوات في البلاد؛ لبحث عن الروافد ويتفقد مستجمعات المياه، ويطوف في البحيرة، ويقوم بجمع مجموعات من العينات لجميع فروع التاريخ الطبيعي غير أن الجمعية الجغرافية اعترضت على مبلغ ٥٠٠٠ جنيه استرليني كونه مبلغاً كبيراً للغاية لتوقعه من الحكومة؛ لذلك قبل سبيك بالنصف قائلاً أنه سيبدل ما في وسعه لتحقيق المهمة مهما كانت التكلفة، وتحت أي ظرف من الظروف. وبناء على ذلك بدأ سبيك استعداداته للرحلة، وتقرر أن يرافقه صديقه ورفيقه في الهند جيمس جرانت في الرحلة، وتلقى سبيك من حكومة بومباي خمسين قطعة نقدية مزودة بأحزمة وسيوف وحراب و ٢٠٠٠٠ طلقة من الذخيرة، والعديد من أدوات المسح، وبعض الهدايا من الساعات الذهبية للعرب الذين ساعدوهم بسخاء في آخر رحلة استكشافية، وفي الوقت نفسه وصل جون بتيرك؛ وهو تاجر عاج كان قد أمضى سنوات عديدة في النيل إلى إنجلترا، وعرض أن يضع قوارب في غوندوكرو، وإرسال مجموعة من الرجال إلى النيل الأبيض لجمع العاج ولمساعدتهم في طريق العودة^(١).

وبعد أن تمت التجهيزات أبحر سبيك وجرانت في ٢٧ نيسان عام ١٨٦٠ من بورتسموث، ووصلا إلى رأس الرجاء الصالح في ٤ تموز حيث استقبلهم السيد جورج غراي (George Grey)^(٢) حاكم المستعمرة الذي كان مستكشفاً قديماً ومهماً بموضوع الاستكشاف؛ لذلك قام بتحفيز برلمان الرأس على تقديم مبلغ ٣٠٠ جنيه استرليني كمساعدة للحملة مع عشرة متطوعين من سلاح قوات الرأس من جنود الهونتوت لمرافقتهم، ووضع أميرال المحطة سفينة بخارية تحت تصرفهم، وأبحروا فيها في ١٦ تموز مروراً بخليج دلجادو، وموزمبيق، وجوانا (Johanna)، ونزلوا على شاطئ جزيرة زنجبار في ١٥ آب^(٣).

(١) – John Hanning Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, New York, harper brothers, publishers, 1864, p 31-34. Brown, the story of Africa and its explorers, v2, p65-66.

(٢) – جورج غراي (١٨١٢-١٨٩٨): مسؤول وإداري استعماري إنجليزي، ولد في لشبونة في العام ١٨١٢. استكشف غربي استراليا بين عامي ١٨٣٧-١٨٣٩، وأصبح حاكماً على جنوب استراليا بين عامي ١٨٤١-١٨٤٥ ثم نيوزيلندا بين عامي ١٨٤٥-١٨٥٣، وبعد أن قضى فترة حكمه كحاكم لمستعمرة الرأس بين عامي ١٨٥٤-١٨٦١ كان له فترة ولاية ثانية كحاكم لنيوزيلندا بين عامي ١٨٦١-١٨٦٧، وعاد لدخول السياسة النيوزيلندية كرئيس للوزراء بين عامي ١٨٧٧-٧٩، توفي في العام ١٨٩٨، ودفن في كاتدرائية القديس بولس. عن Jones, Dictionary of world Biography, p353.

(٣) – Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 34-36.

واستقبلهم في زنجبار القنصل الإنجليزي العقيد ريجبي^(١) (Cristopher Palmer Rigby)، وأعد منزلاً لإقامتهم، وقدمهم للسلطان ماجد الذي استقبلهم بود كعادته، وعرض عليهم مساعدته بكل الوسائل الممكنة، وعلى الفور بدأ سبيك بالتحضير للرحلة من خلال اختبار الأدوات العلمية، وصنع الخيام والسروج، وشراء الإمدادات من الخرز والقماش والأسلاك النحاسية، وجمع الخدم والجمالين، وقام بتعيين الشيخ سعيد بن سالم رئيس القافلة السابق في المنصب نفسه مرة أخرى، وأشرك كل من بومباي وشقيقه مبروكي، وسمح لهم العقيد ريجبي باختيار أي رجل يحتاجونه من طاقم قاربه، ولهذا الغرض اختار بومباي كلاً من بركة، وفريج، وراخان، وجميعهم من البحارة القدامى الذين كانوا يعرفون الهندوستانية، وكلفهم سبيك بجمع أكبر عدد من وانغوانا (الرجال المحررين من العبودية) لتكليفهم بحمل الأحمال وغيرها من الأعمال، كما تم تكليف لادها راجي جامع الجمارك باستئجار مئة حمال لحمل بالات القماش، والخرز، والأسلاك النحاسية إلى كازه، وفي ٢١ أيلول كان كل شيء جاهزاً على الجزيرة فتم إرسال الشيخ سعيد وجميع الرجال والجنود الهوتنتوت إلى جانب البغال والأمتعة في القوارب إلى باجامويو في البر الرئيس، في حين قام كل من العقيد ريجبي مع الكابتن سبيك وجرانت بوداع السلطان الذي قدم لهم حرساً مكوناً من جمدار وخمسة وعشرين جندياً من البلوش لمرافقتهم عبر أوزاراموا، ووضع تحت تصرفهم إحدى سفنه التي أبحروا فيها إلى باجامويو في ٢٥ أيلول، وفي ٣٠ من الشهر نفسه كانت القافلة منظمة ومكونة من الكابتن سبيك وجرانت العضوين الأوروبيين مع خدمهم، وباشي القافلة العربي سعيد بن سالم، و ١٠ جنود هوتنتوت، و ٢٦ من الحراس البلوش، و ٧٥ من العبيد المحررين، وكيرانجوزي، و ١٠٠ حمال زنجي، و ١٢ بغلاً، و ٣ حمير، و ٢٢ رأس ماعز، وبدأت رحلتهم في الداخل الإفريقي في ٢ تشرين الأول عام ١٨٦٠ بعد تسوية جميع حساباتهم^(٢).

^(١) - كريستوفر ريجبي (١٨٢٠-١٨٨٥): دبلوماسي وضابط في الجيش الإنجليزي، ولد في العام ١٨٢٠ في هامبشير (Hampshire)، وبدأ خدمته العسكرية في العام ١٨٣٦ في فوج المشاة الخامس في الهند حتى العام ١٨٥٠ حيث عاد إلى إنجلترا، وأكتسب خلال فترة خدمته فيما وراء البحار معرفة مطلقة بثمانية لغات شرقية وإفريقية. وعين في العام ١٨٥٨ كوكيل لشركة الهند الشرقية وقنصل بريطاني في زنجبار خلفاً للقنصل المتوفى هامرتون، وخلال فترة خدمته في زنجبار قابل ريجبي وساعد العديد من الرحالة، ولاسيما بيرتون وسبيك وجرانت ولفنجستون، لكنه غادر زنجبار في العام ١٨٦١ بسبب المرض وعاد إلى إنجلترا. تقاعد ريجبي من الجيش في العام ١٨٦٧، وكانت وفاته في لندن في العام ١٨٨٥. عن Henry Matthew, Brian Harrison, Oxford dictionary of national biography in association with the British Academy from the earliest times to the year 2000, Oxford University Press, Oxford, 2004, v46, p969-970.

^(٢) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 36-42.

٣- سير الرحلة: (ملحق ١٢)

أ- المسير إلى كازه في أونيامويزي:

بدأت المسيرة يوم ٢ تشرين الأول عام ١٨٦٠ عبر الطريق نفسه الذي اتبعوه في رحلتهم السابقة مارين أولاً عبر بلاد أوزارامو التي تمتد من الساحل وحتى تقاطع نهري كنگاني ومجيتا والتي قطعوها خلال أسبوعين، إذ قاد الكيرانجوزي القافلة مع الحمل على كتفه والعلم في متناول يده يتبعه الحمالون مع الرماح والأقواس والسهم في أيديهم، وحمولاتهم من القماش والخرز والأسلاك النحاسية، وبعدهم جاء وانجوانا حاملين معهم البنادق القصيرة والصناديق والحزم والخيام وأواني طبخ وجميع الممتلكات المتنوعة، ويليهم جنود الهونتوت يسحبون البغال المحملة بصناديق الذخيرة، وأخيراً الشيخ سعيد ومرافقة البلوش، في حين كان المرضى وحيوانات القافلة في الخلفية. وكان من بين أهم القرى والمحطات التي مروا بها في بلاد أوزارامو: قرية بوماني، ونزاسا، وكيزوتو (Kizoto) الصغيرة، وكيرانجا رانغا، وتومبا ايهيرا، وساجيسيرا (Sagesera)، وديجي لا مورا، وانحدروا في يوم ١٦ تشرين الأول من نهر كنگاني عبر أرض متموجة غابية إلى مجرى نهر مجيتا، وبذلك كانت نهاية المسيرة عبر بلاد أوزارامو، وهناك قام سبيك بصرف المرافقة من الجنود البلوش، وأرسل معهم تقريراً مرحلياً عن رحلته مع عينات التاريخ الطبيعي التي قام بجمعها على الطريق للجمعية الجغرافية الملكية^(١).

وكانت المرحلة الثانية عبور جبال أوزاجارا التي تقع بين ملتقى نهري كنجاني ومجيتا شرقاً وبلاد أوغوغو غرباً، وتشكل استمراراً لسلسلة الساحل الشرقي الكبرى، ومع أنه يتم فهمها عموماً تحت اسم أوزاجارا، إلا أن العديد من القبائل الفرعية تطلق أسماءهم الخاصة على أجزاء منها، على سبيل المثال السكان على الأرض التي هم فيها عند سفح التلال تدعى واخوتو (WaKhutu)، وبالتالي فإن بلادهم تدعى خوتو، وتابعوا سيرهم رغم انتشار المرض بين جنود وإصابة الكابتن جرانت بالحصى إلى قرية كيرورو (Kiruru) الصغيرة، وتتبعوا مجرى نهر مغازي (Mgazi) رافد نهر مجيتا حتى وصلوا إلى زنغوميرو في ٢٣ تشرين الأول التي كانت مزروعة بشكل جيد ومزدحمة بالسكان، وتوفر كل احتياجاتهم، لكن تجارة الرقيق قد استنزفتها تقريباً، وحولت حدائقها المزدهرة إلى غابات، وهي محطة أو تقاطع لطريقين يؤديان إلى الداخل: الأول شمالي يمر عبر ممر غوما (Goma)، والآخر جنوبي يمر عبر ممر مبروكي (Mabruki)، ويتجه إلى نهرواحه، وكلاهما يتحدان مرة أخرى في أوغوجي^(٢).

وفي ظل الظروف التي كانت تمر بها البلاد كان هدفهم الأول والأخير التأكد من أن الطريق

(1) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 43-55.

(2) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 56-63.

سيوفر لهم أفضل التسهيلات للمسيرة السريعة قبل تسلق نطاق التلال، ولاسيما أن البلد كله، وخاصة أوغوغو يجتاحها الجفاف والمجاعة، ولتجنب هذا البلد الأخير اختاروا الطريق الجنوبي، إذ كان من المأمول أن يتبعوا مسار نهرواحة من مارورو إلى أوسينغا وأوسانغا، ومن ثم السير عبر أونيانيمي، ومع هذا التصميم اتجهوا بعد إرسال مجموعة ثالثة من العينات إلى الساحل تتكون من حيوانات كبيرة، وطيور، وثعابين، وحشرات، وقواقع، وعدد قليل من عينات الصخور جنوباً نحو قرية كيرينجوي (Kirengue) المهجورة في ٢٧ تشرين الأول، ثم بدأوا بصعود أول قمم أوزاجارا مروراً بقرية مبيغا (Mbuiga)، ومن ثم عبروا ممر بروكي الذي اختتم النطاق الأول من التلال، ونزلوا إلى وادي مكاتا المرتفع، وتوقفوا في قرية كيكوبوجو (Kikobogo) التي التقوا فيها بتاجر عائد من أونياموزي كان قد جاء من أوغوغو وأبلغهم أن المجاعات كانت مستعرة في جميع الأنحاء، وأنه ورجاله كانوا يعيشون على منتجات الغابة، وحذرهم من السير على الخط المباشر، ونصحهم بالتوجه شمالاً للانضمام إلى المسار المؤدي من روموما إلى أوغوجي، وبدلاً من المخاطرة بالفشل قرر سبيك أن يتبع نصيحته فقاموا بمسير إلى قرية موهاندا (Muhanda) ثم شرعوا في المسار العلوي لنهر مويومبو (M'yombo)، ووصلوا في يوم ٨ تشرين الثاني إلى قرية مبيمي (Mbimi) التي تقع على سفح مجموعة من التلال شديدة الانحدار، وتوقفوا فيها ثلاثة أيام لتجهيز المؤن لمسيرة عشرة أيام، وتابعوا في ١٢ تشرين الثاني إلى نهر مدونوي (Mdunhwi) أحد روافد نهر موكوندوكوا، ومروا بقرية مانيونغو (Manyonge)، ونصبوا معسكرهم في ١٥ تشرين الثاني على ضفاف نهرووموما عند سفح السلسلة الغربية لتلال أوزاجارا، وبعد توقف يومين بدأوا بعبور الجزء العلوي من هذه السلسلة من ممر روبهو مهين بذلك اجتياز تلال أوزاجارا، وقادتهم مسيرة يومي ٢١ و ٢٢ تشرين الثاني عبر الأراضي المستوية إلى قرية إينينج أول قرى بلاد أوغوغو^(١).

وكانت المرحلة الثالثة عبور بلاد أوغوغو وبرية مغوندا مخالي التي كانت عبارة عن هضبة من الأرض المتموجة المنحدرة جنوباً إلى نهرواحة، وتحدها من الشمال بعض التلال المنخفضة التي تشغلها قبائل واهومبا، وإلى الغرب تقع برية مغوندا مخالي، في حين تقع أوغوغو تحت جانب من تلال أوزاجارا. وكانت المجاعة قد امتدت إليها أيضاً، والطعام فيه قليل والمياه شحيحة، وفي ظل وجود مثل هذه الضائقة في الغذاء كانت الأبقار والماعز والأغنام والطيور تباع بأسعار مرتفعة، وبعد توقف يومين استأنفوا المسير يوم ٢٦ تشرين الثاني مروراً بقرى كيفكورو (Kifukuro)، وكانييني (Kanyenye)، وأجبروا على التوقف بسبب شدة التعب، وهرب بعض الحمالين ومعهم أفضل جزء من أحمالهم، ولإعادة تجميع الحمولات، وتابعوا في ٢٩ تشرين

(١) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 63-72.

الثاني إلى قصر ماجومبا (Magomba) واضطروا للتوقف ثلاثة أيام حتى تمت تسوية الهونغو (ضريبة المرور)، وتابعوا السير نحو منطقة أوسيكها (Usekhe) المزدحمة بالسكان، ثم إلى خوخو؛ الحي الأخير في أوغوغو يوم ٦ كانون الأول، ودخلوا في ضواحي برية مغوندا مخالي حيث تم التوقف لمدة أسبوع لتسوية ضريبة المرور، وتأمين مؤن الحبوب لثمانية أيام لعبور البرية، ونتيجة لهروب الحمالة المتتابع اضطر سبيك إلى بيع مزيد من الملابس لشراء حصص مزدوجة، وأرسل في الوقت نفسه رجالاً إلى كازه ليطلب من موسى والعرب أن يرسلوا له بعض المؤن والرجال لمقابلتهم في منتصف الطريق^(١).

ورغم كل الصعوبات من سقوط المطر ونقص الرجال إلا أن سبيك أصر على متابعة المسيرة بالتناوب عبر مراحل قصيرة من أربعة أو خمسة أميال في اليوم، وتمكنوا بصعوبة كبيرة من السير حتى جيوا لامكوا، وأمضوا يوم رأس السنة ١ كانون الثاني ١٨٦١ فيها، وفي السابع من الشهر نفسه تلقى سبيك زيارة من الرئيس الهارب مانوا سيرا^(٢) مع ثلاثين من أتباعه المسلحين بالبنادق والذي كان قد دخل في حرب مع العرب منذ فترة قريبة، وعرض على سبيك مساعدته في النقل بشرط أن يأخذه إلى كازه للتوسط بينه وبين العرب؛ لأنهم من خلال تدخلهم غير المبرر في شؤون حكومته نشبت حرب انتهت بهربه وتشرده وتعين آخر مكانه، وأجابه سبيك بأنه سيبدل قصارى جهده لإعادته إلى منصبه، واستعادة التجارة المدمرة في بلاده، لكن بعد العودة إلى مبادئ التجارة الحرة لوالده، وهذا ما جعل مانوا سيرا سعيداً، وأبلغه أنه سيلحق بهم في غضون أيام قليلة حينما ينهي بعض الأعمال^(٣).

واستأنفت القافلة سيرها في ٩ كانون الثاني بعد أن اشتروا اثنين من الحمير، وأشركوا عدداً من الرجال مروراً بقرى غرايسوي (Garaeswi)، وزيمبو (Zimbo) حيث عاد بومباي من كازه في يوم ١٣ كانون الثاني مع سبعين من العبيد، ورسائل من ثاني وموسى قالوا فيها إنهم يأملون إذا ما التقى بـ مانوا سيرا، إما أن يضع رصاصة في رأسه أو يحضره سجيناً؛ لأنه دمر

(١) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 73-90.

(٢) - مانوا سيرا: سلطان تابوره (كازه) استلم الحكم فيها بعد وفاة عمه فوندي كيرا (Fundi Kira) بدعم من محمد بن جمعة (والد تيبوتب) الذي ساندته ضد زعيم إفريقي يدعى ماكسيوا (Mkasiwas)، لكن مانوا سيرا عندما بسط سلطته، وقويت شوكتة قام بفرض ضريبة على القوافل العربية المارة عبر أراضيه، الأمر الذي أغضب التجار العرب، ولاسيما محمد بن جمعة وسليمان بن حمد وسلطان بن علي وثاني بن عمر فاتفقوا فيما بينهم على عزله، وإقامة ماكسيوا محله، وهذا ما تم بعد معركة دامت عدة أشهر خسرها خلالها الطرفان جملة من الرجال، وفر مانوا سيرا مع من بقي من رجاله، ونصب ماكسيوا سلطاناً محله. عن المرجعي، مغامر عماني في أدغال إفريقيا، ص ٣٤-٣٩.

(٣) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 91-94.

التجارة عن طريق قطع القوافل وفرض ضرائب معارضة لمعاهداتهم مع والده فوندي كيرا، وتابعت القافلة سيرها عبر مغونغو ثيمبو (Mgongo Thembo) والتقى فيها سبيك برئيس روبوغا الهارب ماولا (Maula) الذي قدم له بقرة كهدية، وقال إنه سيعطيه أكثر إذا ساعده في تكوين صداقات مع العرب الذين طردوه من بلده، ووضعوا أخيراً ليحكم محله بعد أن التجأ إليه عدوهم مانوا سيرا، ودعاه سبيك للذهاب معه إلى كازه مع وعد بحمايته، لكن الرجل العجوز كان ضعيفاً وغير قادر على السفر بنفسه لذلك أرسل ابنه بدلاً عنه، وتابعت القافلة المسير عبر الغابات حتى دخلوا إلى منطقة تورا في ١٦ كانون الأول، وكانت خالية تقريباً من السكان، وفي حالة من الخراب المؤسفة نتيجة للحرب الدائرة، وتابعوا منها عبر مناطق روبوغا، وكيجو (Kigue) ووصلوا في ٢٣ كانون الثاني إلى كازه في أونيانيمي مركز بلاد أونيامويزي، وكانت خسائهم حتى هذا التاريخ ما يلي: وفاة أحد الجنود الهوتنتوت وإعادة خمسة منهم، جلد واحد وإيقافه، وهرب خمسة وعشرون من العبيد المحررين، وهرب ثمانية وتسعون من حمالي وانيامويزي الأصليين، وموت اثني عشر بغلاً وثلاثة حمير إلى جانب ذلك تمت سرقة أكثر من نصف ممتلكاتهم، في حين كانت نفقات السفر باهظة نتيجة لشدة المجاعة طوال المسيرة التي شغلت ما يقارب ٣ أشهر ونصف من الساحل حتى كازه^(١).

ب- عبور أونيامويزي:

استقبلهم في كازه التاجر الهندي موسى مزوري، وأمن لهم مكان إقامة حتى يتمكنوا من متابعة طريقهم إلى كاراجوي، وأضاف أنه سوف يرافقهم إلى هناك، إذ كان على وشك الذهاب عندما وصلت الدفعة الأولى من ممتلكاتهم؛ لذا أجل سفره حتى وصولهم لمرافقتهم، وكان قد اعتقل في كازه منذ رحلتهم الأخيرة؛ لأن العرب قد أثاروا حرباً ضد مانوا سيرا أدت إلى قطع طرق التجارة، ونشرت الخراب والدمار والمجاعة في جميع الأنحاء، وما إن استقر سبيك في كازه حتى جاء ثاني بن عمرو ومجموع التجار العرب لزيارته، وأعلموه بأن لديهم جيشاً مؤلفاً من أربع مئة من العبيد المسلحين لمطاردة مانوا سيرا، وكانوا بنية الذهاب في طريقهم عندما علموا بوصولهم فانتظروا وصوله احتراماً له، وقدم لهم سبيك الهدايا من الساعات الذهبية لمساعدته له في الرحلة الأخيرة، وحاول ثنيهم عن مسعاهم الحربي ودفعهم للصلح، وأبلغهم عن مقابلته مع مانوا سيرا، لكن نصيحته لم تكن مرغوبة، إذ كانوا عازمين بعد مانوا سيرا على الذهاب إلى أوغوغو لمساعدة سالم بن سيف والتجار الآخرين، وبسبب الحرب الدائرة بين العرب ومانوا سيرا اعتقل سبيك وجرانت في كازه قرابة ثلاثة أشهر ونصف من ٢٤ كانون الثاني وحتى ١٣ أيار من العام ١٨٦١؛ لعدم توفر الحمالة بالقرب من أونيانيمي، لأنهم إما قتلوا أو كانوا مشتركين في الحرب

(١) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 94-97.

الدائرة، وأيضاً بسبب المجاعة المنتشرة في الأنحاء، إضافة إلى مرض موسى مزوري المتكرر وتسويفه وتأخيره للمسيرة، وهجمات قبائل واتوتا (Watuta) على طريق المسير شمالاً التي كانت تثير الرعب في قلوب جميع المسافرين، وحاول سبيك التوسط أكثر من مرة لإنهاء الحرب وإحلال السلام، ولاسيما بعد مقتل ثاني بن عمرو خمسة من التجار العرب الآخرين وعدداً كبيراً من العبيد في الحملة الأخيرة، ولكن كل المفاوضات انتهت بالفشل^(١).

وفي الآخر قرر سبيك ترك سعيد بن سالم الذي كان يعاني من المرض مع الجنود الهوتنتوت المتبقين في كازه، وكلفه بأخذ الرسائل والجنود والعينات التي جمعها إلى الساحل في أقرب وقت، ومن ثم شرع بالمسير شمالاً في ١٤ أيار من دون موسى مزوري الذي اشتد عليه المرض مروراً بـ أونيانيمبوا (Unyambewa)، ومينغا (Misinga)، وبينما مضى جرانت قدماً إلى أوكاني (Ukani) مقابل رونغا مع جميع الرجال بقي سبيك بانتظار جمع حمالين، وفي اليوم التالي انضم إلى جرانت في ميسو (Mbisu)، وفيها حصل سبيك على دليل يدعى أونغورو (Ungurue) كان قد رافق القوافل إلى كاراجوي عدة مرات، ويعرف جميع اللغات بشكل جيد، ولكن لم يحصل على حاجته من الحملالة؛ لذا حاول التقدم بالتناوب مرة أخرى، وأرسل الرجال تحت إشراف جرانت إلى أوكليما (Ukulima) بينما انتقل إلى نوندا (Nunda) لتأمين الرجال، ولحق بجرانت في ٣١ أيار، وشكل مخيماً في فونزا (phunze)، وبعد توقف ثلاثة أيام اتخذ سبيك الترتيبات اللازمة للمضي قدماً، وتقرر أن يترك جرانت مع بومباي في الخلف بينما يتقدم هو مع الدليل وبركة، وبالفعل تقدم في ٧ حزيران إلى أونغورو (Ungurue)، وتاكينا (Takina) في منطقة ماسالا (Msalala)، ثم تقدموا بمسيرة مباشرة إلى ميونغا (M'ynoga) رئيس المنطقة الذي اشتهر بابتزازه، وبعد أن تمت تسوية الضريبة تابعوا المسير عبر مسلك غابي طويل يقطعه وادي نورهونغور (Nurhungure) الذي يعد الحد الفاصل بين بلد القمر ومملكة أوزينزا (Uzinza)^(٢).

ج- عبور أوزنزا وأوسوي:

عبر سبيك حدود بلاد أونيامويزي ودخل أراضي مملكة أوزنزا^(٣) في ١٠ حزيران، وكان

(١) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p100-112.

(٢) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p125-136.

(٣) - كانت أوزينزا فيما سبق مملكة كبيرة، يحكمها ملك يدعى روما (Ruma) من نسل واهوما، وعند وفاته تم التنافس على المملكة من قبل ولديه، روهيندا (Rohinda) وسوارورا (Suwarora)، ولكن بتوسط داغارا (Dagara) ملك كاراجوي تم تقسيم المملكة إلى قسمين: أخذ روهيندا القسم الشرقي من البلاد وعرف باسم أوكانغا (Ukhanga) في حين أخذ سوارورا القسم الغربي من البلاد وعرف باسم أوسوي. عن Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p109.

يحكمها اثنان من مشايخ واهوما (Wahuma) المنحدرين من الدم الأجنبي من الأصل الحبشي، وفي أوزنزا اعتقل سبيك قرابة ثلاثة أشهر ونصف من ١٠ حزيران وحتى ١٩ تشرين الأول بسبب نقص الحمالة وهروبهم المتكرر حتى أنهم اضطروا إلى المسير بالتناوب بأن تركوا قسماً من الملكية في الخلف مع جرانت في حين تقدم سبيك بالقسم الآخر، ومن ثم أعادوا الحمالة لجلب القسم الخلفي، كما اضطر سبيك للعودة إلى كازه أكثر من مرة في محاولة منه لجمع الحمالة والحصول على مترجمين من رجال الساحل لعدم ثقته بأهل البلاد، إضافة إلى هجمات قبائل واتوتا المتجولة التي كانت تثير الرعب والدمار في كل أنحاء أوزنزا، وعرقلت سير القافلة وتسببت في هرب الحمالة، إضافة إلى تعسف رؤساء القرى والمناطق التي مرت القافلة في أراضيهم، وفرضهم الضرائب الباهظة التي استنزفت قسماً كبيراً من مخزونهم من القماش والخرز والأسلاك النحاسية^(١).

وكانت أول قرية مر بها سبيك في أوزنزا هي قرية بوجو (Bogue)، وأرسل منها الرجال الذين وافقوا على الانضمام إليهم ليأخذوا الخدمة مع جرانت، ومن ثم سار عبر قرى روهي (Ruhe)، ومهامبو (Mihambo)، وكاغوي (Kague)، وسورومبو (Sorombo) التي يرأسها ماكاكا (Makaka) صاحب عمليات الابتزاز سيئة السمعة لدرجة أن العرب لم يقتربوا منه أبداً، وعانى منه سبيك كثيراً؛ إذ سلبه ماكاكا قسماً كبيراً من الأقمشة كضريبة لعبور أراضيه، وكانت قبائل واتوتا قد هاجمت القرى المجاورة، ووصلهم في الوقت نفسه تقارير عن المعاملة السيئة للملك سوارورا في أوسوي للمسافرين الأمر الذي تسبب في عرقلة المسير، وهروب الحمالة الذين رفضوا المضي قدماً، واضطر سبيك إلى ترك القافلة مع خادمه بركة والعودة إلى أونيانيمي في محاولة منه لجلب مزيد من الرجال، ووصلها يوم ٢ تموز، وتمكن من الحصول على مرشدين أحدهم اسمه بوي (Bui)، والآخر نسيب (Nasib) كانا يعرفان جميع الرؤساء واللغات حتى أوغندا، ووعداه بأنهما سيذهبان مع بومباي إلى أوسوي، ويجلبون الحمالين بأعداد كافية، ثم قام بشراء بعض الخرز من العرب ليزيد من متجره، وكتب خطاباً إلى العقيد ريجي ليرسل له خمسين رجلاً مسلحاً محملين بالخرز والملابس، ثم غادر مرة أخرى باتجاه الشمال في ٥ تموز، ومر بجرانت في ١١ تموز، ومن ثم تابع المسير حتى وصل إلى المخيم يوم ١٨ تموز، وأبلغه بركة أن الملك لومريزي (Lumeresi) رئيس المقاطعة الذي عاش على بعد عشرة أميال إلى الشرق كان يضغط عليه باستمرار ليتترك المكان ويأتي إلى قصره، وقال أنه لا يريد ممتلكات لكنه لا يستطيع أن يتحمل أن يمر الغرباء دون زيارته، ولم يكن بنية سبيك زيارته بعد ما لاقاه من الرؤساء السابقين، لكن تعنت المرشدين والحمالة ورفضهم المسير دون إرضاء جميع الرؤساء على الطريق خوفاً من

^(١) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 137-138.

تعسفهم في طريق العودة أجبره على تلبية دعوته، ووصل إليه يوم ٢٣ تموز ومع وصوله وقع سبيك طريق الفراش من الحمى لدرجة أنه لم يستطع الوقوف، ومع مرضه كان جل تفكيره كيفية الخروج من يد لومريزي الذي رفض تسوية الضريبة حتى يأخذ أغلى الأقمشة التي في حوزتهم^(١).

وعندما استعاد سبيك صحته وأراد متابعة المسير وجد أن المرشدان بوي ونسيب قد هربا مما تسبب بعرقلة المسير مرة أخرى، وفي ٢٢ آب وصلت مجموعة رجال مرسلين من سوارورا ملك أوسوي الذي علم باحتجاز سبيك، فأرسلهم ليؤكد له أن كل تلك التقارير التي تم تعميمها بشأن إساءة معاملته للقوافل لا أساس لها من الصحة، وأنه يأمل في أن يزوروه في الحال، وحاول سبيك إرسالهم إلى معسكر جرانت لتشجيع الرجال، وإحضار الممتلكات الخاصة به، لكن لومريزي أساء لهم لعدم التحدث معه قبل أن يأتوا إلى سبيك وأمرهم بالخروج من منطقته، وهدد بالقوة إذا لم يمثلوا، وكان ردهم أن غادروا مع وعد بالعودة مرة أخرى حاملين معهم شيئاً من شأنه أن يجعل لومريزي يخضع لهم، وفي ١٦ أيلول تعرضت قافلة جرانت خلال تقدمه للهجوم من قبل رجال السلطان ميونغا، وتم نهب الممتلكات، وهرب الحمالون فيما بقي جرانت وحيداً. وسرعان ما أدرك السلطان الخطأ الذي ارتكبه، وأعاد على الفور الممتلكات المنهوبة أو ما بقي منها، ولم يصل جرانت إلى معسكر سبيك حتى ٢٦ أيلول، وأتم سبيك على الفور الاستعدادات لمتابعة المسير، ووافق لومريزي على منحه أحد ضباطه ويدعى سانجيزو (Sangizo) ليكون دليلاً له^(٢).

وفي الوقت نفسه عاد رجال سوارورا الذين غادروا في ٢٥ آب حاملين معهم صولجان سوارورا، وأبلغوا سبيك أنه قد تلقى دعوة من رئيسهم، وأرسل له صولجانه لكي يحظى بالاحترام أينما ذهب، وبدأ سبيك المسيرة على الفور في ٥ تشرين الأول مروراً بقرى ومناطق بوجو (Bogue)، وأوغومي (Ugombe)، ووانجا (Wanga)، وفي ١٩ تشرين الأول عبروا الحدود إلى مملكة أوسوي وهناك قابلهم نيامانيرا (N'yamanira) ضابط الحدود التابع لسوارورا، وبعد توقف أربعة أيام على حدود أوسوي تابعوا المسير في ٢٤ تشرين الأول عبر أراضي أوسوي، وتعرضوا خلال ذلك للابتزاز من قبل ضباط المناطق التابعين ل سوارورا، إذ أجبروهم على دفع ضرائب باهظة، ووصلوا إلى قصر الملك سوارورا في ٣١ تشرين الأول، وكان آنذاك مشغولاً بجمع جيشه لمعاقبة أحد ضباطه الذي رفض دفع ضرائبه وتجاهل سلطته لذلك لم يوافق على مقابلتهم، (لم يكن يهمه رؤيتهم في الواقع قدر ما كان يهمه تحصيل الضرائب منهم)، وبعد أن تم

(١) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 139-151.

(٢) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 158-172.

تسوية الضريبة، تابع سبيك المسيرة يوم ١٥ تشرين الثاني مروراً بقرى كيتاري (kitare)، وفيهيمي (Vihembe) التي كانت المستوطنة الأخيرة على حدود أوسوي، ودخلوا على إثرها أراضي مملكة كاراجوي^(١).

د- عبور مملكة كاراجوي:

دخل سبيك وجرانت أراضي مملكة كاراجوي^(٢) في ١٧ تشرين الثاني عام ١٨٦١، وبقي فيها ما يقارب الشهر والنصف، وكانت أول منطقة يدخلونها في مملكة كاراجوي تدعى فيغورا (vigura)، وسرعان ما استقبلهم فيها ضابط يدعى كاشوشو (Kachuchu) أرسله الملك رومانيكا (Rumanika) لجلهم إلى قصره في الحال مع أوامر إلى ضباطه بتزويدهم بالمؤن على نفقة الملك؛ لأنه لا يوجد ضرائب يتم جمعها من الغرباء في كاراجوي، وساروا على الفور برفقة كاشوشو في ١٨ تشرين الثاني باتجاه قصر رومانيكا مروراً ببحيرة أوريجي (Urigi) التي كانت متصلة ببحيرة فكتوريا نيانزا من خلال نهر كيتانغولي (Kitangule)، ومن ثم مروا بمناطق خونزي (Khonze)، وكيويرا (kiwera)، وأوثينجا (Uthenga)، ونياموارا (N'yamwara)، وروزوكا (Rozoka)، وكاتوانغا (katawanga)، وعوملوا كضيوف من قبل رؤساء المناطق الذين أطاعوا أوامر ملكهم رومانيكا، وقدموا لهم بمجرد وصولهم المؤن من الأغنام، والطيور، والبطاطا الحلوة مقابل بضعة ياردات من الأقمشة. وفي ٢٥ تشرين الثاني وصلوا إلى قصر الملك رومانيكا الذي استقبلهم مع أخيه ناناجي (Nnanaji) بكل ترحاب، وشعروا بوجودهم أنهم برفقة رجال مختلفين عما كان عليه النظام الشائع لسكان الإقليم الأصليين والمناطق المحيطة بها، إذ لديهم وجوه بيضوية رفيعة، وعيون كبيرة، وأنوف عالية تدل على الدماء الحبشية، وجرت محادثات طويلة بينهم تناولت مواضيع متعددة تخص الجبال والبحيرات والأنهار في المنطقة، وتبع ذلك مناقشة لاهوتية وتاريخية طويلة، كما تناولت وصف العالم، ونسبة الأرض والمياه، وقدم لهم رومانيكا الكثير من المعلومات الجغرافية، وخبرهم بسخاء لاختيار مكان إقامة لهم في قصره أو خارجه، وتم جلب

^(١) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 173-195.

^(٢) - كاراجوي: تقع على الطريق التجاري بين تابوره وبوجندا، وضمت أرستقراطية من باهيما مع طبقة بايرو التابعة لها، ووفقاً للتقاليد كانت كاراجوي في السابق جزءاً من مملكة أكبر من باهيما تدعى ميرو التي ضمت أيضاً الممالك المستقلة في رواندا وبوروندي. وتدخلت كاراجوي في عهد الملك داجارا في أربعينيات القرن التاسع عشر في حرب أهلية في بلد أوزينزا المجاور نتج عنها تقسيم أوزينزا الذي أصبح نصفها الغربي المعروف باسم أوسوي تابع لكاراجوي. وخلف داغارا رومانيكا على العرش في أوائل خمسينيات القرن التاسع عشر، وكان على علاقات ودية مع العرب الذين ساعدوه في قمع التمرد الذي قام ضده في العام ١٨٥٣، وكذلك مع البيض، إذ زار كاراجوي في عهد رومانيكا كل من سبيك وجرانت في العام ١٨٦١، وستانلي في العام ١٨٧٦، وتوفي بعد ذلك بفترة وجيزة، وحكم كاراجوي من بعده سلسلة من الملوك لم تدم طويلاً إذ أصبحت كاراجوي بعد الاتفاقية الإنجليزية الألمانية في العام ١٨٩٠ ضمن مستعمرة شرق إفريقيا الألمانية. عن Peers, Armies of the nineteenth century, p131.

المؤن إلى معسكرهم من قبل ضباط الملك الذين تلقوا أوامر من جميع أنحاء البلاد لإحضار الإمدادات لضيوفه، واستمر هذا النوع من المعاملة مدة شهر كامل^(١).

وحرصاً من سبيك على عدم إضاعة الوقت ورغبته في مواصلة السير باتجاه بوجندا أرسل بومباي على الفور مع العديد من الهدايا من الأقمشة والخرز إلى رومانيكا وأخيه نانا جي كعينة صغيرة من منتجات بلده مع اعتذار وأسف لقلّة العدد كونهما على علم بالسرقة التي تعرض لها في الطريق إليهم، والتمس السماح له بالذهاب إلى بوجندا؛ لأن التأخير يستهلك مدخراته، وسر رومانيكا كثيراً من الهدية، وأرسل ليقول إنها كانت ثمينة جداً ومن أفضل ما رآه على الإطلاق، وأنه نال حقاً شرفاً عظيماً بزيارتهم له، إذ لم يحظ أبوه ولا أي من أجداده بزيارة من الرجال البيض من قبل. أما بشأن المسيرة إلى بوجندا فأخبرهم أنه يجب أولاً إرسال رسول إلى ملك بوجندا لإبلاغه عن نيتهم بزيارته وفقاً لأداب الدولة، فبدون موافقة الملك سيوقف الشعب تقدمهم، وعين رومانيكا ضابطه كاشوشا للذهاب إلى الملك متيسا في أسرع وقت ممكن ليبلغه عن قدومهم، وبكونهم رجال عظماء، جاءوا لرؤية الملوك والبلدان العظيمة، ومع ذلك كان يجب أن ينقضي شهر قبل أن يعود الرسول، وخلال هذا الوقت سمح لهم رومانيكا بالتجول في جميع أنحاء البلاد أينما شاؤوا^(٢).

وخلال الإقامة في كاراجوي أمضى سبيك جل وقته بجمع المعلومات من السكان المحليين عن جغرافية المنطقة، كما قام بالإبحار في البحيرة التي أطلق عليه اسم (Winderemere) ويندرمير الصغيرة^(٣)، وقضى بعض الأيام في صيد فرس النهر ووحيد القرن والخنازير والظباء، فيما كان جرانت يعاني من مرض أصاب قدمه، وجعله عاجزاً عن الحركة مما أثار قلق رومانيكا الذي أخبرهم عن قواعد بوجندا الصارمة، بأنه لا يستطيع أي شخص مريض دخول البلد. وشغل سبيك وقته أيضاً بالمحادثات التي أجراها مع رومانيكا عن تاريخ مملكة كاراجوي، وتفكك مملكة الواهوما في كيتارا^(٤)، وملاحظة أن كاراجوي كانت تضم أوروندي، ورواندا، وكيشكا التي عرفت جميعاً باسم مملكة ميرو (Meru)، وكان يحكمها رجل واحد، ومن ثم تحولت المحادثات

(١) – Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 197-205.

(٢) – Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 208-213.

(٣) – لأنه اعتقد أنها تشبه البحيرة الإنجليزية التي تحمل الاسم ذاته.

(٤) – يذكر سبيك أن منطقة البحيرات في شرق إفريقيا كانت تحكم فيما سبق من قبل مملكة واحدة تدعى كيتارا (Kittara)، أسسها عرق أجنبي من أصل حبشي يدعى واهوما (Wahuma)، ولكنها انقسمت فيما بعد إلى الممالك الحالية، ودليله على ذلك أن ملوك واهوما كانوا يحكمون في الأقاليم التي مرّ عبرها في أوزنزا، وكاراجوي، وأوغندا، وأونيورو، وكانوا مختلفين عن السكان الأصليين للمنطقة وتشابه ملامحهم وصفاتهم الجسمانية مع العنصر الحبشي. عن. Speke, Journal of the Discover of the Source, p241-243.

إلى لندن، والطريقة التي تحرك بها الرجال والعربات في الشوارع، وتم بعد ذلك مناقشة السياسة والحكومة للممتلكات الشاسعة لإنجلترا العظمى، وأبلغ سبيك رومانيكا في معرض ذلك عن رغبته أن يرافقه أحد أبنائه إلى إنجلترا لكي يتلقى تعليمه هناك كي يستطيع عند عودته أن ينقل ما تعلمه، ولا شك في أن توسيع نطاق العمل نفسه من خلال التعليم سيؤدي إلى رفع مكانة بلاده إلى أعلى مما كانت عليه، كما وعده أنه بغضون عامين أو ثلاثة أعوام سيتم فتح طريق التجارة نحو الشمال بناء على استكشافاتهم، وسيحصل على تجارة أكبر مع مصر أكثر مما كانت مع زنجبار، وسيسير كل الرجال البيض الذين سمع عنهم لزيارته بشكل متكرر^(١).

وكان مطلع العام الجديد مبشراً بالنسبة إليهم بالكثير من المعلومات المهمة، إذ علموا أن السيد بيتريك كان بالفعل في طريقه إلى النيل، ويسعى إلى الاجتماع بهم، وذلك عن طريق ضابط رومانيكا الذي تم إرساله قبل أربع سنوات في مهمة إلى كمراسي (kamrasi) ملك أونورو، والذي كان قد عاد للتو مع حشد من أونورو أحضروا العاج لبيعه للعرب، وأبلغوا أن كمراسي لديه زوار أجانب لم يأتوا فعلياً إلى أونورو، لكنهم كانوا في بلد جاني (gani) التابع له، وصعدوا في النيل عن طريق السفن، ولكنهم تعرضوا لهجوم من قبل شعب جاني، وتمت إعادتهم بخسائر كبيرة في الرجال والممتلكات، وأمر كمراسي في المقابل رعاياه بعدم التعرض لهم، والسماح لهم بالقدوم إليه، وعند سماع هذه المعلومات سعى سبيك مع رومانيكا إلى أن يرسل رجالاً إلى أونورو للتأكد من المعلومات، وأخبره أنه إذا ما ساعده على التواصل مع بيتريك، فإن هذا الأخير سيأتي إلى هنا بنفسه، أو سيرسل أحد رجاله حاملاً هدية مناسبة، وبناء على ذلك وافق رومانيكا أن يرسل بعض الرجال إلى كمراسي للتحقق من ذلك، وأرسل معهم سبيك خادمه بركة مع رسالة إلى بيتريك، وزوده ورفاقه بنفقات ستة أشهر، وأرسل معهم هدية لكل من كمراسي ورئيس جاني. وتوالى ورود المعلومات المهمة ففي ٧ كانون الثاني وصلت قافلة قادمة من بوجندا^(٢) يرأسها سواحلي يدعى جمعه أبلغهم بأن الملك قد سمع عن عزمهم على زيارته، فأرسل أحد ضباطه لمرافقتهم؛ ولذلك قام سبيك على الفور بإتمام استعداداته للمسير فأشترى من العرب

(١) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 215-236.

(٢) - مملكة بوجندا: كانت بوجندا أكبر الممالك المركزية التي هيمنت على منطقة البحيرات الإفريقية، وكانت مملكة ذات تنظيم جيد نسبياً مع نظامي اجتماعي ونظام حكم معقد في منطقة بعيدة عن التأثيرات الخارجية. شهدت بوجندا أوج توسعها فيما بين عامي ١٦٠٠-١٨٤٠ غزت خلالها جزر سيسي في بحيرة فكتوريا، وضمت مقاطعة بودو من بونيورو، وتم ضم بوسوجا على الحدود الشرقية للمملكة، وفي الوقت نفسه كانت بونيورو منافس بوجندا الشمالي يتراجع عن موقعه الأسبق في التفوق الإقليمي. تربع كامانيا على عرش مملكة بوجندا في الربع الأول من القرن التاسع عشر وانتصر على البونيورو في أكثر من معركة، وخلفه في الحكم سونا الثاني في العام ١٨٢٥ الذي زاد في توسع المملكة، وغزا ونهب معظم المناطق المجاورة وتوفي في العام ١٨٥٧ بسبب مرض الجدري، وخلفه في الحكم ابنه متيسا. عن Peers, Armies of the nineteenth century, p120-124.

ما يزيد عن ٤٠٠ جنيه استرليني من الخرز لتمكنه من السير إلى غوندوكرو، وفي ١٠ كانون الثاني وصل بالفعل ضابط ملكي يدعى ماولا (Maula) تابع للملك متيسا مع حراسة كبيرة من الرجال والنساء، جاؤوا بناء على طلب الملك متيسا لمرافقتهم إلى بلاده، وكانوا مزودين بأمر من الملك إلى جميع ضباطه يأمرهم بتزويدهم بكل ما يحتاجونه أثناء مرورهم في بلده، وكان أكثر ما يؤرق سبيك حالة جرانت الذي يحتاج لشهر أو شهرين على الأقل للتعافي في حين أن جماعة واجندا (Waganda) لا يمكن أن تنتظر، لذلك قرر ترك جرانت تحت رعاية الملك رومانكا في حين يتقدم مع حشد واجندا على أن يتبعه جرانت عندما تتحسن صحته، وبعد اختتام الاستعدادات ودع سبيك رومانكا الذي عين ضابطه روزارو (Rozaro) لمرافقته أينما ذهب في بوجندا، ويعيده بأمان مرة أخرى، وبدأوا المسير نحو مملكة بوجندا في ١١ كانون الثاني عام ١٨٦٢^(١).

هـ- عبور مملكة بوجندا:

بعد مسيرة استغرقت حوالي الشهر والنصف من مملكة كاراجوي باتجاه الشمال في محاذاة بحيرة فكتوريا نيانزا من جهتها الغربية عبر خلالها سبيك مجرى نهر كيتانغولي (كاجيرا) الذي يصب في بحيرة فكتوريا، وسار عبر بلاد أودو (Uddu) الخاضعة للملك متيسا^(٢)، كما عبر نهر موارانغو (Mwarango) الذي ينبع من بحيرة فكتوريا نيانزا، وتلقى خلالها معاملة حسنة من قبل ضباط المناطق التي مرّ فيها خضوعاً لأمر الملك، وتمّ تزويده بالمؤن دون مقابل، وصل سبيك في الآخر إلى قصر الملك متيسا في ١٨ شباط عام ١٨٦٢، واستقبله الملك متيسا الذي كان شاباً طويل القامة حسن المظهر يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً بحفل استقبال كبير، وقدم له مسكناً قريباً من قصره، وأمدّه بالحاجيات والمؤن من الموز والأبقار والماعز طول فترة إقامته وفق القانون السائد في مملكة بوجندا، وبعد أن قدم سبيك الهدايا للملك من الأقمشة والخرز

^(١) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 235-240

^(٢) - متيسا الأول (١٨٣٨-١٨٨٤): اسمه الأصلي موكايا ولوجيمي (Mukaabya Walugembe) حكم بوجندا بين عامي ١٨٥٧-١٨٨٤ خلفاً لوالده سونا بعد صراع على الوراثة، وأخذ اسم متيسا عندما اعتلى العرش. تعلم اللغة العربية من التجار المسلمين العرب والسواحيلية الذين كانوا يتاجرون مع بوجندا، واعتنق الإسلام جزئياً. وشكل رعباً بالنسبة لشعب باجندا بسبب سياسته القمعية، كما كان لا يتوان في قمع أعدائه، وكانت عمليات الإعدام شائعة في بلاطه. زاره في العام ١٨٦٢ الأوروبيان سبيك وجرانت وتأثر كلاهما بالتطور والثروة في بلاده. وبحلول منتصف ستينيات القرن التاسع عشر أصبح جل بلاطه مسلماً على الرغم من أن الإسلام لم يحقق سوى تقدم حقيقي قليل خارج العاصمة، وفي العام ١٨٦٩ كان هناك تبادل للسفارات بين بوجندا وسلطان زنجبار، ووصلت البضائع التجارية بموجبها إلى بلاط متيسا بكميات أكبر، وارتدى الثوب العربي، ووصل الإسلام في بلاده إلى ذروته في العام ١٨٧٥ عندما أمر متيسا جميع رعاياه باتباع الإسلام. واتسمت سبعينيات القرن التاسع عشر بتزايد تهديد التوسع المصري. وزاره في العام ١٨٧٥ الرحالة ستانلي وأعجب به كما كان سبيك وجرانت، وبعث ستانلي بكلمة إلى إنجلترا مفادها أن متيسا سيرحب بالمبشرين المسيحيين، وجاءت على إثرها موجات المبشرين المسيحيين إلى بوجندا، ومع اهتمام متيسا بالدين عموماً إلا أن اهتمامه الحقيقي كان تأمين موقعه ضد التوسع المصري، إذ وجد التحالف مع الأوروبيين مفيداً بسبب أسلحتهم النارية المتفوقة، واستبدل العلم التركي بآخر إنجليزي أعطاه له ستانلي، ونجح متيسا في الحفاظ على مملكته قوية وسلمية رغم التهديدات الخارجية المتزايدة، وكانت وفاته في العام ١٨٨٤ بعد إصابته بمرض السيلان، وخلفه في حكم بوجندا ابنه موانجا. عن Louise Pirouet,

Historical dictionary of Uganda, The Scarecrow Press, London, 2 E, 1995, p270-271

والأسلاك النحاسية طلب منه على الفور إرسال السفن لجلب رفيقه جرانت الذي بقي في كاراجوي مع بقية الممتلكات، وأيضاً إرسال بعض الرجال إلى الشمال إلى بلاد جاني وكيدي (Kidi) لاستقصاء أخبار بيتريك الذي وعد بأن يستقبلهم في أعالي النيل في طريق عودتهم، لكن الملك ماطل في ذلك، وأجل مناقشة الموضوع أكثر من مرة^(١).

وبقي سبيك في ضيافة الملك متيسا قرابة ٥ أشهر من ١٩ شباط وحتى ٧ تموز من العام ١٨٦٢ أمضاها في الزيارات اليومية لقصر الملك متيسا، والملكة الأرملة زوجة الملك السابق سونا المعروفة باسم نياماسور (N'yamasore)، والخروج لصيد الجاموس وفرس النهر والطيور برفقة الملك، كما رافق الملك برحلة في بحيرة فكتوريا نيانزا. ولم يتمكن سبيك خلال فترة إقامته من دعوة أي شخص سوى الملك نفسه بسبب القوانين الصارمة للبلاد، إذ لم يسمح لأي شخص بزيارته باستثناء الخدم، ولم يكن مسموحاً لأي شخص بالتحدث عن النسب الملكي أو عن أي من البلدان المجاورة تحت وطأة الموت، ولم يسمح لأي شخص ببيع المؤن لهم، وكان هذا الترتيب جزءاً من السياسة الملكية حتى يتمكن الملك من السيطرة على زواره. وكان سبيك خلال هذا الوقت ينتظر وصول جرانت الذي أرسل له الملك متيسا بعض ضباطه مع سفن للإبحار في فكتوريا نيانزا حتى نهر كيتانغولي لإحضاره مع جميع الممتلكات التي تركها في كاراجوي، ولكن لم يصل إلى بوجندا حتى ٢٧ أيار، وكان قد تعرض للخداع من قبل ضباط الملك الذين كانوا يخشون الإبحار في بحيرة فكتوريا لذا جلبوه بمسيرة عن طريق البر ولهذا لم يتمكن من مسح البحيرة^(٢).

كما حاول سبيك مع الملك متيسا لإرسال أحد ضباطه مع رسائل عبر أوسوغا (Usoga) وكيدي إلى بلاد جاني للتواصل مع بيتريك، ولكن الطريق عبر أوسوغا كان مغلقاً، وعاد الرجال دون فائدة، وحاول سبيك مع الملك مرة أخرى كي يرسل الرجال محملين بالهدايا إلى الملك كمرافي في أونورو لاستقصاء أخبار بيتريك هناك، واعترض الملك في البداية على أنهم سيقتلون، ولكنه استسلم في النهاية، وأرسل أحد ضباطه ويدعى بودجا (Budja) برفقة اثنين من رجال سبيك، وعادوا من أونورو بعد غياب شهر يرافقهم أربعة رجال مرسلين من الملك كمرافي، ويرأسهم كيدجويجا (Kidgwiga) محملين باثنين من أنياب العاج كمقابل للهدايا التي أرسلوها. وقال كيدجويجا أن بيتريك ورجاله لم يصلوا إلى أونورو قط لكنهم كانوا في بلاد جاني، وفي إحدى المرات أرسلوا قلادة من الخرز إلى الملك كمرافي، وأعطاهم الملك في المقابل عدداً من النساء والعاج، كما أخبره أن بركة وأولدي اللذين أرسلهما من كاراجوي في ٣٠ كانون الثاني بقيا في قصر كمرافي مدة شهر بانتظار الحصول على طريق إلى جاني، ولأنهم لم يتمكنوا من

(١) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p256-287.

(٢) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 311-322.

الحصول على ذلك تمنوا أن يأتوا إليه في بوجدنا، ولكن تم رفض طلبهم من قبل كمرافي كونهم جاؤوا من كاراجوي فيجب أن يعودوا إلى هناك، وأبلغه كيدجويجا أيضاً أن الملك كمرافي أراد بشدة أن يقوم الرجال البيض في جاني بزيارته، إذ أرسل العاج إلى رئيس ذلك البلد على أمل أنه سيضمن وصولهم لرؤيته، وأنه كان على يقين لو ذهب إلى هناك فإن ملكه سوف يعامله باحترام كبير، على هذا الأساس حاول سبيك مع الملك متيسا كي يسمح لهم بالذهاب إلى أونيوورونزولاً مع نهر النيل لفتح خط تجاري بين إنجلترا وهذا البلد عن طريق النيل، وبعد تردد ومماطلة وافق الملك متيسا أخيراً على منحهم الطريق والإذن بالمغادرة في ٣ تموز، وتم تعيين بودجا لمرافقتهم إلى أونيوورو، وكاسورو (Kasoro) لإعداد القوارب لهم في محطة أورووندوغياني (Urondogani) للذهاب إلى كمرافي عن طريق الماء، وقدم لهم الملك متيسا ٦٠ من الأبقار، و١٤ من الماعز، و١٠ حمولات من الزبدة وحمولة من القهوة والتبغ كمؤن لهم خلال مسيرتهم كما زودهم بمئة قطعة لباس ميوجو (mbugu)، "لحاء الأشجار" لرجال سبيك^(١).

وفي ٧ تموز قاموا بوداع متيسا وبدأوا المسير شمالاً عبر بلد جبلي متناوب مع الأدغال والمزروعات الكثيفة، ووصلوا خلال خمسة أيام إلى محطة كاري (Kari) التي توقفوا فيها عدة أيام لجمع الأبقار التي منحها لهم الملك، وقرر سبيك خلال ذلك أن يقوم جرانت مع بعض رجاله بحمل الأمتعة الثقيلة براً إلى كمرافي؛ لأن من المستحسن أن يتم تحذيره وإعلامه بقدمهم عن طريق الماء خشية أن يشتبه فيهم كجواسيس من قبل ضباطه على النهر أو اعتبارهم أعداء مما قد يثير قتالاً، في حين يتابع سبيك طريقه باتجاه محطة أورووندوغياني، وعبر نهر لواجيري (Luajerri) ذي المجرى الهائل العرض، ووصل إلى أورووندوغياني على حافة النيل في ٢١ تموز، وسرعان ما برزت أمامهم المعوقات؛ إذ كانت القوارب مبعثرة ولا يمكن جمعها إلا بعد يوم أو يومين، وحتى إن كانت في متناول اليد لم يسمح لأي قارب بالذهاب أعلى أو أسفل النهر دون أمر من رئيس المنطقة ساكيوبو (Sakibobo) الذي كان غائباً؛ لذلك عمد سبيك إلى إرسال بومباي وكاسورو إلى الملك للحصول على أوامر جديدة في حين طلب مرشدين لتوجيهه إلى أعلى النهر، وسار على الضفة اليسرى لنهر النيل مروراً بغابات وحدائق غنية، ووصل في ٢٨ تموز إلى المكان الأكثر إثارة للاهتمام في إفريقيا حيث برز نهر النيل من بحيرة فكتوريا، وشاهد الحجارة التي وصفها واجندا بالشلالات، وعمد سبيك إلى رسمها على الفور، وكانت الشلالات بعمق حوالي ١٢ قدماً وعرض من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ قدم، وأطلق عليها سبيك اسم شلالات ريبون (Ripon) نسبة إلى رئيس الجمعية الجغرافية الملكية آنذاك، وأطلق على ذراع المياه التي صدر منه النيل اسم قناة نابليون تقديراً للجمعية الجغرافية الفرنسية التي كرمته ومنحته ميداليته الذهبية لاكتشافه بحيرة فيكتوريا نيانزا، وهكذا أدت الحملة مهمتها وشاهد سبيك مخرج نهر النيل من بحيرة

^(١) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p357-361,380,405-415.

فكتوريا، وكما كان قد تنبأ في العام ١٨٥٨ كانت البحيرة مصدر النهر العظيم، ورغم حزنه لأنه لم يتمكن من مشاهدة القسم الشرقي للبحيرة إلا أنه شعر بالرضى بما تمكّن من إنجازه، لأنه شاهد نصف البحيرة بالكامل، وحصل على معلومات عن النصف الآخر، وبعد توقف يومين عاد سبيك أدراجه إلى محطة أوروندوغاني ووصلها في ٥ آب، ووجد هناك أن بومباي وكاسورو قد تمكّنا من مقابلة الملك، وحصلنا على أوامر جديدة تقضي بتزويدهم بالقوارب المطلوبة على الفور مع أوامر لكاسورو وبودجا بمرافقة سبيك إلى جاني، وفي ١٢ آب كانت القوارب جاهزة للسير عبر نهر النيل باتجاه مملكة أونيوورو^(١).

و- عبور مملكة أونيوورو:

بدأ سبيك المسير باتجاه مملكة أونيوورو^(٢) في ١٣ آب على متن خمسة سفن تحمل اثني عشر شخصاً من رجال سبيك مع كاسورو وأتباعه وطاقم صغير إلى جانب الحبوب واللحوم المجففة، ونزلوا في النهر حتى آخر قرية على الحدود الأوغندية، وكان من الضروري طلب الإذن من ضابط الحدود التابع للملك كمرافي والمدعو نيامونجو (Nyamyonjo) للدخول إلى أونيوورو، ولكن بما أن جرانت كان قد سبقهم إلى أونيوورو كان من المفترض أن يكون قد مهد لهم الطريق، ومع ذلك أرسل سبيك بومباي لطلب الإذن في حين تابعوا بالقوارب، وسرعان ما تم عبور خط الحدود، ولكنهم شاهدوا بعد وقت قصير زورقاً ضخماً مليئاً بالرجال المسلحين يقترب منهم، وتبعته قوارب أخرى محملة بالرجال الذين يهتفون بصرخات الحرب، وهذا دفع سبيك إلى التراجع ونجوا بصعوبة بعد اشتباك مع وانيورو وإطلاق النار على إحدى قواربهم، وبعد عودتهم علم سبيك أن بومباي فشل في مقابلة الضابط المسؤول، وقام بالفرار عند سماع صوت إطلاق النار كما علم أن جرانت قد عاد أيضاً بناء على أوامر الملك كمرافي الذي وصلته استخبارات عن

^(١) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 416-434.

^(٢) - مملكة أونيوورو: تقع في منطقة أعالي النيل شرق بحيرة ألبرت، وكانت هذه المنطقة بمثابة منطقة حدودية بين قبائل جنوب السودان والممالك الأكثر تطوراً في منطقة بحيرات وسط إفريقيا التي كان أهمها بوجندا. وشكلت أونيوورو فيما مضى قلب إمبراطورية كيتارا القديمة التي سيطرت تحت حكم سلالة باخويزي (Bachwezi) وبايتو (Babito) على منطقة بحيرة فيكتوريا بأكملها بين القرنين ١٤-١٧، وانقسم السكان في بونيوورو عموماً بين طبقة زراعية من أصل محلي تدعى بايرو (Bairu)، وطبقة أرستقراطية حاكمة من باهيمبا (Bahima) من رعاة الماشية الذين هاجروا في الأصل من الشمال، وسيطروا على منطقة البحيرات. وكان الانقسام الاجتماعي بين باهيمبا والبايرو في بونيوورو أقل تزمناً مما كان في ممالك الجنوب، ويرجع ذلك بسبب تأثير مجموعة ثالثة تدعى البايتو الذين كانوا على صلة قرابة بقبائل اللو، ووصلوا إلى المنطقة في القرن الخامس عشر، واستولوا على السلطة في بونيوورو، وأسسوا سلالة ملكية جديدة حلت محل سلالة باهيمبا باخويزي، ولكن منذ القرن ١٧ أخذت القوة العسكرية في بونيوورو تتراجع تدريجياً مقابل تصاعد قوة بوجندا، وفقدت بونيوورو العديد من المقاطعات الغنية لصالح جارتها الأكثر اكتظاظاً بالسكان في أواخر القرن الثامن عشر، وأدت الحروب الأهلية التي وقعت في عهد الملك نياموتوكورا الثالث (Nyamutukura III) في عشرينيات القرن التاسع عشر إلى إضعاف جيش بانيورو، وخلفه في الحكم كل من نيابونجو (Nyabongo) الذي توفي في العام ١٨٦٠، ثم الملك كمرافي الذي كان قائماً على عرش بونيوورو عندما وصلها سبيك في العام ١٨٦٤. عن: Peers, Armies of the nineteenth century, p24-28.

كونهم أكلة لحوم البشر، كما خشي من تقدمهم نحو بلاده بطريقين مختلفين، ولكونهم جاؤوا من أوغندا بلد أعدائه. وبعد توقف أيام عدة للتفكير فيما ينوي فعله وصل إلى المخيم كيدجويجا ممثل كمرافي القديم الذي قابله سبيك في قصر متيسا برفقة فيتاجورا (Vittagura) القائد العام لكمرافي ليقول أن ملكهم كان متلهفاً جداً لرؤيتهم، وقال المندوب أن كمرافي قد شكك في البداية بنواياهم، ولكن عندما شاهد انسحابهم من بلاده أزيلت تلك الشكوك لذلك أرسل في طلبهم مرة أخرى^(١).

وبناء على ما تقدم بدأ سبيك وجرانت بالمسير إلى أونورو في ٢١ آب، وعبروا الحدود بوجندا مع أونورو في ٢٣ آب، ودخلوا أونورو مسترشدين بضباط كمرافي، وكانت المسيرة الأولى صورة لكل البلاد إلى عاصمتها في شكل غابة لا تنتهي من الأشجار والأدغال والعشب الطويل مع قرى ذات أكواخ منخفضة، وأشخاص يرتدون الجلود، ويشكل الموز، والبطاطا الحلوة، والسمسم، والذرة عناصر الغذاء الرئيسي، بالإضافة إلى الماعز والطيور في حين أن الأبقار التي تم الإبلاغ عنها أنها عديدة يتم الاحتفاظ بها حيث تكون المراعي جيدة، وتابعوا التقدم في أراضي أونورو، وكما هو الحال في بوجندا تخلى جميع القرويين عن أكواخهم بمجرد سماعهم أن واجيني (Wageni) (الضيوف) قادمون، وعلى الطريق تمرد بعض رجال سبيك ورفضوا متابعة المسيرة، وعادوا إلى بوجندا مع ضباط متيسا ومرافقته من واجندا الذين اضطروا للعودة بناء على أمر ملكهم وتحت تهديد وانورو في حين تابع سبيك وجرانت المسيرة التي استغرقت نحو خمسة عشر يوماً حتى وصلوا إلى قصر الملك كمرافي في ٩ أيلول الذي كان يقع على لسان منخفض بين نهر كافو (Kafu) ونهر النيل، وكان عبارة عن كوخ كبير واسع محاط بمجموعة من الأكواخ الصغيرة، وتم تأمين مسكن لهم على الفور في مجموعة صغيرة متسخة من الأكواخ وراء نهر كافو، وتم تقديم الأبقار والطيور والطحين وغيرها من المؤن لهم، ولكن عندما طلبوا مقابلة الملك تردد كمرافي كثيراً وماتل في تحديد موعد المقابلة حتى نفذ صبر سبيك وأرسل بومباي ليخبره أن يقبل هديتهم ويعطيهم الإذن بالمغادرة إلى جاني؛ لأن إقامتهم أشبه بسجن، وفي الآخر دعاهم الملك إلى لمقابلته في ١٨ أيلول. ووجدوا الملك كمرافي يجلس على كرسي خشبي منخفض على سجادة من جلد البقر أدناه وجلد النمر فوقه مكسواً بثياب من لحاء الشجر، ويزين معصمه الأيسر سوار من الأسلاك النحاسية، وكانت عيناه واسعة مع وجه ضيق، وأنف بارز، وطوله أكثر من ستة أقدام، وكان في متوسط العمر، ويحيط به على جانبيه عشرة رجال رئيسيين، وتقدم سبيك وجرانت واتخذوا مقاعد لهم في حين تقدم بومباي بالهدايا ووضعها أمام العرش، وبدأ سبيك بالحديث عن مغامراته وسفره حتى أونورو، وشرح للملك الغرض من مجيئه والذي يكمن في فتح طريق

^(١) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 435-441.

للتجارة مع إنجلترا، وتبادل العاج بمواد أوروبية الصنع^(١) كما يفعل التجار العرب من زنجبار مع كاراجوي، وبين له أن كل من رومانيكا ومتيسا كانا متلهفين للتجارة، كما وضح أن تأثير التجارة سيكبح تعدييات واجندا ونههما لبلاده، وبدلاً من الإجابة على الأسئلة سرد كمرازي القصص التي سمعها عنهم كونهم أكلة لحوم البشر وسحرة، وقال أنه لم يصدقها، ومن ثم تفحص الهدايا التي قدمت له وأعجب بها كثيراً^(٢).

وفي أونيوورو سمع سبيك عن بحيرة أخرى تدعى لوتا نزيج (Luta Nzige) تقع على بعد حوالي ستين ميلاً إلى الغرب من قصر الملك في تشاغوزي (Chaguzi)، ويقال أن عرضها يبلغ نحو أربعين أو خمسين ميلاً، وهي قطعة المياه نفسها التي سمع عنها في كاراجوي باسم لوتا نزيج، وحاول سبيك مع الملك كمرازي كي يقوم برحلة استكشافية إلى البحيرة، لكن كمرازي كان ينوي تجنيدهم في هجوم على إخوانه ولاسيما ريونجا (Rionga) الذي ينازعه العرش، وقال أن هناك متسعاً من الوقت للتفكير في ذلك، وتمنى أن يكونوا ضيوفه مدة ثلاثة أو أربعة أشهر على الأقل. ووصل في اليوم نفسه رجال من جاني أبلغوا أن ريونجا قد أرسل مؤخراً عشرة عبيد وعشرة أنياب عاجية إلى موقع بيتريك لشراء السلاح لكن الإجابة كانت بالرفض، وحين كان موعد عودتهم طلب سبيك من الملك كمرازي أن يسمح لهم بالمغادرة معهم، وكان جوابه الرفض ومع ذلك سمح له أن يرسل بومباي مع رسائل إلى بيتريك، وأبلغه سبيك إذا ما كان دافعه من إبقائه هو مشاركته في محاربة إخوانه فإنه لن يشاركه حربه أبداً؛ لأن ذلك كان مخالفاً لقوانين بلادهم، فضلاً عن أنه لم يكن لديه أي أوامر للدخول في مشاجرات مع الرجال السود، كما أن رومانيكا طلب منه ذات مرة أن يقاتل إخوانه، وكان رده الوحيد: "ليس لدي أوامر للقتال ولكن فقط تكوين صداقات مع ملوك إفريقيا العظماء"^(٣).

وفي ٢٢ أيلول غادر بومباي ومبروكي مع خريطة ورسالة لبيتريك يرافقهم خمسة رجال وانيورو، وخمسة رجال شوبي، وخمسة رجال من جاني، وكان من المفترض أن يغيبوا أسبوعين، ولكن عودتهم تأخرت حتى ١ تشرين الثاني حيث عاد بومباي مع مبروكي محمليين بهدايا قدمها لهم رجال الحامية في موقع بيتريك، وكان قد تم تنفيذ الرحلة ذهاباً وإياباً في السفر الفعلي بأربعة عشر يوماً، وما تبقى من الوقت ضاع من قبل المرشدين، وأخبره قائد الحرس أنه أمر مع

(١) - وفي هذا دليل قاطع على أن الدوافع الاقتصادية كانت من بين أبرز العوامل وراء قيام رحلات الكشف العلمية الأوروبية في القرن ١٩، ولاسيما منها البحث عن أسواق لتصريف المنتجات الأوروبية بعد المنافسة التي احتدمت بين الدول الأوروبية المختلفة في مجال التصنيع؛ فأصبح من الضروري البحث عن أسواق خارج نطاق القارة الأوروبية لتصريف منتجاتها، فضلاً عن الحصول على المواد الأولية من منابعها الأصلية.

(٢) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 441,443,455-467.

(٣) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 467-473.

مئتين من الرجال بانتظاره دون أي حدود زمنية حتى يتمكن من الوصول إليهم، وكان بيتريك قد غادر في رحلة تستغرق ثمانية أيام لكن من المتوقع أن يعود قريباً. وبناء على هذه المستجدات تخلى سبيك عن استكشاف بحيرة لوتا نزيح، وأرسل بومباي في اليوم التالي بهدية وداع إلى كمرافي تتألف من خيمة، وستارة للبعوض، وقطعة قماش من القطن الأحمر، ووعاء، ومنشار واحد، وستة أسلاك نحاسية، وعلبة من الخرز تحتوي على ستة أصناف من أفضل الأنواع، وطلب مغادرة بلده، وأعجب كمرافي بهذه الهدايا كثيراً لكنه ماطل بمنحهم الإذن بالمغادرة حتى الخامس من تشرين الثاني حيث رضخ أخيراً تحت ضغط سبيك المتكرر، وتم تحديد موعد مغادرتهم في ٩ تشرين الثاني، وتم تعيين كيدجويجا مع أربعة وعشرين رجلاً لمرافقتهم إلى جاني لتلقي الهدايا التي كانوا سيرسلونها من هناك^(١).

ز- المسيرة الأخيرة باتجاه غوندوكرو:

بدأ سبيك وجرانت ومرافقتهم من وانغوانا ووانبورو المسيرة في ٩ تشرين الثاني على متن الزوارق نزولاً في نهر كافو لمسافة ميلين حتى دخلوا نهر النيل الذي كان صالحاً للملاحة من محطة أورووندو غاني، وتابعوا في نهر النيل مروراً بمناطق كيتوارا (kitwara)، وكوكي (koki)، وغويني (goueni)، وكيجمبورا (kijumbura)، وشوبى (chopi)، وبارانغوني (paranguni)، ووصلوا إلى شلالات كاروما (karuma) في ١٩ تشرين الثاني؛ وهي عبارة عن حاجز للمياه أو اندفاع للماء بين أحجار الصوان العالية تسقط من منحدر عال ينحدر لنحو ١٠ أقدام، وتقع إلى ما وراءها بلاد كيدي. وقاموا بعبور النهر في ٢٣ تشرين الثاني وتابعوا المسيرة عبر بلاد كيدي من خلال المستنقعات والغابات الكثيفة والأعشاب الطويلة التي قطعوها في خمسة أيام، ووصلوا إلى قرية كوكي في بلاد جاني^(٢) في ٢٩ تشرين الثاني، واستقبلهم تشونغى (Chongi) حاكم المقاطعة التابع

(١) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 473-505.

(٢) - جاني أو أشولي: احتل الأشولي المناطق الواقعة إلى الجنوب من مادي بينهم وبين الحدود الشمالية لأونيورو، ويشير سبيك إليهم باسم جاني، وقد شملوا أيضاً مناطق أوبو وليرا التي اكتشفها بيكر في العام ١٨٦٣. وكانت الأشولي يخضعون اسمياً لملك أونبورو، وقدمت القوى البشرية لجيوشه. وهم في الواقع مزيجاً من السكان المحليين والمهاجرين من الشمال المرتبطين بالانجو ولوه من سكان بحيرة فيكتوريا الذين مروا بالمنطقة بعد هجرتهم من السودان قبل عدة قرون. وكان أول اتصال لهم مع الأوروبيين في العام ١٨٦٠ عندما وصل المستكشف الإيطالي جيوفاني ميانى بحثاً عن مصدر النيل، وظهر بعد ذلك بعامين النحاسين الأتراك، وعلى مدى العقد التالي خسر الأشولي مثل معظم حيرائهم كل ماشيتهم. وكما هو حال لاتوكا ومادي، فقد انضم محاري أشولي في كثير من الأحيان إلى النحاسين في هجماتهم على القرى المجاورة. كان الأشولي خلال سبعينيات القرن التاسع عشر ودودين بشكل عام للمصريين الذين احتلوا جزءاً كبيراً من بلادهم، ولكن في العام ١٨٨٥ قام كاباريجا ملك أونبورو بتحريضهم على التمرد ضد أمين باشا الذي كان يحكم في المنطقة كممثل للخديوي المصري بعد أن عزله المهديون عن السودان، وبعد إقناع أمين باشا بالعودة إلى الساحل مع ستانلي أحلت الحاميات المصرية أرض أشولي، ومن ثم وصلت إلى هناك بعثة بريطانية برئاسة العقيد ماكدونالد في العام ١٨٩٩ مما جعل البلاد تحت السيطرة البريطانية. عن Peers, Armies of the nineteenth century, p19.

لكمرازي الذي كان موطنه يمتد حتى نهر أسوا (Asua)، في حين أن بلاد مادي (Madi)^(١) كانت تشغل كل الأفق إلى الغرب منه حتى نهر النيل. وبعد توقف يومين في كوكي تابعوا المسيرة في ٢ كانون الأول عبر بلاد مادي^(٢) حتى وصلوا إلى موقع بيتريك الأمامي في منطقة فالورو (faloro)، واستقبلهم حشد من الجنود المختلطين من النوبيين، والمصريين، والعبيد، يقارب عددهم مئتين تحت قيادة رجل أسود اسمه محمد^(٣) في زي عسكري مصري كامل، وأبلغهم أنه مرسل من قبل بيتريك لاستقبالهم ونقلهم إلى غوندوكرو، وقادهم إلى معسكره الواقع في قرية تابعة للسكان الأصليين، وجعلهم خيمة ليقيموا فيها وأعد لهم عشاء من الخبز والعسل ولحم الضأن، وبعد قضاء الليلة في ضيافة محمد أمر سبيك بالمسير في صباح اليوم التالي، لكنه قوبل بالمعارضة؛ إذ أخبره محمد أنه لا توجد سفن في غوندوكرو في الوقت الحالي، كما أنه توجد مجاعة في هذا الموسم في غوندوكرو، ولا يمكن لهم المسير قبل أن يحصد السكان محاصيلهم، فضلاً عن أن سكان باري (Bari) متوحشون، ولا يمكن المرور عبر بلادهم بقوة صغيرة، ولما كان الجميع ضد الذهاب إلى غوندوكرو اضطر سبيك إلى الانتظار، وقام بصرف مرافقته من وانيورو، وقدم له كيدجويجا بندقية وذخيرة، بالإضافة إلى بعض الخرز الذي حصل عليه من متاجر محمد، ليقدّمها إلى كمرازي مع أوامر لإبلاغه أنه بمجرد أن وصل إلى غوندوكرو أو الخرطوم سيرسل إليه رجلاً أبيض آخر^(٤).

وبعد إقامة شهر كامل قضاها سبيك وجرانت في الصيد في حين قام حزب محمد بجمع حمولات العاج المنتظرة تابعوا المسيرة في ١١ كانون الثاني عام ١٨٦٣ مروراً بقرى بانيورو

(١) - مادي: هو الاسم الذي أطلقه العرب على مجموعة من القبائل المترابطة التي تعيش جنوب غوندوكرو، ويتحدثون لغة مشتركة. ومن بينهم قبيلة مورو (Moru) التي تشغل الضفة الغربية لنهر النيل. بدأ اتصالهم بالعرب والأوروبيين مع بداية الستينيات من القرن التاسع عشر، ولكن قبل نهاية ذلك العقد، أضعفت مادي بالفعل من قبل نخاسي العبيد، ولم يكن مادي مقسمين إلى مجموعات عرقية مختلفة فحسب، بل كانت الوحدة معدومة حتى داخل هذه المجموعات، وعلاوة على ذلك كانت في صراعات دائمة مع بعضها البعض. وبالطبع تم استغلال هذا الوضع من قبل تجار العبيد الذين جندوا مادي كحلفاء ضد بعضهم البعض، وبحلول العام ١٨٦٤ تم تقليص جزء كبير من أراضي مادي على طول نهر النيل. وعند مجيء سبيك فوجئ برؤية الناس نادراً ما يقاومون اضطهاد الأتراك، ولكنهم كانوا بدلاً من ذلك يهدمون أكواخهم، وينقلون قراهم إلى مناطق أخرى بعيداً عنهم. وتكونت أسلحة المادي التقليدية من الرماح والأقواس، وكانوا يقاتلون عموماً كمناوشين، إذ يتقدمون بسرعة لإطلاق سهامهم بينما يقفزون من جانب إلى آخر لجعل أنفسهم أكثر صعوبة للاستهداف، وكان يتم تعليم الأطفال منذ سن مبكرة طريقة تفادي السهام، ولكن هذه التكتيكات بالطبع كانت ذات فائدة قليلة ضد البنادق. عن: Peers, Armies of the nineteenth century, p18.

(٢) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 506-520.

(٣) - كان محمد هذا وكبيراً للتاجر المالطي أندريا ديونو؛ أحد تجار العاج في الخرطوم، إذ درجت العادة أن يقوم كبار تجار العاج بإرسال مجموعة من المتطوعين برفقة أحد وكلائهم من الخرطوم إلى مختلف أنحاء السودان لصيد الفيلة وشراء العاج، كما كان لكل تاجر منطقة نفوذ خاصة به يقوم فيها بنشاطاته، وكانت فالورو التي وصلها سبيك تخص التاجر أندريا ديونو. عن: Brown, the story of Africa and its explorers, v2, p105.

(٤) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 521-526.

(Panyoro)، وبيرا (Païra) الواقعة على مرمى البصر من نهر النيل الذي كان آخر لقاءهم به عند شلالات كاروما، وكان في المظهر مجرى واسع على سرير مسطح من الغرب إلى الشرق، وفوقه مباشرةً يكمن جبل كوكو (Kuku) الذي يرتفع إلى ٢٠٠٠ قدم فوق النهر، وتابعوا المسير بموازية نهر النيل عبر قرى جيبي (Jaifi)، وأبودودو (Apuddo)، وبعد توقف أيام عدة بانتظار وصول بقية حزب محمد ولأجل جمع الحمالة لنقل العاج تابعوا التقدم مرة أخرى في الأول من شباط عبر بلاد الباري^(١) مروراً بقرى لابوري (Labure)، وموغي (Mugi)، وورونجي (Wurungi)، ومارسون (Marson)، ودورو (Doro) حتى وصلوا في صباح ١٥ شباط عام ١٨٦٣ إلى غوندوكرو^(٢).

واستقبلهم في غوندوكرو رجل إنكليزي يدعى صمويل بيكر كان قد جاء بثلاث سفن مجهزة بالكامل بالرجال المسلحين والجمال والخيول والحمير والخرز والأسلاك النحاسية وكل ما هو ضروري لرحلة طويلة لغرض لرعايتهم، في حين كان بيتريك في الواقع يتاجر في منطقة نيامبارا (N'yambará) الواقعة على بعد سبعين ميلاً باتجاه الغرب، وعرض بيكر عليهم زوارقه للنزول إلى الخرطوم، وسأل سبيك إن كان هناك أي شيء قد تراجع عنه قد يكون له أهمية بالنسبة إليه للاستمرار وإكماله؛ لأنه لم يرغب في العودة إلى المنزل دون أن يفعل شيئاً لتعويض المتاعب والمصروفات التي تكبدها في حملته الكبيرة، وأخبره سبيك على الفور عن بحيرة لوتا نزيج التي لم يتمكن من مسحها، إضافة إلى ذلك أخبر بيكر عن تعاقد مع كمرافي، وعن الممتلكات التي تركها خلفه بهدف تحفيز أي رجل مغامر على الذهاب إلى هناك وتحقيق وعده، والمطالبة بنصيبه من الممتلكات المتبقية، وتعهد بيكر في الحال بالقيام بالرحلة، وقدم له سبيك اقتراحاته بشأن كيفية المضي قدماً، وبعد ذلك تابع سبيك وجرانت رحلتهم عبر نهر النيل في ٢٦ شباط إلى الخرطوم والقاهرة حيث صرفوا مرافقتهم بعد دفع مستحقاتهم، وأمنوا لهم طريق العودة إلى زنجبار عن طريق القنصل الإنجليزي في القاهرة، ومن ثم عادا إلى إنجلترا بعد مرور ثمانية وعشرين شهراً على مغادرتهم^(٣).

(١) - قبيلة الباري: من القبائل النيلية التي تقطن وادي النيل في منطقة غوندوكرو. تكونت قبائلهم الرئيسية من الشير (Shier) على الضفة الشرقية للنيل، والمودري (Maudari)، ونيامبارا، وباري في الجانب الغربي. وعملوا بالزراعة والرعي، ولا يوجد تقدير محدد لأعدادهم. اتصل بهم المصريون لأول مرة في العام ١٨٤٠، وكان الباري في البداية ودودين تجاه الغنماء، ورحبوا بالبعثة النمساوية التي أقيمت في غوندوكرو في العام ١٨٥١ على الرغم من أنهم لم يظهروا أي علامة على التحول إلى المسيحية، ولكن خلال الخمسينيات من القرن التاسع عشر، غيرت تجارة العبيد تدريجياً موقفهم إلى العداء، بحيث أصبح السفر بينهم خطيراً دون حراسة قوية. وذهب هاري جونستون فيما بعد إلى حد الزعم بأن الباري، وليس المستنقعات والمنحدرات النيلية كانوا العقبة الرئيسية أمام استكشاف مصادر النهر من الشمال، واحتاز سبيك بلاد باري قبل أشهر قليلة من وصول بيكر. حاول المصريون إخضاعهم مراراً في سبعينيات القرن التاسع عشر أولاً تحت حكم بيكر ثم غوردون، وأصبح الباري بحلول ذلك الوقت يعارضون بشدة أي نوع من التواصل مع الأجانب، ويرفضون حتى هداياهم، وعروض التجارة معهم. عن Peers, armies of the nineteenth century, p14-16.

(٢) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 530-541.

(٣) - Speke, Journal of the Discover of the Source of the Nile, p 542-552.

٤- نتائج الرحلة:

أسفرت رحلة سبيك وجرانت التي شغلت قرابة السنتين والنصف من ٢ تشرين الثاني عام ١٨٦٠ وحتى ٢٦ شباط من العام ١٨٦٣ عن النتائج الآتية:

- أكدت الرحلة أن بحيرة فيكتوريا نيانزا التي اكتشفها سبيك في رحلته السابقة عام ١٨٥٨ هي منبع نهر النيل، ولأسيما بعد أن تتبع سبيك البحيرة على جانبيها الغربي، وشاهد مخرج النيل من البحيرة عند الشلالات التي أطلق عليها اسم ريبون تكريماً لرئيس الجمعية الجغرافية الملكية آنذاك، وأطلق على ذراع المياه التي صدر منها النيل قناة نابليون تقديراً للجمعية الجغرافية الفرنسية التي كرمته ومنحته الميدالية الذهبية لاكتشافه بحيرة فيكتوريا نيانزا، كما نزل عبر نهر النيل من محطة أوروندو غاني حتى مملكة أونورو، ومن نهر كافو تابع في نهر النيل حتى شلالات كاروما، وبعدها تابع مسيرته براً ولم يشاهد النيل مرة أخرى حتى بلاد باري، وسار بموازاته حتى وصل إلى غوندوكرو وتابع فيه إلى الخرطوم والقاهرة.

- حصل سبيك على معلومات مهمة عن بحيرة صغيرة تدعى لوتا نزيج لها دور مهم في نظام نهر النيل، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليها واستكشافها، وقدم معلومات وافية عنها للرحالة صامويل بيكر فمهد بالتالي لرحلة بيكر في تلك الأنحاء في العام ١٨٦٣.

- قدمت رحلة سبيك وجرانت معلومات تاريخية مهمة عن بلدان شرق إفريقيا في تلك الآونة، ولأسيما بلدان وممالك أونياموزي وكاراجوي وبوجندا وأونورو، وخاصة نظم الحكم فيها، وتسلسل إداراتها وعاداتها وتقاليدها مع سرد لبعض الأحداث التي عاصروها.

- قدمت رحلة سبيك وجرانت خدمة كبيرة لعلم الأنثروبولوجيا والدراسات المتعلقة بعلم الإنسان؛ إذ أرفقت بمعلومات وافية عن معظم الأعراق والشعوب التي صادفوها، ولأسيما أصولها وعاداتها ولباسها وزينتها ومأكليها ومشربها وأسلحتها وعادات وتقاليدها الزواج وطرق الدفن المتبعة لديهم.

- جمع سبيك وجرانت خلال رحلتهم عينات كبيرة من التاريخ الطبيعي لمنطقة شرق إفريقيا، من مختلف الحيوانات التي اصطادوها والأشجار والمزروعات التي وجدوها.

- أسهمت رحلة سبيك وجرانت في حل معضلة مشكلة منابع نهر النيل التي شغلت أذهان العلماء على مر العصور، وكانت رحلتهم حلقة مهمة في حل تلك المشكلة، ومهدت بالتالي الطريق للكثير من الرحالة وغيرهم للتواصل مع بلدان تلك المنطقة بعد أن ظلت منغلقة على نفسها فترة زمنية طويلة.

الفصل الرابع

الرحالة الأوروبيون في شرقي إفريقيا بين عامي ١٨٦٣-١٨٨٩

أولاً- رحلة السيد صمويل وايت بيكر ١٨٦٣-١٨٦٥:

١- لمحة عن حياة السيد صمويل بيكر (Sir Samuel Baker) (١٨٢١-١٨٩٣):

ولد السير صمويل وايت بيكر المستكشف الإنجليزي في لندن في الثامن من حزيران عام ١٨٢١ لأسرة إنجليزية ثرية، وتلقى تعليمه في إنجلترا وألمانيا، وكان شغوفاً بالصيد وكثرة الترحال. وعمل في مناطق عدة خارج بلاده في أوروبا وآسيا. وفي أوائل الستينيات من القرن التاسع عشر ذهب إلى إفريقيا مع زوجته بهدف الصيد والاستكشاف، وقضى عاماً في السودان تعلم خلاله اللغة العربية، وتتبع روافد نهر النيل إلى حدود الحبشة، وطاف في البلاد الواقعة على نهر عطبرة والنيل الأزرق، ونشر تفاصيل رحلته في كتاب بعنوان "روافد النيل من الحبشة"، صدر في لندن في العام ١٨٦٧. وحين عاد من رحلته إلى الخرطوم وجد حافزاً من أجل التقدم جنوباً في النيل الأبيض بعد أن عرضت عليه الجمعية الجغرافية الملكية أن يتقدم للبحث عن الرحالتين سبيك وجرانت، وأقلع بيكر من الخرطوم في كانون الأول ١٨٦٢ بثلاث سفن شراعية، وقابل بعد ذلك بشهرين سبيك وجرانت في غوندوكرو اللذين تتبعوا بعد اكتشافهما لبحيرة فكتوريا نهر النيل إلى مصر، وزوده المبشران بسخاء بمعلومات مهمة عن بحيرة تدعى لوتا نزيج (Luta N'zige) لم يستطيعا كشفها، وكانت هذه البحيرة الهدف الذي بنيت على أساسه رحلة بيكر المزمع دراستها في الصفحات التالية، ونشر بيكر تفاصيلها في كتاب صدر بمجلدين في لندن في العام ١٨٦٦ بعنوان "ألبرت نيانزا، حوض النيل العظيم، واستكشافات منابع النيل"، ومنحته الجمعية الجغرافية الملكية على إثرها ميداليته الذهبية اعترافاً منها بالإنجازات التي حققها بيكر في حل مشكلة منابع النيل، كما منحته الجمعية الجغرافية في باريس تكريماً مماثلاً. وفي آب ١٨٦٦ منح مرتبة سيد. وتولى بيكر في العام ١٨٦٩ بناء على طلب الخديوي إسماعيل قيادة حملة عسكرية إلى المناطق الاستوائية من النيل بهدف كبح تجارة الرقيق هناك، وفتح الطريق أمام التجارة والحضارة، وأعطى بناء على ذلك رتبة باشا في الجيش العثماني، وعينه الخديوي حاكماً عاماً للمنطقة الجديدة لمدة أربع سنوات براتب قدره ١٠.٠٠٠ جنيه إسترليني في السنة، وبقي بيكر في منصبه حتى العام ١٨٧٤ حين عاد إلى إنجلترا مع زوجته، واستقر في سانفورد أورلي (Sandford Orleigh) في جنوب ديفون بقية حياته، وتوفي فيها في ٣٠ كانون الأول من العام ١٨٩٣ عن عمر يناهز اثنين وسبعين عاماً^(١).

^(١) - The encyclopedia Britannica, v3, p227-228.

- إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ص ١٧٤-١٧٧. يحيى، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، ص ٢٢٣-٢٢٤. كام، المستكشفون في أفريقيا، ص ٢٧٤-٢٨٣. رياض، كشف إفريقيا، ص ٢١٦-٢١٨. خلاف، كشف مصر الأفريقية في عهد الخديوي إسماعيل، ص ٥٣-٥٥.

٢- التحضيرات الأولية للرحلة: (ملحق ١٣)

كان الهدف الرئيس من وراء مجيء صمويل بيكر إلى القارة الإفريقية في العام ١٨٦١ هو استكشاف منابع النيل مع أمل اللقاء ببعثة شرق إفريقيا للكابتن سبيك وجرانت التي أرسلتها الحكومة الإنجليزية من الجنوب عبر زنجبار للغرض نفسه، وكان بيكر مصمماً على إنجاز هذه المهمة الصعبة أو الموت في المحاولة، ولاسيما أنه قد تعود في شبابه على المشقات وممارسة الرياضات البرية في المناخات المدارية. وبناء على ذلك أبحر بيكر برفقة زوجته فلورنس في نهر النيل من القاهرة في ١٥ نيسان عام ١٨٦١ باتجاه الجنوب مروراً بكورسكو، وأبي حامد، وبربر التي تبعد مسيرة ثمانية أيام بالجمال عن الخرطوم^(١)، ويمر فيها طريق القوافل بين تلك المدينة والقاهرة، وأدرك بيكر من خلال التجربة التي اكتسبها في الرحلة إلى البربر أهمية معرفة اللغة العربية للنجاح في رحلته؛ لذلك رتب خطة لاستكشاف جميع روافد النيل في سلسلة جبال الحبشة مع نية متابعة نهر عطبرة من تقاطعه مع نهر النيل، واستغلال ذلك الوقت في اكتساب معرفة كافية باللغة العربية ليتمكن من البدء برحلته من الخرطوم في النيل الأبيض. وبناء على ذلك غادر بيكر بربر في ١١ حزيران عام ١٨٦١ إلى مفترق نهر عطبرة مع نهر النيل، وتابع نهر عطبرة إلى تقاطعه مع نهر سيتيت (Settite) أو نهر تاكازي (Taccazy)، ومن ثم تابع النهر الأخير في جبال الحبشة، وعبر إلى نهري السلام وأنغراب (Angrab) عند سفح سلسلة الجبال التي تتدفق منها مباشرة إلى نهر عطبرة، وبعد استكشاف تلك الأنهار عبر نهر عطبرة مرة أخرى، ووصل إلى بلدة جلابات الحدودية، وسار غرباً إلى نهر رهاد (rahad)، ثم نهر ديندر (dinder)، وتتبع هذه الجداول حتى تقاطعها مع النيل الأزرق. وبعد أن أمضى بيكر اثني عشر شهراً تقريباً في استكشافاته تلك عاد إلى الخرطوم عاصمة مقاطعات السودان في ١١ حزيران من العام ١٨٦٢^(٢).

^(١) - الخرطوم: تقع عند تقاطع النيلين الأبيض والأزرق، ووصف بيكر موقعها بكونه بقعة بائسة فذرة وغير صحية تحيط بها الصحاري من جميع الجوانب، وتتكون من أكواخ الطوب الممتدة فوق مستوى مياه النهر التي تغمرها في معظم الأحيان، وبلغ عدد سكانها في ذلك الوقت قرابة ٣٠ ألف نسمة، ويتكونون بشكل رئيس من العرب والمصريين واليونانيين والسوريين والأقباط والأرمن والأتراك، وتضم عدداً من الأوروبيين، وفيها قناصل لكل من فرنسا وأمريكا والنمسا، وكانت الخرطوم مقر الحكومة وعاصمة مقاطعات السودان التي تقبع تحت سيطرة الحاكم العام، واحتوت المدينة في ذلك الوقت حوالي ستة آلاف جندي من المصريين ومن السود من مناطق كردفان والنيل الأبيض والأزرق، وكانت هذه القوات على حد قول بيكر لعنة البلاد؛ إذ خضع الجنود لانضباط فضفاض، وانشغلوا في ظل عدم استلام الأجور بشكل منتظم بالنهب مما فرض على المواطنين البائسين الخضوع للإهانة وسوء المعاملة، ولم يكن الحاكم العام في ذلك الوقت موسى باشا أفضل من جنوده، إذ جمع بين الفشل الإداري والوحشية، وأصبح السودان خلال إدارته مدمراً تماماً من جراء الابتزاز والاحتكار والظلم والضرائب التي كانت من مترافقات الإدارة التركية. عن Baker, Albert Nyanza, v1, p12-13.

^(٢) - Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1, p1-11.

واجه بيكر في الخرطوم العديد من الصعوبات فمع حصوله على فرمان من حاكم مصر سعيد باشا (١٨٥٤-١٨٦٣)؛ يقضي بتسهيل رحلته وتقديم المساعدات اللازمة له، إلا أن موسى باشا^(١)؛ الحاكم العام للسودان تجاهل هذه الوثيقة على أساس أن فرمان كان سارياً في ممتلكات الباشا والنيل، في حين أن النيل الأبيض لم يتم قبوله كنهر النيل بعد، وإنما عرف باسم النهر الأبيض، ولهذا لم يتم منحه القوارب والمساعدة. وكان تنظيم الرحلة صعباً جداً ويتطلب اختياراً دقيقاً للمرافقين، ولاسيما أن الرجال الوحيدون الذين يمكن الحصول عليهم كمرافقة كانوا مجموعة من سكان الخرطوم الذين اعتادوا على السرقة والنهب في تجارة النيل الأبيض^(٢)، وكانت هناك صعوبة أكبر في الإبحار في النيل الأبيض؛ لأن حركة تجارة العبيد والأهوال المصاحبة لها قد أزعجت القبائل حتى أصبح معظم السكان معادين لجميع القادمين، وهكذا كان الإبحار في النيل الأبيض أشبه بمسيرة عبر بلد العدو، ويتطلب قوة من الرجال المسلحين. وبعد ما فشل بيكر في الحصول على المساعدة من السلطات المصرية بدأ العمل بنفسه في الإعداد للرحلة، وتمكن في غضون أسابيع قليلة مع توفر السيولة المالية من استئجار ثلاث سفن تحمل ٤٥ رجلاً مسلحاً حصل كل منهم على أجور خمسة أشهر مقدماً، وأربعين رجلاً يعملون كبخارة، وبلغ مجموع مرافقيه بما في ذلك الخدم نحو ستة وتسعين فرداً، وشحن بيكر السفن بكمية من المؤنة تكفي لأربعة أشهر، وحمل كمية إضافية من الذرة لتقديمها لسببك وجرانت، كما رتب لنقل واحد وعشرين حملاً وأربعة جمال وأربعة خيول أمل أن تجعله مستقلاً عن الحاجة للحمالين في بلد يشكل التنقل فيه صعوبة كبيرة^(٣).

وما إن تمت الاستعدادات حتى بدأوا الرحلة في ١٨ كانون الأول عام ١٨٦٢ نزولاً في النيل

(١) - موسى باشا حمدي: شغل منصب حاكم السودان بين عامي ١٨٦٢-١٨٦٥ خلال فترة حكم إسماعيل، وكان على خلاف ما ذكره بيكر ذو خبرة طويلة بشؤون البلاد، وحاول خلال فترة ولايته وضع حد لشكاية السكان من فداحة الضرائب، والطريقة التعسفية في جبايتها؛ فأصدر قرارات تحدد مقدار كل ضريبة في سجلات الحكومة، وعين من السكان المحليين رؤساء ووكلاء للمراكز. عن محمد صبري، الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٤٨، ص ١٨.

(٢) - قامت تجارة النيل الأبيض على الصمغ والعاج وبعض المنتجات الأخرى، وربط بيكر بينها وبين تجارة العبيد ووصفها بكونها تجارة خطف وقتل، إذ يقوم التجار على حد قوله بتشكيل مجموعات مسلحة حتى ٣٠٠ رجل، ويمضون بهم إلى أواسط إفريقيا حيث كان لكل تاجر منطقة نفوذ يعمل فيها، ويرسل إليها جنوده وأعوانه؛ للإغارة على القرى الزنجية، وحرقتها بعد خطف النساء والأطفال، وسرقة قطعان الماشية، ويكرروا فعلتهم مع عدد من القرى الأخرى، ويتم بعد ذلك استبدال العاج مقابل الأبقار التي سرقتها ويبيع العبيد في المزاد العلني أو نقلهم إلى الخرطوم حيث يوجد وكلاء ومشترون. عن Baker,

Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1, p16-22.

(٣) - Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1, p24-29.

الأبيض. وبعد مسير خمسة وأربعين يوماً عبروا خلالها أراضي قبائل الدنكا^(١) والشيلوك^(٢) والنوير^(٣)، ومروا بملتقى نهر النيل مع نهر السوبات وبحر الزراف وبحر الغزال، وعبروا مستنقعات كبيرة المساحة تعج بالبعوض والملاريا وصلوا أخيراً إلى غوندوكرو في ٢ شباط من العام ١٨٦٣ دون أن يتعرض لهم أحد بالعداوة، ولم يجدوا فيها إلا آثار محطة بعثة تبشيرية قديمة مع بقايا الكنيسة والحديقة التي تحيط بها، ووجد بيكر غوندوكرو أشبه بقطعة من الجحيم بسبب الحرارة الشديدة، ووصفها بأنها مستعمرة لقطاع الطرق بسبب إهمال السلطات المصرية للإدارة هناك. وكان فيها عدد كبير من الرجال ينتمون إلى التجار المتعديين الذين نظروا إليه بشك كبير، ولم يصدقوا أن هدفه مجرد الترحال بل عدوه جاسوساً مرسلأ من قبل الحكومة الإنجليزية للتجسس على تجارتهم. وبعد أن أمضى بيكر اثني عشر يوماً في غوندوكرو وصل إليها في ١٥ شباط كل من سبيك وجرانت اللذين كانا قادمين من مملكة أونيورو، وأطلع

(١) - الدنكا: أكبر مجموعة عرقية من الشعوب النيلية ينتشرون على نطاق واسع على الضفة اليمنى من النيل الأبيض، وحول مصب بحر الغزال، وعلى ضفاف السوبات. وهم عرق طويل القامة مع بشرة سوداء داكنة. لا يرتدي الرجال ملابس عملياً بينما ترتدي النساء مآزر قصيرة من الجلد. ويوثقون أنفسهم بعلامات قبلية، ويستخرج كلا الجنسين القواطع السفلية؛ وهي عادة يمارسها غالبية السكان المحليين في منطقة بحر الغزال، كما أنهم يحرقون الأذنين والشفة لتعلق الحلبي المتنوعة من حلقات الحديد والعاج والنحاس. ويعد تعدد الزوجات حالة عامة فيما بينهم. وتتكون مساكنهم من مجموعات صغيرة من الأكواخ مجتمعة في أراضي المزارع؛ وهي أوسع عموماً من تلك الموجودة لدى القبائل الأخرى، وتبنى في نفس الشكل المخروطي من الصلصال والقش. ويعمل الدنكا بالرعي ويمتلكون قطعان كبيرة من الماشية، ويحتقرون الزراعة وهو أمر يتركونه للنساء. ولا يذبحون الماشية لأجل الغذاء إلا تحت ضغط الجماعة في حين يعيش معظم السكان على الذرة. والسلاح الأكثر أهمية لدى الدنكا هو الرمح في حين أن الأقواس والسهم غير معروفة. ويحمل الدنكا البقر والثعابين، ويميزون في عاداتهم بين إله الخير والشر. عن Georg Schweinfurth, Hart of Africa, Sampson low, London, 1874, v1, p148-168.

(٢) - الشيلوك: عرق زنجي ذي بشرة سوداء داكنة يشغلون الأراضي الواقعة على طول الضفة اليسرى للنيل الأبيض، وتمتد إلى مصب نهر الغزال. وهم أكثر قبائل الزواج في السودان الأنجلو-مصري، ويشكلون عائلة واحدة كبيرة مع قبائل آلور وآشولي في الجنوب. وهم العرق الوحيد في أعالي النيل الذي يعترف برئيس واحد كحاكم لجميع القبائل، وتتم القيادة دائماً بولد الأخت أو الأقارب الآخرين على الجانب الأنثوي. وعادة ما تقام مدن الشيلوك على ضفة النيل بالقرب من بعضها البعض، ولديهم قطعان كبيرة من الماشية. والرجال عراة تماماً بينما ترتدي النساء الجلود، ولكن مع إنشاء السيطرة الأنجلو- المصرية في العام ١٩٠٠ اعتمدوا تدريجياً الملابس، ويلطخ الفقراء أنفسهم بالرماد، ويزينون الشعر بالعشب والريش بأشكال رائعة مثل الخوذة أو قبعة عريضة الخواف، وهم صيادون ماهرون، وتتكون أسلحتهم من الرماح والدروع بينما الأقواس والسهم غير معروفة لديهم مثلها مثل الدينكا المجاورة. ودينهم هو نوع من عبادة الأجداد والطبيعة. عن Schweinfurth, Hart of Africa, v1, p85-92.

(٣) - النوير: شعب نيلي يقطن في السهول والمستنقعات في أعالي النيل جنوب فاشودة، وفي بحر الغزال بجوار حيرانه الدنكا الذين يشبهونهم. ويعيشون على الأسماك والجذور ونباتات الأنهار. ويضعون علاماتهم القبلية على الجبهة بينما تثقب النساء الشفاه العليا. وتعيش بعض العائلات النويرية على الجزر الصغيرة العائمة والقصب التي يسقطها النهر خلال الفيضان. والنوير على عكس الشيلوك يرتدون القليل من الاغطية، ولا يحملون الدروع ولكن مثلهم مثل غيرهم من القبائل على طول النيل الأبيض يتسلحون بالرماح واحدة منها مصنوعة فقط للحرب أو القتال في حين يستخدم الآخر للصيد. عن عون الشريف قاسم، موسوعة الأنساب والقبائل، شركة آفروغراف للطباعة، الخرطوم، ط١، ١٩٩٦، ج٦، ص٢٥٣٤. The encyclopedia Britannica, v19, p845.

بيكر على خطوات رحلتها، وعلم منهما أن جزءاً مهماً من النيل لا يزال بحاجة إلى الكشف، وأنهم لم يتمكنوا من استكمال التنقيب الفعلي للنيل بعد أن كانوا قد تتبعوه من بحيرة فيكتوريا في مسار شمالي حتى شلالات كاروما، ومن ثم تحولوا فجأة نحو الغرب، ولم يشاهدوه مرة أخرى حتى وصلوا إلى بلاد باري، كما أكد لهم السكان المحليون وملك أونبورو أن النيل الذي عبروه في كاروما يتدفق غرباً لعدة أيام، ويصب في بحيرة كبيرة تدعى "لوتا نزيج"، وأن نهر النيل عند دخوله إلى الطرف الشمالي يخرج على الفور تقريباً، ويواصل - كنهراً قابلاً للملاحة - مساره باتجاه الشمال عبر بلدان كوشي ومادي، وأعرب سبيك عن قناعته بأن بحيرة لوتا نزيج يجب أن تكون المصدر الثاني للنيل، وبناء على ذلك تعهد بيكر بمتابعة استكشافاتهم، وبدأ بالاستعداد واتخاذ الترتيبات اللازمة للمشروع نحو بحيرة لوتا نزيج^(١).

٣- مسار الرحلة: (ملحق ١٤)

أ- المسير نحو بلاد لاتوكا:

رتب بيكر مع محمد رئيس رجال التاجر المالطي أندريا ديونو الذي رافق سبيك وجرانت، ليصحبه في الرحلة الاستكشافية، ويزوده بخمسين من الحمالة للمسير من غوندوكرو إلى محطة فالورو التي تبعد حوالي اثني عشر يوماً، ووعد بيكر في المقابل أن يستخدم نفوذه في جميع البلاد التي سيكتشفها لفتح الطريق لتجارته العاجية شريطة أن يوافق على إجراء عملية الشراء الشرعي، كما وعده بمنحه هدية كبيرة أيضاً، لكن محمد وجماعته غدروا به، وساروا خلسة دون علمه، وكانوا من البداية يخططون لخداعه ومنعه من دخول البلاد حتى لا يتم الكشف عن فظائع تجارتهم، ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل قاموا بتأليب رجاله ضده، وانتهى الأمر بتمردهم بل وأعدوا مؤامرة لقتله بالسلاح نفسه الذي قدمه لهم، ولكنه تمكن من التغلب على التمرد بفضل اثنين من العبيد المخلصين: أحدهم ريشان (richarn)، والآخر صبي يدعى سات اللذين أعلامه بنية رجاله على التمرد فباغتهم ونزع أسلحتهم وصرفهم بعد ذلك، وانضموا فوراً إلى أطراف التجار الأخرى^(٢). وفكر بيكر بعد أن تخلى عنه رجاله بالانتظار عام كامل حتى يتم إرسال الرجال له من الخرطوم، ولم يقبل أن يتراجع أو يعود إلى الخرطوم، ولكن بعد أن أدرك مخاطر البقاء وحيداً مع زوجته واثنين من العبيد عاود الاتصال برئيس رجاله وهدده بالعقوبة عند العودة للخرطوم، واقترح عليه أن يحضر بعضاً من المتمردين الذين كانوا من نفس قبيلته وكثيراً منهم أقاربه لمرافقته، وفي هذه الحالة سيغفر لهم سوء تصرفهم في السابق، ووافق ١٧ رجلاً على الانضمام إليه مرة أخرى بشرط المسير شرقاً لا جنوباً، وكان رفضهم الطريق الجنوبي

(١) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1,p32, 38,46,85,94-105.

(٢) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1, p114-124.

نتيجة لعداء قبيلة باري. وبناء على ذلك بدأوا المسير في وسط إفريقيا في ٢٦ آذار عام ١٨٦٣ باتجاه بلاد لاتوكا (Latooka)^(١) دون أي دليل متبعين القافلة التابعة لخورشيد آغا أحد تجار العبيد رغم تحذيرهم له وتهديدهم إياه بعدم متابعتهم، ولكنها كانت مغامرة لابد أن يخوضها وإلا انتهى الأمر به إلى الانسحاب من الرحلة والعودة إلى بلاده^(٢).

وكانت البلاد التي ساروا فيها تشبه الحديقة ومشجرة بشكل جيد ويتخللها العديد من القرى التي كانت محاطة بسياح قوي مروراً بجبل بيلجنان (Belignan) الذي لا يتجاوز ارتفاعه ١٢٠٠ قدم، وحصلوا من قرية بالقرب منه على دليل يتقن اللغة العربية لإرشادهم إلى إليريا (Ellyria) التي كانت تبعد مسافة ثمانية وعشرين أو ثلاثين ميلاً، وحرص بيكر على عبور تلك القبيلة قبل جماعة التاجر خشية أن يقوموا بتحريضهم ضده. وبناء على ذلك أعطى الأوامر للبدء الفوري، وانضم إليهم في الطريق اثنان من اللاتوكا الذين كانوا يعملون كحمالين للأتراك، وتعرضوا للضرب، ومن ثم فروا وانضموا إليه، وكان هذا من حسن حظه إذ أصبح لديه أكثر من دليل للطريق كله إلى لاتوكا الواقعة على مسافة تسعين ميلاً. وكانت طبيعة البلاد التي ساروا فيها جبلية تكثُر فيها الوديان والتجاويف شديدة الانحدار الأمر الذي عرقل سيرهم وأخذ منهم وقتاً أطول لعبورها، وإجمالاً كانت الحمير أكثر ملاءمة للبلاد؛ إذ تم تحميلها بسهولة أكبر في حين كان استخدام الجمال سيئاً، وواجهوا مشكلة في تفريغ حمولاتها عند كل وادٍ، وكان بيكر قلقاً من أن يسبقه جماعة التجار؛ لذلك عزم على المسير دون توقف طوال الليل، ومرا في طريقه بوادي تولوغو (Tollogo)، واضطر إلى رمي بعض المواد الثانوية لتخفيف الأعباء عن حيوانات النقل؛

(١) - اللاتوكا: شعب نيلي يقطن الجبال جنوب شرق بلاد باري، وكانوا يشتهرون بثروتهم من الماشية. ويصفهم بيكر بأنهم شعب طويل القامة مع قوام متناسق وجباه عالية وعيون كبيرة وعظام خد مرتفعة وأفواه ليست كبيرة وشفتان ممتلئتان وملامح جميلة تختلف بشكل عام عن بقية قبائل النيل الأبيض؛ إذ اعتقد أنهم ينحدرون من قبائل الجالا. ويبنى لاتوكا أكواخهم على النمط الدائري الذي تتبناه جميع قبائل وسط أفريقيا. وهم عرق مولع بالحرب تتكون أسلحتهم من الرماح، وصولجان قوية ذات رأس حديدي وسكين أو سيف ذي شفرات طويلة، ودروعهم إما من جلد الجاموس وأو الزرافات، ويرتدون غطاء من الجلد المدبوغ كما يرتدون ذبول طويل للغاية تماماً مثل ذيل الخيول، ويدهنون أنفسهم بالغرة الحمراء والشحوم. ويعد تعدد الزوجات فيما بينهم عرفاً عاماً. ووصلت إليهم الحملات التركية - المصرية قبل عام واحد من وصول بيكر (١٨٦٢)، وخلال ستينات القرن التاسع عشر انقسمت القبيلة في طريقة التعامل معهم؛ إذ قاومتهم بعض الجماعات، ولكن انضموا آخرين إلى الأتراك في إيقاع القبائل الأخرى أو حتى جندوا الوافدين الجدد كحلفاء في الحروب ضد مستوطنات لاتوكا الأخرى. وكانوا قد هزموا الأتراك في عدة مناسبات، لكن خلال العقدين التاليين فقدت لاتوكا تدريجياً جزءاً كبيراً من قطعانها في الغارات المستمرة والحروب الأهلية، واضطروا إلى كسب عيشهم كصيادين، ويؤكد جونستون الذي كتب في العام ١٩٠٣ أن لاتوكا كانت فقيرة آنذاك، وعلى الرغم من أن القليل منهم أصبحوا مسلمين فقد استمر معظمهم في اتباع أسلوب حياتهم التقليدي. عن Baker, Albert Nyanza, v1, p204-213. Peers, Armies of the nineteenth century, p17.

(٢) - Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1, p133-142.

لأنه كان عليهم عبور الممر الصخري بين تولوغو وجبل إليريا الذي تراوح ارتفاعه بين ألفين إلى ثلاثة آلاف قدم، ولكسب الوقت قرر بيكر أن يتقدم برفقة زوجته مع دليل من اللاتوكا ويترك مرافقيه للتغلب على صعوبات الممر^(١)، وما إن وصلوا إلى القمة حتى برز أمامهم وادي إليريا على بعد ميل تقريباً، ونزلوا في ممر ضيق من تلك السلسلة إلى الأسفل، وجلسوا على صخرة تحت ظلال شجرة صغيرة بانتظار وصول حزمهم، ولكنهم تفاجؤوا بوصول جماعة التاجر خورشيد التي تتكون من مئة وأربعين رجلاً مسلحين بالبنادق، وحوالي ضعف العدد من اللاتوكا يعملون كحمالين، فما كان من بيكر إلا أن سعى لاستمالة رئيسهم المدعو إبراهيم، ووعدته بمنحه هدية قيمة وبندقية جديدة كما أنه سيستخدم نفوذه في أي بلد يستكشفه ليتمكنه من شراء العاج، وهدده إذا ما تعرض للمصاعب بأن يحتجزه في الخرطوم عند عودته، ونجح بيكر في مسعاه، وقدمه إبراهيم إلى رئيس إيليريا المدعو ليجي (Legge) وشرح له من يكون، ومنحه بيكر الضريبة التي طلبها كرسوم للدخول إلى بلاده من أساور النحاس والخرز والمشروبات الروحية، لكنه لم يقدم لهم شيئاً في المقابل، ولم يسمح لشعبه ببيعهم أي مؤن، في وقت كان رجال بيكر يتضورون جوعاً، واضطر إلى تزويدهم بالأرز من مخزنه الاحتياطي، إذ لم يكن لديه شيء آخر لإطعامهم^(٢).

وغادر بيكر في ٣٠ آذار وادي إيليريا برفقة إبراهيم باتجاه شرقي، وبعد مسيرة شاقة استمرت ثمان ساعات عبر بلد مستو تتخلله الأشجار وصلوا إلى نهر كانيتي (Kanieti) الذي كان تياراً سريعاً بعرض أربعين إلى خمسين ياردة وضياف حادة جداً وعمق خمسة عشر قدماً، ويصرف مياهه إلى نهر السوبات الذي يتدفق في نهاية المطاف إلى نهر النيل. وبعد أن عبروا نهر كانيتي وصلوا إلى قرية واكالا (Wakkala) التي كانت تتألف من ٧٠٠ كوخ ومحاطة بمجموعة من الحواجز المكونة من الخشب والأشواك المنيعة على ارتفاع يقارب عشرين قدماً. وتابعوا سيرهم عبر غابة تزخر بمختلف أنواع الحيوانات من الجواميس والحمر الوحشية والعديد من أنواع الطباء الكبيرة، وعبروا بعد ذلك سهلاً من المستنقعات المفتوحة^(٣) حتى ووصلوا إلى بلدة في لاتوكا تدعى لاتوما (Latome) تعرض فيها بيكر لتمرد جديد من قبل رجاله استطاع أن يتجاوزه بنجاح. وتابع سيره برفقة إبراهيم مروراً بقاعدة جبل لافيت (Lafeet) الذي يبلغ ارتفاعه حوالي ٣٠٠٠ قدم، وهو أعلى قمة في السلسلة الشرقية التي شكلت وادي لاتوكا الواسع الذي يمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي بطول أربعين ميلاً وعرض ثمانية عشر ميلاً، ومغطى بالغابات والأدغال الكثيفة والسهول المفتوحة، وكان الطرف الجنوبي من الوادي محصوراً بسلسلة

(١) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1, p143-148, 154-165.

(٢) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1, p172-180.

(٣) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1, p181-187.

مرتفعة من الجبال ترتفع إلى ستة أو سبعة آلاف قدم فوق المستوى العام في لاتوكا. وتابعوا سيرهم بمحاذاة جبل لافيت باتجاه بلدة كبيرة تدعى "كاتاجا" (Kattaga)^(١)، ثم نحو قرية تارانغولي (Tarrangolle)؛ البلدة الرئيسية في لاتوكا ومحطة جماعة إبراهيم، وكانت تحتوي على ثلاثة آلاف كوخ، ومحصنة بشكل جيد، ولكل منزل فيها باحة صغيرة، وتشكل الماشية فيها ثروة البلاد، وتبعد نحو ١٠١ ميل عن غوندوكرو تقريباً. واستقبلهم في تارانغولي رئيس القرية المدعو موي (Moy) في كوخ من الطين مع ساحة نظيفة، وقدم له بئير الهدايا من الخرز الثمين والأسلاك النحاسية والمناديل القطنية الملونة. وفي اليوم التالي لوصولهم وصلتهم أنباء الكارثة التي حلت بأحد جماعات التجار في لاتومي الذين هاجموا قرية على إحدى الجبال المجاورة وتمت أبادتهم من قبل السكان الأصليين بالكامل الأمر الذي أدى إلى تغيير طريقة تعامل اللاتوكا الذين كانوا يحترمون القوة المتفوقة للبنادق، وخشي إبراهيم من هجوم عام على حزبه، فاضطر للعودة إلى غوندوكرو للحصول على المزيد من الذخيرة في حين ترك قسماً من حزبه مع بيكر في تارانغولي، وعقد بيكر العزم على التوجه نحو الجنوب الغربي كلما أمكن ذلك، ومن ثم استعادة الطريق الذي كان قد اقترحه في الأصل لرحلته إلى الجنوب غير أنه توجب عليه انتظار عودة إبراهيم من غوندوكرو لمواصلة طريقه^(٢).

ب- المسير نحو بلدة أوبو (Obbo):

بعد عودة إبراهيم من غوندوكرو سارع بيكر برفقته لمتابعة المسير بعد أن ساءت العلاقة بين جماعة إبراهيم والسكان المحليين من اللاتوكا نتيجة تصرفاتهم الهمجية ومعاملتهم السيئة للسكان التي كادت أن تؤدي إلى حرب وشيكة، وكانت وجهتهم نحو بلدة تدعى أوبو^(٣) التي تقع باتجاه الجنوب الغربي؛ الاتجاه الذي رغب بيكر بمواصلة السير فيه. وبدأت مسيرتهم في ٢ أيار عبر الوادي الشبيه بالمتنزه في لاتوكا ومروراً بنهر كانيي الذي عبروه سابقاً في واكالا بين إيليريا ولاتوكا، وخيموا على بعد ميل من النهر، وتابعوا سيرهم في اليوم التالي عبر طريق وعرة عانت خلاله حيوانات النقل صعوبات كبيرة، ووصلوا في الآخر بعد مسيرة متعبة إلى قرية أوبو التي تبعد نحو أربعين ميلاً جنوب غرب قرية تارانغولي، وتقع على هضبة ترتفع لنحو ٣٦٧٤ قدم فوق

(١) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1, p195-203.

(٢) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1, p204-224.

(٣) - يختلف سكان أوبو بشكل كامل عن اللاتوكا سواء في اللغة أم المظهر، وهم ليسوا عراة تماماً إلا عندما يذهبون إلى الحرب. لباسهم المعتاد هو جلد الظباء أو الماعز ويتدل مثل الوشاح على الأكتاف، ملاحظهم جيدة مع أنوف رفيعة الشكل، وشعر صوفي متلبد. ومع أن رجال أوبو يرتدون الجلود، إلا أن النساء شبه عاريات، ويكتفين بشيء طفيف من قطع الجلود، والفتيات غير المتزوجات عاريات تماماً، ولغتهم مثل لغة مادي، وكان هناك ثلاث لغات متميزة: باري، ولاتوكا، ومادي، ويمتد هذا البلد الأخير إلى الجنوب من أوبو. عن Baker, Albert Nyanza, v1, p309.

مستوى سطح البحر، وكان مناخها صحياً لكن هطول الأمطار فيها مستمر خلال عشرة أشهر من السنة من شباط إلى نهاية تشرين الثاني، والتربة فيها خصبة والغطاء النباتي غزير، وترتفع الحشائش فيها لعشرة أقدام بحيث لا يمكن اختراقها، وتشكل غابة شاسعة تسكنها الفيلة ووحيد القرن والجواميس التي يمكن لقوتها وحدها أن تتغلب عليها، وإجمالاً كانت أوبو بلداً غير مرغوب فيه؛ إذ لا توجد إمكانية لعبورها إلا بممرات المشاة الضيقة التي أقامها السكان المحليون^(١).

واستقبلهم رئيس أوبو المدعو كاتشيبا (Katchiba) مع العديد من رجاله بحفلة راقصة مع صوت المزامير وقرع الطبول التي جمعت حولهم أعداداً كبيرة من الرجال والنساء، وكان سكان أوبو على اختلاف مع لاتوكا؛ إذ لم يطلبوا أي هدايا، ومع أن الرئيس العجوز كاتشيبا تصرف مثل مهرج أكثر من كونه ملك فإنه كان يحظى باحترام كبير من قبل شعبه، وكان يبسط سلطته على رعاياه كصانع للمطر^(٢) وساحر^(٣)، وكان يطالب شعبه في بعض الأحيان بعدد معين من الماعز والمؤن، ويتم تقديمها بشكل عام، إذ أن كاتشيبا كان دبلوماسياً عجوزاً معروفاً يكرر مطالبه بدهاء عظيم، فإذا كان هناك نقص في المطر يستغل الفرصة لاستدعاء رعاياه، ويشرح لهم أن سلوكهم قد أجبره على معاقبتهم بحبس المطر؛ لأنهم لم يزودوه بالذرة والماعز فكيف يتوقعون منه أن يفكر في مصالحهم؟ وإذا اشتكى شعبه من المطر الكثير، فإنه يهدد بجلب العواصف والبرق عليهم إلا إذا أحضروا له مئات السلال من الذرة، فضلاً عن ذلك كان الجميع يسعون للحصول على مباركته عند قيامهم برحلة للحماية من خطر الحيوانات البرية، وبهذه

^(١) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1, p303-313.

^(٢) - صانع المطر: كان لهم دور بارز في كل مكان من شرقي أفريقيا حيث وجدت أسر تدعي قوة التسبب بنزول المطر. وكان هذا السر ينتقل بشكل وراثي من الأب إلى الأبن، وتعطيهم هذه الملكية الوراثة أهمية كبيرة بين الناس. فيقومون بمراقبة حالة الطقس بعناية، ويعرفون من خلال الخبرة وقت نزول المطر، ومن ثم يدعون الرؤساء على الفور لتقديم التضحية، وهؤلاء الخبيرين يجبرون السكان للمساهمة في شراء بقرة للتضحية لنزول المطر، فإذا نزل المطر يعزى بطبيعة الحال إلى قوة صانع المطر، وإذا لم ينزل فإن صانع المطر الماكر يتمكن من الحصول على أضحية أخرى. عن Krapf, travels, researches, and missionary labours, p170.

^(٣) - كان هناك اعتقاد راسخ بالسحر بكل فروعه في كل مكان من إفريقية الزنجية. ولا يجب الخلط بين المطبين والسحرة، فالمطبيبون الذين يمارسون هذه المهنة يحتلون مراكز مرموقة في الجماعة، وكان نشاطهم موجه بصفة خاصة إلى معالجة المرضى، ولكي يزاول الطبيب عمله بنجاح كان يتحتم عليه أن يعرف الكثير من الحقائق وأن يمتاز بذكائه، وكان المطيب يعرف السحر بكل فروعه ومقدوره أن يقتل أو يبرئ. بينما كان الساحر شخص يمارس السحر الشرير؛ ولهذا يعد عدواً لدوداً للجماعة لأنه يسعى للشر حباً به، ولم يقتصر أذاه على الأفراد فحسب بل ضد الإنسانية عامة، ولذلك كانوا يقتلونه بدون شفقة حيثما كان يكتشف أمره. وكانوا يعتقدون أن اشتغال الرجل بالسحر لم يكن في الغالب من وحي إرادته واختياره بل كان يفعله دون إدراك منه. عن رالف، شجرة الحضارة، ج ٣، ص ٦٩-٧٠.

الطريقة بسط كاتشيبا العجوز نفوذه على شعبه، ولإرضائه كان شعبه كثيراً ما يقدم له أجمل بناتهم مما أدى لاتساع دائرة زوجاته، وكان لدى كاتشيبا مئة وستة عشر طفلاً. وكانت كل واحدة من قراه محكومة من قبل أحد أبنائه، ولهذا كانت الحكومة بأكملها شأنًا عائلياً^(١).

ومع كون كاتشيبا ساحراً لم يكن رجلاً سيئاً بل كان لطيفاً جداً، واستقبل بيكر وحزبه بكل حفاوة، وقدم له معلومات كثيرة عن البلد، كما أكد له أنه لا ينبغي أن يسافر إلى الجنوب حتى شهر كانون الأول؛ لأنه من المستحيل عبور نهر أسوا (Asua) خلال موسم الأمطار، ومع ذلك صمم بيكر على المضي جنوباً واستكشف نهر أسوا. وبناء على ذلك قام بترك السيدة بيكر في أوبو مع حرس من ثمانية رجال تحت رعاية كاتشيبا، وبدأ سيره في ٧ أيار مع ثلاثة رجال باتجاه الجنوب بموازاة سلسلة جبال مادي، ووصل إلى نهر أتابي (Atabbi) الذي يبعد حوالي ثمانية عشر ميلاً عن أوبو، وهو مجرى دائم يتدفق من جبال مادي باتجاه الغرب، ويشكل رافداً لنهر أسوا، ووصلوا في اليوم التالي إلى بلد فاراجوك (Farajoke)، واستقبلهم رئيسها بترحاب وزودهم بكل المعلومات المتعلقة بالبلد، وأكد أنه من المستحيل عبور نهر أسوا خلال موسم الأمطار؛ لأنه كان تياراً عنيفاً يندفع على سرير صخري ولا يجزئ أحد على عبوره، وكان التل الذي بنيت عليه القرية يرتفع حوالي ثمانين قدماً فوق المستوى العام للبلاد، ويوفر منظراً رائعاً للمناطق المحيطة بها، ففي الشرق كانت سلسلة جبال مادي بينما كان الجنوب عبارة عن مراعي مفتوحة جميلة، ومع أن اسم المنطقة هو "فاراجوك" إلا أنه يشمل بلد سولي (Sooli) الواسع، وقبائل شوغو (Shoggo)، ومادي، وكانت جميع القرى تحت قيادة رؤساء ثانوين. ولما كان هناك القليل من المنفعة في البقاء في فاراجوك عاد بيكر إلى أوبو مع رجاله، وقطع المسافة كاملة (ثلاثين ميلاً) في يوم واحد^(٢)، وقرر عند وصوله إليها العودة إلى مخيمه في لاتوكا وانتظار موسم الجفاف. وبناءً عليه بدأ في ٢١ أيار برفقة إبراهيم ورجاله الذين كانوا مرضى من مناخ أوبو، ووصلوا في ٢٣ أيار إلى لاتوكا حيث وجدوا كل شيء في مكانه، وهناك انتشر المرض بين حيواناته ومات معظمها في غضون أيام قليلة، وكانت هذه الضربات الرهيبة لبعثته أكثر إرضاءً للاتوكا الذين أكلوا الحمير والحيوانات الأخرى في اللحظة التي ماتت فيها، كما تعرضت زوجته أيضاً لهجوم عنيف من الحمى، وعانى بيكر أيضاً من هجمات يومية، واندلع مرض الجدري بين أفراد جماعة إبراهيم، ومات منهم عدة أشخاص، وهكذا كان المخيم بأكمله يتفشى فيه هذا المرض الرهيب الذي كان آفة بين قبائل وسط إفريقيا ويجتاح البلاد من حين إلى آخر^(٣).

(١) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1, p314-320.

(٢) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1, p322-329.

(٣) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1, p346-347.

ج- المسير نحو مملكة أونيوورو:

بعد إقامة شهر في لاتوكا عزم إبراهيم وجماعته على المغادرة إلى أوبو مرة أخرى بعد أن ساءت علاقاتهم مع السكان المحليين، وذلك ما أزعج بيكر الذي رتب معسكره وحديقته لقضاء موسم الأمطار، والآن توجب عليه ترك كل شيء؛ لأن من المستحيل البقاء في ذلك البلد بقوته الصغيرة بعد أن أصبح السكان المحليون معادون. وبدأوا المسير باتجاه أوبو في ٢٣ حزيران ووصلوا إليها في خمسة أيام في ظل تساقط الأمطار المستمرة التي زادت من مصاعبهم، وعند الوصول إلى كوخه السابق وجد بيكر تغييراً كبيراً في المنطقة؛ إذ كان العشب على ارتفاع عشرة أقدام، وتمت تغطية معسكره في الغطاء النباتي، وكانت البلاد في حالة مرعبة من المجاعة؛ لذا رفض السكان تزويدهم بالموء مقابل الخرز، ولم يقايضوا أي شيء إلاً مقابل الأبقار، وكانت البلاد في وضع غير صحي بسبب المطر المستمر والعشب العالي الذي حال دون سير الهواء، فساءت حالتهم الصحية بسبب ذلك، كما انتشر الجدري في جميع أنحاء البلاد مع انتشار الذباب ولاسيما ذبابة التسي تسي، وخلال أسابيع عديدة فقد بيكر حيوانات النقل واحداً تلو الآخر، كما عانى العديد من رجاله من الحمى. وهكذا كانت طبيعة الحياة في أوبو طوال الأشهر التي أقاموا فيها حتى الأول من كانون الثاني عام ١٨٦٤ عندما انتهى موسم الأمطار^(١) وبدأ بيكر يستعد للرحلة جنوباً. ورغم معاناته من الحمى فقد أشتري ودرّب ثلاثة ثيران لاستخدامها في الركوب بدلاً من الخيول التي ماتت، كما رتب مع إبراهيم ليرافقه مع مئة رجل إلى أونيوورو بلد كمرافي بشرط أن يكبح جماعته ويمنعهم من النهب والتعدي على السكان، وأن يكون خاضعاً له تماماً، ولاسيما بعد أن نجح في الحصول على تأثير غير عادي بين أفراد جماعته بعد أن اشتهر بينهم كطبيب، وكان ناجحاً في معالجتهم، ووعد بيكر إبراهيم مقابل ذلك بأن يستخدم نفوذه مع ملك أونيوورو ليتمكنه من الحصول على العاج من ذلك البلد؛ إذ كان لديه مخزون جيد من الخرز المرغوب من قبل سكان أونيوورو بينما لم يكن لدى إبراهيم أي شيء منه، وهكذا كان يعتمد عليه لفتح الطريق^(٢).

وبناء على ذلك بدأ بيكر المسير برفقة إبراهيم ورجاله في ٥ كانون الثاني باتجاه الجنوب مروراً بنهر أتابي وقرية فاراجوك، ووصلوا بعد مسير ثلاثة أيام من هذه القرية إلى نهر أسوا الذي تدفقت مياهه إلى نهر النيل، وخيموا على ضفافه يومين، ومن ثم تابعوا المسير في ١٣ كانون الثاني باتجاه منطقة شوا (Shooa) التي كانت بمثابة حديقة طبيعية تقع على ارتفاع ٣٨٧٧ قدم، وتبعد ١٢ ميلاً عن مركز ديبونو في فالورو، وبعد يومين من وصولهم إلى شوا هرب كل

(١) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1, p369-374.

(٢) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p1-11.

حمالتهم من أوبو بعد أن سمعوا بوجهتهم نحو بلد كمرافي، كما علموا فيها أن جماعة محمد رئيس رجال ديبونو الذي خدعه في غوندوكرو قد ساروا مباشرة بعد أن حصلوا على معلومات عن البلاد من مرافقة سبيك إلى ريونجا (rionga)؛ الأخ المعارض لكمرافي وتحالفوا معه وهاجموا بلد كمرافي، وقتلوا نحو ثلاثمائة من رجاله، واستولوا على العديد من العبيد، الأمر الذي سيتسبب ببعض المصاعب لبيكر؛ إذ تمت مهاجمة كمرافي من قبل الأشخاص أنفسهم الذين رافقوا سبيك، وكان من الطبيعي أن يعتقد كمرافي أنه قد تم إرسالهم من قبل سبيك نفسه لمهاجمته، ورفض العديد من رجال إبراهيم عند سماع هذه المعلومات التوجه إلى أونورو. ولحسن حظ بيكر كان إبراهيم سيء الحظ في شراء العاج؛ لذلك اضطر إلى متابعة المسير مع بيكر في ١٨ كانون الثاني عبر البلد المعتاد إلى قرية فاتيكو (Fatiko) الواقعة على هضبة صخرية مرتفعة^(١)، وبعد مسير خمسة أيام من فاتيكو عبر بلد غير مأهول بالسكان ومغطى بالأعشاب والمستنقعات والغابات وصل بيكر في ٢٢ كانون الثاني إلى نيل فكتوريا أو نهر سومرست، وذلك بالاعتماد على خريطة سبيك التي قدمها له في غوندوكرو، وسار بمحاذاة النيل باتجاه الشرق إلى شلالات كاروما عند قرية أتادا (Atada) حيث تواصلوا مع السكان المحليين على الطرف الآخر من النهر وأبلغوهم بأن شقيق سبيك قد وصل مع زوجته لزيارة كمرافي وجلبوا له هدايا قيمة، ولكن حصلت بعض المماطلة في نقلهم عبر النهر نتيجة تخوف السكان من الخداع ولاسيما بعد ما قام به حزب ديبونو في العام السابق، وكان الملك قد أعطى أوامره بأنه لا ينبغي لأي غريب أن يعبر النهر، وبعد مباحثات طويلة سمحوا لبيكر وزوجته مع عدد من الرجال لحمل الهدايا بعبور النهر، وتبعهم فيما بعد بقية الرجال، وفي الوقت نفسه أرسلوا رسولا إلى كمرافي الذي كان على مسافة ثلاثة أيام من كاروما في عاصمته مرولي (Mrooli) ليبلغوه بوصولهم، وعبثاً حاول بيكر الاستفسار عن البحيرة ولكن لم يجبه أحد، وبقي في القرية عدة أيام حتى وصل رسول من كمرافي في ٢٩ كانون الثاني برفقة ثلاثة من الفارين من سبيك للتأكد من حقيقته، وبعد فحص دقيق لبيكر أكدوا بأنه شقيق سبيك نفسه، وأرسلوا لكمرافي يبلغوه بذلك مما أدى إلى مزيد من التأخير^(٢).

وفي ٣١ كانون الثاني بدأوا المسيرة باتجاه عاصمة كمرافي بالتوازي مع نهر النيل، ورافقتهم حشود من السكان المحليين لحمل أمتعتهم دون مقابل بأوامر الملك، وعلى الطريق عانى بيكر وزوجته من الحمى الشديدة حتى أن زوجته حملت على نقالة لعدم قدرتها على السير، وفي ٦ شباط توقفوا في قرية على مسافة ثلاثة أميال ونصف من قصر كمرافي، وتم احتجازهم هناك

(١) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p12-24.

(٢) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p30-39.

عدة أيام؛ لأن كمرازي كان يخشى من قوتهم البالغة ١١٢ من الرجال المسلحين، وبعد رسائل متكررة سمح له كمرازي بالتقدم مع رجاله وخمسة فقط من رجال إبراهيم، وبعد مسيرة سريعة من ثلاث ساعات وصلوا إلى العاصمة مرولي؛ وكانت قرية كبيرة من أكواخ عشبية تقع على منحدر قاحل، وتم نقلهم عبر نهر كافور في قوارب كبيرة إلى الضفة الجنوبية منه، ووضعهم في مخيم بئس يقع عند تقاطع نهر كافور مع سومرست في مكان مستنقي يعج بالبعوض وأوراق البردي واللوتس^(١)، وفي ١٠ شباط جاء كمرازي مع عدد كبير من الجنود المسلحين بالرمح لمقابلتهم، وقدم له بيكر الهدايا التي جلبها من السجاد الفارسي، وعباءة كشمير بيضاء كبيرة، ووشاحاً أحمر من الحرير، وزوجاً من الأحذية التركية، وعدة أزواج من الجوارب، وبنديقة مزدوجة، وذخيرة، وكومة كبيرة من الخرز مكونة من قلادات وأطواق رائعة، وأبلغه عن كونه صديقاً لسبيك وجرانت، وطلب منه دليلاً ليوصله إلى بحيرة لوتا نزيج، وضحك كمرازي على الاسم مع رؤسائه وقال أن اسمها موتان نزيج (Mwootan N'zige) وأنها تبعد رحلة عشرين يوماً من مرولي، وفي وضعه الضعيف هذا لن يتمكن من الوصول إليها، وتكررت اللقاءات بعد ذلك بينهما، وماتل كمرازي في منح بيكر دليلاً يوصله إلى البحيرة لاستنزاف مقتنياته قدر الإمكان، كما طلب منه كمرازي أن يتحالف معه لمحاربة أخيه المتمرد ريونجا، ولكن بيكر رفض ذلك في حين قام إبراهيم بتبادل الدماء معه كدليل على الصداقة^(٢) ووافق على التحالف معه ضد جميع أعدائه^(٣).

د- استكشاف بحيرة لوتا نزيج:

وافق كمرازي في الآخر بعد كثير من المماطلة والتسويق على منح بيكر دليلاً ليقوده إلى البحيرة، وذلك بعد أن استنزف معظم مخازنه، وبدأوا المسير في ٢٣ شباط بعد أن عبروا نهر كافور، وساروا بمحاذاته حتى وصلوا إلى مجموعة من الأكواخ حيث جاء كمرازي لوداعهم يرافقه عدد كبير من الرجال، وبدأ على الفور بابتزازهم وسلب ما تبقى من ممتلكاتهم، وزاد على ذلك بأن طلب من بيكر أن يترك زوجته هناك مقابل السماح له بالمسير إلى البحيرة، وهذا ما زاد

^(١) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p52-57.

^(٢) - الساري(sare) أو الأخوية: تقليد معروف في مختلف أنحاء إفريقيا الشرقية، يجلس بموجبه الشخصان اللذان ينويان إقامة الأخوة على الأرض مقابل بعضهم البعض مع مد ساقيهما إلى الأمام بشكل متداخل ثم يضعون أقواسهم وسهامهم على الفخذين، ويقوم شخص ثالث بإجراء جرح صغير فوق ركبتيهما أو فوق مكان القلب ويلق كل منهما بعضاً من دم الآخر، ويقسمان على حماية بعضهما حتى الموت بينما يقوم شخص آخر بإلقاء خطبة قصيرة معلناً إقامة الأخوية بينهما وينذر بالموت أو العبودية على من يخل بهذا القسم. عن Burton, the Lake Regions of Central Africa, v1, p199. Speke, what led to the discovery of the source of the Nile, p284.

^(٣) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p60-65.

من غضب بيكر ودفعه إلى رفع سلاحه في وجهه وهدد بقتله بسبب إهانتته، وأوضح له أن هذه الوقاحة ستؤدي إلى إراقة الدماء في بلاده، وأجاب كمرافي مع الدهشة أن لا داعي للغضب، وأنه لم يكن لديه أي نية للإساءة؛ إذ كان من عادته أن يعطي الزوجات لزواره، واعتقد أنه لا مشكلة في ذلك، وبدأ مرتباً إلى حد ما، وللتعويض عن ذلك سمح له كمرافي بالمسير على الفور وطلب من شعبه أن يحمل أحمالهم، وتابعوا المسير على ضفاف نهر كافور عبر سهل واسع من الأراضي العشبية تتخللها قرى صغيرة، ولحق بهم على الطريق قوة مؤلفة من ٦٠٠ رجل أرسلها كمرافي لمرافقتهم إلى البحيرة لكنهم كانوا مزعجين للمسيرة وتسببوا بتأخيرها بسبب عمليات النهب التي قاموا بها بحثاً عن الطعام، وانتهى الأمر ببيكر إلى طردهم، وتابع بعد ذلك المسير عبر غابات الميموزا حتى وصلوا إلى المستنقع الذي استلزم هذا المنعطف الكبير من مسارهم المباشر إلى البحيرة، وكان اتساعه ثلاثة أرباع الميل وعند وصولهم إلى الجانب المقابل استمروا من خلال الغابة الجميلة نفسها وعبروا نهر كافور الغارق في المستنقعات مرة أخرى والتي غرقت فيها السيدة بيكر بعد أن تعرضت لضربة شمس ودخلت على إثرها في غيبوبة استمرت عدة أيام، واضطروا لحملها على نقالة حتى وصلوا إلى قرية باركاني (Parkani) وفيها أخبرهم المرشد أن البحيرة أصبحت قريبة جداً^(١).

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي ١٤ آذار عام ١٨٦٤ صعدوا أعلى المنحدر المطل على بحيرة لوتا نزج التي أطلق عليها بيكر اسم ألبرت تكريماً لزوج الملكة فكتوريا، ومن ثم بدأوا بالنزول إلى البحيرة عبر مسار متعرج شديد الانحدار، وبعد نزول استغرق منهم قرابة ساعتين تقريباً وصل بيكر إلى البحيرة بقلب ممتلئ بالامتنان، وشرب بعمق من منبع النيل ومن ثم توجه إلى قرية صيد قريبة تدعى فاكوفيا (Vacovia). وفي اليوم التالي ذهب برفقة رئيس القرية ومرشده رابونغا (rabonga) إلى حدود البحيرة لمسح البلاد، وكانت البحيرة عبارة عن منخفض هائل دون المستوى العام للبلاد، وتحيط بها منحدرات متعرجة، ويحدها من الغرب والجنوب الغربي سلاسل كبيرة من الجبال تتراوح من خمسة إلى سبعة آلاف قدم فوق مستوى مياهها، وتمكن بيكر من خلال التلسكوب من تمييز شلالين كبيرين على الشاطئ المقابل، وأكد له الرئيس أن الزوارق الكبيرة قد عبرت إلى الجانب الآخر، ولكنها تطلبت أربعة أيام لإنجاز الرحلة، وفقدت بعض القوارب في المحاولة، وشغلت الشواطئ الشرقية للبحيرة من الشمال إلى الجنوب بلدان تشوبي (Chopi)، وأونيورو، وأوغندا، وأتومبي، وكاراجوي، بينما يتألف الشاطئ الغربي من البحيرة من مملكة ماليجا (Malegga) العظيمة التي يحكمها الملك كاغورو (Kajoro) الذي يمتلك قوارب كبيرة يتاجر بها مع كمرافي من نقطة مقابل ماجونغو (Magungo) على حدود البحيرة

^(١) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p73-84.

الشمالية حيث تنكمش البحيرة لعرض رحلة يوم واحد، ووصفت ماليا كبلد قوي للغاية، ويوجد إلى الجنوب منها بلد يدعى توري (Tori)، ويحكمه ملك يحمل الاسم نفسه، ووراء ذلك البلد إلى الجنوب لم يتمكن من الحصول على أي معلومات بينما إلى الشمال من ماليا على ضفاف البحيرة وجدت بلدان مكرولي (Mcaroli) وكوشي (Koshi) على الجانب الغربي من نهر النيل عند خروجه من البحيرة ثم مادي على الجانب الشرقي من النيل مقابل كوشي^(١).

كان من المهم بالنسبة إلى بيكر الإسراع في رحلته قدر الإمكان؛ لأن عودته إلى إنجلترا كانت تعتمد على إمكانية الوصول إلى غوندوكرو قبل نهاية شهر نيسان وإلا فإن القوارب التي تعاقد معها تكون قد غادرت؛ لذلك طلب بيكر من رئيس القرية تزويده بالزوارق الكبيرة ليسير عبر البحيرة في حين أرسل مرشده رابونغا مع الثيران وبقية الأحمال عبر البر ليسبقهم إلى ماجونغو ليجمع لهم الجمالين هناك للمسير باتجاه شوا، ولكن السكان المحليون خدعوهم بكل الطرق الممكنة من أجل ابتزاز الخرز، ومرت ثمانية أيام في فاكوفيا حتى تم تأمين الزوارق، وبعد أن قاموا بإجراء الإصلاحات اللازمة لها شرعوا على الفور في الإبحار في بحيرة ألبرت على شاطئها الشرقي باتجاه الشمال مروا خلالها بمساحات من الرمال والأدغال، وفي أوقات أخرى مروا مباشرة تحت مرتفعات هائلة من ارتفاع حوالي ١٥٠٠ قدم، وعند حلول الظلام تم توجيه الزورق إلى الشاطئ للاستراحة، وفي اليوم التالي وجدوا أن الملاحين قد هربوا، واضطر بيكر إلى المتابعة مستخدماً رجاله كمجدين فيما تولى هو القيادة حتى حصلوا على مجدين من القرى التالية، وخلال إبحارهم أجبرتهم عاصفة بحرية على اللجوء إلى الشاطئ، وانتظروا حتى اليوم التالي لمتابعة المسير^(٢).

ووصلوا في اليوم الثالث عشر من مغادرتهم فاكوفيا إلى ماجونغو في نهاية البحيرة الشمالية، وكانت البحيرة في هذه النقطة تتسع لخمسة عشر ميلاً من جانب إلى آخر، وعلى الشاطئ الغربي شوهدت الجبال على ارتفاع ٤٠٠٠ قدم فوق مستوى البحيرة، وكانت استمراراً للسلسلة التي شكلت الساحل الغربي من الجنوب، وانخفضت باتجاه الشمال لتنتهي البحيرة في واد واسع من القصب، وبعد الطواف حول القصب العائم لنحو ميل دخلوا قناة مائية واسعة يحدها القصب من الجانبين، وكان هذا مصب نهر سومرست؛ وهو النهر نفسه الذي عبّروه في كاروما ودخل الآن إلى بحيرة ألبرت كتيار مائي راكد، ونزلوا بعد ذلك على الشاطئ وكان في استقبالهم عدداً من السكان مع رئيس ماجونغو ومرشدهم رابونغا، وهناك أخبره الأهالي أن الزوارق يمكن أن تستمر في نهر النيل في مساره من البحيرة إلى بلد مادي، ولكن كان كل من بلدان مادي وكوشي معادين،

(١) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p89-99.

(٢) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p100-112.

وكان تيار النهر قوياً جداً بحيث إذا انزلق الزورق فيه من البحيرة فإنه لا يمكن أن يعود إلى البحيرة بسهولة^(١).

وكان مخرج النيل من البحيرة واضحاً بما فيه الكفاية، وإذا كانت القناة العريضة للماء الراكدة هي بالفعل مدخل نيل فيكتوريا (سومرست) فإن المعلومات التي تم الحصول عليها من سبيك ستكون مؤكدة بشكل ملحوظ، ومع أن رئيس ماجونغو وجميع السكان المحليين أكدوا أن هذه القناة ما هي إلا النهر الهادر الذي اجتازه بيكر أسفل شلالات كاروما، فإنه لم يستطيع فهم كيف يمكن أن يدخل إلى بحيرة ألبرت كمياه راكدة. ومع أن بيكر كان يأمل في النزول في نهر النيل من مخرجه من البحيرة إلى بلد مادي، ويسير من هناك مباشرة إلى غوندوكرو، إلا أن وعده لسبيك باستكشاف الجزء المشكوك فيه من النهر الذي أجبر على تركه عند شلالات كاروما إلى بحيرة ألبرت منعه من ذلك، وصمم على الصعود في نيل فكتوريا وتأكيده بالفحص الفعلي، لذا نزل على الفور مع رجاله في الزوارق في نيل فكتوريا الذي كان متوسط عرضه ٥٠٠ ياردة^(٢)، وبينما واصلت الزوارق رحلتها عانى كثير من رجال بيكر من الحمى، وكانت الملاريا أكثرها سمية، وبينما كانوا يمضون قدماً تقلص النهر تدريجياً إلى حوالي ١٨٠ ياردة، وعندما توقفت المجاذيف عن العمل كان بوسعهم سماع هدير الماء بوضوح، وبعد إبحار بضع ساعات وصلوا إلى عدد من أكواخ الصيد المهجورة في نقطة انعطاف فيها النهر بشكل طفيف، وعند الاقتراب من زاويته برز أمامهم مشهد شلال يسقط من ارتفاع ١٢٠ قدماً، وكان هذا من أعظم شلالات النيل، وأطلق عليه بيكر اسم مورشيزون على شرف الرئيس البارز للجمعية الجغرافية الملكية، وقام برسم تخطيطي له، ومن ثم رسوا في قرية الصيد المهجورة، وودعوا الملاحة في البحيرة والنيل^(٣).

وسار سبيك بعد ذلك مع رجاله على طول نيل سومرست، وعبروا العديد من الوديان حتى ووصلوا إلى الضفة التي كان من المقرر أن تنقلهم إلى جزيرة تدعى باتوان (Patoan) التي كانت مقر إقامة الرئيس، وكان طول الجزيرة حوالي نصف ميل وعرضها ١٥٠ ياردة، وهي واحدة من كتل الصخور العديدة التي تخنق النهر بين شلالات كاروما ومورشيزون، وفي وسط هذه المنطقة المنعزلة وجدت قرية كبيرة مكتظة بالسكان؛ إذ كان سكان البر الرئيسي قد فروا من مساكنهم ولجأوا إليها نتيجة الحرب الدائرة بين ريونجا وكمرافي، وكان هناك سلسلة من الجزر من شرق باتوان إلى شلالات كاروما معظمها في حوزة ريونجا وحليفه القوي فوكا (Fowooka) اللذين كانا عدوين لدودين لكمرافي، وتبين لبيكر أنه بعد رحيله من مرولي للبحث عن البحيرة كان إبراهيم

^(١) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p120-126.

^(٢) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p126-128.

^(٣) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p131-137.

قد تلقى تعليمات من كمرافي لمرافقة جيشه والهجوم على فوكا، وقد تم ذلك وقتل عدد من الرجال، وعاد بعد ذلك إلى غوندوكرو بكمية من العاج التي قدمها له كمرافي بعد أن ترك عشرة من رجاله المسلحين مع الملك ليكونوا بمثابة حرسه حتى عودته في العام التالي، وبعد مغادرة إبراهيم ورجاله قام فوكو بغزو البر الرئيسي لشوبي وحرق ودمر جميع القرى، وقتل العديد من الأشخاص، وبناء على ذلك لجأ الفارون من القرى المدمرة إلى جزيرة باتوان، وأخبرهم رئيس الجزيرة أنه سيكون من المستحيل عليهم المضي قدماً على طول ضفة النهر إلى شلالات كاروما؛ لأن هذا البلد بأكمله كان في حوزة العدو، وبالتالي تم إيقاف الاستكشاف، ولم يكن من الضروري مواصلة الطريق من باتوان إلى كاروما بعد أن تتبع بيكرنيل سومرست من تقاطعه مع البحيرة في ماجونغو إلى هذه النقطة^(١).

هـ- الإقامة في أونيبورو:

بعد الانتهاء من استكشاف بحيرة ألبرت ونيل فكتوريا حتى شلالات مورشيرون، وعدم القدرة على متابعة الاستكشاف حتى شلالات كاروما، أصبح بيكرورجالة أشبه بسجناء في جزيرة باتوان؛ لعدم مقدرتهم على استئجار الحمالين لنقل أمتعتهم، ولفقدانهم كل ثيران الركوب في غضون أيام قليلة بسبب الذباب، وكان ذلك في الثامن من نيسان، وفي غضون أيام قليلة كانت القوارب التي اعتمدوا عليها لعودتهم ستقلع من غوندوكرو؛ لذلك عرض بيكر على السكان المحليين كل ممتلكاته من الخرز والأمتعة، إذا كانوا سيحملونهم إلى شوا في بلاد مادي مباشرة من هذا المكان غير الصحي الذي أنهكهم تماماً من الحمى والتعب، ولكنه لم يفلح في ذلك، وعزم بيكر في الآخر على مغادرة هذا المكان الموبوء، ولاسيماً بعد أن شك في نية السكان في الاحتفاظ بهم كسجناء في الجزيرة؛ لذلك أمر رجاله بأخذ الزوارق، وانتقلوا إلى الشاطئ الرئيسي، وحمل بيكر وزوجته اللذان لم يكونا قادرين على المشي على نقالة إلى قرية مهجورة كان قد أحرقها ونهبها العدو وخيموا للإقامة ليلاً، وفي اليوم التالي وجدوا أن الحمالين قد هربوا، وتم هجرهم في مكان لا يوجد فيه سكان ولا مؤن ولا يشاهد فيها حيوان ولا حتى طائر^(٢).

واضطرب بيكرورجالة للإقامة في هذا المكان البائس قرابة شهرين قام رجاله خلالها بالعديد من الرحلات الطويلة عبر البلاد سعياً لشراء المؤن التي كانت نادرة بسبب الحرب بين كمرافي وفوكا، وقطعوا خلالها الأمل في الوصول إلى غوندوكرو، واستسلموا تماماً لمصيرهم، وشك بيكر في أن هجرهم وتجويعهم كان بناء على أوامر من كمرافي؛ إذ كان يصله كل فترة رسول منه يعلمه بتحرك جيشه ورغبته في الانضمام إليه في الحرب ضد فوكا، وبعد مرور أكثر من شهرين على

^(١) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p137-141.

^(٢) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p146-149.

هذه الضائقة أصبح من الواضح أنه يجب القيام بشيء ما لذا أرسل بيكر أحد رجاله مع مواطن محلي كدليل إلى كمرافي يبلغه أنه إذا كان ينوي التحالف معه فيجب عليه أن يقابله شخصياً، وأن يرسل على الفور خمسين رجلاً لنقلهم إلى معسكره، وبعد بضعة أيام ظهر الدليل الهارب رابونغا مع عدد من الرجال كان قد أرسلهم كمرافي لنقلهم على الفور إلى مخيمه؛ لأنه كان حريصاً على أن يهاجم فوكا دون تضييع مزيد من الوقت. وبدأوا المسير على الفور وفي غضون خمسة أيام وصلوا إلى معسكر كمرافي الواقع في قرية تدعى كيسونا (Kisoon)، واستقبله هناك عشرة من رجال إبراهيم الذين تركوا كرهائن حتى عودته في العام التالي، ووجد بيكر كوخاً معداً له بأمر من كمرافي الذي سرعان ما جاء لزيارتهم، وهناك علم بيكر أنه لم يقابل كمرافي الحقيقي بل شقيقه المدعو مغامبي (Mgambi) الذي كان قد انتحل شخصية أخيه الملك؛ لأن كمرافي كان يخشى من أن يكون بيكر قد تحالف مع شعب ديبونو لقتله، وفي اليوم التالي لوصولهم إلى كيسونا قابل بيكر الملك كمرافي الحقيقي الذي طلب منه أن يتحالف معه ضد فوكا، لكن بيكر أهمل الإجابة على طلبه، وأخبره أنه كان سعيداً جداً لرؤيته قبل رحيله، وحاول كمرافي الحصول على كل من البوصلة والساعة والبنديقية التي طلبها مسبقاً لكن بيكر رفض مجدداً، وتم إنهاء المقابلة بناء على ذلك، وعاد بيكر بعدها إلى معسكره في كيسونا^(١).

خمن بيكر أن كيسونا ستكون مقر إقامته حتى مغادرة البلاد لذلك قام ببناء كوخ مريح مزود بسقيفة مفتوحة للجلوس خلال الساعات الأكثر سخونة ويحيط به سياج، واستمر كمرافي بتزويده ورجاله بالموثون مما أحدث تغييراً سريعاً في مظهرهم بعد الحرمان الذي عانوه في الأشهر الماضية، واستقروا بشكل مريح في كيسونا، ورغم الطعام الجيد كان بيكر ضحية للحمى التي هاجمته كل يوم وبسبب نفاد مادة الكينين جرب بيكر حمامات البخار التي ساعدته بشكل كبير على التخلص من الحمى، وأفاده اللبن في الحفاظ على قوته، وتراجعت هجمات الحمى في العنف والتردد، وبعد قرابة أسبوعين كانت الشكوى قد خفت إلى حد كبير، ولم يعد لديه أي خوف من عدوه القديم. ومع أن الملك كمرافي كان يزوده بالموثون إلا أنه كان يبعث إليه يومياً رسولاً يطلب منه المثلول أمامه لاتخاذ الترتيبات اللازمة للهجوم المقترح على ريونجا وفوكا، وكان بيكر يتذرع بحالته الضعيفة حتى قرر كمرافي أن يزوره بنفسه، ومع بقاء القليل من مخزون الأمتعة باستثناء الأسلحة والذخيرة والأدوات الفلكية فقد اضطر بيكر إلى إخفاء كل شيء أسفل السرير خشية أن تكتشفها عيون كمرافي الجشعة وتطلبها، ومنذ لحظة دخوله الكوخ تسول كمرافي لكل شيء شاهده فطلب الكرسي الذي جلس عليه كهديّة، كما طلب كل ما تبقى لديه من الخرز، وكرر طلبه للساعة والبنديقية وهذه رفضت بحزم، وفحص كمرافي محتويات السلال

^(١) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p153-165.

والحقائب ثم فحص صندوق الدواء وطلب كمية صغيرة من جميع المحتويات، وطلب المزيد من البارود، واختتم بطلب مساعدته في الهجوم على جزر النهر واعداء إياه إذا ما قتل فوكا وريونجا سيعطيه جزءاً كبيراً من أراضيهم، لكن بيكر أجابه بأنه لا يستطيع التدخل في المنازعات المحلية، وأنه لن يضر أحداً أبداً إلا في حالة الدفاع عن النفس الأمر الذي أغضب كمرازي، وقام على الفور وخرج من الكوخ مع مرافقته، ولم يحصل بيكر بعدها على أي مؤن، واضطر إلى شرائها من إدريس الملازم الذي قاد جماعة إبراهيم^(١).

ومرت الأسابيع ببطء في كيسونا، وشغل بيكر نفسه خلالها في حفظ مذكراته، ورسم الخرائط، وكتابة رسائل إلى الأصدقاء في إنجلترا مع عدم وجود اتصال، وقام بتأكيد المعلومات التي تلقاها من خلال استجواب السكان المحليين، وهكذا تمكن من كسر الرتبة اليومية قليلاً، واستمر الأمر على هذا المنوال حتى استيقظ في صباح إحدى الأيام على صوت طبول الحرب، وأصوات أناس يصرخون في كل الاتجاهات، وجميعهم يرتدون ملابس الحرب مع الدروع والرماح، وعلم بيكر أن جيش فوكا قد عبر نهر النيل برفقة ١٥٠ رجلاً مسلحاً من حزب ديبونو التجاري؛ وهو نفسه الذي هاجم كمرازي في العام السابق بالتعاون مع جيش ريونجا، وكانوا يسرون مباشرة إلى كيسونا بنية الهجوم على البلد وقتل كمرازي الذي كان في حالة ذعر شديد، وجاء على الفور إلى بيكر يطلب مشورته، وأخبره بيكر أن لا داع للخوف، وأمر رئيس رجاله برفع الراية الإنجليزية، وأوضح لكمرازي أنه هو وبلده أصبحوا تحت حماية إنجلترا، وأرسل بيكر أربعة من رجاله مع أربعة من رجال إبراهيم إلى معسكر فوكا برسالة إلى حزب ديبونو يبلغهم فيها أن بلاد كمرازي أصبحت تحت حماية إنجلترا^(٢)، وأنها تنتمي إليه بحق الاكتشاف، وأعطى إبراهيم بناء على ذلك الحق الحصري في إنتاج ذلك البلد بشرط ألا يفعل شيئاً مخالفاً لإرادة الملك الحاكم كمرازي، ووضح لهم أن أي هجوم قد يحدث على بلد كمرازي سيقوم بإبلاغ القضية برمتها للسلطات عند عودته إلى الخرطوم وعندها سيتم شنق زعيمهم محمد، ونجح بيكر من خلال ذلك في إجبارهم على التراجع وحى كمرازي من الهجوم الوشيك^(٣).

^(١) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p168-178.

^(٢) - يدل ذلك على النزعة الاستعمارية التي حملها بعض الرحالة الأوروبيين الذين كانوا من روادها الأوائل وإن لم تتضح بشكل جلي حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، لكن معالهما كانت بارزة في سلوكهم وتصرفاتهم. وتعامل بيكر مع الهجوم على كمرازي أكبر دليل على ذلك، كما تبين أيضاً في سياسته التي اتبعها فيما بعد عندما عينه الخديوي إسماعيل حاكماً على مديرية الاستوائية في العام ١٨٦٩ والتي كانت تصب في مجملها في مصلحة القوى الأوروبية ولاسيما إنجلترا.

^(٣) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p180-186.

وأقام كمرزي بمناسبة ذلك النصر احتفالات عامة، واستغل فرصة تراجع حزب محمد، وقرر توجيه ضربة نهائية لأعدائه، واستطاع بمساعدة ما تبقى من رجال إبراهيم من هزيمة فوكا، وحققوا نصراً كاملاً، ولم يكتفوا بالاستيلاء على الجزر فقط بل ذبحوا عدداً كبيراً من السكان، واستولوا على جميع زوجات المتمردين مع عدد من العبيد وقطيع من الماشية، ولم تعرف فرحة كمرزي في هذا الانتصار حدوداً، وسكب العاج في المخيم كمكافئة لرجال إبراهيم، وطلب من بيكر الإقامة معه ووعدته بمنحه كل ما يحتاجه بالإضافة إلى مقاطعة كبيرة، ولكن الأخير أجاب بأنه لم يتوافق مع المناخ ولا شيء يحثه على البقاء، ولكن بما أن القوارب لن تصل إلى غوندوكرو لمدة ستة أشهر (حتى شباط) فسيقوم معه حتى ذلك الوقت^(١). وغرقت كيسونا بعد ذلك في رتابتها السابقة وأمضى السكان أوقاتهم في الغناء والشرب، ومرت عدة أسابيع على هذا الحال حتى وصلت في ٦ أيلول معلومات استخباراتية عن غزو جيش متيسا ملك أوغندا لبلد كمرزي بجيش كبير، وأنهم عبروا بالفعل نهر كافور وقاموا بالاستيلاء على مرولي، وكانوا يسرون مباشرة إلى كيسونا بقصد قتل كمرزي، وضم دولة أونورو إلى ممتلكات متيسا، فما كان من كمرزي إلا أن أحرق مخيمه وانسحب بجيشه وتحصن في جزر النيل، وانتقل بيكر وحزبه إلى قرية فويرا (Foweera) التي تقع على بعد ثلاثة أميال من شلالات كاروما، في حين تقدم جيش متيسا مكتسحاً البلاد أمامه، ولم يتم إيقاف تقدمهم إلا بعد أن علموا بوصول إبراهيم ورجاله المكونين من مئة رجل في ١٩ أيلول، وتراجعوا على الفور بعد وصول هذا التعزيز القوي، وهكذا تم إنقاذ كمرزي مرة أخرى، وأرسل لإبراهيم كمية كبيرة من العاج كمكافئة لذلك، وهناك بيكر بكل صدق على نجاح البعثتين الجغرافية والتجارية ملمحاً إلى أنه قام بالوفاء بوعدته، وبعد هذه الأحداث تهيأت الظروف لبيكر لبدء مسير العودة إلى الوطن^(٢).

و- مسير العودة إلى الوطن:

بدأ بيكر سيرة إلى شوا برفقة إبراهيم في ١٧ تشرين الثاني عام ١٨٦٤ بعد أن قاموا بوداع كمرزي، وتألقت قافلتهم من الرجال المسلحين والحمالين والنساء ما يقارب الألف شخص، وبعد مسير خمسة أيام عبر بلد غير مأهول وصلوا إلى شوا، واتخذوا مقامهم في معسكرهم السابق، وأقاموا في شوا حتى شباط من العام ١٨٦٥ قضاهما بيكر في التجول في الأنحاء، وصنع نسخ مكررة من الخرائط الخاصة به، وجمع المعلومات من السكان المحليين، ومن ثم بدأوا المسيرة باتجاه غوندوكرو مروراً بمجرى نهر أونيامي الذي ينبع من المنطقة الواقعة بين شوا وأونورو، ويصب في نهر النيل، وواصلوا الطريق عبر بلد مغطى بالعشب الأخضر، ومن ثم صعدوا جبلاً

^(١) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p189-193.

^(٢) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p201-203,228-230.

صخرياً من خلال ممروعر اطلّوا من خلالها على نهر النيل مرة أخرى مقابل جبل كوكو الذي يرتفع ٢٥٠٠ قدم فوق مستوى النيل، وتابعوا سيرهم بمحاذاة نهر النيل مروراً بأراضي قبيلة باري المعادية حتى وصلوا إلى غوندوكرو في ٢١ آذار من العام ١٨٦٥، وتم استقبالهم من قبل التجار الموجودين هناك، وعند الاستفسار عن القوارب والرسائل كان الجواب أن لا قوارب أو رسائل أو إمدادات أو معلومات قد وصلت من الأصدقاء أو العالم المتحضر، إذ تم الإبلاغ عن موتهم منذ زمن طويل^(١).

وفي تلك الأثناء وصلت الأخبار من الخرطوم عن قيام السلطات المصرية بمحاربة تجارة الرقيق ومصادرة السفن التي تحمل العبيد وسجن أطقمها، ومن جهة أخرى كان الطاعون يستعر في الخرطوم وقتل ما يقارب ١٥٠٠٠ شخص، ومات بسببه العديد من طواقم القوارب أثناء مرورهم من الخرطوم إلى غوندوكرو كما اندلع أيضاً حتى في المحطة التي كانوا فيها ومات الناس بسببه يومياً، واضطر بيكر إلى استئجار السفينة التي وصلت لحمل عاج خورشيد أغا والتي كانت ستعود فارغة، ولما كان الطاعون قد انتشر بين أفراد طاقمها أثناء الرحلة من الخرطوم أمر بيكر بتنظيف السفينة بالكامل بالماء المغلي والرمل وبعد ذلك تم تطهيرها بعدة جرعات من التبغ أحرقت داخل المقصورة، ومن ثم بدأ على الفور رحلته باتجاه الخرطوم. وبعد رحلة صعبة عانى فيها رجال بيكر من الطاعون وتوفي عدد منهم بسببه وصلوا إلى الخرطوم في ٥ أيار عام ١٨٦٥ حيث تم الترحيب بهم من قبل الأوروبيين القاطنين هناك. وهكذا كانت نهاية الرحلة الاستكشافية التي دامت ما يقارب عامين، وبعد إقامة شهرين في الخرطوم تابع بيكر طريقه عبر نهر النيل في ١ تموز باتجاه بربرة، ومنها تابع طريقه براً باتجاه سواكن؛ الميناء السوداني على البحر الأحمر في رحلة دامت أربعة وعشرين يوماً، وأبحر من سواكن في سفينة بخارية باتجاه السويس، ومنها إلى القاهرة حيث تلقى رسائل من إنجلترا كانت تنتظره في القنصلية البريطانية تخبره أن الجمعية الجغرافية الملكية منحتة الميدالية الذهبية تقديراً لجهوده في استكمال استكشاف منابع النيل، ومن القاهرة تابع بيكر برفقة زوجته باتجاه وطنه الأم إنجلترا^(٢).

٤- نتائج الرحلة:

أسفرت رحلة صمويل بيكر التي شغلت قرابة السنتين من ٢٦ آذار عام ١٨٦٣ وحتى ٢١ آذار من العام ١٨٦٥ عن النتائج الآتية:

(١) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p243-247,266,280.

(٢) -Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v2, p283-286,320,327,339.

- أكد بيكر المعلومات التي حصل عليها سبيك وجرانت من السكان المحليين عن البحيرة التي تدعى موتا نزيج أو كما أطلق عليها بيكر اسم بحيرة ألبرت التي كانت تشغل جزءاً مهماً من نظام نهر النيل ويصب فيها نهر نيل فكتوريا أو سومرست كما أطلق عليه سبيك الذي تتبعه من مخرجه من بحيرة فكتوريا وحتى شلالات كاروما، ولم يشاهد النيل بعدها إلا في بلاد باري. ونجح بيكر في الوصول إلى البحيرة المذكورة في ١٤ آذار من العام ١٨٦٤، وقام بمسح البلاد التي تحيط بها بالاعتماد على السكان المحليين، ومن ثم قام بالإبحار فيها ملازماً شاطئها الشرقي حتى وصل إلى نهايتها الشمالية، وشاهد مصب نيل فكتوريا في البحيرة في زاويتها الشمالية الشرقية، كما شاهد مخرج النيل الأبيض من البحيرة من جهتها الشمالية، وعلم من السكان المحليين أن النيل قابل للملاحة من البحيرة إلى بلاد مادي، وقام بيكر بالصعود مع نيل فكتوريا حتى وصل عند الشلالات التي أطلق عليها اسم مورشيزون، وتوقفت استكشافاته عند هذا الحد، ولم يستطع المتابعة حتى شلالات كاروما بسبب الحرب الدائرة بين كمرازي وأخيه ريونجا.

- قدمت رحلة بيكر معلومات قيمة عن جغرافية البلدان التي مرّ خلالها فقد تضمنت كتاباته وصفاً تفصيلياً دقيقاً للمناطق التي مرّ عبرها ولاسيما الجبال والأنهار والقرى التي وصلها.

- قدمت رحلة بيكر خدمات كبيرة للمعرفة التاريخية بعد جمعه للمعلومات التاريخية المتوفرة عن تاريخ المنطقة وعاداتها وتقاليدها التي تعد مصدراً لا غنى عنه لدراسة تاريخ المنطقة في تلك الحقبة.

- قدمت رحلة بيكر خدمة كبيرة لعلم الأنثروبولوجيا والدراسات المتعلقة بعلم الإنسان؛ إذ أرفق معلومات وافية عن معظم الشعوب التي صادفها، ولاسيما أصولها وعاداتها ولباسها وزينتها ومأكلاها ومشربها وأسلحتها وعادات وتقاليد الزواج وطرق الدفن المتبعة لديها.

- نوه بيكر مراراً في كتاباته عن تجارة الرقيق الشنيعة التي كانت تقوم على طول مجرى النيل الأبيض، وساهم فيما بعد في القضاء عليها بعد تعيينه من قبل الخديوي إسماعيل حاكماً على منطقة أعالي النيل.

- وأخيراً كان لبيكر إسهاماً كبيراً في حل مشكلة منابع نهر النيل، وكانت رحلته حلقة مهمة في مسيرة حل تلك المعضلة، لكن المشكلة لم تنتهِ برحلته؛ إذ لم يحسم الأمر بعدم وجود منابع أخرى للنهر واستلزم الأمر جهود رحالة آخرين اشتهر اسمهما بين مستكشفي القارة الإفريقية وهما لفنجستون وستانلي.

ثانياً- رحلة ديفيد لفنجستون الأخيرة بين عامي ١٨٦٥-١٨٧٣:

١- لمحة عن حياة ديفيد لفنجستون (David Livingston) (١٨١٣-١٨٧٣):

ولد ديفيد لفنجستون المبشر والطبيب والمستكشف الاسكتلندي في مدينة بلانتاير (Blantyre) في اسكتلندا في ١٩ آذار عام ١٨١٣ لأسرة اسكتلندية فقيرة، وعمل في معمل لنسج القطن وهو طفل في العاشرة من العمر، ولكنه كان يتردد على مدرسة مسائية ويبقى فيها حتى ساعة متأخرة من الليل؛ إذ كان شديد الطموح لأن يصبح طبيباً ومبشراً، وتمكن بعد جهد كبير من تأهيل نفسه في سن الثالثة والعشرين للاضطلاع بالدراسة الجامعية فالتحق بكلية أندرسون غلاسكو في الفصول الطبية والدراسات الإغريقية واللاهوت، وانتهز كل فرصة سنحت له لاكتساب خبرات ومهارات يدوية وعلمية جديدة، وانضم في العام ١٨٣٨ إلى جمعية لندن التبشيرية وقضى فيها فترة تدريبية لعدة أشهر، وحصل على شهادته الطبية من كلية الأطباء والجراحين في غلاسكو في العام ١٨٤٠. وجه لفنجستون اهتمامه في البداية إلى الصين وأصيب بخيبة أمل كبيرة بعد تعذر ذهابه إليها بسبب اندلاع حرب الأفيون، وبناء على نصيحة المبشر المشهور الدكتور روبرت موفات^(١) حوّل لفنجستون اهتمامه إلى قارة إفريقيا التي وصلها في العام ١٨٤١، وأمضى فيها قرابة الثلاثين عاماً من حياته، قام خلالها برحلات عديدة، وقابل هناك ابنة المبشر موفات التي تزوجها بعد ذلك ورافقته في بعض رحلاته، ويعزى إليه الفضل في استكشاف معظم الأجزاء الجنوبية من القارة، وأضاف إلى الخريطة الإفريقية كثيراً من المعالم التي لم تكن معروفة من قبل، ولاسيما بحيرة نجامي وصحراء كلهاري التي عبرها وكتب وصفاً مفصلاً عن نباتاتها وحيواناتها في العام ١٨٤٩، ومنابع نهر الزامبيزي والشلالات الواقعة عليه والتي أطلق عليها اسم فكتوريا، كما عبر القارة من الغرب إلى الشرق في العام ١٨٥٦، واستكشف نهر شاير وبحيرة نياسا في العام ١٨٥٩، وأسهم في تحديد خطوط تقسيم المياه بين الأنهار الرئيسية الثلاث: النيل، والكونغو، والزمبيزي، واكتسب محبة السكان المحليين وودهم بما كان يقدمه لهم من خدمات، وأورد تفاصيل رحلاته في مؤلفات عديده من أهمها "رحلات واستكشافات في جنوب إفريقيا"، و"البعثة إلى نهر الزامبيزي وروافده"، ومنحته جامعة أكسفورد

(١) - روبرت موفات (١٧٩٥-١٨٨٣): مبشر اسكتلندي ولد في أورمستون (Ormiston) في العام ١٧٩٥ لأسرة متواضعة. بدأ حياته كبستاني، وقدم نفسه في العام ١٨١٤ إلى جمعية التبشير في لندن، وتم إرساله في العام ١٨١٦ إلى جنوب إفريقيا، حيث تنقل في مناطق عدة فيها مبشراً بين قبائلها حتى العام ١٨٧٠ حيث عاد إلى وطنه، وأبلغ نتائج رحلاته إلى الجمعية الجغرافية الملكية، كما نشر مؤلفاته ومشاهدته في جنوب إفريقيا في العام ١٨٤٢، وقام بترجمة الكتاب المقدس. كان موفات بناءً، ونجاراً، وحداداً، وبستاني، ومزارع في آن واحد، ونجح من خلال الإرشاد في تحويل مجموعة من السكان إلى شعب يقدر ويشجع فنون وعادات الحياة المتحضرة، وقوبل بإحباط ومخاطر لا تصدق في البداية لكنه تغلب عليها بإيمانه وتصميمه، وإليه يرجع الفضل في تولي لفنجستون "صهره" عمله اللاحق عند عودته إلى إنجلترا، وتوفي في تونبريدج ويلز في العام ١٨٨٣. عن The encyclopedia Britannica, v18, p645.

الدكتوراه الفخرية في الجغرافيا عن رحلاته، كما منحته الجمعية الجغرافية ميداليته الذهبية، ومن أكثر رحلاته شهرة في القارة الإفريقية رحلته الأخيرة التي بدأها في العام ١٨٦٦ بتكليف من الجمعية الجغرافية الملكية؛ لاستكشاف وسط إفريقيا والعثور على منبع النيل، واستمر فيها لفنجستون حتى وفاته في العام ١٨٧٣، ونقل رجاله المخلصون جثمانه وجميع أوراقه وأدواته عبر إفريقيا في رحلة صعبة إلى زنجبار حيث نقل بعدها إلى إنجلترا، ودفن في مقبرة كنيسة وستمنستر في ١٨ نيسان عام ١٨٧٤، ونُشرت مذكراته التي تم حفظها بأمانة خلال هذه الرحلات التي استمرت سبع سنوات تحت عنوان "الرحلات الأخيرة لديفيد لفنجستون في وسط إفريقيا" في العام ١٨٧٤، وعُدَّ لفنجستون بحق من أعظم المستكشفين الذين عرفتهم القارة الإفريقية^(١).

٢- التحضيرات الأولية للرحلة:

لم تُنه رحلات بيرتون وسبيك وبكر مشكلة منابع النيل بشكل قاطع، وبقي الجدل قائماً حول ما إذا كان هناك المزيد من المنابع أم لا، كما كان لابد من التأكد من الاكتشافات التي توصل إليها الرحالة السابقون. وبناء على ذلك قامت الجمعية الجغرافية الملكية الإنجليزية عن طريق رئيسها السير رودريك مورشيزون بتكليف المبشر والمستكشف المشهور ديفيد لفنجستون الذي اقترن اسمه باكتشاف نهر الزامبيزي؛ للقيام برحلة إلى شرقي ووسط إفريقيا مع أنه كان يرغب في قضاء ما تبقى من أيامه في المنزل بعد رحلاته الطويلة في جنوب إفريقيا، ولتشجيعه وتسهيل مهمته وإضفاء الطابع الرسمي على تعاملاته مع الرؤساء المحليين تم تعيينه قنصلاً في وسط إفريقيا بدون مرتب، وساهمت الحكومة الإنجليزية بمبلغ ٥٠٠ جنيه استرليني في الرحلة الاستكشافية، وألحقت بها ١٠٠٠ جنيه خلال الجزء الأخير من الرحلة، وجاءت المساعدة الرئيسية من الأصدقاء والمقربين الذين زودوه بـ ١٠٠٠ جنيه، كما ساهمت الجمعية الجغرافية بمبلغ ٥٠٠ جنيه استرليني. وكان الهدف الرئيس من الحملة هو محاربة العبودية من خلال نشر التأثيرات الحضارية، وتوضيح شبكة الأنهار والبحيرات في هضبة وسط إفريقيا ولاسيما بعد ما تضاربت الآراء حول منابعها ومصباتها، وكان لفنجستون مسروراً وتوقفاً لهذه الفرصة التي ستتيح له الكشف عن منبع النيل بنفسه^(٢).

(١)- The encyclopedia Britannica, v16, p813-814. Pletcher, the Britannica guide to explorers and explorations, p140-147. Patte, the Cambridge dictionary of Christianity, p736.

- إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ص ٢١٧-٢١٨. كام، المستكشفون في أفريقيا، ص ٢١٥-٢٣٣. رياض، كشف إفريقيا، ص ٢٢٥-٢٥١. هارب، الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي، ص ٢٠٤-٢٠٦.

(٢) - The encyclopedia Britannica, v16, p815-816. Brown, the story of Africa and its explorers, v2, p248.

وبناء على ذلك غادر لفنجستون إنجلترا في منتصف آب عام ١٨٦٥ إلى بومباي، ومنها إلى جزيرة زنجبار التي وصلها في ٢٨ كانون الثاني عام ١٨٦٦ على متن السفينة ثولي (Thule) التي أرسلتها حكومة بومباي هدية إلى سلطان زنجبار، وتم تكليف لفنجستون بتقديمها لإظهار مقدار التقدير الذي يستحقه ولحث سلطان زنجبار على تقديم كل المساعدات الممكنة لمشروعه. وفي اليوم التالي لوصوله إلى الجزيرة تمكن لفنجستون من مقابلة السيد ماجد بن سعيد سلطان زنجبار الذي استقبله استقبالاً طيباً، وأخبره لفنجستون بطبيعة مهمته، وكان السلطان كريماً جداً معه ومنحه خطابات توصية إلى جميع رعاياه العرب في الداخل لمساعدته وتقديم كل ما يحتاج إليه. وبدأ لفنجستون بالإعداد لرحلته وشراء ما يلزم من مواد ومؤون، ورتب مع كورجي (Koorje) التاجر الهندي الذي يشغل منصب التحصيل الجمركي في الجزيرة لإرسال إمدادات من الخرز، والقماش، والطحين، والشاي، والقهوة، والسكر إلى أوجيجي على بحيرة تنجانيقا على أن تبقى تحت مسؤولية واحد من رجاله من أجل تكوين مستودع للسلع والمؤون هناك حتى لا يكون معدماً عندما يصل إليها. وما إن تمت الاستعدادات حتى أخذ لفنجستون إذن للمغادرة من السلطان وأبحر باتجاه البر الرئيس في ١٩ آذار عام ١٨٦٦ يرافقه ١٣ جندياً هندياً مسلحين بالبنادق، و ١٠ رجال من جزيرة جوانا (إحدى جزر القمر)، و ٩ من الفتيان الأفارقة من مدرسة ناسيك في بومباي، وأربعة فتيان من منطقة شاير وهم: سوسي (Susi)^(١)، وأمودا (Amoda)، وويكاتاني (Wekatani)، وشوما^(٢) (Chumah)، وقد سبق أن تم توظيف معظمهم من قبل الدكتور لفنجستون في رحلته السابقة إلى الزامبيزي وشاير، وأخذ معه أيضاً حيوانات للنقل مكونة من ستة جمال، وثلاثة جواميس، وعجل، وبغلين، وأربعة حمير، وكانت أمتعة الرحلة

- فيصل محمد موسى، موجز تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، ص ١٠٩ الجمل، تاريخ أفريقيا الحديث، ص ٢٧-٢٩. كام، المستكشفون في إفريقيا، ص ٣٠٨.

(١) - عبد الله ديفيد سوسي (١٨٩١-٩): رافق لفنجستون في مختلف رحلاته، وحمل جثمانه بعد وفاته في العام ١٨٧٣ مع شوما من إيلالا إلى زنجبار. وزار الاثنان إنجلترا بعد وفاة لفنجستون، وحصلوا في العام ١٨٧٤ على ميدالية برونزية من الجمعية الجغرافية الملكية تقديراً لولائهم وخدمتهم للفنجستون. عاد سوسي إلى شرق إفريقيا في العام ١٨٧٥ كقائد لقافلة بعثة الجامعات إلى وسط إفريقيا، وتم تعميده في العام ١٨٨٦ باسم ديفيد. وتوفي في العام ١٨٩١ بعد معاناة من مرض طويل. عن Thomas P. Ofcansky-Rodger Yeager, Historical Dictionary of Tanzania, The Scarecrow Press, London, 2E, 1997, p170.

(٢) - جيمس شوما (١٨٥٠-١٨٨٢): يعرف أيضاً باسم جمعة، رافق إلى جانب سوسي الرحالة لفنجستون في رحلاته عبر شرق ووسط إفريقيا. وساعد في العام ١٨٧٣ في نقل جثة المستكشف التبشيري من وسط إفريقيا إلى باجامويو لنقلها إلى زنجبار، ومن ثم إلى مكانه الأخير في ويستمنستر. وقاد شوما بعد وفاة لفنجستون بعثة الجامعات إلى وسط إفريقيا في قافلة من زنجبار إلى ماساسي في العام ١٨٧٧، وقافلة جوزيف طومسون من زنجبار إلى بحيرة نياسا وبحيرة تنجانيقا في العام ١٨٧٩، وتوفي في زنجبار في العام ١٨٨٢. عن Ofcansky, Historical Dictionary of Tanzania, p47.

تتكون من عشرة بالة من القماش وحقيبتين من الخرز التي كانت بمثابة العملة التي سيشترون بواسطتها ضروريات الحياة في البلدان التي ينوي الطبيب زيارتها، إلى جانب عدة صناديق من الأدوات مثل الكرونومتر، ومقاييس الحرارة، والسدس، وصناديق الملابس، والأدوية، والحاجيات الشخصية، ووصلوا في ٢٢ آذار إلى خليج نهر روفوما ورسوا على بعد ميلين من مصب النهر وبعد أن وجدوا صعوبة في النزول في فم روفوما انتقلوا إلى ميناء ميكنداني الواقع على مسافة ٢٥ ميلاً شمال روفوما حيث هبطت البعثة، واستأجر لفنجستون منزلاً وضع فيه كل حمولاتهم، وبدأ على الفور في إعداد السروج لحيوانات النقل، وتقديم بطلب للحصول على عشرين حملاً أيضاً، وتم الاتفاق مع تاجر هندي للحصول عليهم في أقرب وقت ممكن. وما إن تمت الاستعدادات حتى بدأوا الرحلة إلى داخل إفريقيا في الرابع من نيسان عام ١٨٦٦^(١).

٣- سير الرحلة: (ملحق ١٥)

أ- المسير إلى بحيرة نياسا:

بدأ لفنجستون المسير نحو الداخل في ٤ نيسان عام ١٨٦٦ انطلاقاً من ميناء ميكنداني باتجاه الغرب في محاذة لنهر روفوما، وعلى مسار مستوٍ خالٍ من الغطاء النباتي ماراً بقرية كنداني (kindany) التي حصل فيها على دليل يدعى بن علي كان قد حصل على مبلغ عشرين دولاراً لمرافقتهم، وتابعوا طريقهم عبر وادٍ مشجر على كل جانب مروراً بقرى عدة من بينها نيانغيدى (Nyangedi)، وتاندهارا (Tandahara)، وناري (Narri)، وكان الطريق مغطى بالغابات الكثيفة التي مع أنها لم تقدم أي عرقلة للمسافرين الذين يمشون سيراً على الأقدام بل قدمت ظلاً مقبولاً، لكن كان لابد من قطعها لمرور الإبل، ولحسن الحظ كان سكان القرى سعداء للمشاركة إما على شكل حطابين أو على شكل حمالين، فخفف لفنجستون الحمل على الجمال، وحظي بمجموعة لقطع الأحراش لتوسيع الطريق في الغابة الكثيفة، وعانى لفنجستون كثيراً من الجنود الهنود الذين رافقوه وكانوا يشكلون حملاً ثقيلاً عليه، ولم يكن من الممكن استخدامهم إلا كحراس في الليل في حين كانوا بطيئين جداً في المسير في النهار فضلاً عن أنهم كانوا يعاملون حيوانات النقل بقسوة أدت إلى موت معظمها فيما بعد، كما عانى لفنجستون ورجاله أيضاً من نقص المؤن على الطريق نتيجة الحروب المحلية، وكانوا ملزمين بإرسال الرجال في كل اتجاه للحصول على المؤن^(٢).

وفي الأول من أيار كان مسيرهم في أعالي نهر روفوما عبر بلد خالٍ نسبياً من الغابات مروراً عبر قرى نتادا (Ntande)، وماكوا (Makoa)، ونيامبا (Nyamba)، وجبوندي (Jponde)، وفي هذه

(١) - Horace Waller, David Livingston, in central Africa, from 1865 to his death, Hartford, conn., London, 1875, p19-27.

(٢) - Waller, David Livingston, in central Africa, p27-32.

الأخيرة ترك لفنجستون الجنود الهنود وأولاد ناسيك ليربحوا الحيوانات وأنفسهم مدة خمسة أيام ومن ثم يلحقوا به، كما قام بإرسال بعض الرجال إلى الجنوب والغرب للحصول على الإمدادات، وتابع سيره مع رجال جوانا وأربعة وعشرين حمالاً ماراً بقرى مويدا (Moedaa)، وماتاواتا (Matawatawa)، وتكونت مصاعب مسيرتهم من حيث الحصول على الحمالين، والحاجة إلى الغذاء، واضطروا للقيام بمسيرات قصيرة بسبب الجوع، واستقبلهم رئيس قرية ماتومورا (Matumora) الذي يتمتع بشخصية جيدة في البلاد، وكان لطيفاً جداً معهم، وقدم لهم بعض المؤن، وتابعوا طريقهم في ٤ حزيران باتجاه الغرب مروراً بقرى لامبا (Lamba) على ضفاف روفوما، وميكوسي (Mekosi)، وميتابا (Metaba)^(١)، وتابعوا سيرهم في ١٩ حزيران متابعين مسارات النخاسين، وشاهد لفنجستون في طريقه كثيراً من الدلائل على استمرار تجارة الرقيق ومن بينها أرقاء متروكون على الطريق وقد شوهدت أجسادهم من فرط التعذيب، وتركوا في حالة يرثى لها لكي يموتوا إن لم يكونوا قد ماتوا بالفعل، وكانت جماعات تجار العبيد يهربون منه فور سماعهم عن اقترابه، ومرّ لفنجستون بقرى عديدة كان أغلبها مهجوراً نتيجة تجارة الرقيق. وفي ٢ تموز استراحوا في قرية ماتاريكا (Mtarika) وكان عليهم دفع ثمن باهظ للحصول على وجبة واحدة في اليوم، وحاول لفنجستون مع هذا الرئيس وغيره مخاطباً إياهم عن شروور بيع شعوبهم لتجار الرقيق، ومن ثم غادروا إلى متيندي (Mtende)، ومنها إلى ماتاكا (Mataka) التي وصلوها بعد مسير ثمانية أيام من المشي المجهد والمرهق، والطعام الشحيح والتي وجدت في واد مرتفع محاط بالجبال، وضمت نحو ١٠٠٠ كوخ، واستقبلهم رئيسها البالغ من العمر ستين عاماً بترحاب، وأعطاهم كوخاً للإقامة فيه، وكان هذا الرئيس على عكس معظم رؤساء القبائل الإفريقية معارضاً لتجارة العبيد وحرّم على شعبه ممارستها، وهذا ما حصل على استحسان لفنجستون وشجعه على ذلك، وفي ماتاكا أصبح الجنود الهنود غير محتملين بالنسبة إلى لفنجستون بعد أن قتلوا عدداً من حيوانات النقل وعرقلوا المسير؛ لذلك قام بالتخلص منهم بصرفهم وإعادة إرسالهم إلى الساحل^(٢).

وتابع لفنجستون المسير في ٢٨ تموز ١٨٦٦ برفقة مجموعته الصغيرة بعد أن قدم لهم متاكا كمية جيدة من المؤن بالإضافة إلى الرجال لتوجيههم إلى بحيرة نياسا، ومروا بقرى ماجولا (Magola)، وبيزيمبا (Pezimba)، ومبانغا (Mbannga)، ووصلوا في الثامن من آب إلى بحيرة نياسا، وحاول لفنجستون عبور البحيرة بالزوارق، ولكن العرب رفضوا التعاون معه، ويعزي لفنجستون ذلك إلى الخوف الذي ألهمه الإنجليز لتجار الرقيق العرب مما دفعهم إلى التهرب منه ورفض

(١) - Waller, David Livingston, in central Africa, p33-40.

(٢) - Waller, David Livingston, in central Africa, p45,55-59.

مساعدته؛ لذلك لم يستطع إرسال رسائل إلى الساحل أو عبور البحيرة، واضطر إلى أن يسير حول الحافة الجنوبية للبحيرة، وكانت المنطقة خراباً نتيجة لانتشار تجارة العبيد والحروب المحلية، ومروا بالعديد من القرى المهجورة، وتابعوا السير حول السلسلة التي تحيط بالجزء السفلي من البحيرة مروراً بقرية موكاتي (Mukate)، ووصلوا في ١٩ أيلول إلى قرية مبوندا (Mponda) الواقعة عند نهاية الحافة الجنوبية الغربية للبحيرة؛ وهي قرية كبيرة واقعة في سهل خصب وبذلك كانت نهاية مسيرتهم في هذه المرحلة^(١).

ب- المسير إلى بحيرة تنجانيقا:

بدأ لفنجستون في ٢١ أيلول عام ١٨٦٦ المسير إلى الغرب من بحيرة نياسا بعد أن وظف رجلان ليعملا كدليلين في بلد تشغل فيه المستنقعات جزءاً مهماً من جغرافيته الطبيعية، وبعد سبع ساعات من السفر الشاق وصلوا إلى قرية مارينجا (Marenga) الواقعة على الشاطئ الغربي لبحيرة نياسا، وسرعان ما تجمع شعبها على الفور لمشاهدة الغرباء، واستغل لفنجستون المناسبة لإخبارهم بشيء عن الكتاب المقدس، واستمع إليه الجميع باهتمام كبير. ووصلتهم في هذه القرية أخبار عن غزو قبائل مازيتو^(٢) لكل البلاد الواقعة على طريقهم الأمر الذي أربع مرافقيه ودفعهم إلى رمي أحمالهم والفرار في حين تابع لفنجستون سيره برفقة تسعة مرافقين حتى وصلوا إلى قرية كيمسوسا (Kimsusa) الذي زاره لفنجستون من قبل، وبدأ سعيداً لرؤية صديقه القديم مرة أخرى، والذي زوده بالحمالين على أن يدفع لهم مسبقاً، وتابع لفنجستون سيره باتجاه الشمال مروراً بقرى كاوا (Kawa)، وتامبالا (Tamiala)، وشيتامبا (Chitimba)، وواصلوا المسير عبر قرى شيسومبي (Chisumpi)، وبارتالا (Paritala) ورئيسها تشيتيكولا (Chitikola) الذي أحسن استقبالهم وقدم لهم المسكن والطعام^(٣).

وتابع لفنجستون رحلته في ٢٢ تشرين الأول باتجاه الغرب عبر نهر ليلونغو (Lilongwe)، ثم

(١) - Waller, David Livingston, in central Africa, p62-70.

(٢) - قبائل مازيتو: عرفت هذه القبائل باسم مافيتي (Mavitis) ومازيتو (Mazitus) وهم سكان حوض الزامبيزي جاءوا من الجنوب مع قبائل الزولو وقاموا باحتلال المناطق الشمالية من النهر، وانقسموا فيما بعد إلى فرق مستقلة. ويشبهون في مظهرهم قبائل الزولو الجنوبيين، وربما يعودون إلى نفس المنطقة، إذ أنهم يتكلمون نفس اللغة ولديهم نفس العادات تقريباً. وجحافل مافيتي منضبطة جيداً وتحجم دائماً على العدو دون انتظار الرد على وابل البنادق أو السهام، وتقاتل في أماكن قريبة بالسيف والرمح. قام مافيتي في منطقة نياسا بأعمال تدمير شديدة مروراً إلى الجانب الشمالي من الزامبيزي، واحتاحوا أراضي روفوما وروفيجي في تتابع سريع وحرقوا القرى، وذبحوا جميع الرجال البالغين، ودمجوا المحاررين الشباب في صفوفهم، وباعوا النساء لتجار الرقيق. وعندما تحركت جحافل مافيتي المدمرة في المناطق البعيدة غرباً استقرت في المناطق الجبلية غرب بحيرة نياسا والتي تمتد نحو منابع نهر لوانغو بينما اندمجت تلك التي تركت على الجانب الشرقي من البحيرة تدريجياً في السكان الأصليين المحيطين بها. عن Reclus, Earth and its inhabitants, v4, p271-272.

(٣) - Waller, David Livingston, in central Africa, p72-84.

تحول إلى الشمال بمحاذاة سلسلة جبال زانلانيما (Zanlanyama)، وعبر قري شيمونا (Chimuna)، ومابويو (Mapuio) التي تعرضت لغزو قبائل مازيتو، ومن ثم تحولوا غرباً إلى قري ماكوسا (Makosa)، وكانجيني (Kangene) التي تقع على كتلة من الجبال، وتابعوا منها عبر بلد غير مأهول مغطى بأشجار صغيرة، وكانت القرى على طريقهم في معظمها قري الحدادين الذين كانوا يزودون القرى المحيطة بالمعاول والسكاكين، ويجمعون بين الزراعة والحرف اليدوية، وتابعوا طريقهم نحو الشمال عبر قري كانينجي (Kanyenje)، وموكتوبا (Mokatoba)، وسيلوبي (Silubi)، وزيور (Zeore)، وإمبورا (Embora)، وكانت مشكلتهم الأساسية في الحصول على الحمالين الذين رفضوا المسير دون أن يدفع لهم مسبقاً، وساروا في ٣ كانون الأول عبر بلد جبلي مغطى بالغابات إلى قرية كاندي (Kande) المحوطة بسياج كثيف من الخيزران، وميسومبا (Mesumbe)، وتوكوسوسي (Tokosusi)، وميراندا (Miranda) الواقعة على الضفة اليسرى لنهر لوانغوا (loangwa)^(١).

وساروا في ١٦ كانون الأول عبر بلد ذي غابات كثيفة نحو نهر بامازي (Pamazi)، ولم يتمكنوا من الحصول على الطعام بأي سعر، ولا حتى الأعشاب المحلية، وشعروا بالضعف الشديد، وتعبوا جميعاً من المسير، وأدى نزول المطر والعواصف الرعدية الشديدة إلى غمر مسارهم حتى وصلوا في ١٠ كانون الثاني عام ١٨٦٧ إلى قرية شافونجا (Chafunga) التي وصلت إليها المجاعة أيضاً، وقاموا بعبور نهر شيمبوي (Chimbwe)، وساروا من خلال الجبال المغطاة بالأشجار والنباتات في ظل تساقط الأمطار وانتشار المجاعة، وزاد من مصاعب لفنجستون أن هرب اثنان من الحمالة مع حمولاتهم التي كان من بينها صندوق الدواء الذي حزن عليه لفنجستون كثيراً، وشعر بضياعه كما لو أنه تلقى عقوبة الموت، ومع ذلك أجبر على المضي قدماً، وكان نقص الطعام والأمطار هي الصعوبات الرئيسية التي واجهوها، وبعد أن مروا بقرية موبا (Moaba) وصلوا إلى نهر لوبيري (Lopiri) الذي يحيط بقرية شيتابانغوا (Chitapangwa) ووجد فيها لفنجستون مجموعة من تجار العبيد العرب، وافق رئيسهم على أن حمل حزمة من الرسائل إلى الساحل مقابل ١٠ روبيات، طلب فيها لفنجستون المزيد من القماش والخرز، وكمية من القهوة والسكر والشموع واللحوم المحفوظة والجبن وست زجاجات من النبيذ، وصندوقاً جديداً من الأدوية ليتم إرسالها إلى أوجيجي^(٢).

وتابع لفنجستون سيره في ٢٠ شباط باتجاه الشمال حتى جاؤوا إلى جدول دائم يجري إلى الشمال يدعى ميرونجو (Merungu)، ومروا بقرية مامبا (Moamba) الواقعة على الضفة اليسرى

(١) - Waller, David Livingston, in central Africa, p86-99.

(٢) - Waller, David Livingston, in central Africa, p101-111.

لنهر ميرينج (Merenge)؛ وهو نهر أكبر من نهر ميرونجو، ويتدفق شمالاً أيضاً، وتغطي ضفافه ومستنقعه أشجاراً دائمة الخضرة، وكانت القرية محاطة بسياج قوي، وتابع لفنجستون طريقه بعبور نهر لومبي (Loombe) إلى قرية شيبوي (Chibue)، ومن ثم موليلانغو (Molilanga)، ولومبي (Loombe)، وعانى لفنجستون خلال ذلك من الحمى، وأصبح ضعيفاً جداً وبالكاد استطاع مواكبة المسير، وبعد أن احتجزهم المطر لبعض الوقت وصلوا إلى قرية شيبو (Chibue) المحصنة، ومنها وصلوا إلى قرية كاسونسو (Kasonso)، وبعد عبور قرى وجداول عديدة وصلوا إلى قرية مومبو (Mombo) بالقرب من التلال المطلة على بحيرة تنجانيقا، وفي الأول من نيسان عام ١٨٦٧ صعد لفنجستون سلسلة التلال المحيطة بالبحيرة، وبرزت أمامه مياه البحيرة الزرقاء عند نهايتها الجنوبية الشرقية التي كان عرضها ما بين ثمانية عشر إلى عشرين ميلاً، ولم يكن بالإمكان الحصول على المعلومات من السكان المحليين بسبب قلة معرفتهم الجغرافية، وشعر لفنجستون بامتنان عميق لوصوله إلى هذا المكان مع ضعفه الشديد، ولكنه كان واثقاً أن العناية الإلهية ستقوده إلى أبعد من ذلك^(١).

ج- اكتشاف بحيرة مويرو (Moero):

بعد أسبوعين من الإقامة في قرية بامبيتي (Pambete) على ضفاف بحيرة تنجانيقا توجه لفنجستون شمالاً إلى قرية موامي (Moami) إذ وصلت الأخبار أن العرب كانوا يتقاتلون مع رئيس إفريقي يدعى نساما (Nsama)^(٢)، ودفعهم هذا إلى التوجه شمالاً على طول نهر ليمبا (Liamba) إلى قرية موكامبولا (Mokambola)، ومن ثم إلى قرية بالقرب من ملتقى نهري ليبما ولوفو (Lofu) كان رئيسها سخياً وكريماً، وقد حاول منعهم بشدة من النزول إلى "ليمبا"؛ إذ كان ابن نساما^(٣)

(١) - Waller, David Livingston, in central Africa, p118-125.

(٢) - كان نساما نابليون تلك البلاد على حد قول لفنجستون، وقد صدم البلد بأكمله عند سماع نبأ هزيمته، وتسبب ذلك في حالة من الذعر الشديد، وتغيرت وجهات نظر السكان بالنسبة إلى القيمة النسبية للأقواس والسهام مقابل البنادق تغيراً كبيراً، ويصف لفنجستون شعب نساما بالقصر بوجه عام مع ملامح جميلة، وكانوا لا يمتلكون أي شيء من صفات الزنوج، والفرق الوحيد بينهم وبين الأوروبيين هو اللون. عن Waller, David Livingston, in central Africa, p136.

(٣) - يذكر تيبوتب عن حرمهم مع نساما الذي عرفه باسم السامو، أنه جاء إلى منطقة رومبا للتجارة في العاج ولما لم يجد طلبه واصل المسير إلى إيتاوا الواقعة خلف بحيرة تنجانيقا حيث تسكن قبيلة نساما، وحذره الحمالون كي لا يذهب إلى السامو لأنه لا يؤمن وكان قد قتل أعداداً كبيرة من العرب ومع ذلك تابع السير عبر أراضي أرونجو وعبروا نهراً عظيماً يشكل حاجزاً طبيعياً مارين بعدد لا يحصى من القرى حتى وصلوا إلى مشارف أرض نساما، وقابله تيبوتب في اليوم التالي ووجده رجلاً طاعناً في السن يتراوح عمره بين السادسة والثمانين والتسعين، وقدم له الهدايا من الثياب، وأطعمه نساما على مخزونه الكبير من العاج وعندما طلب تيبوتب أن يهبه قطع من العاج مقابل هداياه غضب نساما وسخط عليهم فكان أن اندلعت الحرب بين الطرفين، لكن تيبوتب ورجاله المسلحين تمكنوا من دحر نساما ودفعوه للهرب من قريته واستولى على مخازنه، واستمر في ملاحقته مدة شهرين كاملين حتى أذعن نساما وطلب إيقاف الحرب. المرجعي، مغامر عماني في أدغال إفريقيا، ص ٤٦-٥٥.

المدعو كابوما (Kapoma) يقتل جميع الذين يأتون بهذا الطريق انتقاماً لما فعله العرب بشعب أبيه؛ لذا عاد لفنجستون إلى قرية شيتمبا (Chitimba) في الجنوب، واستقبله العرب هناك استقبالاً طيباً، ولاسيما خميس وديم تاج الذي زوده بالطعام والمؤن، وأعاقته الحرب الدائرة هناك في إقليم أتاوا في وادي لوفو أكثر من ثلاثة شهور تعرّف خلالها على حمد بن محمد الشهير بـ تيبوتيب^(١) واستمد معلومات كثيرة عن المنطقة من العرب^(٢).

وبعد انتهاء الحرب سار لفنجستون في ٢٢ أيلول باتجاه الشمال الغربي مع قافلة عربية، وكان رؤساء القرى يخشون العرب ويخافون منهم، فأغلق بعضهم البوابات في وجههم، وهدد بعضهم الآخر بترك القرى فارغة، وكان مسارهم من خلال الغابة التي وصلوا منها إلى نهر كبير يطلق عليه تشيسيرا (Chisera)، وعبروا نهرًا آخر يدعى كاموسينجا (Kamosenga) أوصلهم إلى قرية كارونغو (Karungu)، وتابعوا سيرهم بعد ذلك عبر نهر شوما، وقرى تشيفوبا (Chifupa)، وكابواكو (Kabwakwa)، ومن هناك تابع لفنجستون المسير باتجاه بحيرة مويرو التي وصلها في ٨ تشرين الثاني عام ١٨٦٧، وكانت تبدو بحجم جيد، وتحيط بها سلاسل الجبال من الشرق والغرب، وتنحدر ضفافها الرملية بالتدرج إلى الماء، ويحيط بها حزام كثيف من النباتات الاستوائية، ويقع إلى الغرب منها بلد روا (Rua) وينظر إليه على أنه مجموعة بارزة من الجبال، وتوجد مجموعة أخرى من الجبال أقل ارتفاعاً على طول الشاطئ الشرقي للبحيرة، وفيها يقع الطريق إلى كاسيمبي (Casembe)، وتتدفق عند نهايتها الغربية مياه نهر لوالابا (Lualaba) الذي يعرف قبل دخوله إلى بحيرة مويرو باسم لوابولا (Luapula)، وقد يكون نهر تشامبيزي نفسه قبل دخوله بحيرة بانجويلو، وتابعوا طريقهم من هناك على طول الشاطئ الشمالي للبحيرة حتى وصلوا إلى النطاق الشرقي ثم تحولوا جنوباً حيث قاموا بعبور نهر كالونجوسي (Kalongosi) إلى لوندا (Lunda)، وبعد عبورهم عدة جداول أخرى وصلوا إلى قرية كاسيمبي الواقعة على الضفة الشرقية لبحيرة موفوي (Mofwe) في ٢١ تشرين الثاني عام ١٨٦٧، واستقبله هناك التجار العرب ولاسيما محمد بوغريب ومحمد بن صالح، كما تم استقبله بترحاب من قبل كاسيمبي نفسه.

(١) - يذكر تيبوتب عن لقائه بلفنجستون أنه خلال حروبه مع نساما صادف رجاله رجلاً أوروبياً يدعى لفنجستون مع مرافقيه العشرة وكانوا مشرفين على الهلاك فأدخله تيبوتب إلى معسكره وقدم له المؤونة ومنحه دليلاً يوصله إلى بحيرة مويرو، فذهب إليها وعاد بحماس لزيارة رواندا الخاصة بكاسيمبي فأرسل معه سعيد بن خلفان لمصاحبته إلى حدود تلك المنطقة، كما أرسل رسالة شفوية إلى أحد أقاربه القاطن في رواندا، ويدعى محمد بن صالح النبھاني لكي يساعده ويسهل له أموره. عن المرجعي، مغامر عماني في أدغال إفريقيا، ص ٥٤-٥٦.

(٢) - Waller, David Livingston, in central Africa, p126-133.

ومنحهم كوخاً للإقامة فيه^(١).

د- اكتشاف بحيرة بانجويلو (Bangweolo):

بعد إقامة شهر في بلد كاسيمي حصل فيها لفنجستون على معلومات قيمة عن بحيرة تدعى بيمبا (Bemba) أو بانجويلو لا تبعد سوى مسافة عشرة أيام، لكنه كان متعباً جداً من الاستكشاف دون أي رسائل من البيت لمدة عامين؛ لذلك قرر الذهاب إلى أوجيجي على بحيرة تنجانيقا للحصول على الرسائل قبل القيام بأي شيء آخر لاسيما بعد أن أفادت التقارير أن الضفاف والبلد المتاخمة لبحيرة بانجويلو موحلة وغير صحية للغاية وليس لديه دواء. وبالفعل بدأ المسير في ١٩ كانون الأول عام ١٨٦٧ برفقة محمد بن صالح، وقدم لهم كاسيمي دليلاً لمرافقتهم، وقاموا بعبور عدة جداول وصلوا بعدها إلى بحيرة مويرو مرة أخرى في الأول من كانون الثاني عام ١٨٦٨، وقام لفنجستون بتفحصها وزيارتها من أجل الحصول على فكرة جيدة عن حجمها، ومن ثم غادر باتجاه الشمال في ١٤ كانون الثاني، وكان سيرهم بطيئاً بسبب هطول الأمطار، وسرعان ما وصلوا إلى سهل غمره نهر لواو (Luao)، وكان عليهم الخوض من خلال الطين الأسود نحو قرية كابوابواتا (Kabwabwata) التي يعيش فيها ابن محمد بن صالح الذي حرص على البقاء مع ابنه؛ لأن المطر جعل الطين غير قابل للعبور في كل مكان، كما كان من الصعب الحصول على الزوارق على تنجانيقا لأن الأمواج كانت كبيرة؛ لذلك كان عليهم البقاء حتى انقضاء موسم الأمطار رغم حرص لفنجستون على متابعة المسير^(٢).

وبعد احتجاز قرابة شهرين في قرية كابوابواتا وجد لفنجستون أنه من المستحيل المتابعة إلى أوجيجي في موسم المطر؛ لذلك قرر العودة إلى بلد كاسيمي، ومن ثم التوجه إلى اكتشاف بحيرة بانجويلو، ولاسيما بعد أن شعر بأنه قد خدع من قبل محمد بن صالح الذي كان يعلم أن الطريق مغلق في مثل هذا الوقت من السنة، وأنه سيتم احتجازهم مما تسبب بخسارة خمسة أشهر، ولم يكتف بذلك بل حرص بعض رجاله على الفرار. وبدأ لفنجستون السير برفقة خمسة من مرافقيه في ١٤ نيسان عام ١٨٦٨ باتجاه بلد كاسيمي مروراً ببحيرة مويرو، وكان الطريق مغطى في معظمه بالطين، وخاضوا لمسافات طويلة في المستنقعات حتى وصلوا في ٤ أيار إلى بلد كاسيمي، ووجد هناك محمد بوغريب يرغب بالذهاب إلى تشيكومبي (Chikumbi) القريبة من بحيرة بانجويلو لشراء النحاس، ومن ثم المضي إلى أوفيرا (Uvira) ليبادله هناك بالعاج، وهكذا فتح الطريق للفنجستون إلى البحيرة^(٣).

(١) - Waller, David Livingston, in central Africa, p134-148.

(٢) - Waller, David Livingston, in central Africa, p151-161.

(٣) - Waller, David Livingston, in central Africa, p167-177.

وبدأوا المسير في ١١ حزيران بعبور نهر مبيريز (Mberezze) باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي عبر بلد مغطى بالغابات والسهول العشبية إلى نهر لونجو (Luongo) وهو نهر عميق تتخلله غابة كثيفة، ومن ثم إلى نهر تشاندو (chando) الذي يعد الحد الفاصل بين كاسيمي وتشيكومي، وفي الأول من تموز وصلوا إلى تشيكومي الرئيس الأعلى لهذه المقاطعة الذي رحب بهم في بلده، ومن هناك تابع لفنجستون طريقه باتجاه الجنوب مروراً بالعديد من القرى المهجورة من آثار غزو قبائل مازيتو في طريق مغطى بالغابات والمستنقعات، ووصل في ١٩ تموز إلى قرية ماسانتو (Masantu) الواقعة على الضفة الشمالية لبحيرة بانجويلو التي شاهدها لفنجستون للمرة الأولى، وكانت البلاد المحيطة بالبحيرة مسطحة ومغطاة بالأشجار الكثيفة، وهناك حصل لفنجستون على زورق شرع فيه في البحيرة نحو جزيرة ليفونجي (Lifunge) الواقعة على الجنوب الشرقي، ومنها توجهوا إلى جزيرة كيسي (Kisi)، ومبابالا (Mpabala)، ولم يستطع الذهاب أبعد من ذلك؛ لأن رجال الزورق حاولوا التهرب، ووعدوا بالعودة في أقرب وقت، واضطر لفنجستون لعدم ثقته بهم للاكتفاء عند هذا الحد والعودة برفقتهم إلى ماسانتو بعد أن توصل بناء على تقديرات السكان المحليين إلى أن بحيرة بانجويلو تقارب ١٥٠ ميلاً في الطول و ٨٠ في العرض، واعتقد أنها منبع النيل الأصلي^(١).

وعاد لفنجستون من هناك إلى تشيكومي، ومنها إلى قرية كومبوكومبو (Kombokombo) في ٥ آب إذ وجد أن قبائل مازيتو قد غزت المنطقة، وتكفل العرب وحلفائهم البانياموزي بصد هجومهم المدمر، وانتجت هذه الغزوة حالة من الفوضى في البلاد تسببت في احتجازهم وعرقلة مسيرهم حتى ١١ تشرين الأول حيث ساروا شمالاً إلى كابوابواتا، واحتجزوا لفنجستون هناك بسبب الحروب المحلية حتى ١١ كانون الأول حيث بدأ المسير برفقة التجار العرب شرقاً إلى أوجيجي مروراً بنهر لوكيندا وقرية شيزابي (Chisabi) التي رافقهم فيها سيد بن حبيب، وتابعوا بمحاذاة سلسلة جبال تامبا (Tamba)، وكاتنغا (Katanga)، وعبروا أنهار لوفونسو (Lofunso)، وكابيتا (Kapeta)، ولوكيفوا (Lokivwa)، ولوفوكو (Lofuko)، وعانى لفنجستون خلال المسير من المرض، وأصيب بالالتهاب الرئوي، ووصل في ٩ كانون الثاني عام ١٨٦٩ إلى بلد مارونغو (Marungu) محمولاً على نقالة لعدم قدرته على المسير، وفي ١٤ شباط وصلوا إلى بحيرة تنجانيقا في منطقة تدعى بارا (Parra) على الجانب الغربي من البحيرة، وأبحر من هناك إلى مستوطنة أوجيجي العربية التي وصلها في ١٤ آذار عام ١٨٦٩ في زيارته الأولى لها، وهناك اكتشف أن الإمدادات التي كان قد طلبها ولاسيما الأدوية والقماش والخرز قد سرق معظمها فاضطر إلى طلب غيرها، واستغل لفنجستون وجوده هناك لكتابة رسائل إلى المنزل، وبعد مدة من الإقامة في

^(١) - Waller, David Livingston, in central Africa, p180-191.

أوجيجي شعر بتحسن صحته؛ لذلك فكر بالنزول إلى بحيرة تنجانيقا ومتابعة الاستكشافات التي توقف عنها مرة أخرى^(١).

هـ- المسير إلى بلاد مانيوما (Manyuema):

بعد فترة من الإقامة في أوجيجي شعر لفنجستون بالتحسن، وعزم على النزول في بحيرة تنجانيقا ومتابعة الاستكشاف في بلاد مانيوما الواقعة على الطرف الغربي لبحيرة تنجانيقا للبحث عن منابع النيل ولاسيما بعد أن سمع عن نهر كبير هناك يتدفق شمالاً. وبعد فترة من التحضير والإعداد للرحلة نزل في ١٢ تموز عام ١٨٦٩ في زورق باتجاه الجنوب مروراً بنهر مالاجارازي وكابوجو (Kabogo)، وبدأ بعبور البحيرة من هذه النقطة إلى جزيرة كاسينغي حيث وجد محمد بوغريب ينوي الذهاب إلى مانيوما أيضاً فعبرا معاً إلى الشاطئ الغربي للبحيرة، وبدأوا الرحلة في البر الغربي في ٢ آب على طول بحيرة تنجانيقا جنوباً، ومن ثم تحولاً غرباً وعبرا نهر لوغومبا (Logumba)، ومرا بقرى ماخاتو (Makhato)، وبا روا (Ba Rua)، وميخيتو (Mekhetu)، ومن ثم عبرا نهر لوانغوا (Loungwa)، وسارا بعد ذلك باتجاه الشمال الغربي عبر قرى كوندي (Kunde)، وكاتامبا (Katamba)، وكاسنغانزي (Kasangangazi)، وكاسانغا (Kasanga)، وتوقفا هناك للتزود بالمؤن وحتى يرتاح الجمالون، وعبرا بعد ذلك مجموعة واسعة من الجبال العالية، وستة أنهار وعدداً من القرى بعضها محترق أو مهجور حتى وصلا إلى بلدة بامباري (Bambarre) بعد حوالي ثمانين ساعة من السفر الفعلي قطعاً فيها حوالي ١٦٠ ميلاً باتجاه الغرب من ٣ آب حتى ٢١ أيلول^(٢).

وبعد فترة من الاستراحة في بامباري تابع لفنجستون الرحلة في الأول من تشرين الثاني إلى نهر لوالابا بقصد استكشافه، وكان مسارهم باتجاه الغرب والجنوب الغربي عبر بلد جبلي مغطى بالغابات وتتركز فيه القرى على المنحدرات الجبلية من أجل الصرف السريع، وعبروا في طريقهم نهر ليولا (Luela)، وواجهوا بعض المتاعب على الطريق؛ لأن تجار العاج والرقيق لاسيما ديغومبي قد أساءوا معاملة السكان، ونظر إليهم السكان على أنهم من نفس قبيلة الذين سبقوهم، كما أجبرتهم الأمطار الغزيرة على التوقف على ضفاف نهر لوامو (Luamo) الذي يصب في نهر لوالابا، واضطر لفنجستون بعد ذلك للعودة إلى بامباري في ١٩ كانون الأول للأسباب السابقة، ومن هناك توجه برفقة محمد بوغريب باتجاه الشمال للوصول إلى جزء آخر من نهر لوالابا، وعانى لفنجستون خلال المسير من الحمى الشديدة في ظل تساقط الأمطار الغزيرة، وقاموا بعبور نهر لوامو في الأول من كانون الثاني عام ١٨٧٠، واستراحوا في بلد مبونغو (Mbongo)، ومن ثم تابعوا

(١) - Waller, David Livingston, in central Africa, p192,196, 209-211,217.

(٢) - Waller, David Livingston, in central Africa, p222-225.

من خلال الغابات، وعبروا ثلاثة أنهار وكثيراً من البرك والمستنقعات الراكدة، وتعرض لفنجلستون نتيجة لذلك لمرض الكوليرا، وعند الاشتباه في الماء كمسبب قام لفنجلستون بغلي كل ما استعمله منها، وتناقص وزنه نتيجة لذلك إلى حد كبير، وتابع مع ذلك نحو الشمال عبر البراري والقرى والأنهار الجارية، وعانوا فضلاً عن ذلك من الرطوبة في كثير من الأحيان، وفي طريق سيرهم شمالاً وصلوا إلى مخيم كاتومبا (Katomba) أو موينيموكايا (Moenemokaia) أحد تجار العاج الكائن في منطقة ماموهيلا (Mamohela) في السابع من شباط عام ١٨٧٠، وكان كريماً جداً معهم، وسرعان ما تحسنت صحة لفنجلستون نتيجة الراحة والمأوى وغلي الماء الذي استخدمه، وقبل كل شيء الأنواع الجديدة من البطاطا المسماة نيومبو (Nyumbo) التي اشتهرت بين السكان المحليين كدواء^(١).

وفي حين تابع محمد بوغريب طريقه بحثاً عن العاج بقي لفنجلستون في مخيم كاتمبا للتعافي حتى الأول من آذار حيث تابع طريقه عبر بلد كاسيسا (Kasessa)، وفي ظل استمرار الأمطار وعبور المستنقعات تخلى معظم رجاله عنه، وتابع سيره باتجاه الشمال الغربي مع ثلاثة من المرافقين فقط وهم: سوسي، وشوما، وغاردنر، وعبروا أربعة عشر نهراً في يوم واحد، ومعظمها تتدفق إلى نهر لوالابا، ومرروا عبر العديد من القرى، وفي الأول من تموز التقى لفنجلستون بمحمد بوغريب قادماً من كاسونغا (Kasonga)، وعلم منهم أن نهر لوالابا لم يكن في الشمال الغربي؛ المسار الذي كان يتبعه لفنجلستون؛ لأنه في الواقع ينحرف نحو الغرب والجنوب الغربي في منعطف عظيم، وكانوا قد ذهبوا بعيداً إلى الشمال دون رؤيته في بلد شديد الصعوبة لما فيه من الغابات والأنهار التي غمرتها الفيضانات، وكان الطين فيها مروعاً، ووجد لفنجلستون أنه من غير الحكمة المضي قدماً أبعد من ذلك مع ثلاثة من المرافقين، لذلك عاد إلى بامباري في ٢٢ تموز، وأصيب خلال ذلك بتقرحات في القدمين سببت له ألماً شديداً، ولم يكن للأدوية أي تأثير فيها، وبقي على هذه الحالة قرابة ثمانين يوماً حتى تماثل للشفاء، وبقي محتجزاً في بامباري حتى الرابع من شباط عام ١٨٧١ منتظراً الرسائل والسلع والرجال الذين أرسلوا إليه من الساحل لمتابعة استكشاف نهر لوالابا^(٢).

ولسوء حظ لفنجلستون توقف بعض الرجال المرسلين إليه مع السلع في أوجيجي ووصله فقط عشرة رجال كانوا من عبيد التجار الهنود الذين رفضوا في البداية السير شمالاً، ومن ثم طالبوا بزيادة أجورهم، ووافق لفنجلستون على منحهم ستة دولارات في الشهر إذا تصرفوا بشكل جيد، وبدأ المسير في ١٦ شباط مروراً بقرى لولوا (Lulwa)، وموينمغوي (Moenemgoi)،

(١) - Waller, David Livingston, in central Africa, p229-237.

(٢) - Waller, David Livingston, in central Africa, p238-242,255, 269.

ومونانديوا (Monandewa)، وكان مسارهم باتجاه الشمال الغربي إلى قرية بالقرب من نهر لولاندا (Lolande)، ثم إلى ماموهيلا حيث رحب بهم التجار العرب، ومنحهم كاتومبا الدقيق والجوز والطيور والماعز، وقدم له لفنجستون في المقابل سلاحه الذي تركه في أوجيجي كهدية نتيجة لطفه وكرمه، وبعد أن ارتاح بعض الوقت غادر ماموهيلا في ٢ آذار عبر السهول العشبية والجبال المغطاة بالأشجار، وعبر في ست ساعات أربعة عشر جدولاً، ومروا بقرى مونانبوندا (Monanbunda)، ومونانغونغو (Monangongo)، وباسلانج (Basilange)، ووجدوا بعض تلك القرى مهجورة؛ لأن الناس هربوا عند اقترابهم خوفاً من تكرار اعتداءات تجار العبيد، وتوقفوا في مانيارا (Manyara) بالقرب من جبل كيمازي (Kimazi) للاستراحة، وتابعوا عبر سهل عشبي إلى كاسونجا التي تبعد حوالي ستة أميال فقط عن لوالابا، وكان لفنجستون يأمل أن ينزل منها بالزوارق إلى لوالابا، ولكنه لم يجد قوارب في كاسونجا، لذا تابع سيره إلى كاتنجا حيث وجد السكان يحملون كميات من المؤن من السوق الواقعة على ضفاف النهر، وتابع من هناك مروراً بقرى عديدة حتى وصل في ٢٩ آذار عام ١٨٧١ إلى نيانغوي (Nyangwe) الواقعة على ضفاف نهر لوالابا الذي شاهده لفنجستون للمرة الأولى، ووجده نهراً كبيراً بعرض حوالي ٣٠٠٠ ياردة، وعميقاً بحيث لا يمكن عبوره أبداً في أي وقت من السنة، وتكمن فيه العديد من الجزر، وضافه حادة وعميقة، ويجري تياره بسرعة ميلين في الساعة باتجاه الشمال^(١).

مكث لفنجستون في نيانغوي قرابة أربعة أشهر حاول فيها عبثاً الحصول على قارب لاستكشاف نهر لوالابا ولكنه لم يفلح في ذلك بسبب تأمر رجاله عليه ومنعهم السكان من تزويده بقارب؛ وذلك بنشرهم إشاعة أنه لا يريد العبيد ولا العاج ولكن يريد الزورق من أجل قتل السكان على الضفة الأخرى من النهر، ويأس لفنجستون من الحصول على قارب حتى أنه عرض على تاجر يدعى دوغومي ٢٠٠٠ دولار أو ٤٠٠ جنيه لمنحه عشرة رجال ليحلوا محل رجاله، وتمكينه من صعود نهر لوالابا، ومن ثم العودة عن طريق تنجانيقا إلى أوجيجي، وأضاف أنه سيعطيه كل البضائع التي كانت له في أوجيجي. وحدث خلال ذلك الوقت مذبحه مانيوما المشهورة التي قام بها تاجر عبيد من أوجيجي يدعى تاغامويو (Tagamoio)، وكان لفنجستون شاهداً عليها، وقد قدر عدد القتلى فيها نحو ٤٠٠ من الأطفال والنساء الذين لا ذنب لهم في السوق القائم في نيانغوي، واستمرت المذبحة يومي ١٥ و١٦ تموز، وقام لفنجستون برفقة دوغومي بإنقاذ ما استطاعوا إنقاذه من السكان، واقترح على دوغومي إلقاء القبض على القتلة وإعدامهم في السوق احتجاجاً على الأعمال الدموية، ولكنه رفض لأن بعض مرتكبي الجريمة ينتمون إليه، ووعد دوغومي بإرسال الرجال إلى تاغامويو لإيقاف إطلاق النار وإحراق القرى،

^(١) - Waller, David Livingston, in central Africa, p270-279.

وقد أثرت هذه المذبحة في لفنجستون تأثيراً عميقاً لدرجة أنه رفض أن يسافر برفقة تجار العبيد مرة أخرى، وقرر العودة إلى أوجيجي للحصول على رجال آخرين بعد تمرد مرافقيه مع أن ذلك كان سيبعده عن فرصه اكتشاف نهر لوالابا. وبدأ سيره في ٢٠ تموز عام ١٨٧١، وتكالت عليه في الطريق العلل والأمراض والمتاعب حتى وصل إلى أوجيجي منهكاً في ٢٣ تشرين الأول عام ١٨٧١ بعد ثلاثة أشهر من المسير^(١).

و- لفنجستون واستكشاف بحيرة تنجانيقا:

استقبل التجار العرب في أوجيجي لفنجستون بترحاب، وأمل هناك أن يعيد له الطعام الصحي والراحة قوته وعافيته، ولكنه تفاجأ أن المسؤول عن مخازنه قد قام ببيع كل سلعه، ولم يترك أي شيء من القماش أو الخرز وحتى المؤن؛ لأنه ظن أن لفنجستون قد مات في الداخل مما زاد أحواله سوءاً وأصبحت معنوياته في أدنى مستوياتها، وكان انقطاع أخبار لفنجستون طيلة هذه المدة قد أقلق العالم عليه ورأى البعض ضرورة البحث عنه وانقاذه، وبادر جيمس جوردون بينيت (James Gordon Bennett)^(٢) رئيس صحيفة نيويورك هيرالد بإرسال هنري ستانلي المراسل في الصحيفة للحصول على معلومات دقيقة عن الدكتور لفنجستون، وليسعه إذا كان لا يزال حياً، ولإحضار جثمانه إلى المنزل فيما إذا كان ميتاً، ووصل ستانلي إلى زنجبار في ٦ كانون الثاني عام ١٨٧١، وبادر على الفور رحلته نحو الداخل مروراً بتابوره ووصل إلى أوجيجي في ٢٨ تشرين الأول وقابل هناك لفنجستون، وأبلغه عن سبب رحلته وهدفها كما زوده بأخبار العالم طوال سنوات غيابه، وكان لمجيء ستانلي أثر كبير في تحسن صحة لفنجستون؛ إذ أنعشه بالطعام والأدوية التي جلبها معه، وبث فيه روحاً جديدة لمواصلة الكشف، وبعد مضي أسبوع على وصوله بدأ لفنجستون يشعر بقوته ورغب بمتابعة استكشافاته^(٣).

وبما أن استكشاف بحيرة تنجانيقا كانت موضع اهتمام السير رودريك مورشيزون كما بين ستانلي بدأوا في ١٦ تشرين الثاني عام ١٨٧١ بالإبحار في البحيرة مع رجال ستانلي وعلى نفقته إلى شمال البحيرة وعانى ستانلي خلالها من الحمى، ووصلوا في ٢٧ تشرين الثاني إلى نهاية البحيرة

(١) - Waller, David Livingston, in central Africa, p282,292,297,298,303, 315.

(٢)(٣) - جيمس جوردون بينيت (١٨٤١-١٩١٨): رائد في الصحافة الحديثة، كان والده جوردون بينيت الذي ولد في إسكتلندا وهاجر إلى أميركا في العام ١٨١٩، وأسس صحيفة نيويورك هيرالد في العام ١٨٣٥. قام جيمس بتكليف المراسل هنري ستانلي بالحملة التي وجدت لفنجستون، وتقاسم مع صحيفة الديلي تلغراف اللندنية تمويل حملة ستانلي العظيمة في وسط إفريقيا بين عامي (١٨٧٤-١٨٧٧)، وأسس سمعة لصحيفة نيويورك هيرالد كواحدة من أكبر الصحف في العالم مع فريق رائع من المراسلين. عن Jones, Dictionary of world biography, p74.

(٣) - Waller, David Livingston, in central Africa, p316-318.

الشمالية في لوهيندا (Lohinga) عند مصب نهروسيزي الذي تبين أنه يصب في بحيرة تنجانيقا ولا يخرج منها، فاثبتنا بذلك خطأ رأي بيرتون الذي كان يعتقد أن نهروسيزي ينبع من البحيرة، وأثبتنا أيضاً أنه ليس للنيل مخرج من بحيرة تنجانيقا، وكان مصب روسييزي يمتلئ بجزر كبيرة، ويصب في البحيرة في ثلاثة فروع عرضها حوالي خمس عشرة ياردة مع تيار قوي حوالي ٢ ميل في الساعة، وقدر لفنجستون عرض البحيرة بحدود ٢٨ أو ٣٠ ميلاً. وبدأوا بعد ذلك في ٧ كانون الأول رحلة العودة إلى أوجيجي التي وصلوها في ١٣ كانون الأول، ومن ثم رحلوا معاً في ٢٧ من الشهر نفسه متوجهين إلى أونيانيمي التي وصلوها بعد رحلة مرهقة في ١٨ شباط عام ١٨٧٢، وعرض ستانلي على لفنجستون العودة برفقته إلى الوطن، واستخدم الحجج القوية من أجل عودته إلى البيت، ولكن لفنجستون صمم على البقاء لمتابعة استكشافاته بحثاً عن منابع النيل قبل أن يتراجع، وكانت تسيطر على لفنجستون فكرة أن منابع النيل توجد في منطقة بحيرة بانجويو حتى إنه لما اكتشف بحيرتي مويرو وبانجويو كان يقلب الرأي في أيهما يشكل المنبع الحقيقي للنيل، وكان يعتقد في وجوب البحث عن منابع النيل جنوباً أكثر من ذلك حول بحيرة بانجويو ومرتفعات كاتنجا وربما حول نهروالابا، وطبقاً لذلك سار مع ستانلي إلى تابوره، ومن هناك غادر ستانلي بعد صحبة أربعة أشهر مع لفنجستون متوجهاً إلى زنجبار بينما بقي لفنجستون في أونيانيمي بانتظار الرجال والإمدادات التي اتفق عليها مع ستانلي لمتابعة استكشافاته^(١).

ز- رحلة لفنجستون الأخيرة:

كان هدف رحلة لفنجستون الأخيرة الذهاب من أونيانيمي إلى فيبا (Fipa)، ومن ثم الدوران حول الطرف الجنوبي لبحيرة تنجانيقا وعبور نهري تشامبيزي (Chambeze)، والدوران حول جنوب بحيرة بانجويو، ومن ثم السير بخط مستقيم إلى مرتفعات كاتنجا ونهر لوالابا؛ وذلك بحثاً عن الحدود الجنوبية القصوى لمانبع نهري النيل. وبعد انتظار ما يقارب خمسة أشهر في تابوره وصل أخيراً الرجال والإمدادات التي أرسلها ستانلي من الساحل في ١٤ شباط عام ١٨٧٢ بعد رحلة أربعة وسبعين يوماً من باجامويو، وأصبح مجموع رجال لفنجستون نحو ٦٢ رجلاً بما في ذلك أتباعه الأصليون الذين رافقوه منذ بداية رحلته في العام ١٨٦٦ وهم: سوسي، وشوما، وأمودا، ومبروكي، وغاردنر، وبدأ لفنجستون على الفور بالإعداد والتحضير لرحلته المرتقبة بينما استراح الرجال من عناء الطريق. وبدأ المسير في ٢٥ آب عام ١٨٧٢ باتجاه الجنوب والجنوب الغربي من خلال الغابات ومروراً بقرى مانغا (Manga)، وبورنا (Borna)، وكيساري (Kisari)، ومانيارا (Manyara)، وميريرا (Merera) حتى وصلوا في الأول من تشرين الأول على مشارف بحيرة

^(١) - Waller, David Livingston, in central Africa, p318-325, 327.

تنجانيقا، ومن ثم ساروا على طول التلال الموازية للبحيرة على حافته الجنوبية وباتجاه غربي في مسيرة صعبة من صعود للجبال وهبوطها مروراً بمناطق كاليمبا (Kalema)، وفيبا، وموكايا (Mokaia)، وكيثاندا (Kitanda)، ومن ثم تحولوا نحو الجنوب وخرجوا من سلسلة الجبال المحيطة بالبحيرة^(١).

وواصلوا مسيرتهم الصعبة في مناطق مفتقرة للغذاء وتنقلوا بين عدد من القرى طلباً للمؤن، وكان السكان يخشونهم ويخافون منهم لذلك خدعهم وحاولوا تضليلهم أكثر من مرة، وساروا على بلد متموج، وعبروا نهر كالامبو (Kalambo) الذي يصب في تنجانيقا مروراً ببلد زومبي (Zombe)، وكامبامبا (Kampamba) على نهر مولولوي (Molulwe)، وقرية نداري (Ndari)، وتشويوي (Chiwe)، وعبروا أنهار لوفو (Lofu)، ولوزي (Loozi)، ولامبوسي (Lampussi)، والعديد من الأنهار الأخرى حتى وصلوا في الثامن من كانون الثاني عام ١٨٧٣ إلى قرية موينجي (Moenje) بالقرب من بحيرة بانجويلو، وتابعوا باتجاه جنوبي غربي ثم جنوبي مروراً بالعديد من الأنهار والأراضي المستنقعية التي غمرتها مياه الفيضانات قرب شواطئ بانجويلو الشمالية، فضلاً عن الأمطار الغزيرة التي زادت من صعوبة مسيرتهم، وواصلوا من خلال البراري والقرى المهجورة إلى الشرق من بحيرة بانجويلو في محاولة للدوران حولها، وكان تقدمهم بطيئاً للغاية؛ لأن الأرض بالقرب من البحيرة مستوية وتكثر فيها الأنهار والفيضانات التي اضطروا إلى الخوض فيها لعبورها^(٢)، وعانى لفنجستون خلال تلك المسيرة من الحمى، ومن أسراب البعوض والنمل الأحمر، وذهبوا بالزوارق في نهر لوينا الذي يتدفق غرباً، ونزلوا بالقرب من مصبه في بحيرة بانجويلو، ومن هناك انتقلوا فيها في ٢ آذار عام ١٨٧٣ إلى جزيرة تشيرويبي (Chirube) ورئيسها ماتيبا (Matipa) الذي منحهم زوارق عبروا بها إلى الضفة الجنوبية للبحيرة إلى شقيقه كابينغا (Kabinga) الذي يتمركز على الضفة اليسرى لنهر تشامبيزي، وتابعوا من هناك باتجاه جنوبي غربي بصعوبة كبيرة، إذ غرقت البلاد بأكملها جنوب البحيرة بالمياه وكان من المستحيل معرفة مكان انتهاء الأرض وبداية البحيرة، وتابعوا إلى نهر موانكازي (Muanakazi) من خلال نبات البردي والعشب الطويل حتى تعبوا، وأصيب لفنجستون نتيجة ذلك بالضعف الشديد، ولم يعد قادراً على المشي حتى أنه لم يعد قادراً على الكتابة وأصبحت مذكراته مختصرة جداً، وتم حمله على نقالة من قبل مرافقيه في طريقهم نحو الجنوب الغربي حتى وصلوا في ٢٧ نيسان عام ١٨٧٣ إلى بلدة كالونجانجوفو (Kalunganjovu) على ضفاف نهر موليلامو (Molilamo) ولم يرد شيء في يوميات لفنجستون بعد هذا التاريخ، ويبدو أن شدة المرض منعه من مواصلة الكتابة، وانتقلوا

(١) - Waller, David Livingston, in central Africa, p325,348-356.

(٢) - Waller, David Livingston, in central Africa, p360-364.

من هناك بالزوارق في ٢٩ نيسان عبر نهر موليلامو إلى قرية شيتامبو (Chitambo)، وهناك أصبحت آلام مرضه شديدة جداً لدرجة أنه لم يعد قادراً على الوقوف، ولم يطل به الأمر حتى توفي في ٣٠ نيسان عام ١٨٧٣ بعد سبع سنوات من الترحال في قلب إفريقيا، وتولى مرافقوه مسؤولية حمل جثمانه عبر رحلة طويلة استغرقت تسعة أشهر إلى جزيرة زنجبار، ونقل من هناك إلى وطنه الأم إنجلترا، وتم دفنه في مقبرة كنيسة وستمنستر في ١٨ نيسان عام ١٨٧٤، وهكذا كانت نهاية أحد أعظم مستكشفي قارة إفريقيا في القرن التاسع عشر^(١).

٤- نتائج الرحلة:

شغلت رحلة لفنجستون الأخيرة قرابة السبع سنوات من ٤ نيسان عام ١٨٦٦ وحتى وفاته في ٣٠ نيسان عام ١٨٧٣، وهي من أطول الرحلات التي قضاها رحالة أوروبي في أدغال إفريقيا وسهولها في القرن التاسع عشر، وتنوعت نتائجها ولاسيما في مكاسمها الجغرافية وفق الآتي:

- قام لفنجستون في رحلته الأخيرة بتتبع نهر روفوما إلى الجنوب من بحيرة نياسا، واتجه بعد ذلك شمالاً إلى بحيرة تنجانيقا، وأسفرت هذه الرحلة عن اكتشاف بحيرتي مويرو وبانجويلو، وكان لفنجستون يقلب الرأي في أيهما يشكل المنبع الحقيقي للنيل. كما تابع تجواله إلى نهر لوالابا؛ المجرى الأعلى لنهر الكونغو الذي اكتشفه ستانلي فيما بعد، وحاول لفنجستون جاهداً الحصول على زوارق لاستكشافه اعتقاداً منه أنه المجرى الأعلى لنهر النيل لكنه لم يفلح في ذلك. كما ساهم لفنجستون في المرحلة الأخيرة في حل مشكلة منابع النيل؛ إذ قام برفقة ستانلي باستكشاف الطرف الشمالي لبحيرة تنجانيقا ونهر روسيزي الذي تبين أنه يصب في البحيرة ولا يخرج منها، وأنهيا بذلك الجدل الذي كان قائماً بين الجغرافيين الأوروبيين حول علاقة نهر روسيزي وبحيرة تنجانيقا بنظام نهر النيل.

- تضمنت مذكرات لفنجستون ملاحظات لا حصر لها عن عادات السكان المحليين ومعتقداتهم، وأنواع الحيوانات والطيور والأسماك وكثير منها أنواع جديدة، وتضمنت وصفاً جغرافياً لكل المناطق التي مرّ خلالها ولاسيما الجبال التي أورد وصفاً لمكوناتها وارتفاعاتها والأنهار التي بين اتساعها وعمقها وسرعة جريانها.

- أسفرت رحلة لفنجستون عن مادة علمية كبيرة في مختلف المجالات الجغرافية، والتاريخية والإثنوجرافية ومع كونها مفيدة للباحثين المتخصصين، والأشخاص ذوي الأذواق العلمية المختلفة، فهي جافة وغير مثيرة للاهتمام بالنسبة للناس بشكل عام.

- أورد لفنجستون إضافة لما سبق وصفاً مفصلاً لثروات المنطقة الغنية المعدنية منها والطبيعية، ولكن معظمها يضيع من خلال تجارة الرقيق والحروب الداخلية، وأورد ملاحظات في

^(١) - Waller, David Livingston, in central Africa, p380-389,393,397,406-410, 445.

أماكن متعددة كيف ستصبح هذه الأرض لو توفرها حكم رشيد يتمكن من استثمار منتجاتها بشكل أفضل، وجميعها كانت تلميحات أولية وربما الخطوات الأولى التي أدت إلى تكوين المستعمرات الأوروبية في إفريقيا فيما بعد.

- سعى لفنجستون في أكثر من موضع إلى تشجيع المبشرين على القدوم إلى إفريقيا ومواصلة التبشير بالمسيحية في مختلف أنحاء العالم الوثني موضحاً أنه رغم العيوب الكثيرة المنتشرة بين القبائل الإفريقية إلا أنه يوجد كثير من المحاسن والفضائل، وبين أن التبشير بينها أسهل وربما أسرع مما هو الحال بين القبائل القاطنة على الساحل التي كان قهرها من المسلمين وتأثيرهم يؤخرو ويعرقل التبشير بينهم. كما قدم تلميحات كثيرة عن كون ممالك بوجندا وكاراجوي ورئيسها الودود من أنسب الأماكن لبدء التبشير فيما بينهم عن طريق التأثير في رؤسائها الذي يمكن أن ينعكس على المنطقة بشكل كامل. وأوضح أن إقامة بعثة مسيحية في شرقي إفريقيا يتطلب الحصول على دعم وموافقة سلطان زنجبار؛ لأن كل القبائل في شرقي إفريقيا تدعي الانتساب إليه حتى أن أونيامويزي في قلب إفريقيا يطلقون على أنفسهم رعاياه، وكذلك يفعل الآخرون وذلك سيسهل عملهم بشكل كبير.

- وأخيراً أثارت كتابات لفنجستون عن تجارة الرقيق وشروطها التي كانت تتم في داخل إفريقيا وما أنتجته من خراب ودمار في المجتمعات الإفريقية، وانتشار للمجاعات إلى تكاثف الجهود الأوروبية لمحاربة هذه التجارة في معقلها في الداخل الإفريقي.

ثالثاً- رحلات هنري مورتان ستانلي ١٨٧١-١٨٨٩.

١- نبذة عن حياة هنري ستانلي (Hennery Stanley) (١٨٤٠-١٩٠٤):

ولد السيد هنري مورتان ستانلي أحد أعظم مستكشفي القارة الإفريقية، والمستكشف لمجرى نهر الكونغو في دنبي (Denbigh) في مقاطعة ويلز في ١٠ حزيران عام ١٨٤٠، وتمّ تعميده باسم جون رولاند. وعاش في صغره طفولة معذبة؛ إذ توفي والده وهو بعمر الثالثة، ورفضت والدته رعايته، وأودع في سن الخامسة في مدرسة للأحداث تعرض فيها طوال السنوات التسع التي قضاها للضرب والقسوة من جانب ناظر المدرسة، واضطر للهروب منها إلى أقاربه في ليفربول الذين استقبلوه على مضض. واشغل نفسه في سن الثامنة عشر كخادم في سفينة شراعية متجهة إلى نيو أورلينز في العام ١٨٥٩، وحصل هناك بفضل المساعي الحميدة لتاجر يدعى هنري ستانلي الذي تبناه لاحقاً على مأوى وعمل، ومنحه اسمه هنري مورتان ستانلي، وبعد وفاة متبنيه أمضى ستانلي سنوات عدة من حياته كجندي في الحرب الأهلية الأمريكية، وبحار على سفن التجارة وفي بحرية الولايات المتحدة الأمريكية، واكتسب سمعة حسنة ككاتب وصفي للصحافة الحية، وجذبت تقاريره جيمس غوردون بينيت؛ مالك صحيفة نيويورك هيرالد فمنحه وظيفة

متنقلة، وأرسله لمرافقة الحملة البريطانية على الحبشة في العام ١٨٦٧، وأعقب ذلك تغطيته للحرب الأهلية الإسبانية، وذاع صيته، واكتسب شهرة كبيرة بعد الرحلة التي قام بها في العام ١٨٦٩ في شرقي إفريقيا للبحث عن لفنجستون، وأورد ستانلي تفاصيلها في الكتاب الذي نشره في لندن في العام ١٨٧٢ تحت عنوان "كيف وجدت لفنجستون" *How I Found Livingstone*، وقد أنجز مهمته، وأنشأ سمعته كقائد ومستكشف، وكافأته الجمعية الجغرافية الملكية بالميدالية الذهبية نتيجة لخدماته. وعاد ستانلي إلى القارة الإفريقية في العام ١٨٧٤ برحلة جديدة لاستكمال الاستكشافات التي توفي لفنجستون دون إنجازها، وحققت رحلته نجاحاً كبيراً، ونشرت تفاصيلها في الكتاب الذي أصدره في لندن في جزأين في العام ١٨٧٨ تحت عنوان "عبر القارة المظلمة *Through the Dark Continent*" التي أسفرت بشكل مباشر عن تشكيل مستعمرة الكونغو تحت سيادة ملك بلجيكا ليوبولد الثاني. وقام ستانلي برحلة ثالثة في شرق ووسط إفريقيا في العام ١٨٨٧؛ وذلك لإغاثة أمين باشا حاكم المديرية الاستوائية، ونجح ستانلي في حملته نجاحاً مبهراً، وحقق خلالها استكشافات جغرافية جديدة نشرت تفاصيلها في كتاب أصدره في جزأين في لندن في العام ١٨٩٠ تحت عنوان "في إفريقيا المظلمة *In Darkest Africa*"، واستقبل بعد عودته إلى إنجلترا بحفاوة كبيرة، ومنح درجة الدكتوراه الفخرية في القانون من جامعتي أكسفورد وكامبريدج. وتزوج ستانلي من الأنسة دورثي تينانت في العام ١٨٩٠، وتنقل بين الولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا ونيوزيلندا في جولات لإلقاء المحاضرات، ورشح نفسه للانتخابات البرلمانية في إنجلترا، ولكن لم تعجبه الحياة البرلمانية. وفي العام ١٨٩٧ قام ستانلي بزيارته الأخيرة إلى إفريقيا، وزار شلالات فيكتوريا على نهر الزامبيزي، وكانت إحدى نتائج هذه الرحلة صدور آخر أعماله المنشورة "من خلال جنوب إفريقيا". وحصل ستانلي في العام ١٨٩٩ على مرتبة الفروسية تقديراً لخدماته في إفريقيا. وكانت وفاته في لندن في العام ١٩٠٤ بعد سجل عظيم من الإنجازات والاستكشافات الجغرافية^(١).

٢- رحلات ستانلي في القارة الإفريقية:

أ- الرحلة الأولى: رحلة البحث عن لفنجستون ١٨٧١-١٨٧٢: (ملحق ١٦)

١- التحضيرات الأولية للرحلة:

أثار انقطاع أخبار لفنجستون عن العالم الخارجي في رحلته الأخيرة قلق المجتمع الأوروبي آنذاك، ولأسيماً بعد أن وردت أخبار غير مؤكدة من بعض الفارين من خدمته توهي بمقتله، فكان لابد من التأكد مما إذا كان لفنجستون على قيد الحياة أم لقي حتفه خلال ترحاله في

(١) -The encyclopedia Britannica, v25, p779-781. pletcher, the Britannica guide to explorers and explorations, p147-150. ص ٣١٠-٣١٢. كام، المستكشفون في أفريقيا، ١٨٨٩-١٨٦٣

أدغال إفريقيا، الأمر الذي دفع السيد جيمس بينيت مدير صحيفة نيويورك هيرالد إلى تكليف المراسل الشاب هنري مورتون ستانلي في ١٧ تشرين الأول عام ١٨٦٩ للقيام برحلة إلى شرقي إفريقيا؛ تركز هدفها في الحصول على معلومات دقيقة عن الدكتور لفينجستون، وإسعافه وتقديم المساعدات له إذا كان لا يزال حياً، وإحضار جثمانه إلى المنزل إذا كان ميتاً، وقدم السيد بينيت رصيماً مفتوحاً لستانلي من أجل ذلك، ولكن كلفه قبل التوجه للبحث عن لفينجستون بحضور الافتتاح الرسمي لقناة السويس، ثم الصعود مع نهر النيل، ووصف كل ما هو مثير للاهتمام بالنسبة إلى السياح وكل ما يستحق المشاهدة، ثم كان عليه زيارة القدس، والقسطنطينية، وشبه جزيرة القرم، والمرور عبر القوقاز إلى بحر قزوين، وبلاد فارس والهند، وجمع ما يمكن جمعه من أخبار، ومن ثم يتوجه من هناك إلى إفريقيا للبحث عن لفينجستون. وبدأ ستانلي على الفور بإنجاز المهام الموكلة إليه، ونزل في نهاية المطاف في ميناء جزيرة زنجبار في ٦ كانون الثاني عام ١٨٧١، واستقبله فيها الكابتن فرانسيس ويب (Francis Webb) قنصل الولايات المتحدة الأمريكية بروح الضيافة والمجاملة، وسمح له بالإقامة في منزله، ووفر له كل الاحتياجات الضرورية، كما عامله المقيمون الأمريكيون والإنجليز والألمان والفرنسيون في الجزيرة بكثير من اللطف والود، وقدموا له كل المساعدات الممكنة^(١).

شرع ستانلي في اليوم التالي لوصوله إلى زنجبار بالإعداد والتحضير لرحلته المرتقبة، ولكن واجهته صعوبات جمة؛ إذ كان جاهلاً في طرق إعداد الحملات وما الذي يحتاجه من أجل أخذ بعثة إلى وسط إفريقيا، وما هي تكلفة إطعام مئة رجل لمدة عام في إفريقيا. وقرأ لأجل ذلك رحلات بيرتون وسبيك وجرانت، ولكن بلا فائدة؛ إذ قدمت رحلاتهم على حد قوله قدراً كبيراً من المعلومات الجغرافية والإثنولوجية وغيرها من المعلومات المتعلقة بدراسة إفريقيا الداخلية، ولكن المعلومات المتعلقة بتنظيم رحلة استكشافية قبل البدء في إفريقيا لم تكن موجودة في أي كتاب، وكان الأوروبيون في زنجبار لا يعرفون شيئاً حول هذه النقطة بالذات. وفي الآخر تمكن ستانلي بمساعدة التجار العرب في زنجبار من الحصول على معلومات دقيقة عن العملة الإفريقية، والإجراءات المطلوبة لتشكيل الحملة، وكمية المواد التي يحتاج إليها أكثر مما كان قد حصل عليه من دراسة ثلاثة أشهر في الكتب عن وسط إفريقيا، وتلقى ستانلي منهم معظم الاقتراحات والتلميحات القيمة التي مكنته في الآخر من تنظيم البعثة وشراء السلع التي يحتاجها من الأقمشة المختلفة والخرز بأنواعه والأسلاك النحاسية فضلاً عن الأدوية والمؤن وأواني الطبخ

(١) - Henry M. Stanley, How I Found Livingstone, Travels, Adventures and Discoveries in Central Africa including four months residence with Dr. Livingstone, Sampson Low, Marston & Company, London, 1872, p2-7.

والقوارب والحبال والإبر والخيوط والخيام والسروج والأكياس والذخيرة والأسلحة والبلطات والفرش وهدايا الرؤساء وغيرها من الأدوات والمعدات. وقام بشراء ٢٢ حملاً لنقل هذه المواد مع عربة مزودة بعجلتين لغرض نقل صناديق الذخيرة. وتفرغ بعد ذلك إلى توظيف وتجنيد مرافقة مسلحة من عشرين رجلاً ليرافقوه على الطريق، وقد أشرك من قبل اثنين من الأوروبيين الأول يدعى ويليام لورانس فاركوهار (William Lawrence Farquhar)؛ ملاح وصياد بارع من إسكتلندا كان قد رافقه في السفينة القادمة من بومباي، والثاني يدعى جون وليام شو (John William Shaw) من لندن كان يعمل في إحدى السفن الأمريكية، وتقدم للعمل ووافق ستانلي على إشراكه؛ لأنه يمتلك المتطلبات التي يحتاجها؛ إذ كان من ذوي الخبرة في الإبرة والخياطة، وكان ملاحاً جيداً، وحدد راتبه بـ ٣٠٠ دولار في السنة ليحتل المرتبة الثانية بعد فاركوهار، كما تمكن ستانلي من الحصول على خدمات ستة من الرجال الذين رافقوا سببك وجرانت في رحلتهم الأخيرة وهم: بومباي الذي عينه قائداً لجنوده مقابل ٨٠ دولاراً في السنة، وأوليدي، وأوليمينغو، وباروتي، وأمباري، ومبروكي مقابل ٤٠ دولاراً في السنة، ونجح بومباي في الحصول على ثمانية عشر رجلاً للعمل كجنود، وأعلن نفسه مسؤولاً عنهم، وتم تحديد أجورهم بـ ٣٦ دولاراً لكل رجل سنوياً أو ٣ دولارات في الشهر، وتم تزويد كل جندي ببندقية، وسكين، وبلطة، بالإضافة إلى مسحوق البارود ورصاص كافية لـ ٢٠٠ طلقة. وقام أيضاً بشراء قاربين الأول بثمانين دولاراً يتسع لعشرين شخصاً مع مخازن وبضائع كافية، والثاني بـ ٤٠ دولاراً يتسع لستة رجال مع مخازن مناسبة وقام بتقسيمها إلى قطع متساوية لتسهيل حملها؛ وذلك لتجنب غطسة الرؤساء المحليين ومتطلباتهم الباهظة، وتجنب فشل الرحلة على عتبة النجاح بعد الاعتبار من تجارب الرحالة السابقين^(١).

وما إن تم الانتهاء من التحضيرات حتى قام برفقة القنصل الأمريكي ويب بزيارة السلطان السيد برغش بن سعيد في قصره لوداعه، وكان السلطان كريماً معه؛ إذ رحب به في قصره وقدم له حصاناً عربياً كهديّة، وقدم له رسائل تعريفية إلى وكلائه وكبار رجاله وممثليه في الداخل ورسالة تمهيدية عامة إلى جميع التجار العرب الذين قد يلتقي بهم على الطريق لتسهيل رحلته، وتقديم كل المساعدات اللازمة مع أن ستانلي قد أبقي هدف حملته سراً. وشرع ستانلي في الخامس من شباط بعد تقديم الوداع للقناصل والتجار الأوروبيين في أربعة مراكب شراعية نحو باجامويو التي وصلها في اليوم نفسه، واتخذ لنفسه منزلاً بالقرب من ضواحيها الغربية حيث يوجد الطريق إلى أونيانيمبي، واضطر للإقامة فيها قرابة ٦ أسابيع حتى تمكن من جمع العدد المطلوب من الحماليين الذين قام بإرسالهم على مراحل عدة بعد أن دفع أجورهم مسبقاً

^(١) - Stanley, How I Found Livingstone, p20-29.

- محملين بالقوارب والصناديق والأمتعة وأحمال القماش والخرز وفق الترتيب الآتي:
- غادرت القافلة الأولى مع أربعة وعشرين حملاً وثلاثة جنود في ١٨ شباط عام ١٨٧١.
 - غادرت القافلة الثانية مع ثمانية وعشرين حملاً، وأربعة جنود في ٢١ شباط.
 - غادرت القافلة الثالثة مع اثنين وعشرين حملاً، وعشرة حمير، ورجل أبيض واحد، وطباخ، وثلاثة جنود في ٢٥ شباط.
 - غادرت القافلة الرابعة مع خمسة وخمسين حملاً، وخمسة جنود في ١١ آذار.
 - أما القافلة الخامسة التي كانت بقيادة ستانلي نفسه مع واحد من الرجال البيض وثمانية وعشرين حملاً، واثنين عشر جندياً، وخياط واحد، وطباخ واحد، ومترجم واحد، وحامل السلاح، وسبع عشرة من الحمير، واثنين من الخيول، وكلب واحد فبدأت المسير نحو الداخل في ٢١ آذار عام ١٨٧١ وهكذا كان العدد الإجمالي لبعثة نيويورك هيرالد كما يسميها ستانلي ١٩٢ شخصاً^(١).
- ٢- مسار الرحلة:

● المسير نحو أونيانيمبي:

بدأ ستانلي رحلته في داخل إفريقيا في ٢١ آذار عام ١٨٧١ بعد ثلاثة وسبعين يوماً بالضبط من وصوله إلى جزيرة زنجبار منطلقاً من مدينة باجامويو باتجاه الغرب حيث توقف في مخيم يقع على مسافة ٣ أميال لمدة ثلاثة أيام لوضع اللمسات الأخيرة لاستعدادات الرحلة الطويلة في داخل إفريقيا، واتخاذ الاحتياطات اللازمة ضد موسم الأمطار الذي كان قريباً، وتسوية جميع الحسابات المتبقية. وتابعوا سيرهم في اليوم الرابع عبر التربة الرملية الخصبة، والمستنقعات القصبية وغابات الأبنوس إلى الوادي الواسع لنهر كينجاني، وعبروه إلى قرية كيكوكا (Kikoka) التي تبعد أربعة أميال عن النهر في أقصى شمال غرب منطقة أوزارامو، وساروا منها عبر طبيعة جذابة وجميلة مروراً بقرى روساكو (Rosako) القرية الحدودية في أوكويري (Ukwere)^(٢)، وكينجارو (Kingaru)، وقبل أن يتمكنوا من ترتيب المعسكر هطل مطر غزير معلناً بدء موسم الأمطار، وشكل مستنقعاتاً في أرض المخيم، وأصبح المكان موبوء بالحمى والملاريا، وخسر ستانلي إثر ذلك خيوله نتيجة تعرضها لذبابة تسي تسي، ولم تتوقف خسائره عند ذلك بل استغل بعض الحمالة الوضع للهروب، وتعرض معظم رجاله للحمى. وتابعوا المسير بصعوبة في ٧ نيسان عبر قرى إمبيكي (Imbiki)، ومسوا (Msuwa)، وكيسيمو (Kisemo) التي تقع في منطقة مكتظة بالسكان، ومنها وصلوا إلى قرية موسودي (Mussoudi) في أقصى غرب أوكويري، ويتدفق خلفها نهر إنغيرينغيري (Ungerengeri) الرافد الرئيسي لنهر كينجاني، وتكمن على الضفة الغربية منه

(١) - Stanley, How I Found Livingstone, p34,38,41,60,61.

(٢) - Stanley, How I Found Livingstone, p62-68,72.

أراضي أوكامي (ukami). وقاموا بعبور النهر في ١٤ نيسان مروراً بقرى أولاجالا (Ulagalla)، وموهاله (Muhalleh) في إقليم أوزاغها، وقابل فيها ستانلي سالم بن راشد مع قافلة ضخمة من العاج، وزوده هذا التاجر ببعض الأخبار عن لفنجستون لأنه كان قد التقى به في أوجيجي، ومن ثم تابع ستانلي طريقه مع نهر إنغيرينغيري إلى عاصمة أوزاغها التي تدعى سيمبا مويني (Simbamweni)^(١) الواقعة عند الطرف الغربي لجبال أوروغورو (Uruguru) بواديها الواسع الذي تسقيه العديد من الجداول، وكانت تبعد عن باجامويونحو ١١٩ ميلاً ثم إنجازها في ١٤ مسيرة، وشغلت هذه المسيرات رغم الصعوبات الناشئة عن موسم الأمطار نحو ٢٩ يوماً^(٢).

واضطر ستانلي للتوقف في سيمبا مويني أياماً عدة لإصلاح الأمتعة والسروج وتطبيب الحيوانات، والحصول على المؤن. وعانى فيها ستانلي من الحمى وجيوش النمل الأسود والأبيض والأحمر، والحشرات من جميع الأنواع والأشكال والأحجام. وفي ٢٣ نيسان تابعوا المسيرة نحو الشمال عبر أرض سهلة ومستوية لتجنب التلال الملتوية، ولاحق لهم مراراً جبال أوزاجارا التي كانت تحيط بالأفق الغربي والشمالي، وكذلك المساحة الشاسعة من السهول الممتدة تحتها لثلاثين ميلاً التي عرفت باسم ماكاتا (Makata)، وعانت القافلة صعوبات كبيرة عند عبور هذه السهول في ظل تساقط المطر المستمر، واضطروا إلى الخوض في المستنقعات الموحلة التي شكلتها الأمطار، كما قاموا بعبور نهر ماكاتا؛ وهو نهر يبلغ عرضه ٤٠ قدماً، ويزداد عمقه واتساعه في موسم الأمطار، وهو المغذي الرئيسي لنهر وامي (Wami) الذي يصب في البحر بين موانئ سعداني وواهيندي، ويعرف في جميع أنحاء أوزاجارا باسم نهر موكوندوكوا (Mukondokwa)، وكان تدفق نهر ماكاتا سريعاً للغاية مما عرض سلامة الممتلكات للخطر وشغل عبوره خمس ساعات^(٣).

وتابعوا سيرهم من خلال مستنقعات سهل ماكاتا مع قافلة مثقلة بالمرضى من مجهود عبور

(١) - يذكر ستانلي أن هذه المدينة كانت تضم حوالي ١٠٠٠ منزل، ويقارب عدد سكانها ٥٠٠٠ نسمة تقريباً، ومنازلها إفريقية الطابع جيدة البناء وتحصيناتها من الحجر، وتضم أبراجاً مبنية من الحجارة في كل ركن منها مع أربعة بوابات يتم إغلاقها بأبواب مربعة صلبة مصنوعة من خشب الساج الإفريقي تم نحتها بعناية من قبل العرب في زنجبار أو ربما من قبل الحرفيين المحليين. وكانت السلطنة الحاكمة هي الابنة الكبرى لكيسابينجو (Kisabengo) الشهير في جميع البلدان المجاورة بسبب ميول الخطف، وكان قد برز من سلالة متواضعة، وعرف بقوته الشخصية وبلاغته الخطابية التي اكتسب من خلالها سطوة كبيرة على العبيد الهاربين، واختير قائداً بينهم. وبدأ بالسيطرة والتوسع في بلد أوكامي الخصب في وادي إنغيرينغيري، وبنى عاصمته بالقرب من النهر وسماها سيمبامويني التي تعني "الأسد" أو المدينة الأقوى، وفي سن الشيخوخة قام بتغيير اسم كيسابينجو الذي اكتسب سمعة سيئة إلى سيمبامويني وفقاً لمدينته، وعندما مات خلفته ابنته وفق رغبته ومنحها أيضاً اسم سيمبامويني سلطنة الذي عرفت به حتى ذلك الوقت. عن Stanley, How I Found Livingstone, p102

(٢) - Stanley, How I Found Livingstone, p82-84,88-100.

(٣) - Stanley, How I Found Livingstone, p108-110,115.

العديد من الأنهار والخوض في المستنقعات التي تركت أثراً سيئاً في القافلة؛ إذ ماتت حيوانات النقل يومياً حتى بقي منها خمسة فقط، ومرض الجنود والجمالون، وتعرض ستانلي أيضاً لهجوم من الزحار الحاد الذي أوصله إلى حافة القبر لولا أنه أخذ الدواء المناسب. وفي ٤ أيار وصلوا إلى قرية ريهنيكو (Rehenneko)؛ أول قرى أوزاجارا التي تقع عند سفح الجبل واستراحوا فيها أربعة أيام لاسترداد عافيتهم قبل صعود جبال أوزاجارا. وبدأوا في ٨ أيار صعود المنحدرات الحادة للخط الأول من جبال أوزاجارا، وشكلت المسيرة تحدياً كبيراً لحيوانات النقل في صعود وهبوط التلال والوديان العميقة حتى وصلوا إلى مجرى نهر موكوندوكو ووادي الضيق المغطى بالقصب والشجيرات الشائكة، وتابعوا على طول ضفته اليسرى إلى قرية كيورا (Kiora) التي وجد فيها ستانلي قافلته الثالثة بقيادة فاركواري الذي كان مريضاً وغير قادر على الحركة؛ لذلك اتحدت القافلتان معاً، وتابعوا السير في ١١ أيار على طول الضفة اليمنى لنهر موكوندوكو مروراً بقمة نجورو (Nguru)؛ أعلى قمم جبال أوزاجارا، ووصلوا في ١٤ أيار إلى بحيرة أغومبو (Ugombo) التي تقع عند سفح التل مباشرة، وساروا على طول شاطئها الشمالي عبر السهل الذي يقع بين البحيرة وجبال مبوابوا (Mpwapwa)، وتوقف ستانلي هناك بناء على نصيحة التجار العرب لمنح الحيوانات المتعبة بعض الراحة، وجمع ما يمكن من الحمالين، ولأجل تناول الحليب الطازج، والبطاطا الحلوة، ولحم البقر والضأن، والسمن، والعسل، والفاصوليا، وغيرها من المؤن التي توفرها المنطقة قبل البدء بالعبور من خلال بلاد أوغوغو^(١).

وبعد توقف دام ثلاثة أيام اتحدت قافلة ستانلي مع قوافل التجار العرب الشيخ ثاني وحامد في قافلة واحدة تقارب ٤٠٠ شخص، وباشروا المسير في ٢٢ أيار عبر منطقة مارينغا مخالي "الماء المر" التي تفصل بين أوزاجارا وأوغوغو وتمتد على مسافة ثلاثين ميلاً عبروها في غضون ست وثلاثين ساعة مع مزيد من الجهد والتعب، لعدم توافر الماء فيها، ودخلوا إلى أوغوغو التي كانت أرضاً مروعة لهم؛ إذ تعرضوا فيها لتعسف الرؤساء الذين ألزمهم بدفع ضرائب باهظة للمرور عبر أراضيهم، وكان سلاطين أوغوغو الذين مرت القافلة عبر أراضيهم على التوالي: مفومي (Mvumi)، وماتامبورو (Matamburu)، وبهوانا (Bihawana)، وكيديديمو (Kididimo)، وبيمييرا بيره (Pembera Pereh)، وميزانزا (Mizanza)، وسوارورو (Swaruru)، وتم إنجاز عبورها في خمسة عشر يوماً. وتابعوا طريقهم في ٧ حزيران عبر التلال الوعرة حتى حدود أويانزي (Uyanzi) أو كما تعرف باسم مجوندا مخالي (Magunda Mkali) "الحقل الساخن"، وتوقفوا في وادي مابونغورو (Mabunguru) الذي يجري باتجاه جنوبي غربي وينبع من سلسلة التلال التي تفصل أوغوغو عن مجوندا مخالي، ومن ثم ساروا عبر أرض متموجة مغطاة بالغابات مروراً

^(١) - Stanley, How I Found Livingstone, p117-126,130.

بقرى أونيامبوغو (Unyambogi)، وكيبي (Kiti)، وماسالالو (Msalalo)، وجيوا لا موكونا (Jiweh la Mkoa)، ووصلوا في ١٣ حزيران إلى كوسوري (Kusuri) في مقاطعة جيويه لا سينجا (Jiweh la Singa) التي تفصل أويانزي عن مقاطعة تورا (Tura) في أونيانيمبي، وبعد توقف يوم في كوسوري تابع ستانلي طريقه في ١٥ حزيران عبر بلاد أونيامويزي مروراً بمناطق تورا، وكوالا متوني (Kwala Mtoni)، وروبوغا (Rubuga)، وكيغوا (Kigwa)، وشيزا (Shiza) ووصل في ٢٣ حزيران عام ١٨٧١ إلى كويكورو (Kwikuru) القريبة من تابورا؛ المدينة العربية الرئيسية في أونيانيمبي، واستقبله هناك التجار العرب بكل ترحاب، وفي مقدمتهم الشيخ سيد بن سالم، وهكذا تم الانتهاء من المرحلة الأولى من الرحلة بعد ما يقارب ثلاثة أشهر من المسير^(١).

• المسير نحو أوجيجي:

تلقى ستانلي ترحيباً حاراً من التجار العرب في أونيانيمبي ولاسيما من سيد بن سالم الذي استقبله في منزله وأعد وليمة على شرفه بحضور معظم التجار العرب، وقدم له منزلاً ليقيم فيه، كما استقبله بعد ذلك شيخ بن نصيب، وخميس بن عبد الله^(٢) وغيرهم من التجار العرب، ووجد ستانلي قوافله بانتظاره هناك، وسمع تقارير رحلتهم وحوادث طريقهم، ومن ثم قام بدفع أجور الحمالة وصرفهم بعد أن قام بتخزين أمتعته وحمولاته، وعند تفحصه للمنطقة وجد أن تابورا؛ المستوطنة العربية الرئيسية في وسط إفريقيا تضم أكثر من ألف كوخ، وقدر عدد سكانها من العرب والسكان المحليين بنحو خمسة آلاف، وتلتها مستوطنة كويهرا (Kwihara) التي تفصلها عنها اثنتان من التلال الوعرة، وكان العرب وهم في الغالب من عُمان والسواحلية يعيشون فيها بترف، ويزرعون السهول الخصبة التي تحيط بها بالأرز والقمح والبطاطا والذرة الرفيعة والذرة الهندية والسمسم بالإضافة إلى البرتقال والليمون والمانجو التي تزدهر هناك بشكل جيد، والبصل والثوم والفلفل الحار والخيار والطماطم، والباذنجان، وتزودهم المراعي الغنية بقطعان كبيرة من الأبقار والماعز التي توفر كميات كبيرة من الحليب والزبدة والسمن، وينقل العبيد إليهم من الساحل سنوياً الشاي والسكر والبهارات والكاوي والأقمشة والملابس التي

(١) - Stanley, How I Found Livingstone, p139-141, 148-151, 158, 165, 170-176, 185.

(٢) - يذكر ستانلي عن خميس بن عبد الله أنه رجل جريء وشجاع، كان جاهزاً على الدوام للمطالبة بامتيازات العرب وحقوقهم في المرور عبر أي بلد من أجل التجارة المشروعة، وهو الرجل الذي ذكر في رحلة سبيك لاكتشاف مصدر النيل، أنه أطلق النار على ماولا؛ رئيس عجوز لأنه وقف إلى جانب مانوا سيرا خلال حروب العام ١٨٦٠، وطارد عدوه مانوا سيرا لمدة خمس سنوات من خلال أوغوغو وأونيامويزي وأكونغو (Ukonongo) حتى تمكن من قتله، والآن يبحث العرب على تأكيد حقوقهم ضد رئيس يدعى ميرامبو في أويوا (Uyoweh) بسبب قطع الطريق إلى أوجيجي، ومنعه العرب من المرور عبر بلاده إلا بعد فرض ضرائب باهظة. عن Stanley, How I Found Livingstone, p196.

يحتاجونها للاستخدام الشخصي^(١).

ووجد ستانلي العرب في تلك الآونة يتداولون مسألة إعلان الحرب على ميرامبو^(٢) - زعيم منطقة أويواه (Uyoweh) الواقعة على طريق أوجيجي- الذي كان في السابق يعمل كحمال لدى العرب، وقد دخل إلى أيواه بعد وفاة رئيسها ونصب نفسه رئيساً بالقوة معتمداً على مجموعة من اللصوص، وشن العديد من الحروب على جيرانه خرج منها منتصراً "هذه الرواية عن حياة ميرامبو حصل عليها ستانلي من التجار العرب"، وبدأ بعد ذلك باعتراض قوافل العرب طالباً ضرائب باهظة، وتطور الأمر إلى قطعه الطريق ومنعهم من العبور عبر أراضيهم، وحاول الشيخ سيد بن سالم؛ حاكم المستعمرة العربية الذي يكره الحرب أن يرضي ميرامبو بالهدايا، ولكن ميرامبو كان عازماً بشدة على الحرب، وأثبتت المواقف العامة التي أعقبت ذلك أن الحرب كانت وشيكة، وتطوع ستانلي لمراقبتهم ومساندتهم كمقابل للكرم الذي استقبلوه به، ولكنهم تعرضوا لهزيمة كبيرة قتل فيها عدد من العرب، وانسحب الباقي دون أخذ جرحاهم الأمر الذي دفع ستانلي للانسحاب من تحالفهم بعد أن احتج على طريقة إدارتهم للمعركة، وانسحابهم الذي تسبب بجر الحرب نحو أونيانيمي، وبدأ التحضير لمتابعة المسير نحو أوجيجي ولتعذر الحصول على الحماليين بسبب الحرب الدائرة اضطر ستانلي للإقامة في أونيانيمي قرابة ثلاثة أشهر حتى تمكن من الحصول على العدد المطلوب بعد أن دفع ثلاثة أضعاف الأجور المعتادة^(٣).

وبدأ ستانلي رغم معاناته من الحمى مسيرته إلى أوجيجي في ٢٠ أيلول عام ١٨٧١ برفقة أربعة وخمسين رجلاً مع اثنين من المرشدين عبر طريق جنوبي ليبتعد عن مسار الحرب الدائرة، وذلك بعد أن ترك معظم أمتعته الشخصية في أونيانيمي باستثناء حقيبة سفر واحدة، وسار مع بضاعة تتألف من ١٠٠٠ دوتي أو ٤٠٠٠ ياردة من القماش، وست حقائب من الخرز، وأربعة أحمال من الذخيرة، وبعض المؤن والأغراض الأخرى باتجاه الجنوب مروراً بقرى مكوينكوي

(١) - Stanley, How I Found Livingstone, p187-194.

(٢) - ميرامبو: اسمه الحقيقي متيلا كاسندا، وينحدر من نسل زعماء القبائل، بدأ في العشرين من عمره يطلق على نفسه الاسم الحربي ميرامبو الذي يعني "الجثث"، وكان طويل القامة ومهيب الطلعة، أدرك مبكراً بأنه لن يستطيع التغلب على العرب بالحرب وحدها؛ لذلك سلك محاريبه بالبنادق التي اشتراها مقابل العاج أو غنمها خلال الغارات التي شنها على قوافل العرب، وهاجم في العام ١٨٧١ على تابوره التي تعد التجمع الرئيسي للعرب في الداخل الإفريقي، وأحرق معظم دورها، وأستولى على مخازن كبيرة من العاج، كما أوقع في كمين أحد أبرز سكانها وهو التاجر العماني خميس بن عبدالله. وأمتد نفوذه من شواطئ بحيرة فكتوريا إلى الأطراف الجنوبية لبحيرة تنجانيقا، وتركزت عاصمته في أورامبو؛ وهي مدينة يقطنها عدة آلاف من السكان، وتوصل ميرامبو بعد ذلك إلى هدنة مع العرب، ومع ذلك كان باستطاعته عندما يرغب أن يجمع جيش قوامه سبعة آلاف رجل من أونيامويزي، وكانت وفاته في العام ١٨٨٤. عن هول، إمبراطوريات الرياح الموسمية، ص ٦٢٠-٦٤٠.

(٣) - Stanley, How I Found Livingstone, p197-199,211,216.

(Mkwenkwe)، وإينسوكا (Inesuka)، وكاسيجيرا (Kasegera)، وانتشر خلالها المرض بين رجال القافلة، وتمت متابعة السير مع ذلك حتى وصلوا إلى قرية كيغاندوا (Kigandu) التي تحكمها ابنة مكسيوا (Mkasiwa) رئيس أونيانيمبي، وهناك قام ستانلي باتخاذ تدابير لإعادة المرضى إلى تابوره وكان من بينهم الرجل الأبيض شو الذي لم يكن قادراً على السير. ومن ثم تابع ستانلي تقدمه باتجاه الجنوب بخطوات أسرع وأكثر مرونة صاعداً سلسلة من التلال ومخترقاً غابات لا متناهية حتى وصلوا في ٢٧ أيلول إلى أوغوندا (Ugunda)؛ وهي قرية كبيرة تقع على الحدود الجنوبية لأونيانيمبي، وتضم نحو ألفي نسمة ومحمية بشكل جيد من خلال حواجز قوية من الخشب مع خندق داخلي وحاجز من التربة يرتفع ثلاثة أو أربعة أقدام أمام السياج. وتابع منها ستانلي طريقه نحو الجنوب الغربي إلى كيكورو (Kikuru)، ووصل في الأول من تشرين الأول إلى بركة كبيرة تعرف باسم زيواني (Ziwani)، وتابع في اليوم التالي إلى قرية مانيارا (Manyara) التي تم منعهم من الدخول إليها؛ لأن البلاد كانت في حالة حرب وكان سكانها حريصين على عدم استقبال أحد خشية تعرض القرويين للخطر، وتمكن ستانلي بعد أن قدم الهدايا الثمينة لرئيسها من الحصول على المؤن بعد رفضهم في البداية تزويده بها، وتابع منها إلى نهر غومبي (Gombe) الذي يبعد مسيرة أربع ساعات عن مانيارا، وتوقفوا على ضفافه مدة يومين قضاها ستانلي في الصيد في غابات البلد التي تزخر بقطعان الفيلة ووحيد القرن والزرافات والغزلان وحمار الوحش. وتابعوا المسير في ٧ تشرين الأول جنوباً إلى ماريفو (Marefu) التي تحول منها باتجاه الغرب بسبب الحروب المحلية عبر الغابات وعلى طول مسارات الفيلة مروراً بقرى أوتيندي (Utende)، وموارو (Mwaru)، ومريرا (Mrera) التي توقف فيها يومين بسبب انتشار المرض بين رجاله، ولغرض شراء المؤن اللازمة لعبور البرية غير المأهولة الممتدة أمامهم على مدى تسعة أيام^(١).

وغادر ستانلي مريرا في ١٧ تشرين الأول متجهاً نحو الشمال الغربي عبر طريق متعرج على طول قاعدة جبال كاسيرا (Kasera)، واجتازوا العديد من الوديان والمستنقعات والأسرة الطينية لنهررونغوا (Rungwa) الذي يصب في بحيرة تنجانيقا، وسرعان ما دخلوا في إقليم وزافيرا (Wazavira) الذي كان مهجوراً مع بقايا الأكواخ المحترقة وحطام القرى المدمرة نتيجة الحروب المحلية، وعبروا أنهار مبوكوا (Mpokwa) أحد روافد نهررونغوا، ونهر متامبو (Mtambu) الذي عبروه إلى بلاد أوكاويندي (Ukawendi)، وخيموا في قرية تدعى إيتاجا (Itaga) في منطقة روساوا (Rusawa)، ومن هناك توجهوا نحو الشمال إلى نهرمالاجارازي بعد أن تزودوا بالمؤن لمدة ثلاثة أيام، وعبروا سلسلة من الجبال العالية والغابات الواسعة مروراً ببلاد أوفينزا (Uvinza) حتى وصلوا في الأول من تشرين الثاني إلى نهرمالاجارازي، وساروا على طول ضفته اليسرى إلى قرية

^(١) - Stanley, How I Found Livingstone, p238-248,252,256,278-280.

يحكمها كيالا (Kiala) الابن الأكبر لرئيس أوفينزا، وعبر من هناك نهر مالاجارازي بعد صعوبات كبيرة، وتابعوا مع مجراه حتى دخلوا في الرابع من تشرين الثاني إلى بلاد أوها (Uhha)^(١)، وتوقفوا في قرية كاونغفا (Kawanga) الذي ألزمهم بدفع ١٠ دوتي كضريبة على أساس أنه ينبغي لهم السفر عبر أوها إلى نهر روسوغي (Rusugi) دون مزيد من الغرامات، وغادروا كاونغفا في اليوم التالي عبر السهول التي اللامتناهية حتى اعترضهم حشد من السكان المحليين على الجانب الشرقي من مجرى نهر بومبوي (Pombwe) بالقرب من قرية لوكومو (Lukomo)، وألزمهم رئيسها ميونفو (Mionvu) على دفع غرامة باهظة للعبور قدرت بخمس وسبعين دوتي من القماش، واضطر ستانلي لدفعها مرغماً بعد أن أخبرهم رئيسها بأن هذا هو آخر مكان سيضطرون للدفع فيه، وتابعوا طريقهم بعبور أنهار بومبوي وكانينجي (Kanengi) إلى قرية كاهريجي (Kahirigi) التي ألزمهم رئيسها أيضاً بدفع ضريبة للمرور، واستاء ستانلي من ذلك ولاسيما بعد أن أعلمه رجلان ينتميان إلى عبيد ثاني بن عبد الله بأن هناك خمسة رؤساء آخرين يعيشون بالقرب من بعضهم كانوا سيطلبون الضريبة مما سيؤدي إلى نفاد متجره قبل وصوله إلى أوجيجي؛ لذلك سعى بمساعدة هذين الرجلين إلى السير عبر الغابات الممتدة على حدود أوها وأوفينزا في مسار غربي بعيد عن ابتزاز رؤسائها حتى وصل في التاسع من تشرين الثاني إلى أوكارانجا (Ukaranga) الواقعة على بحيرة تنجانيقا والقريبة من أوجيجي التي وصلها في ١٠ تشرين الثاني عام ١٨٧١ بعد مسير ٢٣٦ يوماً من الساحل، وواحد وخمسين يوماً من أونيانيمبي^(٢).

(١) - أوها: بلد من الأراضي العشبية المسطحة شرق بحيرة تنجانيقا، يسكنها مزيج من المزارعين المحليين ورعاة الماشية من باهيمبا. وعلى عكس المناطق الأخرى لم يشكل الباهيمبا فيها أرستقراطية حاكمة. وكان لها يخضعون اسمياً للملك واحد يحكم مقاطعتين عظيمتين شبه مستقلتين تدعان كيميني (Kimenyi) وأنتاري (Antari). ويذكر ستانلي الذي كان أول رجل أبيض يدخل البلاد في العام ١٨٧١ أن زعماء القرى ضلّوه عمداً من أجل انتزاع المزيد من الضرائب، وطالب أحد زعماء القبيلة كونه نائب ملك كيميني بعشرة قطع من القماش نيابة عن الملك مقابل الحصول على تصريح المرور عبر إقليمه، ولكن في القرية التالية تم إيقاف القافلة مرة أخرى، وهنا أخبر الرئيس ميونفو ستانلي أنه نائب الملك الحقيقي وطالب بـ ١٠٠ قطعة قماش كضريبة، ووافق ستانلي على دفع ٧٥ وسار إلى القرية المجاورة حيث التقى رجلاً آخر زعم أنه شقيق الملك وبالطبع وضع مطلبه الخاص من الضرائب، واضطر ستانلي بعد ذلك إلى التسلل حول حواف أوها من خلال المسيرات القسرية حتى وصل إلى بحيرة تنجانيقا. ولم يدخل أي مستكشف أوها مرة أخرى حتى العام ١٨٩٣. ويصف ستانلي لها بأنهم أبطال أكفاء وجديرون ضد جميع الغزاة حتى أن ميرامبو فشل في التغلب عليهم، وربما كان أقوى دليل على براعتهم في القتال هو الانطباع الاستثنائي للأمن الذي سجله ستانلي عند دخوله البلاد لأول مرة؛ إذ لم تكن القرى محاطة بالجدران المعتادة أو العوائق الطبيعية، ولكنها كانت تقع في السهول المفتوحة دون حماية كاملة، كما لو أن السكان ليس لديهم أي شيء على الإطلاق للخوف من جيرائهم. عن Peers, Armies of the nineteenth century, p88.

(٢) - Stanley, How I Found Livingstone, p288-291,295,302,307,315,325.

● لقاء لفنجستون واستكشاف الجزء الشمالي من بحيرة تنجانيقا:

وصل ستانلي إلى أوجيجي في العاشر من تشرين الثاني عام ١٨٧١، وتم استقباله من قبل حشود السكان المحليين، وكان من بينهم سوسي وشوما خادما لفنجستون اللذان قاداه إلى منزل سيدهم، وتجمع هناك كبار التجار العرب، ومن بينهم محمد بن صالح وسعيد بن ماجد وعبيد بن سليمان ومحمد بن غريب وغيرهم أمام بيت الطبيب حيث تم اللقاء بين ستانلي ولفنجستون الذي بدا كرجل عجوز مع لحية رمادية، وحيا كل منهما الآخر، واستقبل لفنجستون ستانلي في منزله، وحدث كل منهما الآخر عن رحلاته والصعوبات التي واجهته، وكتب ستانلي ما تيسر له من سير رحلات لفنجستون، وأبلغه بأنه هدف رحلته الذي أرسله لأجلها السيد بينت، وأسعفه بالمؤن والمواد والأدوية بعد أن كان قد وصل إلى حد التسول. وبعد الإقامة في أوجيجي لبعض الوقت استعداداً لرحلتها لفنجستون صحته وعافيته قرر أن يقوم برفقة ستانلي بالإبحار في بحيرة تنجانيقا واستكشاف شاطئها الشمالي نتيجة لاهتمام الجمعية الجغرافية الملكية بهذا الموضوع بعد أن تضاربت الآراء حول صلتها بنظام نهر النيل، وكان من بين من أكد صلتها بالنيل كل من بيرتون ولفنجستون ذاته^(١).

وبعد إقامة أسبوع في أوجيجي حصل ستانلي ولفنجستون على قارب من سيد بن ماجد، وشرعا برفقة اثنين من الأدلاء وعشرين رجلاً في بحيرة تنجانيقا مروراً بجزيرة بانغوي (Bangwe) التي تبعد خمسة أميال عن أوجيجي، وتابعوا منها شمالاً على طول الساحل الشرقي مروراً بمختلف الانحناءات والتضاريس لشاطئ البحيرة إلى قرية كيغوما (Kigoma)؛ أول ميناء للزوارق المتجهة شمالاً من أوجيجي، وتابعوا منها إلى نايانجا (Niasanga) التي تقع عند مصب نهر يحمل الاسم نفسه، وعانى الطبيب في هذا المكان من الزحار الذي كان شكوى متكررة معه، وجليتهم مسيرة اليوم الثالث إلى قرية ونهرزاسي (Zassi)، وفي اليوم الرابع عبروا نهر مشالا (Mshala)؛ الذي يعد خط الحدود بين أوجيجي وأوروندي ووصلوا إلى نيابيغما (Nyabigma)؛ وهي جزيرة رملية في أوروندي (Urundi)، ووصلوا في اليوم الخامس إلى رأس كيتوندا (Kitunda) الذي يمتد لمسافة ثمانية أميال تقريباً من قاعدة المنحنى الجبلي الذي ينبع منه نهر لوبا والأحواض الأخرى، وعبروه إلى رأس كاسوفو (Kasofu)، ومكونجو (Mukungu) حيث طلب منهم الضريبة لأول مرة، وتم دفعها بعد حصولهم على الطعام والشراب، وتابعوا رحلتهم في اليوم السادس بالقرب من الأراضي المنخفضة التي شكلتها أنهار كيغويينا (Kigwena)، وكيكوما (Kikuma)، وكيسونوي (Kisunwe)، وتلتها جبال أوروندي التي تتخللها العديد من الوديان والأنهار التي تصب في البحيرة، وبعد اجتياز الرأس المنخفض الذي شكله نهر كيسونوي أبحروا على مقربة من القرى القريبة من

^(١) - Stanley, How I Found Livingstone, p331,343,390.

الشاطئ حتى وصلوا إلى مورمبوي (Murembwe) وهي دلتا نهر يحمل الاسم نفسه، وتابعوا منها إلى رأس ساتاكيي (Sentakeyi)، وقرية ماجالا (Magala)؛ إحدى أبرز معالم الطريق شمالاً من أوجيجي، وكان عرض البحيرة في هذه المنطقة حوالي ثمانية أو عشرة أميال، وفي صباح اليوم الثامن من مغادرة أوجيجي غادروا ماغالا إلى بلد موكامبا (Mukamba)، وأجبرتهم عاصفة بحرية على الرسو في قرية كيزوكا (Kisuka)^(١).

وفي اليوم التاسع مروا بالدلتا الواسع لنهر موغيري (Mugere)؛ وهو النهر الذي يطلق اسمه أيضاً على المنطقة الواقعة على الشاطئ الشرقي الذي يحكمه موكامبا، وتعرض ستانلي هناك للحمل لأول مرة منذ مغادرة أونيانيمبي، وأشرف لفنجستون على تطييبه، وفي اليوم التالي جاء موكامبا لمقابلتهم، وعلموا منه أن نهر روسيزي يصب في البحيرة ولا يخرج منها، وانهارت بذلك آمالهم بتأكيد تدفق النهر من البحيرة إلى كاراجوي ومنها إلى بحيرة بيكر، وتابعوا بعد دفع الضريبة في تسع ساعات بمسار قطري من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي حتى وصلوا إلى موغيوهوا (Mugihewa)؛ بلد روهينجا (Ruhinga)؛ الأخ الأكبر لمكامبا والواقع في أقصى شمال الشاطئ الغربي للبحيرة، ويقع فيها دلتا نهر روسيزي، وهناك علموا من روهينجا أن الروسيزي ينبع بالقرب من بحيرة تدعى "كيفو" نسبة إلى البلد الذي تقع فيه، وهي بطول ١٨ ميلاً، وحوالي ٨ في العرض، ومحاطة بالجبال على جانبيها الغربي والشمالي، وعلى الجانب الجنوبي الغربي من هذه الجبال ينبع نهر روسيزي في تيار سريع صغير في البداية، ولكنه يستقبل مع تقدمه العديد من الروافد حتى يصب في شمال بحيرة تنجانيقا. وبعد الحصول على كثير من التفاصيل الدقيقة حول نهر روسيزي بقي لهم فقط رؤيته، وبدأوا في اليوم الثاني لوصولهم باستكشاف رأس البحيرة ومصب الروسيزي، وتأكدوا أنه يصب في البحيرة ولا يخرج منها، وأبحروا في مجرى الروسيزي لحوالي نصف ميل، وأزيلت بذلك كل الشكوك حوله. وعادوا أدراجهم في ٧ كانون الأول بعد أن لازموا الساحل الغربي للبحيرة عبر إقليمي أوفيرا (Uvira) وواسانسي (Wasansi) حتى إيرامبا (Urimba)، ومن ثم قاموا بعبور البحيرة نحو شاطئها الشرقي في سبعة عشر ساعة، ووصلوا إلى موكونجو في أروندي، وتابعوا منها إلى أوجيجي التي وصلوها في ١٣ كانون الأول بعد رحلة استغرقت ثمانية وعشرين يوماً اجتازوا خلالها أكثر من ٣٠٠ ميل في الماء^(٢).

● ختام الرحلة:

بعد الانتهاء من استكشاف بحيرة تنجانيقا عاد ستانلي برفقة لفنجستون إلى أونيانيمبي لاستلام سلعه التي كانت هناك في ٢٧ كانون الأول عام ١٨٧١ عبر الطريق نفسه الذي جاء منه

(١) - Stanley, How I Found Livingstone, p393-400,403,407.

(٢) - Stanley, How I Found Livingstone, p410-417,421,429.

ستانلي؛ لأن الطريق القديم لا يزال مقطوعاً بسبب استمرار الحرب مع ميرامبو، ووصلا إلى أونيانيمبي في ١٨ شباط عام ١٨٧٢ بعد مسير ثلاثة وخمسين يوماً، وهناك وجد لفنجستون سلعه قد نهبت ولم يتبق منها إلا القليل، وبينما أصر لفنجستون على البقاء في أونيانيمبي لمتابعة استكشافاته أسرع ستانلي بالعودة إلى الساحل في ١٤ آذار حاملاً معه رسائل لفنجستون إلى أبنائه وأصدقائه، ونسخ من مذكراته التي كتبها خلال سنوات سفره في جنوب وغرب بحيرة تنجانيقا ورسالة إلى السيد جيمس جورج بينت مسجلاً فيها شكره وامتنانه، ووصل إلى باجامبو في ٦ أيار، وأبحر في اليوم التالي إلى جزيرة زنجبار، وقام من هناك بتنظيم حملة جديدة من خمسين رجلاً محملة بالمواد والسلع التي يحتاجها لفنجستون وأرسلها على الفور إلى أونيانيمبي، وتابع بعد ذلك طريقه إلى إنجلترا منهياً بذلك رحلته التي استغرقت أكثر من عام، وتكللت بالنجاح، وحققت الهدف المطلوب منها، وكانت سبباً في شهرة ستانلي وهيأته معنوياً للقيام برحلات أخرى حقق من خلالها أعظم الاكتشافات الجغرافية^(١).

ب- الرحلة الثانية: البعثة الأنجلو-أمريكية ١٨٧٤-١٨٧٧: (ملحق ١٧)

١- التحضيرات الأولية للرحلة:

شكلت أخبار وفاة الدكتور لفنجستون على مقربة من بحيرة بانجويلو في العام ١٨٧٣ ووصول جثمانه إلى إنجلترا صدمة كبيرة للمجتمع الأوروبي والمؤسسات العلمية والجغرافية، وتأثر ستانلي بشكل خاص بهذا الخبر؛ إذ توفي لفنجستون على عتبة المنطقة المجهولة التي تعهد باستكشافها قبل عودته إلى المنزل، وتعهد ستانلي نتيجة ذلك بإكمال عمله وإنجاز الاستكشافات الجغرافية التي توفي لفنجستون دون تحقيقها، وبدأ بناء على ذلك بقراءة كل ما كتب حول قارة إفريقيا وجغرافيتها وعلم النبات والأعراق فيها، ولاسيما ما تم إنجازه من قبل المستكشفين، وما بقي من الداخل المظلم الذي لا يزال غير معروف للعالم. وبدأ بوضع وابتكار الخطط ورسم المسارات المحتملة للاستكشافات، ووضع قوائم بالمعدات والأدوات اللازمة لرسم خريطة للمناطق الجديدة التي سيتم اجتيازها حتى جاء الوقت المناسب عندما اتفق أصحاب جريدتي الديلي تليجراف البريطانية ونيويورك هيرالد الأمريكية على تمويل رحلة شاملة لكشف ما تبقى من أسرار القارة الإفريقية، وتم اختيار ستانلي لتولي قيادتها، وتحددت أهدافها بحل ما تبقى من المشاكل المتبقية في جغرافية وسط إفريقيا، والتحقق من مآسي تجارة العبيد. وكان ستانلي يهدف بشكل صريح إلى الطواف حول بحيرة فكتوريا للتأكد مما إذا كانت بحيرة كبيرة واحدة أم عدة بحيرات، وهل لها مخرج واحد أم أكثر؟ والدوران حول بحيرة تنجانيقا لمعرفة مخرجها ومدى صدق ما ذكره بيرتون بشأنها، والوصول إلى نهر لوالابا والإبحار فيه حتى مصبه؛ لمعرفة

^(١) - Stanley, How I Found Livingstone, p437,477,495,525.

إذا ما كان جزءاً من نظام نهر النيل أم الكونغو. وبدأ على الفور بإعداد ما يلزمه من معدات ومؤن، وقام بشراء قارب خشبي يمكن فكّه وتركيبه ليسهل حمله على اليابسة، وأشرك ثلاثة من الشبان الإنجليز الذين تقدموا لمرافقته، وهم فريدريك باركر، والأخوان فرانسيس بوكوك وإدوارد بوكوك. وغادرا إنجلترا في ١٥ آب عام ١٨٧٤ متجهاً إلى جزيرة زنجبار التي وصلها في ٢١ أيلول من العام نفسه^(١).

تلقى ستانلي في زنجبار ترحيباً حاراً من السلطان برغش بن سعيد، ومن الأوروبيين المقيمين فيها. وبدأ على الفور بالإعداد لرحلته المرتقبة وشراء ما يلزم من حاجيات، وتمكن بمساعدة التاجر الهندي المسلم تاريا توبان الذي تعرف عليه في رحلته السابقة من شراء ما يحتاجه من الأقمشة والخرز والأسلاك النحاسية بأسعار معقولة، وكان الوزن الإجمالي للسلع من القماش، والخرز، والأسلاك، والمخازن، والأدوية، والفرش، والملابس، والخيام، والذخيرة، والقارب، والمجاذيف، والأدوات والقرطاسية، وأجهزة التصوير وأدوات القياس وغيرها من المواد المتنوعة نحو ١٨،٠٠٠ رطل؛ أي ما يعادل ٨ طن مقسمة في أحمال وزن نحو ٦٠ رطلاً. وباشر ستانلي بعد ذلك بتوظيف الرجال لمرافقته وحمل الأمتعة، وكانت الأولوية للرجال الذين رافقوه في رحلته السابقة الذين اختار من بينهم رؤساء الفرق، وعين مانوا سيرا الذي كان رئيس القافلة التي أرسلها لمساعدة لفنجستون في العام ١٨٧٢ رئيساً لبعثته الحالية، ومن ثم بدأ بتجنيد جميع المتقدمين القادرين على حمل الحمولات من وانغوانا، ووانياموزي، وسكان الساحل من ممباسا، وتانجا، وسعداني، وتم تسجيل أسمائهم أمام القنصل الأمريكي مقابل أجور تتراوح بين ٢ و ١٠ دولارات شهرياً مع حصص للطعام حسب القدرة، والقوة، والذكاء مع العلم بأنهم سيخدمون لمدة عامين أو إلى أن يتم إلغاء خدماتهم في إفريقيا، وتلقى كل منهم أجور أربعة أشهر مقدماً، ودفعت لهم أيضاً الأموال التموينية من وقت التجنيد الأول بمعدل دولار واحد في الأسبوع، وبلغ إجمالي المبالغ المدفوعة نقداً مقابل السلف المدفوعة وحصص الإعاشة في زنجبار وباجامويو نحو ٦٢٦٠ دولاراً أو ما يقرب ١٣٠٠ جنهماً إسترلينياً^(٢).

وما إن تمت الاستعدادات حتى غادر ستانلي جزيرة زنجبار في ١٢ تشرين الثاني في ست من السفن العربية محملة بالرجال والعتاد، والحيوانات، ونزل في اليوم التالي في ميناء باجامويو على البر الإفريقي، وأقام فيها خمسة أيام أتم خلالها الاستعدادات النهائية، وأشرك ما ينقصه من رجال، ومن ثم شرع بالمسير في الداخل الإفريقي في قافلة مكونة من أربعة رؤساء في المقدمة، ويلهم اثنا عشر دليلاً يرتدون أردية حمراء، ويحملون لفائف الأسلاك، ثم طابور طويل من ٢٧٠

^(١) - Stanley, Through the Dark Continent, George newness, London, 1899, 1v, p 1-6.

^(٢) - Stanley, Through the Dark Continent, v1, p45, 50-51.

رجلاً يحملون القماش، والأسلاك، والخرز، وأجزاء قارب الليدي أليس، وخلفهم ست وثلاثون امرأة وعشرة أولاد؛ زوجات وأطفال بعض الرؤساء وحاملي القوارب، ويليهم حمير الركوب والرجال الأوروبيين الأربعة وحاملوا السلاح، وتم إغلاق الخلفية من قبل ستة عشر رئيساً يعملون بمثابة حرس خلفي، وكان تعدادهم جميعاً نحو ٣٥٦ نفساً مرتبطين بالبعثة الأنجلو أمريكية التي بدأت مسيرتها نحو الداخل في ١٧ تشرين الثاني عام ١٨٧٤^(١).

٢- مسار الرحلة:

• المسير إلى بحيرة فكتوريا:

بدأ ستانلي مسيرته في الداخل الإفريقي في ١٧ تشرين الثاني عام ١٨٧٤ متجهاً نحو الغرب عبر طريق موازي للطريق الذي سار فيه في رحلته الأولى مروراً بأنهار كنگاني، ووامي، ولونغومبو (Lugumbwa)، وعبر بلاد أوزاجارا ومرينغا مخالي وأوغوغو التي عانوا فيها من حالة الطقس الرهيبة، وندرة الغذاء، والضرائب الباهظة التي فرضها عليهم رؤساء أوغوغو، وفي ٢٩ كانون الأول عبروا سلسلة التلال التي تشكل الحدود الطبيعية بين أوغوغو وأويانزي أو أوكيمبو (Ukimbu) كما أصبحت تعرف في ذلك الوقت، ومن ثم ساروا عبر سهل واسع إلى منطقة موكوندوكو التي تضم حوالي مئة قرية صغيرة، ويحكمها ملك يدعى شالولا (Chalula) الذي منحهم دليلاً ليرشدتهم، وانحرفوا بمسار رحلتهم في الأول من كانون الثاني عام ١٨٧٥ نحو الشمال بعيداً عن طريق أونيانيمبي وعبر طريق محاط بالعديد من قرى واهومبا التي كانت تملك العديد من قطعان الأبقار والأغنام والماعز مع العديد من الحمير والكلاب، وتوقفوا في قرية متيوي (Mtiwi) الواقعة على ارتفاع ٢٨٢٥ قدم، وتقدموا عبر المرتفعات الجبلية إلى موهالالا (Muhalala)، وكاشونغوا (Kashongwa) التي حصلوا فيها على دليل ليرشدتهم إلى أوريمي (Urimi) ولكنهم أضاعوا الطريق في الغابات والأدغال الكثيفة الخالية من الطعام، وتعرضوا خلالها للمجاعة حتى وصلوا في ١٢ كانون الثاني إلى سونا (Suna) في بلاد أوريمي التي ضمت سهولاً زراعية واسعة، واحتوت على قطعان كبيرة من الماعز والأغنام، ولم يكن فيها رئيس يحكمها، وإنما خضعت للتوجيه والإرشاد من قبل الشيوخ أو رؤساء العائلات الذين اكتسبوا أهمية من خلال التحالفات المحلية، وتوقفوا في سونا أربعة أيام بسبب انتشار المرض فيما بينهم، وكان لديهم أكثر من ثلاثين رجلاً مريضاً عانى بعضهم من الزحار، وبعضهم الآخر من الحمى والربو وأمراض الصدر وأمراض القلب، وبلغت ذروتها بإصابة إدوارد بوكوك بمرض التيفوس الذي أنهى حياته في ١٧ كانون الثاني عام ١٨٧٥، وتم دفنه في منطقة شيوو (Chiwyu) على بعد أربع مئة ميل من المحيط^(٢).

وتابعت القافلة سيرها في ١٨ كانون الثاني باتجاه الشمال الغربي مروراً بالعديد من

(١) - Stanley, Through the Dark Continent, v1, p53,56,64.

(٢) - Stanley, Through the Dark Continent, v1, p71,78,81-85,89-91.

الجداول الصادرة عن قاعدة التلال الممتدة إلى الشمال والغرب من سونا وشيوو التي توحدت تدريجياً في تيار رئيسي واحد كان يصب في نهاية المطاف في بحيرة فيكتوريا، وهكذا تم اكتشاف أكثر مصادر النيل الجنوبية تطرفاً في هذه المنطقة، وعرفت بأسماء "ليومبو" (Leewumbu) ثم "مونانغاه" (Monangah) وأخيراً "شيميو" (Shimeeyu)، وتحت هذا الاسم الأخير يصب في بحيرة فيكتوريا على الساحل الجنوبي الشرقي لخليج سبيك. وفي ٢٠ كانون الثاني وصلوا إلى بلاد إيتورو^(١) (Ituru) التي تدفقت فيها العديد من المجاري نحو الشمال، وكانت لغتهم مميزة تماماً عن لغة أوغوغو وأونيامويزي، ويمتلكون قطعاناً كبيرة من الماشية. وتابعوا منها عبر قرى إيزنجيه (Izanjeh)، وفينياتا (Vinyata)، واشتبكوا في هذه الأخيرة مع السكان المحليين الذي تجمعوا لمحاربتهم مدة ثلاثة أيام خسروا خلالها نحو ٢٤ رجلاً، وجرح ثلاثة، وفقدوا اثني عشر سلاحاً، وانفقوا أربعة صناديق ذخيرة، وكان لديهم خمسة وعشرون رجلاً على قائمة المرضى. واستأنفت الحملة سيرها في ٢٦ كانون الثاني مروراً بنهر ليومبو، وعبر الغابات المتقاطعة مع السهول الضيقة التي تغطيها المستنقعات إلى قرية مغونغو تيمبو (Mgongo Tembo) ورئيسها مالياوا (Malewa)، وحصل فيها ستانلي على خدمات ثمانية حاملين واثنين من المرشدين، ثم تابعوا طريقهم مروراً بقرى مانجورا (Mangura)، وإيجيرا (Igira)؛ وهي قرية تطل على سهل لواميري (Luwamberri) الذي يتسع إلى ما يقرب من أربعين ميلاً نحو الشمال والشمال الغربي، وعبروا في ٢ شباط نهر إتاوا (Itawa) وغوغو (Gogo)، ودخلوا في ٩ شباط بلاد أوسوكوما (Usukuma)^(٢) الغنية، وتوقفوا ثلاثة أيام في قرية مومبيتي (Mombiti) الغنية بالحبوب والفاول والبطاطا والخضروات والماعز والدجاج. وتابعوا المسير في ١٤ شباط إلى نهر لومبو (Leewumbu) أو نهر مونانغا (Monangah) كما يطلق عليه أوسوكوما، ووصلوا في ١٧ شباط إلى بلد أوزيها (Usiha)؛ وهي بلد رعوي يمتد حتى شواطئ بحيرة فيكتوريا، وساروا عبر أرض المراعي مروراً بقرى واندوي

(١) - إيتورو أو نياتورو: يسكنون المنطقة الواقعة إلى الغرب من بحيرة إياسو على طريق السفر المباشر من أوغوغو إلى بحيرة فيكتوريا، وهم شعب نيلى نشأ من واحدة من موجات الهجرة من الشمال، وتأثروا بشدة بموجات البانتو المحلية. لم يسجل الكثير عنهم في مصادر القرن التاسع عشر، ويوصفون عموماً بكونهم قبيلة حربية صغيرة شبه بدوية ومعادية للغرباء، عملوا بالزراعة وتربية الماشية، وأعدادهم غير معروفة، وتعرض ستانلي للهجوم من قبلهم عندما مر عبر أراضيهم في العام ١٨٧٥. عن

Peers, Armies of the nineteenth century, p78-79.

(٢) - سوكوما: من شعوب البانتو، وترتبط عرقياً بالنيامويزي، فسوكوما (سكان الشمال) يشكلون أكبر تجمع قبلي في تنزانيا، ويعيشون بالقرب من بحيرة فيكتوريا بالقرب من موانزا، ونظمت في العديد من المشيخات، وظلت معزولة عن التأثير التبشيري، والتعليم الغربي، والاقتصاد النقدي المحصول حتى القرن العشرين. في العقود الأخيرة أصبحت سوكوما مزدهرة بفضل إدخال القطن إلى سوكومالاند خلال الفترة الاستعمارية البريطانية، وازدهر ميناء موانزا أيضاً بسبب التأثير التجاري لسوكوما. عن

Ofcansky, Historical Dictionary of Tanzania, p148

(Wandui)، وموندو (Mondo)، وماريا (Marya)، وأوسماو (Usmau)، وكاغيهي (Kagehyi) التي أطلوا منها على بحيرة فكتوريا في ٢٧ شباط بعد مسيرة تقارب ٧٢٠ ميلاً من الساحل شغلت نحو ١٠٣ أيام من ١٧ تشرين الثاني عام ١٨٧٤ وحتى ٢٧ شباط عام ١٨٧٥ وبمعدل ٧ أميال في كل يوم، وتقلص عددهم في ختام هذا المسير إلى نحو ٢١٠ فرد بعد هروب ما يقرب من ١٠٠، وموت نحو ٤٥ رجلاً خلال المسير^(١).

• الطواف في بحيرة فكتوريا:

تلقى ستانلي في كاجيهي ترحيباً حاراً من رئيسها كادوما (Kaduma) الذي قدم لهم على الفور أكواخاً للإقامة والراحة. وفي اليوم التالي لوصولهم بدأ ستانلي بالتأكد من موقع كاجيهي وارتفاعها فوق مستوى سطح البحر، وعلم أنها مجرد منطقة صغيرة تابعة لملك أوشامبي (Uchambi)، كما بدأ بإجراء حسابات للوقت المحتمل للتوقف في كاجيهي، وشرع في إعداد وتجهيز قارب الليدي أليس للإبحار في البحيرة، وفي غضون سبعة أيام كان القارب جاهزاً ومزوداً بالموءن من الطحين والأسماك المجففة، وبالات القماش والخرز من مختلف الأنواع وغيرها من الضروريات المحتملة للرحلة، واختار ستانلي عشرة رجال كبحارة. وبعد أن ترك تعليمات لفرانك بوكوك وفريدريك باركر حول الأمور المتعلقة بالحملة أثناء غيابه شرع في بحيرة فكتوريا في الثامن من آذار عام ١٨٧٥ باتجاه الشرق على طول ذراع البحيرة الواسع الذي أطلق عليه اسم خليج سبيك تكريماً لمكتشفها الأول، وجلبتهم مسيرة خمسة أميال إلى قرية إيغوسا (Igusa) التي حصل فيها على صياد يدعى سارامبا (Saramba) قدم خدماته كدليل، ومن ثم استأنفوا رحلتهم شرقاً مروراً بمصب نهر شيميو الذي يعد أقصى امتداد جنوبي لمياه نهر النيل، ويبلغ طول مجراه نحو ٣٠٠ ميل، وأبحروا على طول ساحل مازانزا (Mazanza) الذي يشكل الشاطئ الشرقي لخليج سبيك وأراضي ويرجيدي (Wirigedi)، وشاشي (Shahshi) مروراً بمصب نهر روانا (Ruana)، ومن ثم إلى إرامبا (Iramba)، ومنها إلى جزيرة أوكيروي التي أبحروا بمحاذاتها، وأظهرت لمحة سريعة لها أنها ذات كثافة سكانية عالية وزراعة واسعة النطاق وتحاذيها من الشمال الغربي مجموعة من الجزر منها إيرانجا (Iraugara)، وكاماسي (Kamassi)، وكينديفي (Kindevi)، وشيزو (Shizu)، وأوكارا (Ukara)، وأبحروا خلالها باتجاه الشمال الشرقي على طول ساحل بلاد أوروري (Ururi) مروراً بالعديد من الخلجان والمداخل العميقة إلى بلد أوتيري (Utiri) الذي يمتد حتى مصب نهر غوري (Gori)، وتابعوا بمحاذاة سواحل أوغواه (Ugoweh)، وماهيتا (Maheta) إلى خليج مانيارا (Manyara) الذي يشكل الركن الشمالي الشرقي الأقصى من بحيرة فيكتوريا^(٢).

(١) - Stanley, Through the Dark Continent, v1, p 93-95, 101-111.

(٢) - Stanley, Through the Dark Continent, v1, p116, 122-133.

وتابعوا رحلتهم على طول الساحل الشمالي للبحيرة بمحاذاة شواطئ أوغامبا (Ugamba)، وأوفوما (Uvuma) مروراً بمصب نهر مونولو (Munulu) إلى قناة نابليون وشلالات ريبون في أوسوجا (Usoga). وفي ٢٩ آذار عبروا القناة وأبحروا على طول سواحل بوجندا مروراً بالعديد من الجزر المأهولة بالسكان، وأهمها كيوا (Kiwa) وكيرينجي (Kerenge)، وتابعوا على طول الشاطئ الذي يفصل خليج بوكا عن خليج كادزي (Kadzi)، وتوقفوا في قرية كيرودو (Kirudo) التي وصلهم فيها رسول الملك متيسا برسالة يأمل فيها زيارتهم، وكان قد نزل في قرية للصيد في أوسافارا (Usavara) بالقرب من البحيرة، فتوجه ستانلي على الفور برفقة رسول الملك ماجاسا (Magassa) عبر خليج مورشيزون، وجزر لينانت (Linant)، وسيوة (Soweh)، وأوكومبا (Ukumba)، وهبطوا على الجانب الشرقي من خليج مورشيزون حيث بدأوا سيرهم في اليوم التالي إلى أوسافارا قرية صيد الكاباكا التي وصلوها في ٥ نيسان عام ١٨٧٥^(١).

وتلقى ستانلي ترحيباً حاراً من الكاباكا متيسا الذي وجده خلافاً لما وصفه سبيك^(٢) في رحلته في العام ١٨٦١، وأعجب به ستانلي كثيراً، ووجده أميراً مسلماً ذكياً ومتميزاً وسخياً، ويرتدي ملابس جيدة، ويتمتع بنفوذ كبير على جيرانه الذين يجلبون له الهدايا بشكل دوري، ويرسلون السفارات يخطبون فيها وده، وكانت بلاده منظمة بشكل كبير؛ إذ وجد ستانلي في استقباله أكثر من ٣٠٠٠ جندي، وحوالي مئة من الرؤساء يرتدون ثياباً جميلة ومسلحين بالأسلوب نفسه، ويمتلك أسطولاً قوياً من الزوارق يجوب فيه بحيرة فكتوريا. كما زار ستانلي عاصمته روبوغا، ووجدها قائمة على رأس تلة مستديرة تضم مجموعة كبيرة من الأكواخ العشبية، وفي وسطها يقع قصر الكاباكا، وتحيط به أسوار القصب من كل جانب، وفيها العديد من الطرق المنظمة. ووجد ستانلي أن كل هذا النظام والقانون كان نتيجة عمل رجل مسلم يدعى مولى بن سليم (Muley bin salim)^(٣)؛ وهو أول من نشر الإسلام في أوغندا. وسعى ستانلي بعد انبهاره بما رآه إلى

(١) - Stanley, Through the Dark Continent, v1, p137,139,142-146.

(٢) - كان سبيك قد وصل إلى أوغندا في العام ١٨٦١ بعد فترة قصيرة من تعيين متيسا ملكاً على أوغندا خلفاً لوالده سونا، ووصفه بكونه أميراً شاباً عبثاً وعنيفاً وطاغية كان يقتل شعبه بالجملة.

(٣) - يذكر أن التاجر العماني الشيخ أحمد بن إبراهيم هو أول من أدخل الإسلام إلى بلاد بوجندا، وكان قد وصل إليها في العام ١٨٤٣ في عهد الملك سونا، وأبدى هذا الشيخ شجاعة فائقة ضد تصرفات الملك سونا بتقديم عدد من رعاياه كقرايين للآلهة، ووقف متحدياً الملك ومخاطباً إياه بعدم جواز ذلك، وحدثه عن الله الواحد خالق الكون الذي أنعم عليه بهذه المملكة، وعن قدرته حتى انفتح عقل الملك وقلبه لكلام الشيخ، وأقنع بدخول الإسلام، وأسفرت صحبه الشيخ للملك عن تعلمه مبادئ الدين الإسلامي، وبعض أجزاء القرآن الكريم قبل وفاته في العام ١٨٥٦، أما عن شخصية مولى بن سليم فلم أجد له ترجمة في المراجع العربية مع أن بعض المصادر تذكر أنه مجرد لقب للتاجر العماني أحمد بن إبراهيم. عن زياد المعولي، العمانيون ونشر الإسلام والثقافة العربية في شرق إفريقيا، المؤتمر الدولي للإسلام في إفريقيا، جامعة إفريقيا العالمية، ليبيا، ٢٠٠٦، ص ٤٣٤. النقيز، انتشار الإسلام في شرقي إفريقيا، ص ٢٤٠.

تشجيع متيسا على اعتناق المسيحية حتى أنه بعث من هناك نداء موجهاً إلى الجمعيات التبشيرية في أوروبا لتولي هذه المسؤولية أرسلها مع السيد لينانت دي بلفوندس (Linant de Bellefonds) عضو بعثة غوردون باشا الذي قابله في بلاط متيسا. وبقي ستانلي في ضيافة متيسا قرابة عشرة أيام ومن ثم طلب الإذن بالمغادرة ملتمساً تزويده بالزوارق لنقل أفراد بعثته عبر المياه من كاجيهي في أوسوكوما إلى بوجندا^(١).

وبدأ ستانلي رحلة العودة في ١٧ نيسان منطلقاً من خليج مورشيزون برفقة عشرة زوارق من أصل ثلاثين زورقاً كان قد وعد بها متيسا وتناقصت بشكل تدريجي حتى بقي ستانلي مع زورقه ورجاله فقط، وأبحروا في البداية إلى جزيرة تشيوانوكو (Chiwanuko)، ومنها إلى خليج جومبا (Jumba) على الشاطئ الشمالي للبحيرة في منطقة أونجاجو (Unjaju) الواقعة على الضفة اليسرى أو الشمالية لنهر كاتونغا (Katonga) حيث تنتهي بلاد بوجندا، وتبدأ على الضفة الجنوبية أو اليمنى منه سواحل بلاد أودو (Uddu) التي تمتد حتى نهر نيل ألكسندرا أو كاجيرا (Kagera)، وتابعوا في ٢١ نيسان رحلتهم على طول شواطئ أونجاجو المستنقعية والغابية إلى دومو (Dumo)، وهي قرية تقع على البر الرئيسي مقابل الطرف الجنوبي المتطرف لجزيرة سيس (Sesse)^(٢)، وتابعوا منها إلى مصب نهر نيل ألكسندرا الذي كان يتسع لحوالي ١٥٠ ياردة، وحاول ستانلي الصعود في مجراه لكن التيار كان قوياً جداً لدرجة أن تقدمهم كان بطيئاً، وبعد صعود ثلاثة أميال اضطرر ستانلي إلى التخلي عنه بعد أن سبر عمقه ووجده يصل لعمق ٨٥ قدماً، وكان بذلك أكبر روافد بحيرة فكتوريا، ويشكل كاجيرا حداً طبيعياً بين بوجندا وممالكها التابعة، وهما كاراجوي وأوزونغورا (Uzongora) التي تبدأ جنوب النهر، وكانت أول قرية توقفوا عندها هي ماكونغو (Makongo) على ساحل أوزونغورا التي طردهم سكانها، وتنقلوا بعد ذلك بحثاً عن الطعام بين جزر موسيرا (Musira)، وأليس (Alice) التي هجره فيها آخر مراكب واجندا وبقي ستانلي وحيداً برفقة رجاله العشرة، وانتقلوا بعد ذلك إلى مجموعة جزر بومبيرا^(٣) (Bumbireh) التي احتجزهم سكانها، وأخذوا مجازيفهم وحاولوا قتلهم وسرقة ممتلكاتهم، ولكنهم تمكنوا من

^(١) - Stanley, Through the Dark Continent, v1, p151-156-163.

^(٢) - يمتد أرخبيل جزر سيس (Sesse) من جنوب كيبونغا (Kibonga) باتجاه الغرب إلى سبعة أميال جنوب قرية جومبا، وتمتد باتجاه الجنوب بالتوازي تماماً مع ساحل أودو لمسافة ثلاثة وعشرين ميلاً. طولها الأقصى ٤٢ ميلاً، واتساعها الأقصى نحو عشرين ميلاً. وكان يتركز فيها بناء الزوارق الرئيسيين والعدد الأكبر من البحارة في إمبراطورية متيسا. عن Stanley,

Through the Dark Continent, v1, p 167

^(٣) - يبلغ طول جزيرة بومبيرا حوالي ١١ ميلاً، وعرض أكثر من ميلين، وتتكون من مجموعة من التلال ذات المنحدرات الشديدة الانحدار، وتحتوي على خمسين قرية صغيرة، ويبلغ متوسط عدد سكانها نحو ٤٠٠٠ نسمة بما في ذلك جميع الأعمار. عن

Stanley, Through the Dark Continent, v1, p 178

الهرب قبل حدوث الاشتباك، واستخدموا الألواح السفلية للقارب كمجاديف واضطروا للإبحار يومين متتالين من دون طعام، ودفعتهم في الآخر عاصفة بحرية إلى جزيرة غير مأهولة أطلق عليها ستانلي اسم جزيرة الملجأ (Refuge)، وحصلوا فيها على الطعام، وتابعوا منها طريقهم مروراً بجزر سينغو (Singo)، وإيتو (Ito)، وكونينا (Kuneneh) إلى جزيرة أوكيروي التي استقبلوا فيها بحفاوة، وتابعوا منها في اليوم التالي على طول ساحل أوسوكوما مباشرة نحو المخيم في كاجيبي التي وصلوها في السادس من أيار حيث استقبلهم السكان وأفراد البعثة بعد غياب دام شهرين^(١).

وفي كاجيبي وجد ستانلي أن فريدريك باركر أحد الرجال البيض كان قد توفي، وتم دفنه على تلة بالقرب من البحيرة، وأصيب ستانلي نفسه بعد مدة من عودته بالحمى، وعندما تعافى بدأ بالتفكير بطريقة للعودة إلى بلاد متييسا؛ وذلك لمحاولة استكشاف بحيرة ألبرت، ولما كان طريق البر مقطوعاً بسبب الحروب المحلية لم يبق سوى طريق الماء، وتمكن ستانلي من الحصول على ثلاثة وعشرين قارباً من الملك لوكونوا (Lukonoeh) ملك أوكيروي بعد أن قدم له كثيراً من الهدايا من السجاد والأقمشة والملابس الملونة، بالإضافة إلى الخرز ذي الجودة العالية وأشياء أخرى بما يعادل ٨٠٠ دولار، كما قدم له لوكونوا اثنين من أبناء أخوته ليرافقوه كمرشدين في رحلته. وبعد أن قام ستانلي بإجراء الإصلاحات اللازمة للزوارق قام بتحميلها بالمؤن من الحبوب والأقمشة والخرز وشرع في البحيرة في ٢٠ حزيران مع ١٥٠ من الرجال والنساء والأطفال، و ١٠٠ حمولة من القماش والخرز والأسلاك و ٨٨ كيساً من الحبوب و ٣٠ حقيبة ذخيرة، وأبحروا عبر مجموعة الجزر الصغيرة الواقعة إلى الغرب من أوكيروي، وطافوا حول الزاوية الجنوبية الغربية منها مروراً بجزر كونينا، ومياندر (Miandereh)، وسينغو، والملجأ التي أقاموا فيها قرابة الشهر حيث اضطرت ستانلي للعودة إلى كاجيبي للحصول على قوارب أخرى بعد غرق بعض قواربه، ومن ثم غادر جزيرة الملجأ في ١٨ تموز شاقاً طريقه بالقوة بين مجموعة جزر بومبيرا التي حاول سكانها احتجازهم وقتلهم في رحلتهم السابقة، وكانت جزر بومبيرا تابعة لـ أنتاري (Antari) ملك إيهانجيرو (Ihangiro) الواقعة على الساحل الغربي للبحيرة، ودخل ستانلي في معركة معهم بمساندة قوة من ٢٣٠ رجلاً من واجندا جاؤوا للبحث عنه، وتمكنوا من هزيمة سكان بومبيرا ودحرهم، ومن ثم تابعوا إبحارهم شمالاً مروراً بجزيرة موسيرا، ومصب نيل ألكسندرا، وأرخبيل جزر سيبي، ومصب نهر كاتونغا، ووصلوا في ١٨ آب إلى قرية نتوي (Ntewi) التي علموا فيها أن الملك متييسا كان مشغولاً بالإعداد والتحضير للقيام بحملة ضد بلد وافوما، الأمر الذي أربك ستانلي وجعل مرافقته يميلون للعودة نتيجة لمعرفتهم من خلال التجربة أن الحروب الإفريقية غالباً ما تستمر لفترة طويلة، ولكن بعد كثير من التفكير تابع ستانلي طريقه شرقاً متفحصاً

^(١) - Stanley, Through the Dark Continent, v1, p 166-171,174,184,187.

الساحل الشمالي للبحيرة إلى جزيرة أوغونغو قبالة جنجا أو شلالات ريبون، ووصل منها في ٢٣ آب عام ١٨٧٥ إلى معسكر متيسا الذي استقبله بالترحاب المعتاد^(١).

• المسير إلى بحيرة موتا نزيغ (Muta Nzige) (بحيرة جورج):

وصل ستانلي إلى معسكر الكاباكا متيسا في ٢٣ آب عام ١٨٧٥، وتلقى هناك الترحيب المعتاد من الملك الإفريقي، ووجده قد جمع جيشاً كبيراً من جميع أنحاء إمبراطوريته بلغ تعداداه نحو ١٥٠ ألف محارب مع عدد كبير من الزوارق الكبيرة وتمت تغطية شواطئ أوغونغو وجنجا مع آلاف من الرجال والنساء والأطفال، وقدر ستانلي عدد النفوس في معسكر متيسا بحوالي ٢٥٠ ألف، وكان متيسا ينوي محاربة واسوجا ووافوما المتمردين. وفي مقابلة مع متيسا تحدث ستانلي عن رغبته في الحصول على دليل لإرشاده إلى بحيرة موتا نزيغ، ولكن متيسا أجاب بأنه في حرب مع شعب أوفوما الذي رفض دفع الضريبة، وأنه لم يكن من المعتاد في بوجندا السماح للغرباء بالمضي قدماً في رحلاتهم في الوقت الذي كان فيه الكاباكا منخرطاً في الحرب، ووعده بعد انتهاء الحرب بإرسال جيش معه ليرافقه إلى البحيرة بأقصر الطرق، وأخبره إضافة إلى ذلك بأن قوة صغيرة لا يمكنها أن تصل إلى تلك البحيرة؛ لأن كاباريغا (Kabba Rega)^(٢) ملك أونيوور كان في

(١) - Stanley, Through the Dark Continent, v1, p190-194,201,203,212,227-235.

(٢) - كاباريغا: (١٨٤٥-١٩٢٣): تولى الحكم في بونيوور بعد وفاة والده كمراري في العام ١٨٦٩ بمساعدة من الكاباكا متيسا ملك بوجندا، وكان من أشد الحكام المقاومين للاستعمار البريطاني؛ إذ حصل على الأسلحة من التجار العرب، وبنى جيشاً دائماً يتراوح تعداداه بين ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠٠، وتصدى لمحاولات بيكر وغوردون وأمين باشا لضم بونيوور إلى مصر. وبحلول العام ١٨٩٠ بلغ كاباريغا ذروة سلطته، وامتدت سيطرته من ما وراء نهر سمليكي إلى نهر النيل، واستعادة مملكة تورو لسيطرته، وامتد تأثيره حتى أنكولي. كان منافسه الرئيسي بوجندا (على الرغم من تدخل متيسا في وقت سابق لصالحه)، وزادت هذه المنافسة علاقاته مع البريطانيين سوءاً، فمنذ العام ١٨٩٠ كان البريطانيون في بوجندا مدفوعين من قبل الباجندا تجاه العدوان على بونيوور، وعندما تدخل لوجارد بدافع من زعماء بوجندا لتثبيت كاساجاما (Kasagama) على تورو غضب كاباريغا بسبب هذا العمل العدائي، وسعى لإعادة تأكيد سيطرته على تورو. وفي العام ١٨٩٣ أمر الضابط البريطاني ماكdonالد بشن هجوم واسع النطاق ضد كاباريغا الذي قاتل طوال السنوات السبع التالية في حرب عصابات ماهرة وناجحة في كثير من الأحيان ضد البريطانيين والباجندا حتى بعد إعلان الحماية على بونيوور في العام ١٨٩٦. وعيّن البريطانيون آخر محله لكن كاباريغا بقي الملك الشرعي بالنسبة لغالبية بانيوور. وفي النهاية تم القبض على كاباريغا وموانجا كاباكا بوجندا - الذي تمرد ضد البريطانيين في العام ١٨٩٧ واتحد مع كاباريغا - في مخبئهم في مستنقعات جنوب لانجو، وتم نفيهما إلى سيشيل. وتوفي موانجا في العام ١٩٠٤، لكن كاباريغا عاش حتى عام ١٩٢٣ حيث سمح له البريطانيون بالعودة إلى أوغندا، وتوفي في جنجا بعد شهرين فقط، ومع الاستقلال اعترف بـ كاباريغا بطل شجاع لمحاولاته إبقاء بلاده خالية من الحكم الأجنبي. عن: Pirouet, Historical dictionary of Uganda, p177-178.

حالة حرب مع البيض في غوندوكرو، وشعب أنكوري (Ankori)^(١) لا يتقبلان الغرباء في أراضيهم سواء للتجارة أم غير ذلك وكانت كل الطرق إلى البحيرة تمر عبر بلدانهم. وبعد هذه المعلومات كان أمام ستانلي إما التخلي عن مشروع استكشاف بحيرة ألبرت والتوجه إلى تنجانيقا في الحال أو الانتظار حتى تنتهي الحرب، ولكن بعد التأكد من أن الحرب لن تستمر طويلاً فقد عقد العزم على البقاء واستغلال الوقت في الحصول على معلومات عن البلد وسكانه. واستمرت الحرب قرابة الشهر والنصف من ٢٧ آب وحتى ١٣ تشرين الأول عام ١٨٧٥، وانتهت بتحقيق السلام بين الطرفين بعد مواجهات عديدة وساهم ستانلي بكل جهده بإنهاء الحرب لمتابعة استكشافاته^(٢).

عاد ستانلي بعد ذلك برفقة متيسا وجيشه إلى العاصمة القديمة للبلاد أولالاجالا (Ulagalla) في ٢٩ تشرين الأول، وبعد استراحة بضعة أيام عاود تذكير الكاباكا متيسا بالغرض الأصلي

^(١) - أنكوري: اسم أطلقه الأوروبيون على المملكة الواقعة في الجنوب الغربي لدولة أوغندا الحديثة، بينما كان اسمها الأصلي نكوري (Nkore). ومثلها مثل غيرهم من ولايات باهيما يرجع أصل سكانها إلى أسرة باشويري الذين حكموا بوجندا وبونيورو أيضاً. كانت مملكة نكوري موجودة منذ القرن السادس عشر، لكنها كانت غير مهمة نسبياً حتى أوائل القرن الثامن عشر عندما ألحق الملك نتاري الرابع هزيمة كبيرة بمملكة بونيورو. وكانت أنكولي المثال الأكثر وضوحاً في منطقة حكم باهيما التي انقسم سكانها على نحو صارم بين باهيما الذين عرفوا هنا باسم بانيانكول (Banyankole) والمزارعين الأصليين الذين عرفوا باسم الباهيرو (Baheru) أو "العبيد". وقدم باهيما العائلة المالكة والنبلاء في حين لم يُسمح للباهيرو الذين ربما شكلوا ٩٠٪ من السكان بامتلاك أو التجارة في الماشية، وكانوا مضطرين إلى أداء الخدمات الوضيعة لسادتهم. واستندت هيمنة بانيانكول جزئياً إلى الوضع الاجتماعي الذي تنطوي عليه حيازة الماشية، وجزئياً على تنظيمها العسكري المتفوق فبينما عاش الباهيرو في قرى متناثرة لا تزيد عن ١٠٠ أسرة تم تنظيم البانيانكول في مجموعات كبيرة وبالتالي لم يكن الباهيرو في وضع يسمح لهم بتهديد موقف سادتهم. وبشكل عام كان هناك القليل من الاحتكاك بين المجموعتين لأنهم عاشوا في قرى منفصلة. عُرف ملك أنكولي باسم أومغابي (omugabe) وكان دائماً من عشيرة باهيما الملكية، ويندرج تحت قيادته مجموعة من رؤساء الأقاليم. وحكم أنكولي بين عامي ١٨٣٩-١٨٦٧ الملك موتامبوكا (Mutambuka) الذي أسس جيشاً دائماً وسع بواسطته المملكة على حساب القبائل المجاورة، وخلفه في العام ١٨٧٥ نتاري الخامس الذي تولى العرش بعد حرب أهلية طويلة بمساعدة جيش أرسله ميتسا من بوجندا، وحافظ نتاري على علاقات ودية مع بوجندا، لكنه قام في كثير من الأحيان بحملات ضد بونيورو التي استولى على بعض الأراضي منها. كان أول اتصال لها مع الأوروبيون في العام ١٨٨٩ عندما مرّ ستانلي عبر أنكولي في حملته لإغاثة أمين باشا. ودخلت أنكولي تحت حماية شركة شرق إفريقيا البريطانية في العام ١٨٩١ عندما وقع لوغارد مع الملك نتاري معاهدة قبل بموجبها حماية الشركة ورفع العلم البريطاني. وخلفه على العرش بعد وفاته في العام ١٨٩٥ الأمير إغوميرا بدعم بريطاني، وعندما هرب ملك بوجندا موانجا إلى أنكولي في العام ١٨٩٧ بعد تمرد فاشل ضد البريطانيين ساندته إغوميرا في البداية مما أدى إلى اشتباك قصير مع القوات البريطانية انتهى بهزيمة موانجا وسلم إغوميرا السلطة إلى البريطانيين، وأعلن استقلاله مرة أخرى في العام ١٩٠٠ ولكن تم اعتقاله وترحيله. عن

Peers, Armies of the nineteenth century, p132-133.

^(٢) - Stanley, Through the Dark Continent, v1, p 237-239, 266-269.

لزيارته، ووافق متيسا على مغادرته، وسمح له باختيار قائد القوة التي سترافقه لاستكشاف بحيرة موتا نزيج، واختار ستانلي القائد سامبوزي (Sambuzi)؛ وهو شاباً يبلغ من العمر ثلاثين عاماً أو نحو ذلك، كان قد شهد قوته وشجاعته خلال الحرب مع أوفوما. وبدأوا المسير على الفور في مجموعتين؛ إذ أبحر ستانلي مع خمسة زوارق في بحيرة فكتوريا في حين قاد سامبوزي قوة من ألف رجل براً إلى مكان التقائهم المحدد على نهر كاتونغا. وواصل ستانلي التحرك في البحيرة إلى دومو حيث التقى بأفراد بعثته بعد غياب ثلاثة أشهر، وقام هناك بإعادة تنظيم بعثته وتجميع الحمولات، وإعداد القارب لنقله براً، ومن ثم بدأ المسير نحو مكان الالتقاء العام للجيش الاستكشافي على نهر كاتونغا. وساروا عبر بلاد أودو في اتجاه الشمال والشمال الغربي حتى وصلوا إلى نهر كيوغيا (Kyogia)؛ رافد نهر كاتونغا، وتابعوا مع مجرى هذا النهر حتى كيكوما (Kikoma)، ومن ثم قاموا بعبوره إلى بلد بويرا (Bwera) الذي يقع في موازاة أودو ويمتد حتى نهر كاتونغا الذي وصلوه في اليوم التالي، ووجده ستانلي أشبه ببحيرة، ويبلغ عرضه حوالي نصف ميل، ويختنق بالعشب ونبات البردي، واستغرق عبوره يوماً كاملاً إلى رويوا (ruwewa) على الضفة الشمالية من كاتونغا، وتابعوا من هناك إلى لوغوروي (Laugurwe) حيث التقوا بالجنرال سامبوزي، وساروا من هناك على طول الضفة الشمالية لنهر كاتونغا من خلال بلد مفتوح تتخلله العديد من المجاري المائية إلى كاوانغا (Kawanga) الواقعة على حدود أوغندا حيث تمّ تجميع كل قوة سامبوزي التي بلغ تعدادها مع مرافقة ستانلي نحو ٢٨٠٠ رجل^(١).

وقاموا في الأول من كانون الثاني عام ١٨٧٦ بعبور نهر نابوتاري (Nabutari) الذي يفصل أوغندا عن أوينيورو والذي أنهى سهول بوجندا الرعوية الممتدة على طول طريقهم من بحيرة فيكتوريا، وبدأ على الضفة الغربية منه بلد أوينيورو أو بونيورو الأكثر وعورة مع تقدمهم نحو الغرب مروراً بمناطق روكونكا و كازينجا (Kazinga)، وعبروا نهر كاتونغا مرة أخرى، ولاح لهم إلى الغرب منه قمة جبل شاهق في بلد غامبارا غارا (Gambaragara) أطلق عليه ستانلي اسم غوردون بينيت تكريماً لرئيس صحيفة نيويورك هيرالد، وخيموا بعد مسير ١٦ ميلاً على الضفة الشرقية لنهر مبانغا (Mpanga) الذي تكمن منابعه بالقرب من قاعدة جبل غوردون بينيت، ويلتقي بنهر روسانغو (rusango) الذي يتدفق نحو الشمال الغربي من جبل لوسون في مقاطعة كيبانغا (Kibanga) في أنكوري، وبعد ذلك يتحد المجريان ويندفعان بقوة إلى الشمال الغربي وبعد عدة شلالات يصب في خليج بياترك (Beatrice)، وغادروا بعد ذلك أوينيورو، ودخلوا إلى بلاد أنكوري أو أوزا غارا (Usagara) مروراً بأوزيمبا (uzimba) بلد الرئيس رويغي (Ruigi)، وساروا على طول نهر روسانغو عبر بلد جميل ارتفعت فيه الجبال والتلال في كل اتجاه، وبما أن البحيرة

^(١) - Stanley, Through the Dark Continent, v1, p 326,330-335.

كانت على بعد أربعة أميال فقط أصبح من الضروري معرفة نوايا السكان المحليين تجاه تقدمهم؛ لذلك أرسلوا بعض السكان برسائل إلى رويغي ملك أوزيمبا، وكاشيشي (Kasheshe) ملك أونيامباكا (Unyampaka)؛ البلد الذي يحد البحيرة غرب أوزيمبا فحواها أن واجندا قد أحضروا الرجل الأبيض الذي كان يرغب في رؤية البحيرة^(١)، ويطلب إذنًا للإقامة في البلاد بضعة أيام، وكان ينوي دفع ثمن جميع المواد الغذائية التي يستهلكها، وأنه لن يشغل أي قرية ولن ينهب أي ممتلكات، وسيبني معسكره بعيداً عن القرى المحلية^(٢).

وغادروا في ١١ كانون الثاني قرى أوزيمبا، وأقاموا معسكرهم على قمة هضبة تقع البحيرة أسفلها، وفي اليوم التالي جلب السكان المحليون إجابة مفادها أن أوزيمبا وأونيامباكا ينتميان إلى أونيوور، وبما أن ملك أونيوور كان يقاتل الرجال البيض في غوندوكرو كيف يمكن للرجل الأبيض أن يأتي خلفه ويتوقع السلام؛ لذلك أصبحت الحرب وشيكة، الأمر الذي أربك رؤساء واجندا، وبدأوا التفكير بالتراجع، وطلب منهم ستانلي البقاء ليومين فقط ومن ثم سيسمح لهم بالمغادرة، وقام خلال ذلك بإرسال مجموعة من رجاله إلى البحيرة مع تعليمات للمضي قدماً بحذر دون تنبيه سكان شاطئ البحيرة؛ وذلك لإيجاد طريق آمن يمكن من خلاله إنزال القارب والحمولات إلى البحيرة دون وقوع أية إصابات، ولمعرفة ما إذا كان يمكن الحصول على الزوارق للشروع في البحيرة، ولكنهم وجدوا أنه من الصعوبة بمكان إنزال القارب من على حافة الهضبة التي ترتفع لـ ٥٠ قدماً، وأفادوا أيضاً أنه لا يمكن العثور إلا على خمسة زوارق صغيرة لصيد السمك والتي كانت عديمة الجدوى تماماً لنقل الرجال أو البضائع على البحيرة. وكانت هذه الأخبار إضافة إلى الشائعات التي انتشرت عن تقدم قوة كبيرة من الجنوب لمحاربتهم قد عززت الخوف بين واجندا، وقرروا بعد مشاورات عدة التراجع في الحال، واضطر ستانلي بناء على ذلك إلى العودة برفقتهم لمحاولة الوصول إلى البحيرة من طريق آخر. وكان طريق عودتهم إلى الجنوب من الطريق الذي دخلوا فيه إلى أراضي أوزيمبا، وساروا عبر أنكوري، وخيموا على ضفاف نهر روسانجو، ومن ثم قاموا بعبور نهر كاتونغا، وعبروا أراضي أونيوور مرة أخرى، وخيموا في ٢٧ كانون الثاني في كيسوسي في بوجندا حيث افترق عنهم سامبوزي إلى أرضه القريبة بعد أن نهب

(١) - اعتقد ستانلي أن بحيرة موتا نزيج أو دويرو هي بحيرة ألبرت ذاتها التي اكتشفها بيكر في العام ١٨٦٤، واطلق على الذراع الذي شاهده من البحيرة اسم خليج بياترك، وتبين له هذا الخطأ في طريق عودته من رحلة إغاثة أمين باشا في العام ١٨٨٨ عندما مر بالبحيرة مرة أخرى، وأدرك أنها بحيرة منفصلة، ولكن لم يرد في كتابه أنه أطلق عليها اسم بحيرة جورج؛ الاسم الذي عرفت به فيما بعد نسبة للأمير جورج أحد أفراد الاسرة الملكية الإنجليزية. عن

Stanley, In Darkest Africa, 2v, p353-357.

(٢) - Stanley, Through the Dark Continent, v1, p 337-342.

متاجر ستانلي، وتوقف ستانلي في كيسوسي ثلاثة أيام لإعطاء البعثة القليل من الراحة، وخلال هذا الوقت قام بإرسال اثنين من رجاله برسالة إلى ميتسا يبلغه فيها بفشل سامبوزاي في أداء واجبه وسرقة ممتلكاته، وغضب ميتسا كثيراً وأمر أحد رجاله بنهب أرض سامبوزي وإحضاره مقيداً، وأرسل إلى ستانلي يبلغه بأنه سيزوده بقوة من ٦٠ إلى ١٠٠ ألف رجل لمرافقته إلى البحيرة والبقاء هناك حتى الانتهاء من عمله، واستلم ستانلي رسالة ميتسا في شاروغوا (Charugawa) بالقرب من نيل ألكسندرا، وأغرقت هذه الرسالة في حيرة، ولكن بعد مداوولات طويلة وجد أنه ليس من الحكمة تضييع الوقت بهذه الطريقة، وإلى جانب ذلك فإن مثل هذه القوة ستكون خارجة عن السيطرة، كما أصبح أيضاً بعيداً جداً عن بحيرة موتا نزيح فضلاً عن عدم ثقته بواجندا؛ لذلك كتب رسالة إلى ميتسا يشكره فيها على لطفه وكرمه، وختمت هذه الرسالة اتصالهم بالعاهل الأوغندي القوي، وانتهت بذلك رحلتهم في مملكة بوجندا^(١).

• المسير عبر مملكة كاراجوي:

تابع ستانلي طريقه جنوباً بعبور نهر نيل ألكسندرا، ووردتهم هناك تقارير عن مدى قوة واتساع النهر المسمى أيضاً بأسماء كاجيرا وكيثانجولي (Kitangule) وإنجيزي (Ingezi) والذي يعد الرافد الرئيسي لبحيرة فيكتوريا، ويستنزف تقريباً جميع المياه من الغرب والجنوب الغربي نحو البحيرة، وأجرى ستانلي مسحاً دقيقاً لأكثر من نصف مجراه، ووجد عرضه عند عبوره حوالي ٤٥٠ ياردة، ولكن حوالي ٣٥٠ ياردة من هذا الاتساع كان عبارة عن فيضان مغطى بالرواسب والقصب وورق البردي بينما كانت الـ ١٠٠ ياردة المتبقية عبارة عن تيار قوي وعميق من المياه. وتابع ستانلي بعد ذلك رحلته جنوباً إلى قاعدة الجبال العالية في كاراجوي، وفي ٢٤ شباط خيموا في ناكاهانغا (Nakahanga)، ودخلوا في اليوم التالي إلى كافورو (Kafurro)؛ المحطة العربية في كاراجوي التي تدين بأهميتها لثلاثة من التجار العرب الأغنياء، وهم: حميد إبراهيم، وسعيد بن سيف، وسعيد المسقطي، وتقع داخل وادٍ عميق نحو ١٢٠٠ قدم تحت قمم الجبال المحيطة. وفي اليوم الثالث لوصوله توجه ستانلي لزيارة رومانيكا ملك كاراجوي وتابع ميتسا إمبراطور بوجندا، ورافقه كل من حامد إبراهيم وسعيد بن سيف، وصعدوا المنحدر الحاد للجبل الواقع إلى الغرب من كافورو، وحصلوا على مشهد رائع يطل على بحيرة رويرو (Rweru) أو ويندرمير (Windermere)^(٢) الصغيرة، وشاهدوا سلسلة التلال الضيقة التي تحيط بوادي ألكسندرا المغطى بالبردي في حين امتدت العديد من البحيرات الصغيرة شمالاً وجنوباً متصلة بالخط

(١) - Stanley, Through the Dark Continent, v1, p 342-345, 350-352.

(٢) - حصلت هذه البحيرة على اسمها من الكابتن سبيك؛ لأن الكولونيل جرانت مرافقه اعتقد أنها تشبه بحيرة Windermere في إنجلترا.

المتعرج لنيل ألكسندرا، كما ترتفع إلى ما وراء الوادي الواسع قمم عديدة تنفصل عن بعضها بواسطة الوديان العميقة، وارتفعت كتلة ضخمة على مسافة ستين ميلاً إلى الشمال الغربي عرفت باسم جبال أوفمبيرو (Ufumbiro)، وعلى الشرفة العشبية أسفلهم كانت تقع قرية رومانيكا المحصنة بسياج من الأوتاد الدائرية، واستقبلهم فيها رومانيكا بكل ترحاب، وأعرب عن سروره بزيارتهم، وأبدى اهتماماً زائداً بكل سؤال وجه إليه، وأخبر ستانلي أن بلاده تمتلك العديد من البحيرات والأنهار والجبال والينابيع الساخنة وأشياء أخرى كثيرة تستحق الاستكشاف⁽¹⁾.

وبدأ ستانلي في الثامن من آذار باستكشاف البلاد، وكانت البداية بالطواف حول بحيرة ويندرمير، ووجد أن أقصى طول لها حوالي ثمانية أميال، وعرضها ميلان ونصف، وتحيط بها الجبال المغطاة بالعشب التي ترتفع بين ١٢٠٠ - ١٥٠٠ قدم فوقها، وفيها جزيرة واحدة تسمى كانكورونغو (Kankorogo) تقع عند نهايتها الجنوبية، وقام ستانلي بسبر عمقها ثلاث مرات، وحصل على أعماق ٤٨، ٤٤، ٤٥ قدم على التوالي في نقاط مختلفة، وأبحر في قناة عرضها بين ٥٠٠ إلى ٨٠٠ ياردة أوصلتهم إلى نهر كاجيرا الذي كان اتساعه من ٥٠ إلى ١٠٠ ياردة، وعلم ستانلي من السكان المحليين أن نهر كاجيرا أو إنجيزي كما يطلق عليه السكان المحليين يغطي كامل المساحة من قاعدة جبال موفاري (Muvari) إلى تلال كاراجوي مع مجموعة من سبع عشرة بحيرة بما في ذلك ويندرمير. وفي ١١ آذار صعدوا في نهر كاجيرا لحوالي عشرة أميال، ودخلوا بحيرة إيهيما (Ihema) الواقعة على بعد ميل من موفاري، وأبحروا في اليوم التالي على طول ساحل موفاري، وحاولوا الهبوط بالقرب من قرية صغيرة لكن السكان المحليين أجبروهم على الابتعاد، وعند الوصول إلى كاجيرا مرة أخرى نزلوا به وعادوا إلى معسكرهم في كاسينغا (Kasinga) في الطرف الجنوبي من بحيرة ويندرمير، وعادوا منها في ١٣ آذار إلى كافورو حيث حصل ستانلي من الملك رومانيكا على مرشدين ليوصلوه إلى ينابيع متاجيتا (Mtagata) الحارة، وكان مسارهم باتجاه الشمال على طول سلسلة عالية من الجبال، ووصلوا في ١٤ آذار إلى بحيرة ميروري (Merure) التي يبلغ طولها حوالي ميلين، ومن ثم عبروا ثلاثة جبال مختلفة، ووصلوا في اليوم التالي إلى ينابيع متاجاتا بعد أن قطعوا مسافة خمسة وثلاثين ميلاً تقريباً إلى الشمال من كافورو، وكان عدد الينابيع ستة ويتردد عليها المرضى من جميع المناطق المجاورة، وتراوح درجة حرارتها بين ١٠٧ و ١٢٩ فهرنهايت، وأشاد السكان المحليون بمياهها، وكانت إقامة ستانلي في هذه الينابيع سعيدة بوجود لوغومبا (Luajumba) ابن رومانيكا الذي كان مضيافاً ولطيفاً في سلوكه مثل والده. وفي ١٨ آذار غادر ستانلي الينابيع الساخنة عائداً إلى كافورو، وقام هناك بزيارة أخرى لرومانيكا استغلها ستانلي في الحصول على كل المعلومات الجغرافية المتوفرة والتوزع الجغرافي

⁽¹⁾ - Stanley, Through the Dark Continent, v1, p 353-361.

للقبائل، والأعراق في كاراجوي، والمناطق المحيطة بها سواء من رومانيكا أو حاشيته أو من التجار العرب. وفي ٢٦ آذار استأنفت الحملة سيرها بعد إقامة شهر في كافورو مروراً في ناكوانغا (Nakawanga) الواقعة بالقرب من القاعدة الجنوبية لجبل كيبونغا (Kibonga)، وفي اليوم التالي جلبتهم مسيرة ثلاثة عشر ميلاً إلى بحيرة أوهمبا (Uhimba)، وساروا خلال اليومين التاليين بمحاذاة بحيرة أوهمبا ومجرى نهر ألكسندرا حتى دخلوا في ٣٠ آذار إلى غرب بلاد أوسوي، وصعدوا في ٧ نيسان عام ١٨٧٦ سلسلة من التلال العشبية على ارتفاع ٥٦٠٠ قدم عدت فاصل المياه بين روافد بحيرة فكتوريا ونهر مالاجارازي الرافد الرئيسي لبحيرة تنجانيقا فغادروا بذلك منطقة الروافد المغذية لنهر النيل وتحولت وجهتهم نحو بحيرة تنجانيقا^(١).

• الطواف في بحيرة تنجانيقا:

تابع ستانلي سيره في السابع من نيسان عام ١٨٧٦ على طول وادي أويغوما (Uyagoma) في أوسوي الغربية، وتتبع المجرى الأعلى لنهر مالاجارازي الذي يطلق عليه أهل أوسوي ميروزي (Meruzi)، وكان يجري بين سلسلة من الكتل الجبلية في مسار ملتوٍ، ويستقبل عدداً لا يحصى من الجداول الصغيرة حتى وصوله إلى أراضي الغابات الكبرى في أونيامويزي حيث يطلق عليه اسم لوكوكي (Lukoke)، ويعمل بمثابة الحد الفاصل بين أونيامويزي وأوها (Uhha)، وساروا بعد ذلك عبر سلسلة من التلال الجبلية المكسوة بالغابات إلى أراضي الرئيس مانكورونجو (Mankorongo) خليفة سوارورا، وتجنب ستانلي المرور بقريته حتى لا يتعرض للنهب كما حصل لسبيك وجرانت في السابق، وسار بشكل متواصل حتى وصل إلى نيامباري (Nyambarri) في أوسامبيرو (Usambiro) التي كانت مثل جميع أراضي أونيامويزي تنتج ما يكفي من الحبوب والسمسم والدخن والذرة الهندية إلى جانب الفاصوليا والبازلاء؛ لتزويد جميع القوافل والبعثات، وتابعوا سيرهم منها مروراً بقرى جامباواجاو (Gambawagao)، وموسونغا (Musonga)، وأورانغوا (Urangwa) ووصلوا في ١٩ نيسان إلى قرية سيرومبو (Serombo)؛ وهي واحدة من أكبر القرى في أونيامويزي، وتضم أكثر من ألف كوخ، ويبلغ عدد سكانها حوالي ٥٠٠٠ نسمة، ويحكمها نديغا (Ndega) وهو صبي يبلغ من العمر ستة عشر عاماً مع اثنين من الشيوخ بمثابة أوصياء عليه، وقابل فيها ستانلي ميرامبو؛ الزعيم الإفريقي الذي كان يخشاه كل المواطنين والأجانب في كل إفريقيا الشرقية بعد أن كان قد توصل في الفترة الأخيرة إلى سلام مع العرب، ووجده ستانلي لطيفاً وكريماً على عكس ما أشيع عنه، وتبادل معه الهدايا، وأكد صداقته بإقامة مراسم الأخوة بتبادل الدم. وتابع ستانلي بعد ذلك سيره عبر مايانجيرا (Mayangira)، وأوكومبي (Ukombeh)، وماسومباوا (Masumbwa)، وميونغا (Myonga)، وأوباجوي

^(١) - Stanley, Through the Dark Continent, v1, p 362-367, 372-376.

(Ubagwe)، ودخل في الرابع من أيار إلى أراضي واتوتا الشعب الأكثر مضايقة وشراسة في كل إفريقيا الاستوائية دون إهمال اتخاذ الإجراءات الاحترازية، وسار في اتجاه الجنوب الغربي مروراً بـ روينجا (ruwinda)، ومسين (Msene)، وكاوانجيرا (Kawangira)، ونجاندا (Nganda)، وأوساجوسي (Usagusi)، وأوغارا (Ugara)، وزيجي (Zegi) في أوفينزا، وقام بعبور نهر مالاجارازي في ٢٠ أيار، وأطل في ٢٧ أيار عام ١٨٧٦ على بحيرة تنجانيقا، ووصل في اليوم نفسه إلى مقاطعة أوجيجي، واستقبله فيها كل من مويني خيرى^(١) ومحمد بن غريب وسلطان بن قاسم وخميس البلوشي، ووجدها ستانلي على حالها ولم تتغير كثيراً باستثناء مساكن الطين المتنامية للعرب^(٢).

كان الهدف التالي لستانلي بعد بحيرة فكتوريا هو الطواف في بحيرة تنجانيقا، والبحث عن منفذها الذي لا بد من وجوده كما هو الحال بالنسبة إلى كل بحيرات المياه العذبة؛ لذلك شرع فور وصوله إلى أوجيجي بالتحضير للرحلة البحرية المرتقبة فقام بشراء المؤن اللازمة، وأشرك اثنين من المرشدين، واستأجر زورقين مع طاقمهما من حاكم أوجيجي العربي موني خيرى^(٣) بالإضافة إلى قارب الليدي أليس. وبدأ في ١١ حزيران عام ١٨٧٦ برفقة ٤٠ من رجاله في بحيرة تنجانيقا على طول الساحل الشرقي وباتجاه جنوبي مروراً بمصب نهر ليوشي (Liuche) الذي يفصل أوجيجي عن أوكارانغا، وتابعوا على طول المنحدرات الجبلية المغطاة بالغابات حتى وصلوا إلى مصب نهر مالاجارازي الذي صعدوا في مجراه لمسافة خمسة أميال، ووجدوا أن مصبه يتسع لحوالي ٦٠٠ ياردة، ويصل عمقه إلى أكثر من ٥٠ قدماً. وفي ١٣ حزيران كانت رحلتهم على طول جبل كاويندي (Kawendi) الذي يشكل ساحلاً شديد الانحدار، ورأس كابوجو (Kabogo) العالي، وأوريمبا (urimba) الواقعة على بعد ميل جنوب غرب نهر لواجيري (Luwejeri)، وواصلوا إبحارهم في ١٧ حزيران مروراً بخليج كونجوي (Kungwe)، وجيزرتي بونغو (Bongo) وأولامبولا (Ulambula)، ومصب نهري روغوفو (Rugufu) وغيزه (Gezeh). وتابعوا على طول سواحل فيبا

(١) - مويني خيرى (١٨٢٠-١٨٨٥): تاجر عربي أشرف على تجارة كبيرة في الرقيق والعاج، وشملت ثروته في العام ١٨٧٦ نحو ١٢٠ من العبيد، و ٨٠ بندقية، و ٩ زوارق، وأصبح في العام ١٨٨١ حاكم لأوجيجي تحت سلطة سلطان زنجبار برغش بن سعيد، ومع ذلك استمر مويني خيرى بالتمتع باستقلالية كبيرة في الشؤون المحلية حتى وفاته

في العام ١٨٨٥. عن Ofcansky, Historical Dictionary of Tanzania, p144-115. (٢) - Stanley, Through the Dark Continent, v1, p 379-383, 387-391, 395-399.

(٣) - إن وجود حاكم عربي إلى جانب الحاكم الإفريقي في منطقة تقع في وسط إفريقيا إن دل على شيء؛ فإنه يدل على مدى قوة وعمق النفوذ والامتداد والسيطرة السياسية والاقتصادية التي وصل إليها العرب في شرقي إفريقيا في تلك المرحلة، ويدل أيضاً على وجود عدد لا بأس به من السكان العرب الذين استوطنوا المنطقة ومارسوا تجارتهم منها في مختلف الأنحاء.

(Fipa)، وأورونغو(Urungu) حتى وصلوا في الثالث من تموز إلى الطرف الجنوبي الأقصى لبحيرة تنجانيقا في منطقة أوكيتوتا (Ukituta)، ومن ثم تحولوا غرباً على طول ساحل البحيرة الجنوبي مروراً بجزر نتوندوي (Ntondwe) وموريكوا (Murikwa)^(١).

ووصلوا في ٤ تموز إلى الشاطئ الغربي للبحيرة حيث شاهدوا نهريزي (Wezi) ينحدر من هضبة وأورونغو، وتوجهوا بعد ذلك نحو الشمال على طول الشاطئ الغربي للبحيرة مروراً بمصب نهرووفوفو(Rufuvu) الذي يبلغ عرضه حوالي ٤٠٠ ياردة، وأبحروا على طول سواحل أيمبا (Uemba)، ومارونغو (Marungu) التي يفصل بينهما نهري مابوتا (Mapota)، وعلى الرغم من أن جبال مارونغو شديدة الانحدار ووعرة، إلا أنها ذات كثافة سكانية كبيرة، ويفصلها نهري روبوكو (rubuko) عن تمبوي (Tembwe). ووصلوا في ١٥ تموز إلى مخرج نهري لوكوغا (Lukuga) من بحيرة تنجانيقا، وتعرف ستانلي على رئيس الضفة الجنوبية من النهر الذي عرف باسم كاوي-نيانغيه (Kawe-Nianghe)، وحصل منه على توجيهات لاستكشاف النهر، وتبين بعد الفحص أنه المنفذ الوحيد للبحيرة، ويتدفق غرباً إلى نهري كمالوندو (Kamalondo) بالقرب من بلد كالومبي (Kalumbi) تحت اسم لويندي (Luindi)، وكمالوندو ما هو إلا اسم آخر لنهر لوالابا^(٢).

واستأنف ستانلي بعد ذلك طريقه في ٢١ تموز باتجاه الشمال مروراً بجزر كاسينغو (Kasengo)، وكاتينغا (Katenga)، وكيريندي (Kirindi)، وكيفيزي (Kivizi) ومتوا (Mtowa)، وشاهدوا جبال غوما (Goma) ذات الارتفاع الشاسع والانحدار الشديد. ووصلوا في ٢٥ تموز إلى جزيرة أوبواري (Ubwari) التي وصفها بيرتون بكونها عبارة عن كتلة صخرية ضيقة طولها ما بين ٢٠ إلى ٢٥ ميلاً، وأقصى عرض لها ما بين أربعة أو خمسة أميال، وهي الجزيرة الوحيدة بالقرب من مركز تنجانيقا، وأطلق عليها لفنجستون اسم جزيرة موزيما (Mozima)، وأبحروا ستانلي من هذه الجزيرة على طول الامتداد الجنوبي لخليج بيرتون، ووصل في ٢٨ تموز إلى نهري روبومبا (rubumba) حيث كان قد توقف في رحلته السابقة برفقة لفنجستون في العام ١٨٧١. وهكذا يكون ستانلي قد أبحر حول بحيرة تنجانيقا من أوجيجي على طول الشاطئ الشرقي حتى نهايتها الشمالية ونزولاً على الشاطئ الغربي حتى نهري روبومبا في العام ١٨٧١. وفي شهري حزيران وتموز من العام ١٨٧٦ أبحر من أوجيجي جنوباً على طول الساحل الشرقي حتى النهاية الجنوبية للبحيرة، ومن ثم دار حول النهاية الجنوبية للبحيرة، وصعد أعلى الشاطئ الغربي إلى جزيرة أوباري، وحول شواطئ خليج بيرتون إلى نهري روبومبا، وحدد طول البحيرة في ختام استكشافاته بـ ٣٢٩ ميلاً، وعرض يتراوح بين ١٠ و ٤٥ ميلاً، وتغطي مساحتها السطحية نحو ٩٢٤٠ ميل مربع،

^(١) - Stanley, Through the Dark Continent, v2, p10,19-24,27-29,34.

^(٢) - Stanley, Through the Dark Continent, v2, p36-45.

وعبر ستانلي بعد ذلك البحيرة في ٢٩ تموز إلى أرووندي، وتابع منها إلى أوجيجي التي وصلها في ٣١ تموز بعد غياب ٥١ يوماً قطعوا خلالها مسافة ٨١٠ ميل بحري^(١).

وتبقى لدى ستانلي بعد ذلك الهدف الأخير من رحلته؛ وهو تتبع نهر لوالابا الذي يقع خارج منطقة الدراسة، وقام ستانلي بعبور بحيرة تنجانيقا في آب من العام ١٨٧٦ ووصل إلى نهر لوالابا عند بلدة نيانجوي التي توقف عندها لفنجستون فيما سبق، وتمكن بمساعدة التاجر العربي محمد حميد الدين المرجي الملقب "بتيبوتب" من النزول في النهر حتى مصبه في المحيط الأطلسي في تموز من العام ١٨٧٧ مكتشفاً بذلك أن نهر لوالابا ما هو إلا نهر الكونغو نفسه، وليس له علاقة بنهر النيل، وعاد بعد ذلك عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى زنجبار، ومنها إلى أوروبا منهياً بذلك رحلته الثانية^(٢).

ج- الرحلة الثالثة: حملة إنقاذ أمين باشا ١٨٨٧-١٨٨٩: (ملحق ١٨)

عاد ستانلي إلى إفريقيا مرة أخرى في نهاية العام ١٨٨٧ بعد أن تم اختياره بواسطة الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية لقيادة حملة إنقاذ أمين باشا^(٣) حاكم مديرية خط الاستواء المصرية الذي أصبح معزولاً في جنوب السودان، وانقطع اتصاله مع الخرطوم ومصر وبقيّة العالم الخارجي بعد اندلاع الثورة المهدية في السودان، وسقوط الخرطوم ومقتل غوردون باشا حاكم عام السودان على يد قوات المهدي في العام ١٨٨٥، واضطرت تحت ضغط قوات المهدي إلى إخلاء المحطات البعيدة، والانسحاب مع جنوده وعائلاتهم نحو الجنوب الغربي، وتحصن في منطقة واديلاي (Wadelai) بانتظار وصول المساعدات والإمدادات من الحكومة المصرية، وقد تم جمع تبرعات لتشكيل حملة الإغاثة ووصل المبلغ الذي تم جمعه إلى حوالي

(١) - Stanley, Through the Dark Continent, v2, p52-60.

(٢) - Stanley, Through the Dark Continent, v2, p94, 461, 462.

(٣) - أمين باشا: طبيب ومستكشف يهودي، ولد في ألمانيا في العام ١٨٤٠؛ واسمه الأصلي إدوارد شنيتزر (Edward Shnitzer)، بدأ خدمته في القسطنطينية كمسؤول طبي في العام ١٨٥٨، وغادرها إلى مصر في العام ١٨٧٥، ودخل في خدمة الحكومة المصرية، وتم إرساله إلى السودان حيث خدم تحت قيادة الجنرال جوردن كمسؤول طبي بين عامي ١٨٧٦-١٨٧٨، وعينه غوردون كحاكم للمديرية الاستوائية؛ المقاطعة الجنوبية من السودان المصري في العام ١٨٧٨، وأصبح معزولاً عن العالم الخارجي بعد سقوط الخرطوم بيد قوات المهدي في العام ١٨٨٥، وتم إرسال حملة لإنقاذه بقيادة المستكشف الأمريكي هنري ستانلي في العام ١٨٨٧ الذي نجح في الوصول إليه ورافقه حتى زنجبار، ودخل بعد ذلك في خدمة الحكومة الألمانية في شرقي إفريقيا، وقتل أثناء قيامه باستكشاف منطقة بحيرة تنجانيقا في العام ١٨٩٢. عن The encyclopedia Britannica, v9, p340-341

٢١،٥٠٠ جنيه استرليني^(١)، وأسهمت الحكومة المصرية بنصفه تقريباً. وأرسل ستانلي على الفور بعد أن تم اختياره لوكيله في زنجبار السيد إدموند ماكزوي لاستئجار الحمالين وشراء المواد التي يحتاجها من قماش وخرز وأسلاك نحاسية وغيرها من السلع لاستخدامها في مقايضة المؤن المحلية، كما تم إرسال البنادق ومخازن البارود من مصر إلى زنجبار^(٢).

وفي ٢٠ كانون الثاني عام ١٨٨٧ أبحر ستانلي من لندن برفقة ستة من الإنجليز الذين تطوعوا لمرافقته وهم: الملازم جرانت ستيرز (W. Grant Stairs)، وليام بوني (William Bonny)، وجون روزتروب (John Rose Troup)، وإدموند بارتيلوت (Edmund Barttelot)، والكابتن نيلسون (R. H. Nelson)، ومونتيني جيفسون (Mounteney Jephson)، ووصل إلى القاهرة في ٢٧ كانون الثاني، وقابل هناك رئيس الوزراء المصري نوبار باشا والخديوي محمد توفيق، وزوده الأخير بفرمان موجه إلى أمين باشا تضمن مكافأته بترفيعه إلى رتبة باشا، ويعلمه فيه بأمر حملة الإنقاذ التي تم إرسالها بقيادة ستانلي لإسعافه وإعادةه مع الضباط والجنود إلى القاهرة، ومن ثم غادر ستانلي القاهرة بعد أن زوده الخديوي بـ ٦١ جندياً سودانياً إلى السويس، ومنها إلى زنجبار التي وصلها في ٢٢ شباط، وتلقى فيها الترحيب من السلطان برغش بن سعيد، وقابل فيها تيبوتب أكبر تجار منطقة أعالي الكونغو، ونجح في إدخاله في خدمة ملك بلجيكا ليوبولد الثاني (Leopold II)^(٣)، كما وقع معه عقداً ليزوده بموجبه بنحو ٦٠٠ حمال في منطقة مانينا للمساعدة في حمل الأمتعة والذخيرة إلى أمين باشا. وغادر ستانلي بعد ذلك في ٢٥ شباط برفقة

(١) - كان السير وليم ماكينون رئيس الجمعية البريطانية لشرق إفريقيا هو الذي ألف لجنة لجمع الأموال للمشروع في حملة الانقاذ، ولم يكن الغرض من إرسال هذه الحملة الحصول على مكسب سياسي فحسب بل على مكاسب تجارية أيضاً، إذ كان من المعلوم أن أمين باشا كدس في وادلاي كمية كبيرة من العاج، وكانوا يقدرّون أن هذا العاج عندما يباع يغطي ثمن نفقات الحملة وربما يتبقى بعد ذلك ربح. عن عمر طوسون، تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية من فتحها إلى ضياعها من سنة ١٨٦٩ إلى ١٨٨٩، مطبعة العدل، الاسكندرية، ط١، ١٩٣٧، ج٣، ص١١٩.

(٢) - Henry Stanley, In Darkest Africa, Charles Scribner's sons, New York, 1991, 1v,p25,37-39. Brown, the story of Africa and its explorers, v3,p30.

(٣) - ليوبولد الثاني (١٨٣٥-١٩٠٩): ملك بلجيكا بين عامي ١٨٦٥-١٩٠٩، تولى الحكم خلفاً لوالده ليوبولد الأول، وتوسعت خلال فترة حكمه الأنشطة الصناعية والاستعمارية في بلجيكا بشكل كبير، وأسس في العام ١٨٧٦ بالتعاون مع هنري ستانلي جمعية لاستكشاف واستغلال الكونغو، وفي العام ١٨٨٤ أقر المؤتمر الدولي الأوروبي للشؤون الإفريقية؛ بإنشاء دولة الكونغو تحت سيطرة ليوبولد الشخصية، والتي اكتسب منها ثروة هائلة. وتسببت الأعمال القسرية واللاإنسانية التي استخدمها المسؤولون في مستعمرته بفضيحة كبيرة قام بعدها ليوبولد بنقل إدارة الكونغو إلى الحكومة البلجيكية. كانت وفاته في العام ١٩٠٩، وخلفه في الحكم ابن اخته ألبرت الأول.

عن Jones, Dictionary of world Biography, p498

١١ ضابط إنجليزي، و ٦١٧ زنجباري، و ٦٢ جندي سوداني، و ١٣ صومالي، و ٩٧ رجلاً ينتمون إلى تيبوتب على متن بواخر تابعة لشركة الهند الإنجليزية متجهين عبر رأس الرجاء الصالح إلى الكونغو بعد أن تم تغيير مسار الرحلة من شرقي إفريقيا إلى الكونغوليين ستانلي بأن طريق الكونغو أكثر أماناً وأوفر مؤناً ومياهاً للشرب من شرقي إفريقيا، ولاسيما بعد أن سمح لهم الملك ليوبولد باستخدام بواخر شركة الكونغو التابعة له، ووصلت الحملة إلى مصب نهر الكونغو في نقطة تدعى بانانا (Banana) في ١٨ آذار عام ١٨٨٧^(١).

ولسوء الحظ وجد ستانلي معظم البواخر العاملة على خط نهر الكونغو معطلة لذلك اضطر لإرسال قسم من الرجال مع الأحمال والسلع عبر النهر في البواخر المتوفرة في حين استأجر الحمالين للقسم الآخر للتخفيف عن رجاله، وبدأوا المسير في ١٩ آذار عبر محطات ماتادي (Mataddi)، ولوكونغو (Lukungu)، وليوبولد فيل (Leopoldville)، ولوكونيلا (Lukolela)، وبانغالا (Bangala) حتى وصلوا في ١٥ حزيران إلى محطة يامبوي (Yambuya) الواقعة على الضفة اليسرى لنهر أرويمي (Aruwimi) والتي تبعد نحو ١٣٠٠ ميل عن البحر، ويفصلها نحو ٣٣٠ ميل في خط مستقيم عن بحيرة ألبرت. وفي يامبوي قام ستانلي بإنشاء معسكر محصن لانتظار وصول بقية الرجال والسلع، وكان هدفه التوجه في مسيرة سريعة من يامبوي في اتجاه شرقي نحو الزاوية الجنوبية الغربية لبحيرة ألبرت بالقرب من كافالي (Kavalli) وتشكيل معسكر قوي هناك، ومن ثم إطلاق القارب في البحيرة إلى بلاد أونيوورولتقسي أخبار أمين باشا، وبدأ ستانلي المسير على هذا الأساس في ٢٨ حزيران برفقة ٣٨٩ رجل، شاقاً طريقه عبر غابات بلاد الكونغو التي تمتد لمساحات شاسعة مروراً بقرى ومناطق يانكوندي (Yankonde)، وبوكاندا (Bukanda)، وباكوتي (Bakuti)، وغوينجويري (Gwengwere)، وباندانغي (Bandangi)، وميري (Mariri)، وموبي (Mupé)، ومبانغا (Mambanga)، وأوتيري (uturi)، وميمبيري (Memberri)، وإيبوتو (Ipoto)، وبوسيندي (busindi)، وإيبويري (Ibwiri)، ومازيموني (Mazamboni)، ودخل خلالها في اشتباكات مع السكان المحليين، وفقد كثيراً من الرجال على الطريق بين قتلى ومرضى، كما عانى رجاله من المجاعة التي كانت منتشرة في تلك الأنحاء حتى وصل في نهاية المطاف في ١٤ كانون الأول عام ١٨٨٧ إلى الحافة الجنوبية الغربية لبحيرة ألبرت^(٢).

ولسوء الحظ لم يتمكن ستانلي من الحصول على أي قارب للإبحار فيها، كما لم يكن هناك أشجار على حافة البحيرة لصنع قارب، وكانت ودلاي التي تحصن فيها أمين باشا تبعد رحلة

(١) - Stanley, In Darkest Africa, 1v, p40-42,48-60,75. Brown, the story of Africa and its explorers,v3, p31.

(٢) - Stanley, In Darkest Africa, 1v, p79,92,107,110-117,327.

خمس وعشرين يوماً بطريق البر بينما تبعد فقط مسير أربعة أيام عبر الماء؛ لذلك قرر ستانلي العودة إلى معسكره في أيبوتو لجلب القارب الذي تركه هناك مع ما يكفي من الذخائر، وأخذت هذه العلمية منه قرابة أربعة أشهر، وعند عودته في ١٨ نيسان عام ١٨٨٨ علم ستانلي أن أمين باشا قد جاء في باخرة في بحيرة ألبرت بعد أن وصلته شائعات بوجود الرجال البيض في جنوب البحيرة، وترك له رسالة يعلمه فيها بقدومه عند رئيس قرية كافالي، وأرسل ستانلي رجاله على الفور في البحيرة إلى معسكر أمين باشا الواقع في محطة مسوا (Mswa) التي تبعد يومين فقط. وفي ٢٩ نيسان عاد الرجال برفقة أمين باشا وتم اللقاء بين الرجلين، وبعد أن تم تقديم ملخصات لحوادث السفر والأحداث في أوروبا وحوادث المديريات الاستوائية، سلم ستانلي لأمين باشا الرسائل الموجهة إليه من الخديوي توفيق ورئيس الوزراء المصري نوبار باشا التي تضمنت تعليمات الحكومة المصرية بمرافقته مع جنوده خارج إفريقيا^(١)، وتردد أمين باشا بالمغادرة في البداية، ومن ثم وافق على ذلك في الآخر، وسعى إلى إقناع رجاله العاملين تحت إمرته بالمغادرة، في حين عاد ستانلي لإحضار رجاله والمخازن التي تركها في المعسكرات الخلفية، وعاد لأجل ذلك حتى يامبوي على نهر الكونغو^(٢).

عاد ستانلي إلى بحيرة ألبرت للمرة الثالثة في ١٦ كانون الثاني عام ١٨٨٩، وعلم عند عودته بنشوب تمرد بين رجال أمين باشا انتهى بخلعه وتعيين آخر محله، وهجوم قوات جيش المهدي على مراكزه، فأرسل إليه ستانلي يطلب منه الإسراع في جمع من يرغب بالمغادرة، واستغرق الأمر قرابة ثلاثة أشهر حتى تم تجميع الرجال وحمولاتهم في معسكر ستانلي في كافالي. وبدأوا في ١٠ نيسان عام ١٨٨٩ مسيرة العودة في قافلة مؤلفة من ١٥١٠ فرد بما في ذلك عناصر البعثة الأساسيون وأمين باشا ورجاله والحمالون من السكان المحليين، ولم تخلو المسيرة من المتاعب نتيجة تمرد جنود الباشا من المصريين والسودانيين فضلاً عن هجمات السكان المحليين، وحقق ستانلي في طريق عودته كشفين جغرافيين مهمين؛ إذ كان قد نزل في وادي نهر السملكي بعد أن ترك الطرف الجنوبي لبحيرة ألبرت، ووجد أن هذا النهر يخرج من بحيرة لم تكتشف بعد وتقع

(١) - حمل ستانلي إلى أمين باشا بالإضافة إلى خطابات الحكومة المصرية عرضين: الأول مقدم من ملك بلجيكا ليوبولد؛ بأنه مستعد أن يحكم مديريته على شرط أن يكون في استطاعتها توريد إيراد معقول، وأن لا تتعدى مصروفاتها السنوية ٣٠٠٠٠٠ فرنك، ويبقى أمين باشا في المنطقة كمدير وقائد براتب قدره ٣٧٥٠٠ فرنك. في خدمة دولة الكونغو، والثاني أن يصاحبه هو وجنوده إلى زاوية بحيرة فكتوريا الشمالية الغربية ليقيم فيها باسم شركة إفريقيا الشرقية البريطانية، ويتبين من ذلك حجم المنافسة الدولية الكبيرة في تلك الآونة للسيطرة على منطقة أعالي النيل. عن طوسون، تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية، ص ١٨١-١٨٢.

(٢) - Stanley, In Darkest Africa, 1v, p334-338, 388-396.

على بعد ١١٥ كم إلى الجنوب الغربي من بحيرة ألبرت، وأسمها ستانلي بحيرة إدوارد ألبرت على اسم أمير ويلز، كما اكتشف ستانلي سلسلة جبلية تقع عند الحافة الشرقية للبحيرة وتتكون من عدد من القمم العالية المغطاة بالثلوج، وكانت هذه هي سلسلة جبال رونزوري (Ruwenzori) المصطلح الإفريقي الحديث لما عرف تاريخياً باسم جبال القمر التي قدر ستانلي ارتفاعها بنحو ١٧٠٠٠ قدم، وبذلك أثبت ستانلي صحة أفكار المؤرخين القدماء من اليونان والرومان والعرب بأن نهر النيل ينبع من جبال القمر التي تغطيها الثلوج، إذ كانت جبال رونزوري الثلجية تصرف مياهها غرباً عبر أنهار رامي (Rami)، وروبوتو (Rubutu)، وسينغيري (Singiri)، وراميلولو (Ramilulu)، وبوتاهو (Butahu)، وروسيروبي (Rusirubi)، ورويمي (Rwimi) إلى نهر السمليكي، وجنوباً عبر أنهار روفيري (Ruverahi)، ونياماغاسي (Nyamagasani)، وأونيامي (Unyamwambi)، وروكوكي (Rukoki)، ونسونغي (Nsongi)، وروسانغو (Rusango) إلى بحيرة إدوارد، وشرقاً عبر نهر كاتونغا الذي يصب في بحيرة فكتوريا، وكافور الذي يصب في نيل فكتوريا، وشمالاً عبر نهر ميسي (Missisi) الذي يصب مباشرة في بحيرة ألبرت وجميعها تنتهي في نهاية المطاف في نهر النيل. كما مر ستانلي بذراع البحيرة الذي اكتشفه في رحلته السابقة في العام ١٨٧٦، وأطلق عليه اسم خليج بياترك، وتبين له بعد أن طاف حول الشواطئ الشمالية الغربية والشرقية للبحيرة أنها بحيرة مستقلة وعرفت فيما بعد باسم جورج نسبة للأمير جورج أحد أفراد الأسرة الإنجليزية المالكة. وتابع ستانلي بعد ذلك طريقه عبر مسار جنوبي شرقي من خلال بلاد تورو (Toro)^(١)، وأنكوري، وكاراجوي حتى النهاية الجنوبية لبحيرة فكتوريا، وتابع منها عبر

(١) - تورو: مملكة حديثة انفصلت عن بونيورو في عشرينيات القرن التاسع عشر عندما تم إرسال الأمير كابويو (Kaboyo) نجل ملك بونيورو نياكاتورا (Nyakamatura) لحكم المقاطعة، ولكنه أعلن استقلاله بعد اكتشافه أن حكم والده لم يكن يحظى بشعبية بين باهيمبا المحليين، وهزمه نياكاتورا في المعركة لكنه لم يتابع حربه مما سمح لكابويو بتأسيس نفسه ملكاً لتورو. وورثت المملكة الجديدة نظاماً سياسياً وعسكرياً متطابقاً مع نظام بونيورو، ولكن تفوق باهيمبا على المزارعين المحليين من باتورو (Batoro) وباكونجو (Bakonjo) كان أكثر وضوحاً مما في بونيورو. مات كابويو في خمسينيات القرن التاسع عشر، واستولى عليها كاباريجا ملك بونيورو بعد ذلك، وقام بطرد العائلة الحاكمة إلى المنفى في بوجندا، وعندما وصل لوجارد إلى المنطقة عرض على كاساجاما الذي كان يعيش في بوجندا إعادته إلى العرش كجزء من حملته ضد كاباريجا؛ لذلك عندما غزا لوجارد في العام ١٨٩١ مقاطعة تورو رافقه كاساجاما وعدد من المنفيين الآخرين من تورو، وعين كاساجاما ملكاً عليها ومن ثم وقع معه لوجارد في العام ١٨٩٣ معاهدة اعترفت فيها بسلطة شركة شرق إفريقيا البريطانية. وفي أبريل من نفس العام تخلى البريطانيون عن تورو تقريباً نتيجة لإفلاس الشركة، وكانت النتيجة أن هاجم كاباريجا العاصمة واستولى عليها مرة أخرى مما أجبر كاساجاما ورجاله على اللجوء إلى الغابات على سفوح جبال رونزوري. وفي ديسمبر ١٨٩٣ انسحبت قوات بانيورو لمواجهة هجوم بريطاني من بوجندا، وعاد كاساجاما إلى مملكته، وبقي تحت رحمة المغيرين من الشمال حتى أوائل عام ١٨٩٤ عندما عاد البريطانيون مع طابور من الجنود السودانيين تحت قيادة الرائد أوين، واستمر كاساجاما بعد ذلك في الحكم كمرشح بريطاني. عن Peers, Armies of the nineteenth century, p133

أوسونغو (Usongo)، وإيكونغو (Ikungu)، وأوغوغو، وأوزاجارا حتى وصلوا إلى باجاموبو على ساحل المحيط الهندي في ٣ كانون الأول عام ١٨٨٩، وبذلك كانت نهاية الرحلة الاستكشافية الأخيرة لستانلي في القارة الإفريقية التي استغرقت قرابة ثلاث سنوات. وفي السادس من الشهر نفسه أبحروا إلى جزيرة زنجبار، وهناك دخل أمين باشا في خدمة الحكومة الألمانية في شرق إفريقيا في حين تابع ستانلي طريقه إلى القاهرة ومنها إلى إنجلترا^(١)، وفي ختام هذه الرحلات تم إزالة النقاب عن سر منابع النيل، ودخلت القارة الإفريقية في مرحلة جديدة وهي مرحلة الاستعمار الأوروبي.

٣- نتائج رحلات ستانلي:

أسفرت رحلات ستانلي الثلاث في شرقي ووسط إفريقيا التي شغلت ما يقارب السبع سنوات في ما بين عامي ١٨٧١-١٨٨٩ عن نتائج عظيمة يكمن إيجازها بالآتي:

- على الصعيد الجغرافي قام ستانلي في رحلته الأولى برفقة لفنجستون باستكشاف النهاية الشمالية لبحيرة تنجانيقا ومصب نهر روسيزي، وأكد أن النهر ما هو إلا رافد لبحيرة تنجانيقا يصب فيها ولا يخرج منها منهيًا بذلك الجدل الذي كان دائراً حوله منذ رحلة بيرتون وسبيك فيما بين عامي ١٨٥٦-١٨٥٩، ونافيًا أي ارتباط لها بنظام نهر النيل، أما في رحلته الثانية فقد قام ستانلي بالطواف حول بحيرة فيكتوريا في قاربه الليدي أليس واصفًا كل ما يجاورها من بلدان وجبال وأنهار وخلجان وجزر مثبتاً أن هذه البحيرة ما هي إلا قطعة واحدة من الماء، وليست بحيرات عدة متجاورة كما كان رائجاً، وأكد أن النهر الذي يخرج من شمالها عند شلالات ريبون ما هو إلا نهر النيل مؤيداً بذلك استكشافات سبيك، كما قام باستكشاف مجرى نهر كاجيرا أو نيل ألكسندرا، وتوصل إلى كونه أعظم الروافد المغذية للبحيرة. وتابع بعد ذلك طريقه جنوباً إلى مقاطعة أوجيجي على بحيرة تنجانيقا، وقام بالطواف حول البحيرة حتى وصل إلى مجرى نهر لوكوغا الذي تبين أنه المنفذ الوحيد لبحيرة تنجانيقا والذي كان مجهولاً حتى تاريخه، كما تأكد من عدم وجود علاقة بينها وبين بحيرة ألبرت، وأثبت بذلك خطأ بيرتون الذي اعتقد أن هذه البحيرة يمكن أن تكون منبع النيل، واتجه بعد ذلك إلى نهر لوالابا الذي كان لفنجستون يعتقد بصلته بنهر النيل، وأبحر فيه حتى وصل إلى المحيط الأطلسي وأدرك عندها أن نهر لوالابا هو نهر الكونغو ذاته. وفي رحلته الثالثة التي توغل فيها عبر غابات الكونغو حتى بحيرة ألبرت اكتشف ستانلي بحيرة إدوارد التي ترتبط ببحيرة ألبرت عبر نهر السمليكي، وبحيرة جورج، كما اكتشف سلسلة جبال رينزوري التي اشتهرت في كتابات المؤرخين القدماء بجبال القمر، وأزال ستانلي برحلاته الثلاثة والاستكشافات التي أجراها الغموض الذي كان يحيط بمراتب النيل وحلت

^(١) - Stanley, In Darkest Africa, 2v, p126,210,269,290,317,318,339,353,461,466.

المشكلة التي شغلت أذهان العلماء منذ القدم.

- قدم ستانلي وصفاً حياً مذهلاً لكل المشاهد الطبيعية التي مر بها في طريقه إلى وسط إفريقيا ولاسيما الجبال والأنهار والسهول والأشجار والنباتات والحيوانات التي تكثرت فيها.

- وصف ستانلي منطقة شرق ووسط إفريقيا والثروات التي توجد فيها من زيت النخيل والمطاط والأخشاب المتعددة والمعادن، وأهمها النحاس والذهب وغيرها من الإمكانيات الرائعة التي دعا الأوروبيين إلى الإسراع نحو إفريقيا للاستفادة منها مما أثار طمع الأوروبيين، وأدى إلى تنافس الدول الأوروبية الكبرى على المنطقة.

- قدم ستانلي معلومات قيمة تتعلق بتاريخ المناطق التي مر عبرها، وأصول سكانها وعاداتهم وتقاليدهم التي اعتمد فيها على الروايات الشفوية المتنقلة فيما بين السكان والتي تعد مصدراً رئيساً لا غنى عنه في دراسة تاريخ تلك المنطقة في تلك الحقبة.

- كان لستانلي دور كبير في نشر المسيحية في أوغندا؛ إذ سعى إلى تحويل الملك متيسا الذي كان قد اعتنق الإسلام إلى المسيحية، ولما وجد نوعاً من القبول لديه أرسل على الفور نداءات إلى الكنائس والجمعيات التبشيرية في إنجلترا لإرسال المبشرين إلى أوغندا موضحاً في رسائله وجود البيئة المناسبة لانتشار المسيحية فيها، وتم الرد على المناشدة فوراً من قبل جمعية التبشير الكنسية ووصل أوائل المبشرين إلى أوغندا في العام ١٨٧٦.

- كانت رحلات ستانلي ولاسيما اكتشافه لنهر الكونغو أحد الأسباب الرئيسة التي سرعت في عملية التكالب الاستعماري على القارة الإفريقية، فبعد عودته من رحلته الثانية، ونشره لتفاصيلها في العام ١٨٧٨ أثار ما ورد فيها من معلومات جغرافية حول ما تتميز بها المناطق التي سار عبرها من إمكانيات وثروات طمع الدول الأوروبية، وسارعت بلجيكا ممثلة بملكها ليوبولد الثاني إلى تأسيس لجنة دولية تعنى بشؤون الكونغو، ووضعت يدها بمساعدة ستانلي على تلك المنطقة التي شكلت نواة مستعمرة الكونغو البلجيكية، كما سارعت ألمانيا وإنجلترا إلى اقتسام شرق إفريقيا، وتحديد مناطق نفوذها فيه، وكان ذلك أحد الأسباب المؤدية لقيام مؤتمر برلين في العام ١٨٨٤-١٨٨٥ الذي اقتسمت فيه الدول الأوروبية القارة الإفريقية فيما بينها.

الخاتمة

تتضمن الخاتمة أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة، ونوردها على النحو الآتي:

- على الصعيد العلمي:

أسفرت هذه الرحلات على الصعيد العلمي عن توضيح الخريطة الجغرافية لشرقي إفريقيا بعد أن كانت مجهولة لعصور طويلة، وتم بالفعل اكتشاف منابع النيل التي شكلت لغزاً محيراً لجميع العلماء على مختلف العصور، والمتمثلة بالبحيرات الخمسة المتصلة فيما بينها بأنهار عدة مشكلة نهر النيل العظيم الذي يعد مصدر الحياة لمصر. وكانت البداية من المبشرين كرابف وريمان وإرهاردت اللذين اكتشفا جبال كلمنجاروا وكنيا ذات القمم الثلجية، ونقلوا إلى أوروبا أيضاً القصص التي سمعوها من تجار العاج العرب عن البحيرات الكبيرة في وسط إفريقيا، وقام إرهاردت وريمان في العام ١٨٥٥ برسم خريطة للمنطقة بناء على تلك المعلومات، وأثارت تقارير اكتشافاتهم ضجة كبيرة في الأوساط العلمية في أوروبا، وكانت سبباً مباشراً في قيام رحلة ريتشارد بيرتون وجون سبيك في العام ١٨٥٦ للتحقق من وجود تلك البحيرات وعلاقتها بمرابع نهر النيل. قام بيرتون وسبيك بالفعل باكتشاف بحيرة تنجانيقا في العام ١٨٥٨ وحصلوا على معلومات من التجار العرب عن نهر ينبع من شواطئها الشمالية، واعتقد بيرتون أنه يجب أن يكون نهر النيل ذاته؛ لذلك أبحر برفقة سبيك على طول شاطئها الشرقي شمالاً حتى وصلا على مقربة من نهاية البحيرة الشمالية، ولم يتمكنوا من متابعة التقدم بسبب رفض البحارة السير في بلاد يشتهر سكانها بكونهم من أكلة لحوم البشر، وعلموا من السكان المحليين أن النهر الموجود في ساحل البحيرة الشمالي هو نهر الروسي، ويصب في البحيرة ولا ينبع منها، ولكن بيرتون أصر على رأيه، وبقيت المشكلة قائمة لعدم تمكنهم من فحص مجراه بالرصد والملاحظة المباشرة، وفي طريق عودتهم إلى الساحل علم سبيك من التجار العرب في تابوره عن وجود بحيرة في جهة الشمال أكبر وأكثر اتساعاً من بحيرة تنجانيقا وتعرف باسم بحيرة أوكيروي الأمر الذي دفعه إلى القيام برحلة سريعة لاستكشافها، ووصل بالفعل إلى شاطئها الجنوبي في العام ١٨٥٩، وذهل من اتساع حجمها، وأيقن بأنها لا بد أن تكون منبع نهر النيل المجهول، وأطلق عليها اسم بحيرة فكتوريا، وعاد بعد ذلك أدراجه إلى تابوره، وأخبر بيرتون باكتشافه لمنبع نهر النيل، ولكن بيرتون اعترض على الفور على نظرية سبيك لعدم تمكنه من استكشاف البحيرة مما أدى إلى توتر العلاقة بينهما، وعادا من هناك إلى زنجبار وسبق سبيك بيرتون إلى أوروبا، وأعلن عن نتائج رحلتهم وعن اكتشافه لمنبع نهر النيل الأمر الذي أثار جدلاً حول الموضوع لعدم تمكنه من القيام بفحص

البحيرة مما هيا الفرصة له للقيام برحلة أخرى إلى المنطقة لتأكيد اكتشافه السابق.

عاد سبيك إلى شرقي إفريقيا في العام ١٨٦٠ برفقة صديقه جيمس جرانت، وتمكن من الوصول بعد مسيرة شاقة على مقربة من بحيرة فكتوريا، وسارا بمحاذاة شواطئها الغربية في بلاد كاراجوي حتى وصلا إلى مملكة بوجندا، وهناك شاهد سبيك مخرج النهر العظيم من بحيرة فكتوريا، وأبحر في مجراه لمسافة قصيرة حتى شلالات كاروما، واضطر بعد ذلك إلى متابعة السير براً حتى غوندوكرو ومنها إلى أوروبا، ورغم مشاهدته لمخرج النيل من البحيرة إلا أن عدم تمكنه من اتباع مجراه ترك المشكلة قائمة على حالها. وكان سبيك قد التقى في طريق عودته بصمويل بيكر في غوندوكرو الذي جاء لاستقبالهم ونجدتهم، فأطلعهم سبيك على المعلومات التي حصل عليها في مملكة أونيورو عن بحيرة تدعى لوتا نزيج لم يتمكن من استكشافها، الأمر الذي دفع بيكر للقيام برحلة لاستكشاف هذه البحيرة برفقة زوجته، ووصل إليها في العام ١٨٦٤، وأطلق عليها اسم بحيرة ألبرت، كما أبحر على مقربة من شاطئها الشرقي حتى نهايتها الشمالية، وشاهد مصب نهر سومرست أو نيل فكتوريا في جهتها الشمالية الشرقية، وشاهد مخرج نيل ألبرت من جهة البحيرة الشمالية، وعلم من السكان المحليين أنه صالح للملاحة حتى بلاد مادي، وكان يرغب في أن يتابع رحلته في مجرى نهر النيل حتى غوندوكرو، ولكن وعده لسبيك باستكشاف الجزء غير المستكشف من نهر النيل بين شلالات كاروما وبحيرة ألبرت دفعه للصعود في نيل فكتوريا حتى وصل إلى شلالات كبيرة أطلق عليها اسم مورشيزون، ولم يتمكن من متابعة استكشافه حتى شلالات كاروما؛ بسبب الحروب المحلية في مملكة أونيورو بين الملك الشرعي كمرافي وأخيه المتمرّد روينجا، وعاد أدراجه من هناك إلى الخرطوم ومنها إلى أوروبا معلناً عن اكتشافه لبحيرة ألبرت، ودورها الفاعل في نظام نهر النيل.

لم تنتهِ مشكلة منابع النيل بتلك الرحلات، إذ لم يتم حسم ما إذا كان هناك منابع أخرى للنهر أم لا؛ لذلك قامت الجمعية الجغرافية الملكية بتكليف المبشر المشهور ديفيد لفنجستون للقيام برحلة لحسم هذه المسألة، وبدأ لفنجستون رحلته في شرقي إفريقيا في العام ١٨٦٦ متتبّعاً مجرى نهر روفيقي، وتمكن من الوصول إلى بحيرة نياسا وتنجانيقا، وقام باكتشاف بحيرتي مويرو وبنجويلو، كما تتبع مجرى نهر لوالابا؛ المجرى الأعلى لنهر الكونغو حتى منطقة نيانغوي معتقداً أنه نهر النيل، وحاول جاهداً الحصول على قوارب لاستكشافه، ولكنه فشل في ذلك بسبب المرض وتمرد رجاله، فعاد أدراجه إلى منطقة أوجيجي على شاطئ بحيرة تنجانيقا، والتقى هناك بالرحالة المشهور هنري ستانلي الذي جاء لنجدته وإسعافه بعد انقطاع أخباره عن العالم الخارجي منذ مدة طويلة، وقاما معاً باستكشاف الطرف الشمالي لبحيرة تنجانيقا ومصب نهر الروسي، وأثبتا أنه يصب في البحيرة ولا يخرج منها، وأنهيا بذلك الجدل الذي كان قائماً بين الجغرافيين الأوروبيين حول علاقة نهر الروسي وبحيرة تنجانيقا بنظام نهر النيل، وعاد ستانلي

بعد ذلك إلى زنجبار، ومن ثم إلى أوروبا في حين أصر لفنجستون على البقاء لمتابعة استكشافاته إلا أنه توفي دون تحقيق مراده في العام ١٨٧٣.

أثار موت لفنجستون المفاجئ ضجة كبيرة في الأوساط العلمية في أوروبا، وتأثر ستانلي بشكل خاص بهذا الخبر، وتعهد بمتابعة استكشافات لفنجستون، وإنجاز ما لم يستطع تحقيقه قبل وفاته، وبدأ رحلته من ساحل زنجبار في العام ١٨٧٤، ووصل بعد مسيرة شاقة إلى بحيرة فكتوريا، وتمكن من الطواف فيها مثبتاً أنها بحيرة واحدة، وليست بحيرات متعددة مؤكداً بذلك اكتشافات سبيك، وقام برحلة إلى بحيرة ألبرت للطواف حولها، ووصل إلى جزء من البحيرة أطلق عليه اسم خليج بياترس، واعتقد أنه جزء من بحيرة ألبرت، وتبين فيما بعد أنها بحيرة مستقلة عرفت باسم بحيرة جورج، كما قام باستكشاف مجرى نهر كاجيرا أو نيل الكسندرا وتوصل إلى كونه من أعظم روافد البحيرة ونهر النيل، وتوجه بعد ذلك نحو بحيرة تنجانيقا للبحث عن مخرجها الذي لا بد من وجوده كما هو الحال في كل البحيرات العذبة، وقام بالطواف حولها متتبعا شاطئها الشرقي جنوباً، والتف حول نهايتها الجنوبية، وسار مع ساحلها الغربي حتى وصل إلى مخرج نهر لوكوغا الذي تبين أنه المخرج الوحيد للبحيرة ويصب في نهر الكونغو، وتابع بعد ذلك مجرى نهر لوالابا الذي اعتقد لفنجستون أنه نهر النيل، وأبحر في مجراه حتى مصبه في المحيط الأطلسي، وتبين أنه ليس سوى مجرى نهر الكونغو. وفي رحلته الثالثة لإنقاذ أمين باشا اكتشف ستانلي جبال رونزوري ذات القمم الثلجية التي عرفت تاريخياً باسم جبال القمر، وقام باكتشاف بحيرة جديدة ضمن إطار منابع نهر النيل، كانت تتصل ببحيرة ألبرت عبر نهر السملكي أطلق عليها ستانلي اسم بحيرة ألبرت إدوارد، وهكذا تم حل مسألة منابع النيل التي أسهم فيها جميع الرحالة السابقين، وقدموا تضحيات كبيرة في سبيل خدمة العلم والمعرفة وخدمة أوطانهم.

- كانت تحريات الرحالة في القرن الثامن عشر بمثابة نهاية لطابع الرحلات التقليدية، وبداية لعهد جديد من الرحلات؛ عهد التنقيبات العلمية التي تتطلب الدقة في البحث والتدوين والرصد والملاحظة، وتتطلب تكوين المعاهد والمؤسسات المتخصصة والتجهيزات الدقيقة، وكل هذا غير مفهوم الرحلة بشكل عام، وأدى إلى نتائج مهمة على مختلف الأصعدة العلمية.

- كان للعرب دور بارز في الكشف العلمية لشرقي إفريقيا عموماً؛ إذ كانوا قد سبقوا الأوروبيين في كشف القارة الإفريقية والتوغل في مجاهلها، وأسهموا في تقديم الكثير من المعلومات المهمة للرحالة الأوروبيون والتي أفادتهم كثيراً في كشوفاتهم اللاحقة، ولو دون العرب كل ما شاهدوه ووقفوا عليه خلال ترحالهم في أواسط إفريقيا لُسبت لهم تلك الكشف لا إلى الرحالة الأوروبيون، ولقد ردت الجهود الكبيرة التي بذلوها في هذا المجال حق تقدير؛ فالتدوين كان العامل الأبرز في حسم هذه المسألة لصالح الرحالة الأوروبي.

- والخلاصة التي نخرج بها من خلال دراسة كتب الرحلات أنها قدمت مادة علمية تاريخية قيمة للمناطق التي قدر للرحالة زيارتها في القرن التاسع عشر، وأعطت في مجملها صورة حية واضحة لأحوال المنطقة في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، وتضمنت معلومات وحقائق مهمة عن نظم الحكم، وطبيعة الحياة فيها انفردت بها عن بقية المصادر التاريخية الأخرى كونها مستمدة من المشاهدة والملاحظة المباشرة، ومن وحي الحياة اليومية التي عايشها الرحالة؛ فهي بذلك مصدر حي ومهم لدراسة تاريخ المنطقة في تلك المرحلة، وركيزة أساسية لجميع المهتمين بالدراسات التاريخية.

- على الصعيد السياسي:

- كانت الأوضاع السياسية في إفريقيا تسير سيرها الطبيعي قبل وصول الرحالة؛ إذ تعايشت الكيانات السياسية معاً على اختلاف أنواعها، وعرفت إفريقيا الإمبراطوريات والممالك في كل أجزائها، وكانت نتيجة ذلك أن اختلطت الأجناس والألوان والثقافات، ولم تكن الحدود السياسية بصورتها المعروفة الآن ذات أهمية؛ لأن النظام السائد كان يتفق مع الأحوال والعلاقات السياسية المحدودة لتلك الوحدات، ويتفق مع الظروف والأحوال المعيشية البسيطة للجماعات والشعوب الإفريقية ضمن مفاهيم الحيز المكاني الذي لا يتعدى أن يمثل إقليمًا عشبيًا بالنسبة للشعوب الرعوية، وإقليمًا زراعيًا بالنسبة للشعوب الزراعية، ولكنها خضعت في مرحلة ما بعد الرحلات للاستعمار الأوروبي الذي سلب الشعوب الإفريقية حريتها وفرصة إدارة شأنها بنفسها، وقسمت المنطقة إلى دول صغيرة بصورة عشوائية دون مراعاة وتجاهل تام للحقائق الطبيعية حيث فرض الاستعمار على الشعوب والأعراق المختلفة وحدات سياسية من نوع جديد، وفرض عليها حدوداً مصطنعة دون أي اعتبار لوضعها وانتشارها وإنما لخدمة مصالحه الاستعمارية والاستيطانية ومصالح الشركات الأجنبية.

- كانت جنسيات الرحالة سبباً مباشراً في تحديد ماهية النفوذ الأوروبي الذي هيمن على المنطقة فيما بعد؛ إذ رسم الرحالة الأوروبيون الذين وصلوا إلى إفريقيا في القرن التاسع عشر بشكل غير مباشر حدود المستعمرات الأوروبية في شرقي إفريقيا وغيرها من مناطق القارة، وشكلت رحلاتهم الخطوات الأولى للاستعمار الأوروبي، ولاسيما بعد أن كشفت كتاباتهم عن مدى أهمية تلك المناطق وما تحويه من ثروات.

- إن الرحالة الأوروبيين على الرغم من كل المساعدات والتسهيلات التي قدمها لهم العرب سواء عن طريق زنجبار أو مصر نجدهم يسعون جاهدين إلى تقليص نفوذ العرب في المنطقة بشتى الوسائل الممكنة، فعلى سبيل المثال نجد كرابف يبالغ في كتاباته بامتداد مملكة أوزمبارا واتساع سيطرتها، وبسط الملك كيمري سيطرته على بعض المدن الساحلية كتنجا وبنجاني على حساب سلطنة زنجبار، وهو ما نفاه الرحالة بيرتون الذي جاء بعد كرابف ببضع سنوات، كما

حاول كرابف ضرب النفوذ الاقتصادي للعرب والسواحليين في المنطقة بشكل عام لصالح الشركات التجارية الأوروبية حين عرض ملك أوزمبارا على تصريف منتجات بلاده إلى الشركات الأوروبية مباشرة دون الوسيط العربي والسواحلي، ومن جهة أخرى نجد الرحالة الأوروبيين يتخذون جانب السكان المحليين في معظم النزاعات التي نشبت بين العرب والسكان المحليين خلال وجودهم في المنطقة بغض النظر عن طبيعة تلك النزاعات وسبب نشأتها، كما هو الحال مع مانوا سيرا، وميرامبو، وحاولوا بشتى الوسائل إقصاء النفوذ العربي لدى رؤساء وملوك تلك الأنحاء، وإظهار العرب بأبشع صورة ممكنة، كما هو الحال مع الملك متيسا ملك أوغندا، والملك كمرافي ملك أونيو، والملك رومانيكا ملك كاراجوي. ولاشك في أن تلك التصرفات لم تكن تصرفات عبثية، وإنما كانت تصرفات هادفة ومدروسة ومخطط له بشكل دقيق، وتصيب في النهاية في مصلحة الدول الأوروبية التي كانت تسعى إلى بسط سيطرتها على تلك المناطق واستثمار مواردها، ومما لاشك فيه أنهم وجدوا في الوجود والنفوذ العربي والإسلامي في تلك المنطقة خطراً كبيراً يهدد مصالحهم؛ لذلك سعوا إلى اجتثاث وجودهم من المنطقة بتأليب السكان المحليين ضد العرب والمسلمين بشكل عام.

- يتبين من خلال دراسة كتب الرحلات أن منطقة شرقي إفريقيا كانت تنقسم في القرن التاسع عشر إلى ثلاثة أقسام من حيث حالة البلاد السياسية ونمط الحكم فيها، فبينما كان الساحل الإفريقي الشرقي خاضعاً للحكم العربي، كانت منطقة الداخل الإفريقي تنقسم إلى قسمين أراضي تزانيا وكينيا، وكان يسود فيهما نمط الحكم القبلي بحيث كان لكل قرية رئيسها الذي يحكمها وفقاً للعرف المعتاد عليه فيما بينهم دون الخضوع لسلطة أعلى، بينما كانت تسود منطقة البحيرات الممالك الكبيرة ذات النظم الملكية، والسلطات الواسعة مثل مملكة بوجندا، وأونيو، وكارجوي.

- يلاحظ من كتابات أولئك المستكشفين جميعاً أن الكراهية متأصلة في نفوسهم للعرب الذين وفدوا إلى إفريقيا وتغلغلوا فيها ولاسيما أن أولئك العرب كانوا يمثلون المدنية وسط الهمجية والوثنية بعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم ومعاملاتهم التجارية فكانوا المنافس الأول للأوروبي الطامع.

- تنوعت وظائف الرحالة والمستكشفين الأوروبيين فكان منهم الطبيب والمبشر وعالم الطبيعة والجغرافي.. إلخ، وانعكس هذا التنوع في تكامل المعلومات والمهام التي قاموا بها في المنطقة، وهو الأمر الذي جعل مرحلة الكشف الجغرافي تتحول برحلة ستانلي لوسط إفريقيا في العام ١٨٧٤م إلى مرحلة الكشف السياسي، ليعمل بعدها لصالح الملك البلجيكي ليبولد في الكونغو، وترتب على ذلك تكوين «دولة الكونغو»، كما وصل إلى المنطقة على إثرها عدد من الرحالة سواء منهم الانجليز أو الألمان ممن كان هدفهم الأول توقيع اتفاقيات ومعاهدات مع

الزعماء الأفارقة تضع بلادهم تحت حماية الدول الأوروبية الاستعمارية دون وعي منهم نتيجة لجهل غالبيتهم بالقراءة والكتابة فشككت بذلك نواة تكوين المستعمرات الأوروبية في إفريقيا. - تضمنت تقارير الرحالة أخبار الصراع والعداوات القائمة بين الدول والجماعات الإفريقية خلال القرن التاسع عشر؛ كصراع الباجندا ضد البونيورو، فكان من الطبيعي أن يستغلها الأوروبيون في السيطرة على تلك الدول، فقاموا بالتحالف مع بعض الجماعات ضد الأخرى، كما هو الحال في تحالف البريطانيين مع الباجندا ضد البونيورو، وهو ما أدى إلى إضعاف قوة الممالك الإفريقية وسهول تقسيمها واحتلالها من قبل القوى الأوروبية في أواخر القرن التاسع عشر.

- على الصعيد الاقتصادي:

- اتخذ نظام السوق الاقتصادي القائم في شرقي إفريقيا شكلين مختلفين في عملية المبادلة ونظام البيع والشراء، إذ اعتمد على العملات الأوروبية والهندية ضمن مناطق سيطرة مملكة زنجبار ولاسيما على طول الساحل الشرقي، بينما كان النظام المتبع في المناطق الداخلية من شرقي إفريقيا نظاماً بدائياً قائماً على المقايضة، وكانت تجارة العاج والعبيد تشكل عصب النظام الاقتصادي الإفريقي في تلك المرحلة بينما شكل القماش بأنواعه المختلفة والخرز والأسلاك النحاسية والأصداف البحرية المواد الرئيسة التي تمّ اعتمادها كعملة في نظام البيع والشراء، وقايض بموجبها الأفارقة على اختلاف أعراقهم سلعهم الرئيسة ومنتجاتهم المحلية من العاج والمؤن وغيرها.

- كان للعرب في تلك المرحلة نفوذ اقتصادي كبير امتد على نطاق واسع في مختلف أنحاء هضبة شرقي ووسط إفريقيا؛ إذ وصلوا بتجارهم وبحثم عن العاج والعبيد شمالاً حتى مملكة كاراجوي وبوجندا وبونيورو، وغرباً حتى منطقة البحيرات الكبرى وتخطوها باتجاه بلاد الكونغو، وجنوباً حتى بحيرة نياسا، وكان يحملون معهم البضائع المختلفة من الأقمشة والخرز والأسلاك النحاسية وفق متطلبات كل منطقة على حدا، وكان لهم الفضل في حمل منتجات القارة الإفريقية إلى ساحل المحيط الهندي ودمج منطقة الشرق الإفريقي ضمن حركة التجارة العالمية القائمة بين الشرق الأقصى والبلاد العربية والأسبوية والغرب الأوروبي.

- وضحت لنا كتب الرحلات نظام القوافل المعتمد في تجارة الشرق الإفريقي من طريقة تجهيز القافلة والمواد التي يحتاجونها وتأمين المرافقة المسلحة لحمايتها والحمالين لنقل الحمولات إلى طرق القوافل المعتمدة التي كان للعرب دور بارز في إنشائها، وإقامة المحطات التجارية على طول الطريق، واستفاد الرحالة الأوروبيون من خبرة العرب بشكل عام في هذا المجال، إذ طلبوا منهم الانضمام إلى قوافلهم في معظم الرحلات التي قاموا بها، وبذلك فإنّ جزءاً مهماً من معلوماتهم كانت مستمدة من خبرات التجار والأدلاء العرب الذين رافقوهم، أو قابلوهم في

أواسط إفريقيا، وتفيض سجلات الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية بالكثير من الإشارات عن دور العرب في كشف شرقي القارة ووسطها عموماً.

- تضمنت كتابات الرحالة الأوروبيين إشارات عديدة عما تحتويه المنطقة من ثروات وزراعات وأشجار مثمرة وحيوانات، وبما تشتهر فيه كل منطقة من منتجات وثروات، ولا شك في أنها شكلت حافزاً شجع الرأسماليون الأوروبيون على التحرك لاستعمار المنطقة، واستثمار تلك الثروات في خضم حاجة الأوروبيين للمواد والسلع الأولية لصناعاتهم الحديثة.

- على الصعيد الديني:

- يتبين من دراسة كتب الرحلات أن عامل التبشير كان يخفي من ورائه بواعث استعمارية، إذ كانت المنطقة من وجهة نظر الأوروبي غنية بالمواد الأولية، ولكنها متخلفة على مستوى الوعي السكاني، ولنشر الحضارة فيما بين سكانها كان لابد من تحويلهم إلى المسيحية أولاً لتنمية متطلباتهم واحتياجاتهم، ومن ثم العمل على تلبية تلك المتطلبات، وبالتالي إيجاد أرضية مناسبة لتسويق المنتجات الأوروبية الفائضة عن حاجة مجتمعاتها، ويتبين ذلك من خلال دراسة الرحالة لحياة المجتمعات، وما يمكن منها أن يسهل عمل المبشرين أو عرقلته، فمثلاً نجد بيكر يرى في حالة تعدد الزوجات بين قبائل النيل الأبيض عائلاً كبيراً في وجه المشاريع التبشيرية.

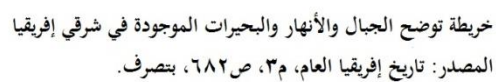
وفي الختام يمكن القول أن الرحلات الأوروبية في القرن التاسع عشر كان لها بعض النتائج الإيجابية والكثير من النتائج السلبية، فمع أنها كانت قد كشفت عن الكثير من الحقائق الجغرافية والتاريخية، وقدمت معلومات جد قيمة عن تاريخ منطقة الشرقي الإفريقي في مرحلة ندرت فيها المصادر المحلية فشكلت مصادر أصيلة لتاريخ المنطقة في تلك الحقبة، إلا أنها مع ذلك قد حملت الخراب والدمار والاحتلال والتقسيم والتهجير والشتات والتفرقة العنصرية إلى القارة الإفريقية، وزرعت بذور المشاكل والخلافات التي عانت منها دول المنطقة حتى في مرحلة ما بعد الاستقلال، وفي هذا لا تختلف السياسة الاستعمارية حيثما وصلت قوى الاستعمار من مشرق الأرض إلى مغربها.

تم بعون الله



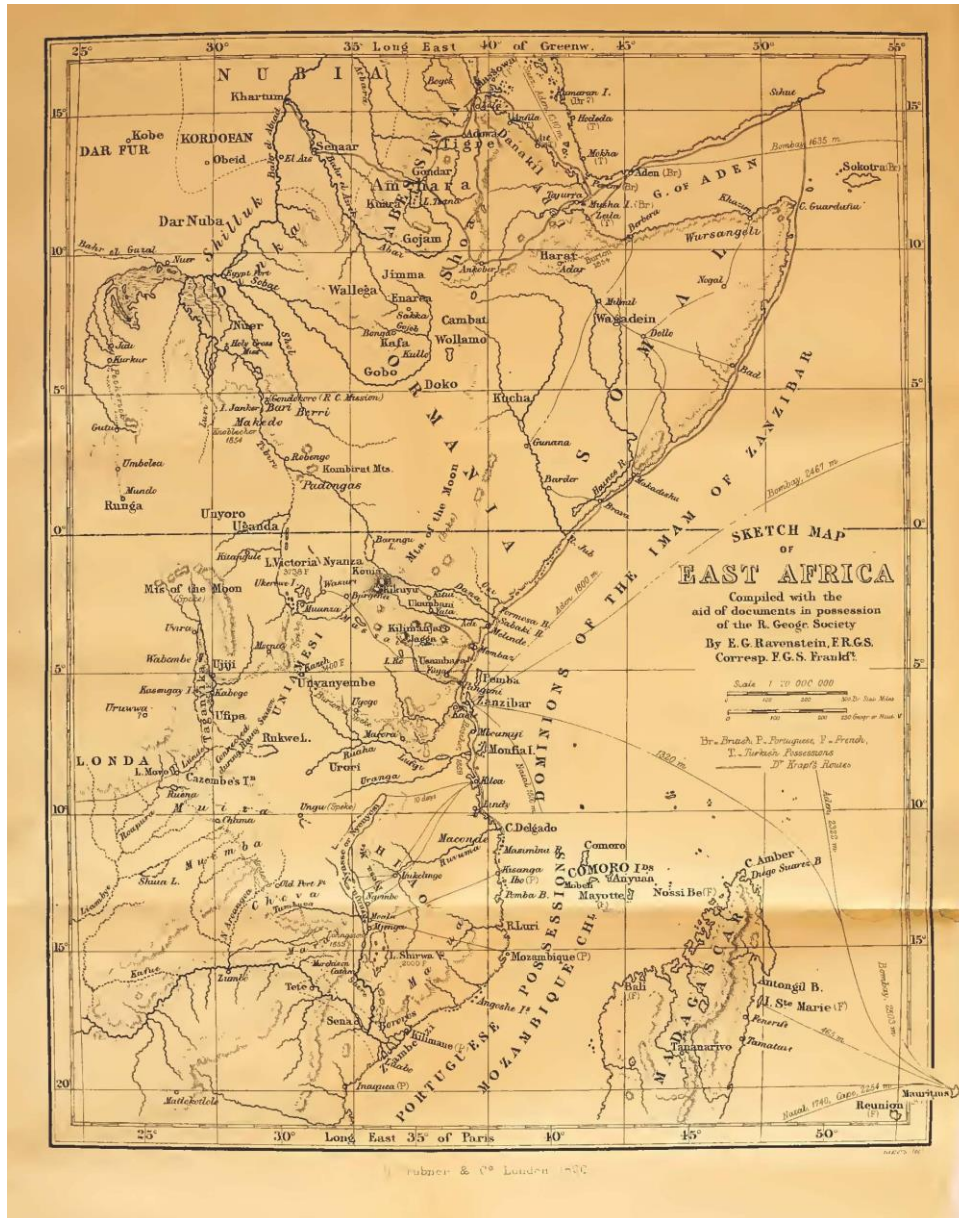
- الملحق رقم (١) خريطة توضح الجبال والأنهار والبحيرات الموجود في شرقي إفريقيا.
- الملحق رقم (٢) خريطة توضح خط سير رحلات كرابف في شرقي إفريقيا بين عامي ١٨٤٤-١٨٥٥.
- الملحق رقم (٣) خريطة بحر أونيامويزي التي رسمها إرهاردت وريمان في العام ١٨٥٥.
- الملحق رقم (٤) خريطة توضح خط سير رحلة كرابف إلى جزيرة زنجبار في العام ١٨٤٣
- الملحق رقم (٥) خريطة توضح خط سير رحلات رييمان إلى جبل كاديوارو وجاغا بين عامي ١٨٤٧-١٨٤٩.
- الملحق رقم (٦) خريطة توضح خط سير رحلات كرابف إلى بلاد أوزمبارا بين عامي ١٨٤٨-١٨٥٢.
- الملحق رقم (٧) خريطة توضح خط سير رحلة كرابف وإرهاردت على طول الساحل الإفريقي الشرقي في العام ١٨٥٠.
- الملحق رقم (٨) خريطة توضح خط سير رحلات كرابف إلى بلاد أوكمباني بين عامي ١٨٤٩-١٨٥١.
- الملحق رقم (٩) خريطة توضح خط سير رحلات بيرتون وسبيك بين عامي ١٨٥٦-١٨٥٩.
- الملحق رقم (١٠) خريطة توضح خط سير رحلة بيرتون وسبيك واكتشافهم لبحر أوجيجي أو أونيامويزي (تنجانيقا) في العام ١٨٥٨.
- الملحق رقم (١١) خريطة توضح خط سير رحلة سبيك واكتشافهم لبحيرة أوكيرو (فكتوريا) في العام ١٨٥٩.
- الملحق رقم (١٢) خريطة توضح خط سير رحلة جون سبيك وجميس جرانت بين عامي ١٨٦١-١٨٦٤.
- الملحق رقم (١٣) خريطة توضح خط سير رحلات صمويل بيكر بين عامي ١٨٦١-١٨٦٥.
- الملحق رقم (١٤) خريطة توضح خط سير رحلة صمويل بيكر إلى بحيرة ألبرت بين عامي ١٨٦٣-١٨٦٥.
- الملحق رقم (١٥) خريطة توضح خط سير لفنجستون في رحلته الأخيرة بين عامي ١٨٦٦-١٨٧٣.
- الملحق (١٦) خرائط توضح خط سير ستانلي في رحلته للبحث عن لفنجستون بين عامي ١٨٧١-١٨٧٠.
- الملحق (١٧) خرائط توضح خط سير ستانلي في رحلته الأنجلو - أمريكية بين عامي ١٨٧٤-١٨٧٧.
- الملحق رقم (١٨) خرائط توضح خط سير ستانلي في رحلته لإغاثة أمين باشا بين عامي ١٨٨٧-١٨٨٩.

خريطة توضح الجبال والأنهار والبحيرات الموجود في شرقي إفريقيا.



(الملحق رقم ٢)

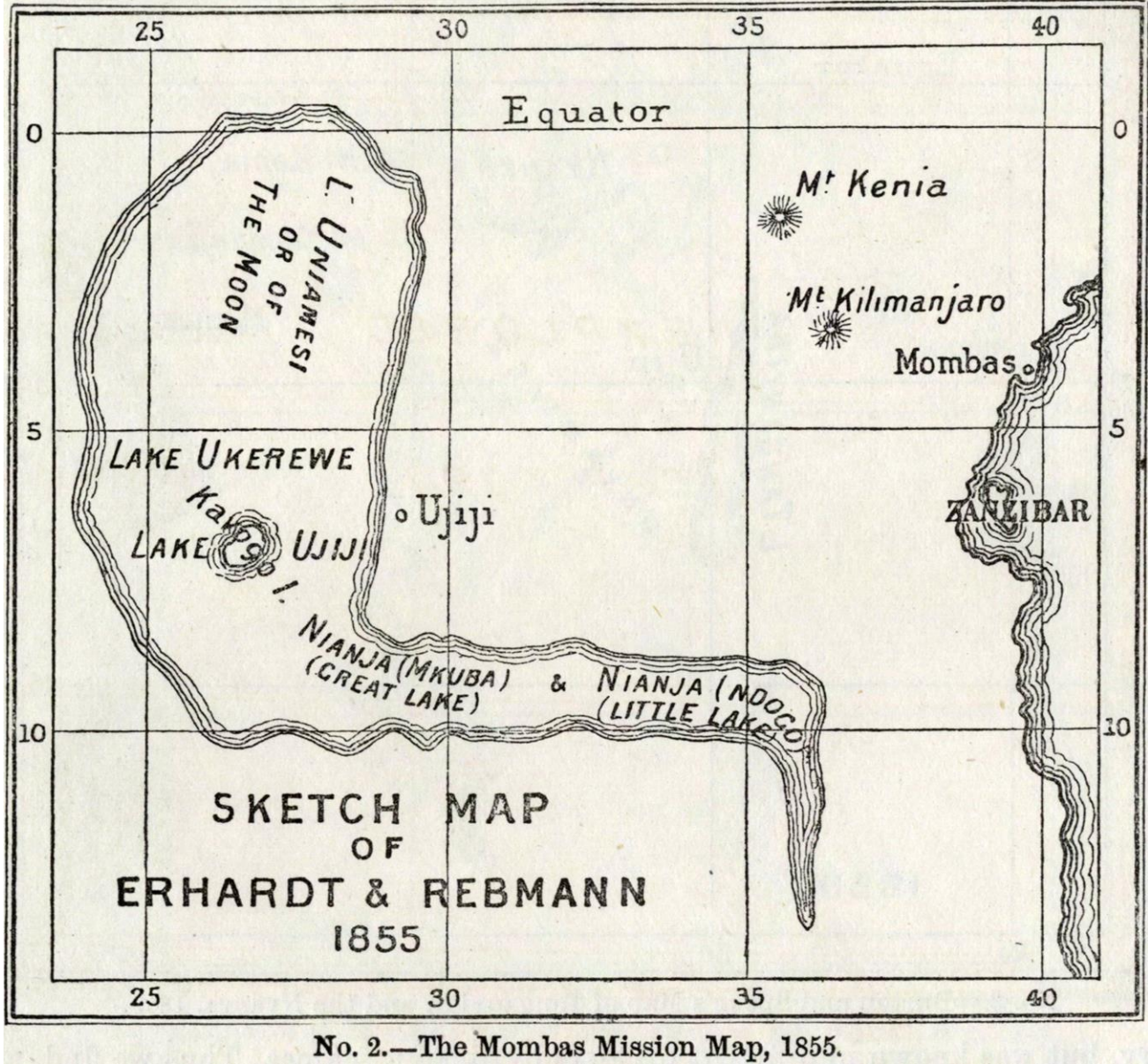
خريطة توضح خط سير رحلات كرافف في شرقي إفريقيا بين عامي ١٨٤٤ - ١٨٥٥.



المصدر: Krapf, travels, researches, and missionary labours

الملحق رقم (٣)

خريطة بحر أونيامويزي التي رسمها إرهاردت وريمان في العام ١٨٥٥.

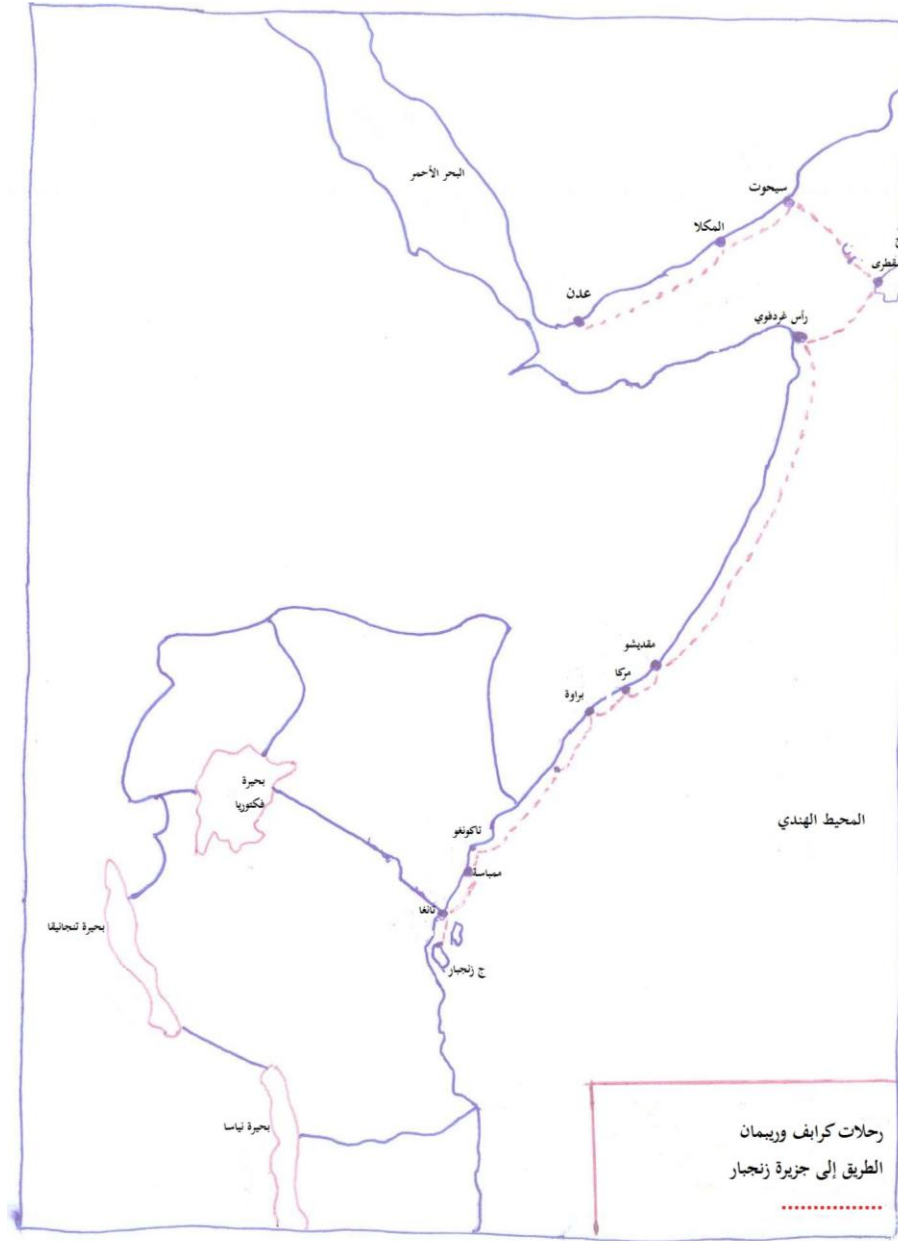


No. 2.—The Mombas Mission Map, 1855.

المصدر: Journal of the Royal Geographical Society of London

الملحق رقم (٤)

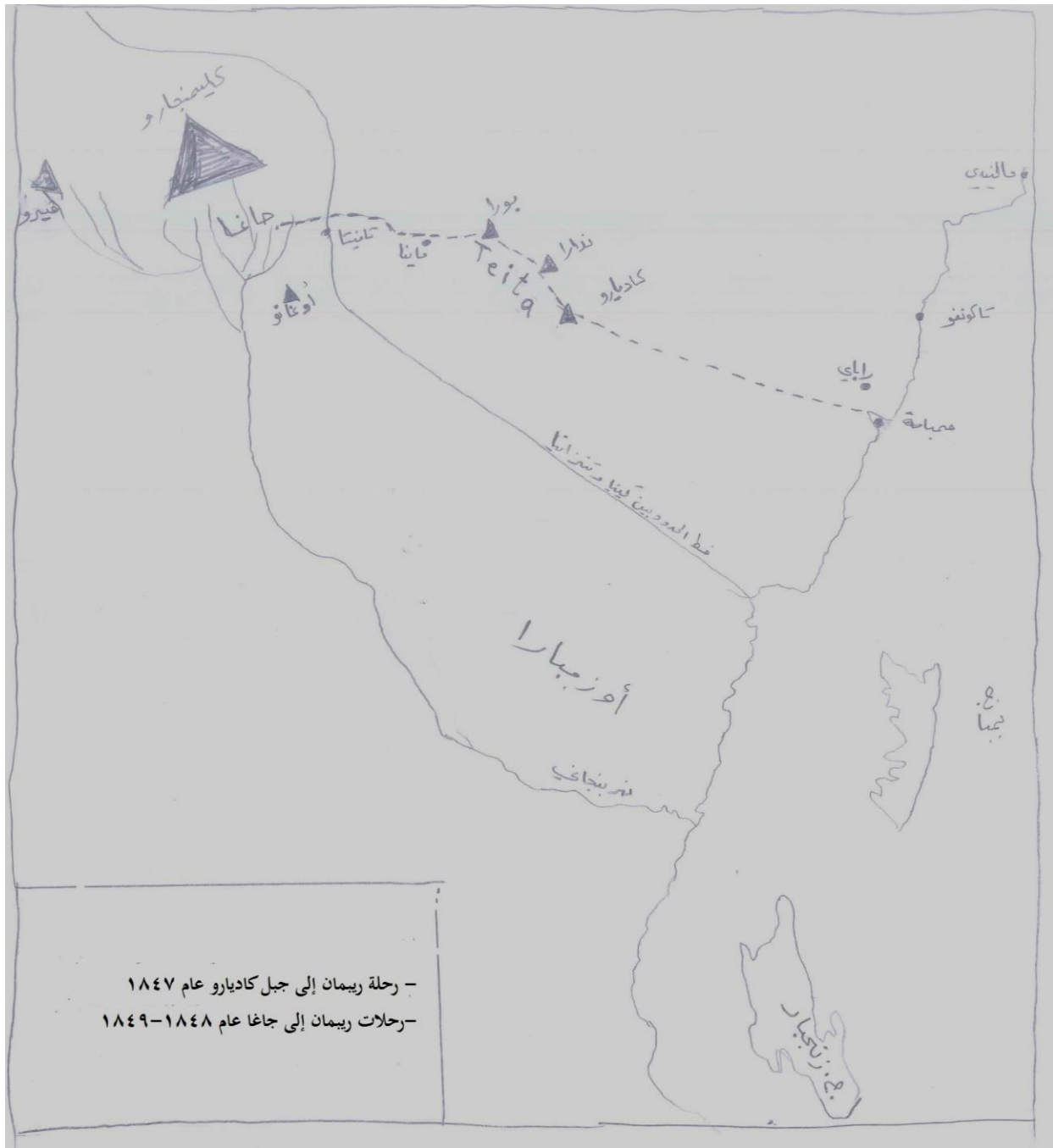
خريطة توضح خط سير رحلة كرافف إلى جزيرة زنجبار في العام ١٨٤٣



إعداد الطالب

الملحق رقم (٥)

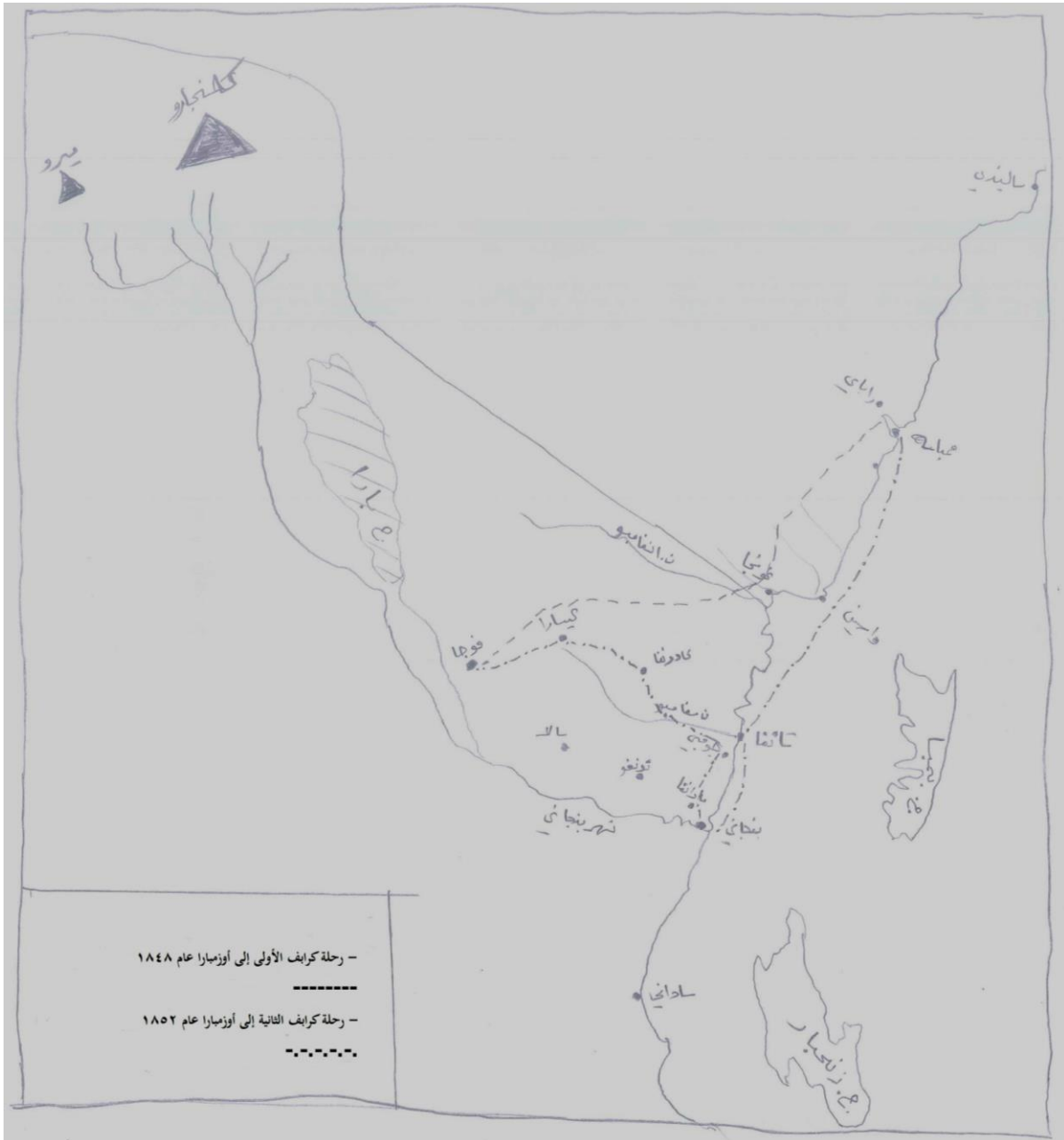
خريطة توضح خط سير رحلات رييمان إلى جبل كاديارو وجاغا بين عامي ١٨٤٧-١٨٤٩.



إعداد الطالب

الملحق رقم (٦)

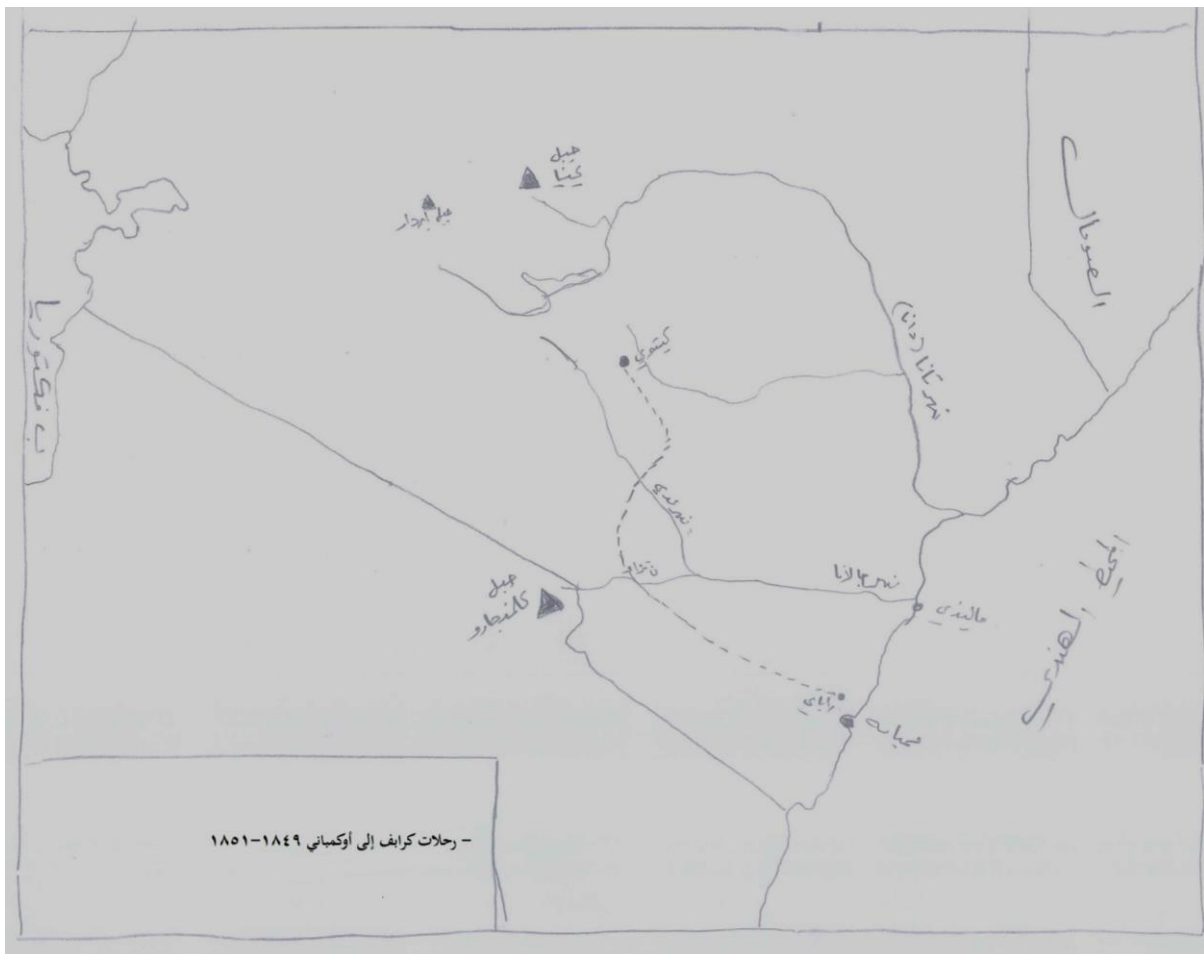
خريطة توضح خط سير رحلات كرابف إلى بلاد أوزمبارا بين عامي ١٨٤٨-١٨٥٢.



إعداد الطالب

الملحق رقم (٨)

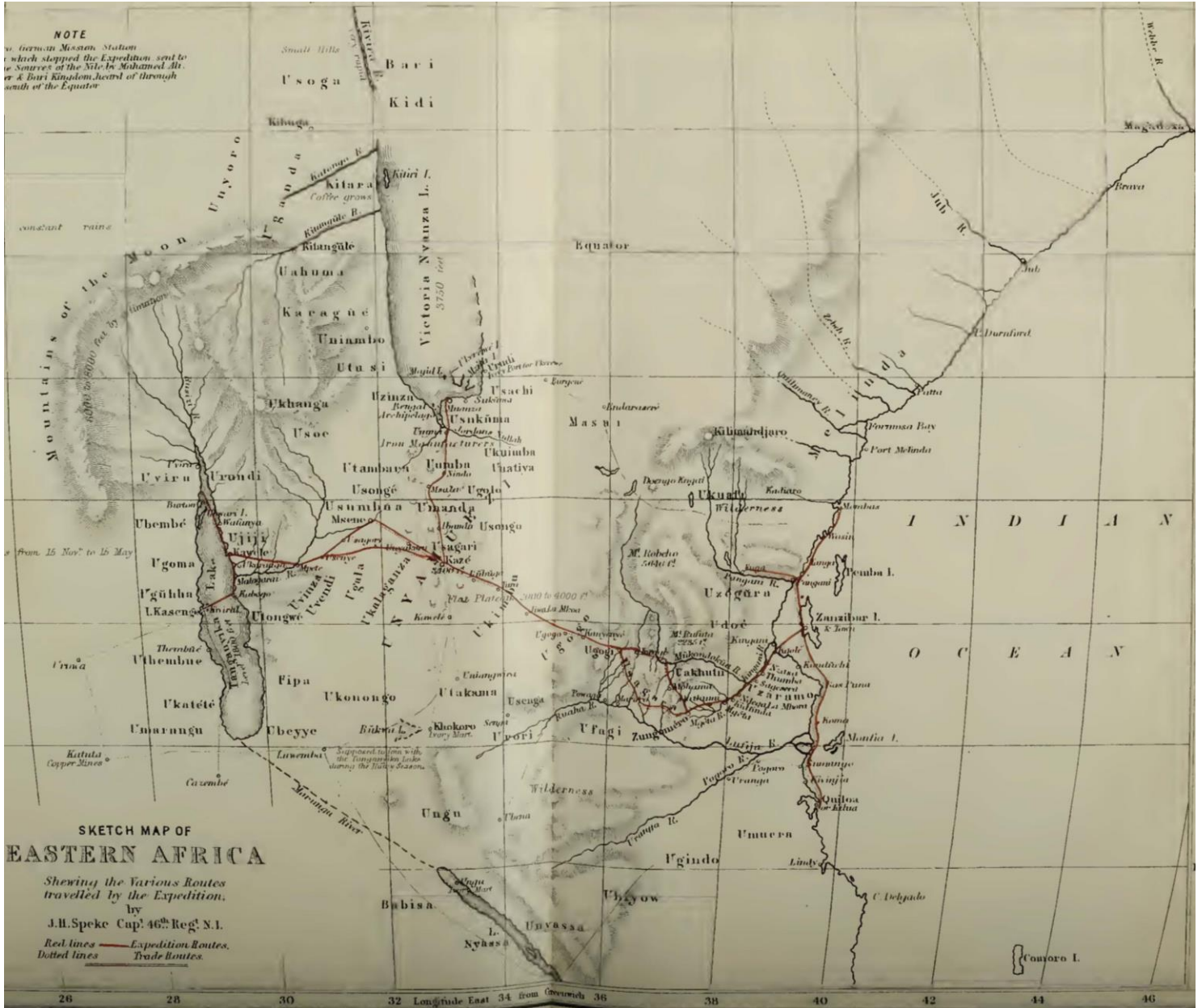
خريطة توضح خط سير رحلات كرابف إلى بلاد أوكمباني بين عامي ١٨٤٩-١٨٥١.



إعداد الطالب

الملحق رقم (٩)

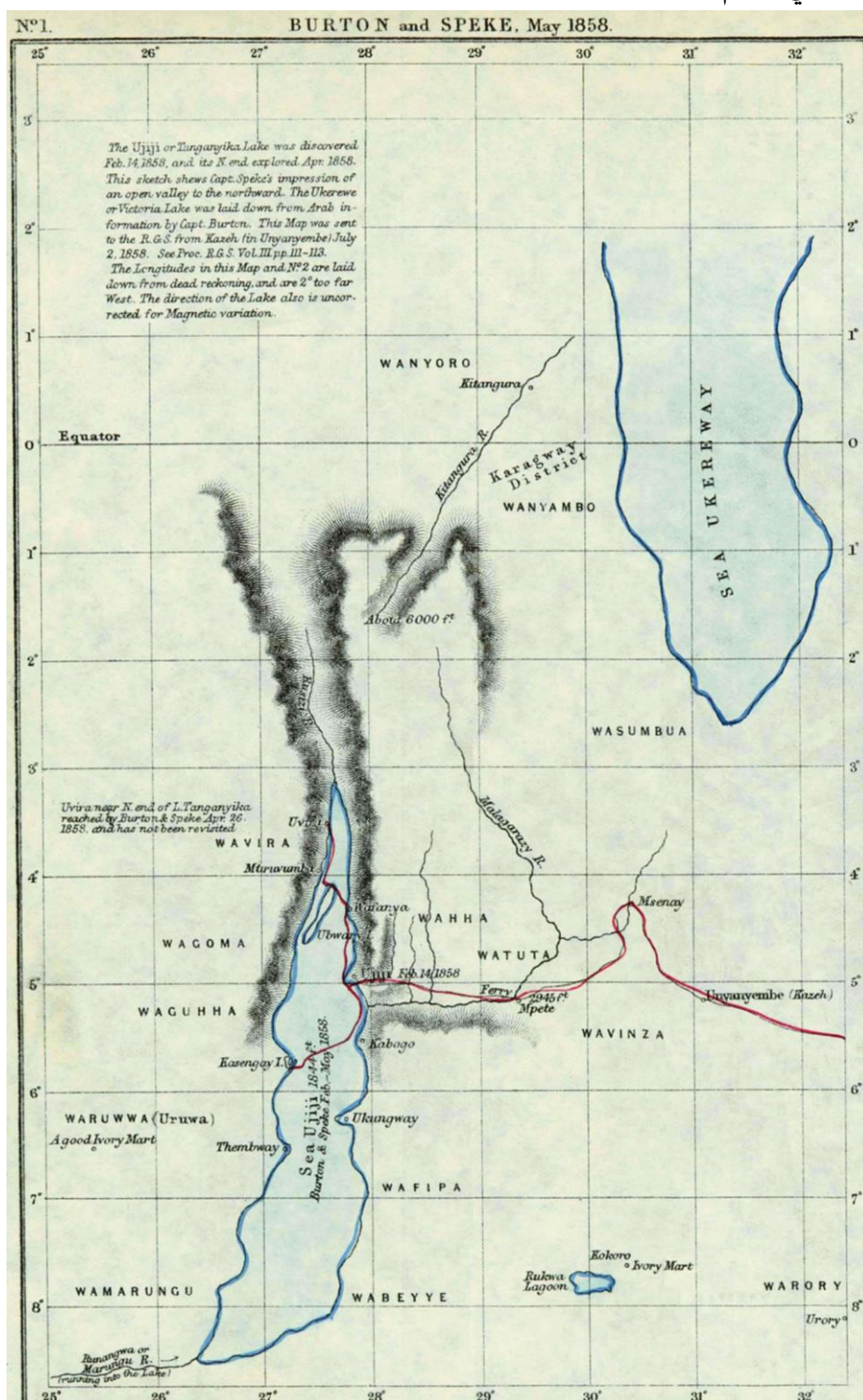
خريطة توضح خط سير رحلات بيرتون وسبيك بين عامي ١٨٥٦-١٨٥٩.



المصدر: Speke, what led to discovery of the source of the Nile, p154

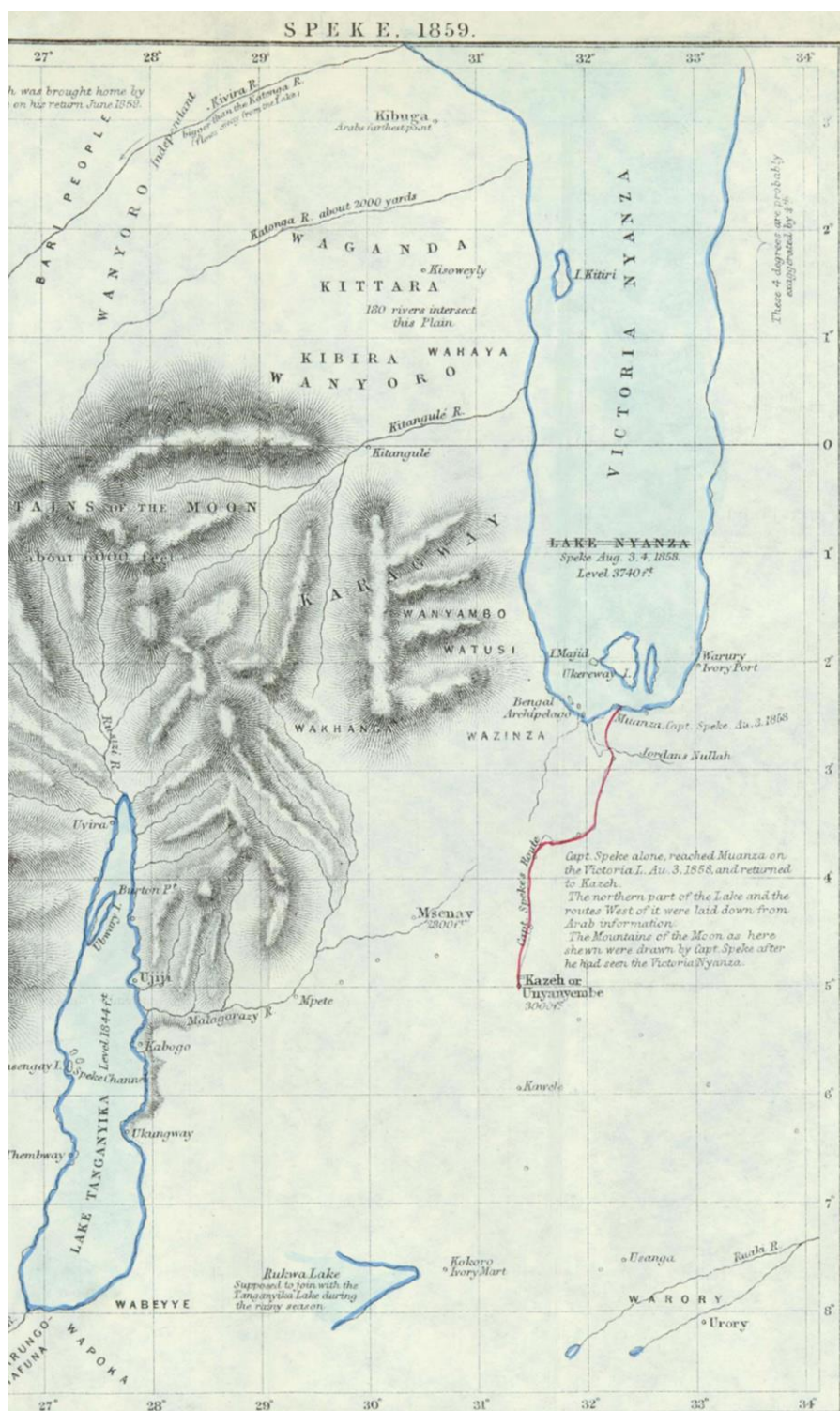
الملحق رقم (١٠)

خريطة توضح خط سير رحلة بيرتون وسبيك واكتشافهم لبحر أوجيجي أو أونياموزي (تنجانيقا) في العام ١٨٥٨.



المصدر: Journal of the Royal Geographical Society of London, V 37 (1867):

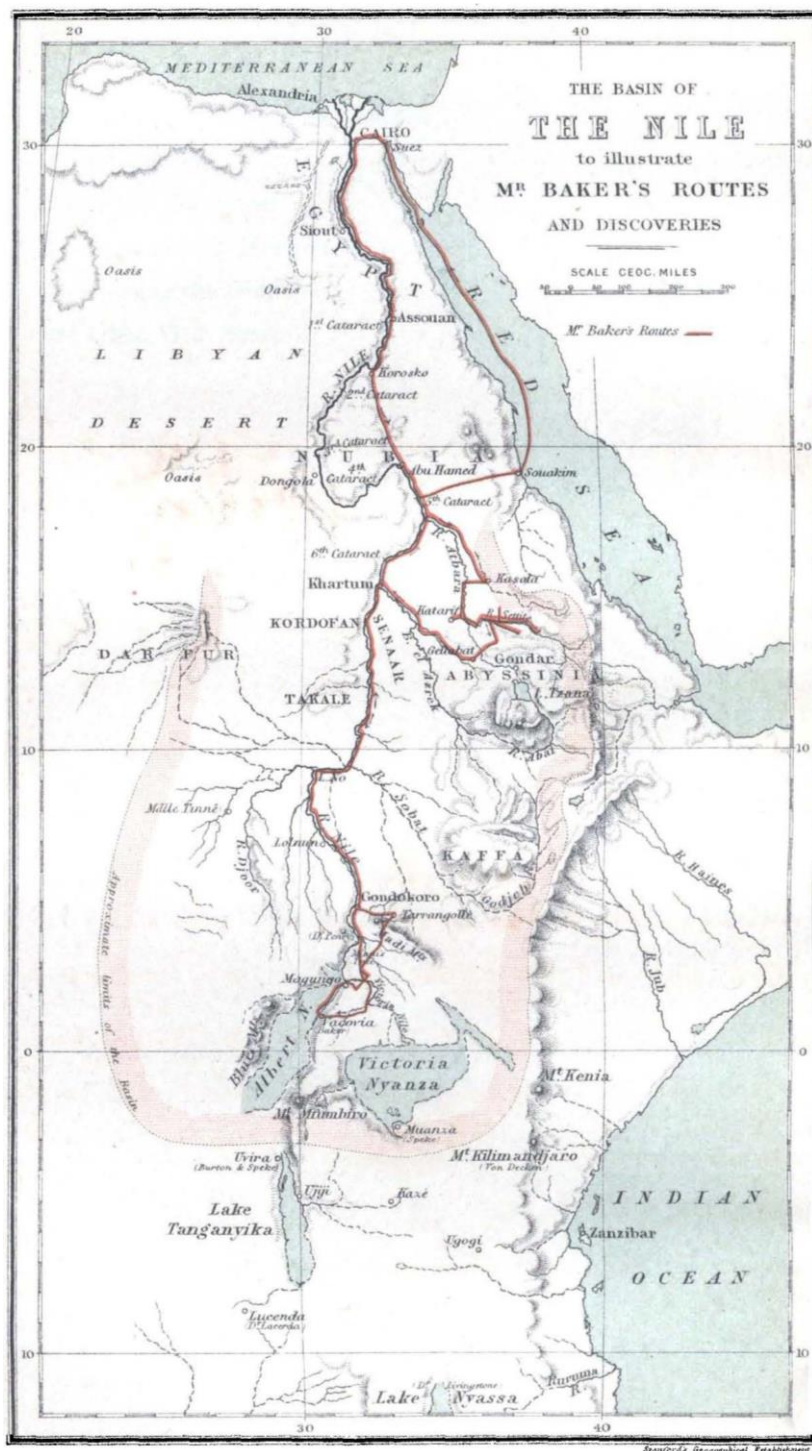
خريطة توضح خط سير رحلة سبيك واكتشافهم لبحيرة أوكيروى (فكتوريا) في العام ١٨٥٩.



المصدر: Journal of the Royal Geographical Society of London, V 37 (1867):

الملحق رقم (١٣)

خريطة توضح خط سير رحلات صمويل بيكر بين عامي ١٨٦١ - ١٨٦٥.



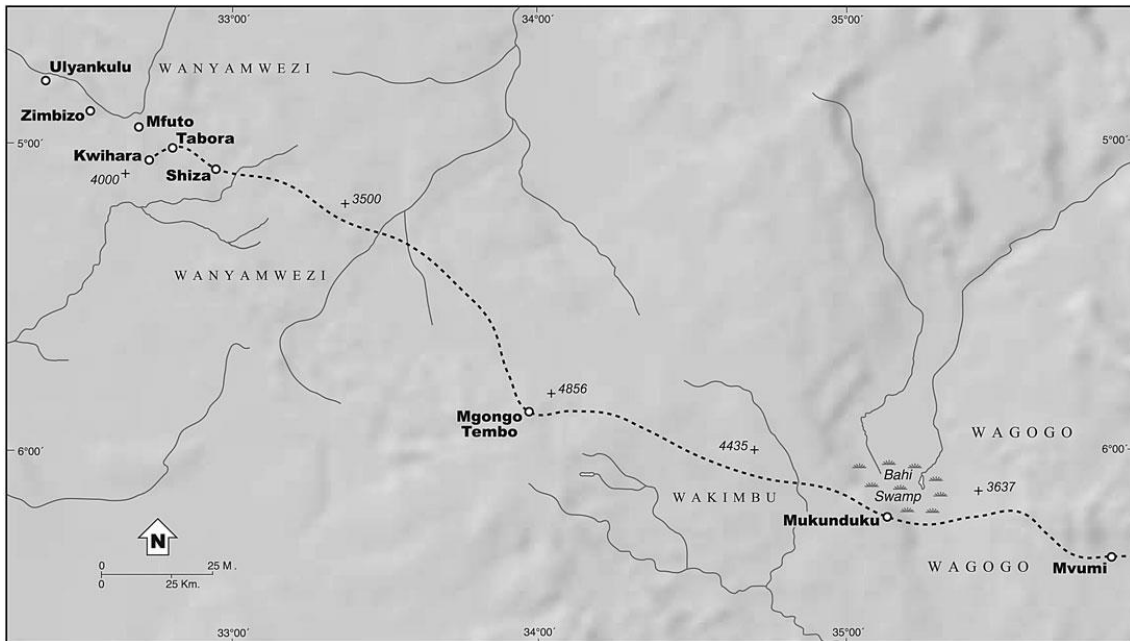
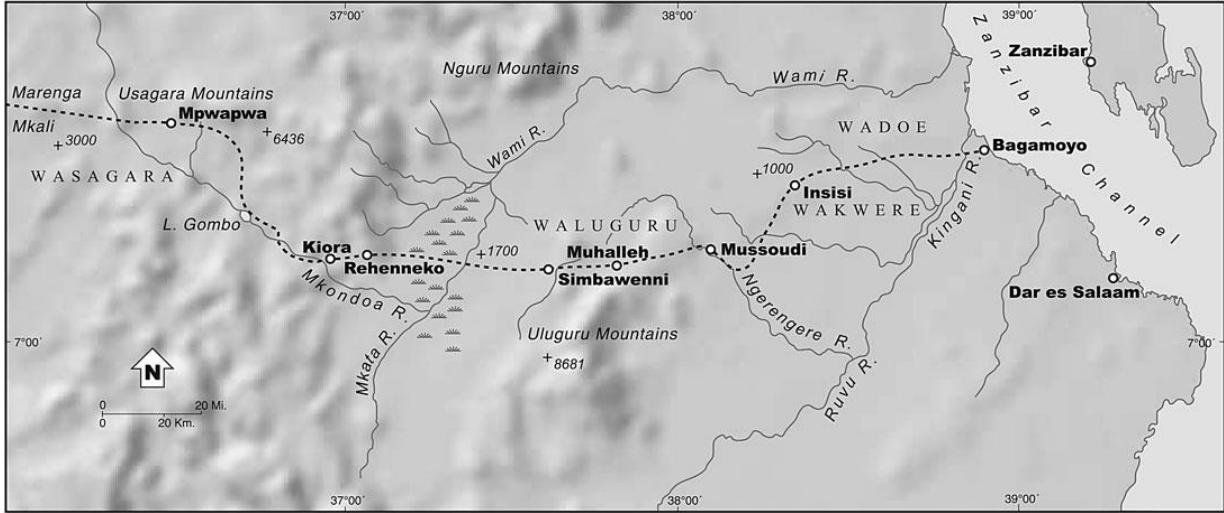
المصدر: Baker, Albert Nyanza, great basin of the Nile, v1.

خريطة توضح خط سير لفنجستون في رحلته الأخيرة بين عامي ١٨٦٦-١٨٧٣.

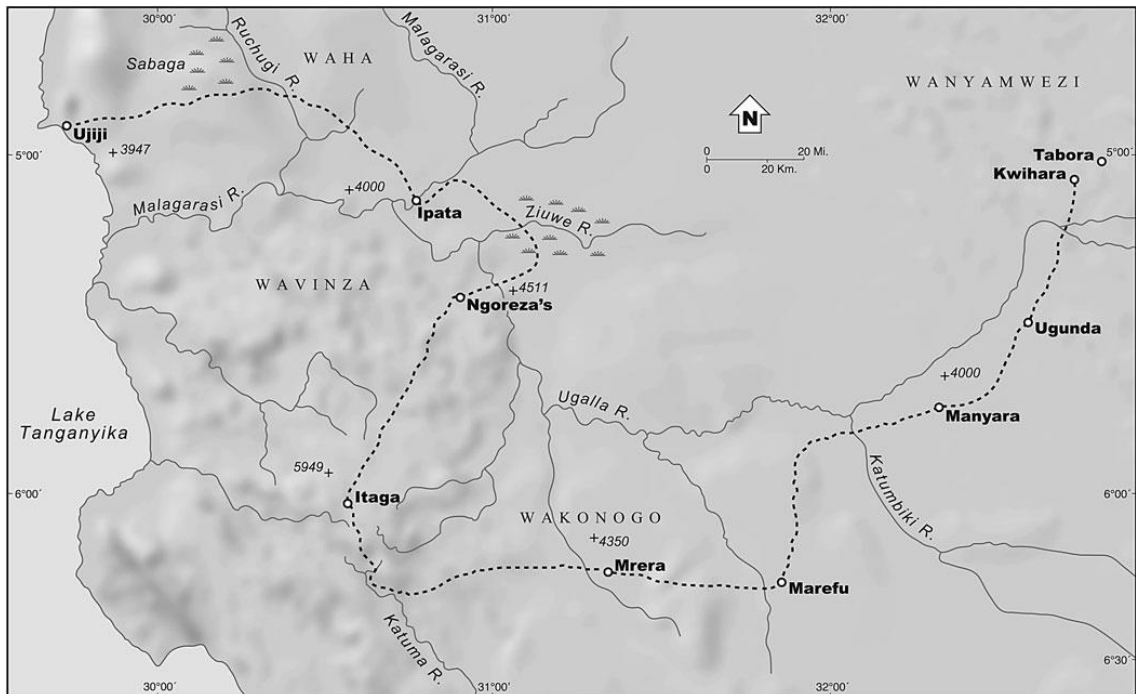


الملحق رقم (١٦)

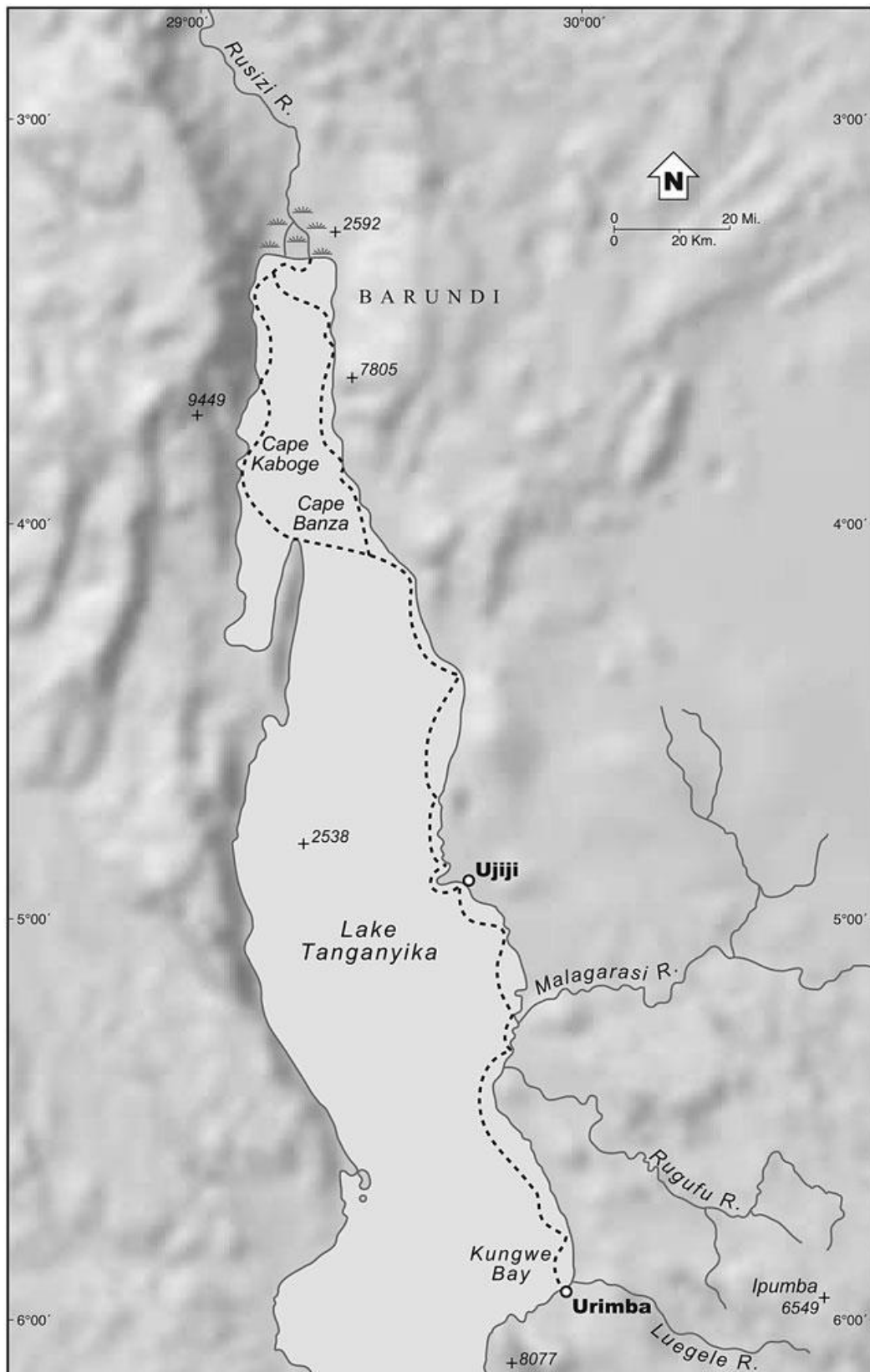
خرائط توضح خط سير ستانلي في رحلته للبحث عن لفنجستون بين عامي ١٨٧٠-١٨٧١.



المصدر: Newman, Imperial footprints, henery Morton Stanley's African journeys, p41, 46.



المصدر: Newman, Imperial footprints, hennerly Morton Stanly's African journeys, p53.

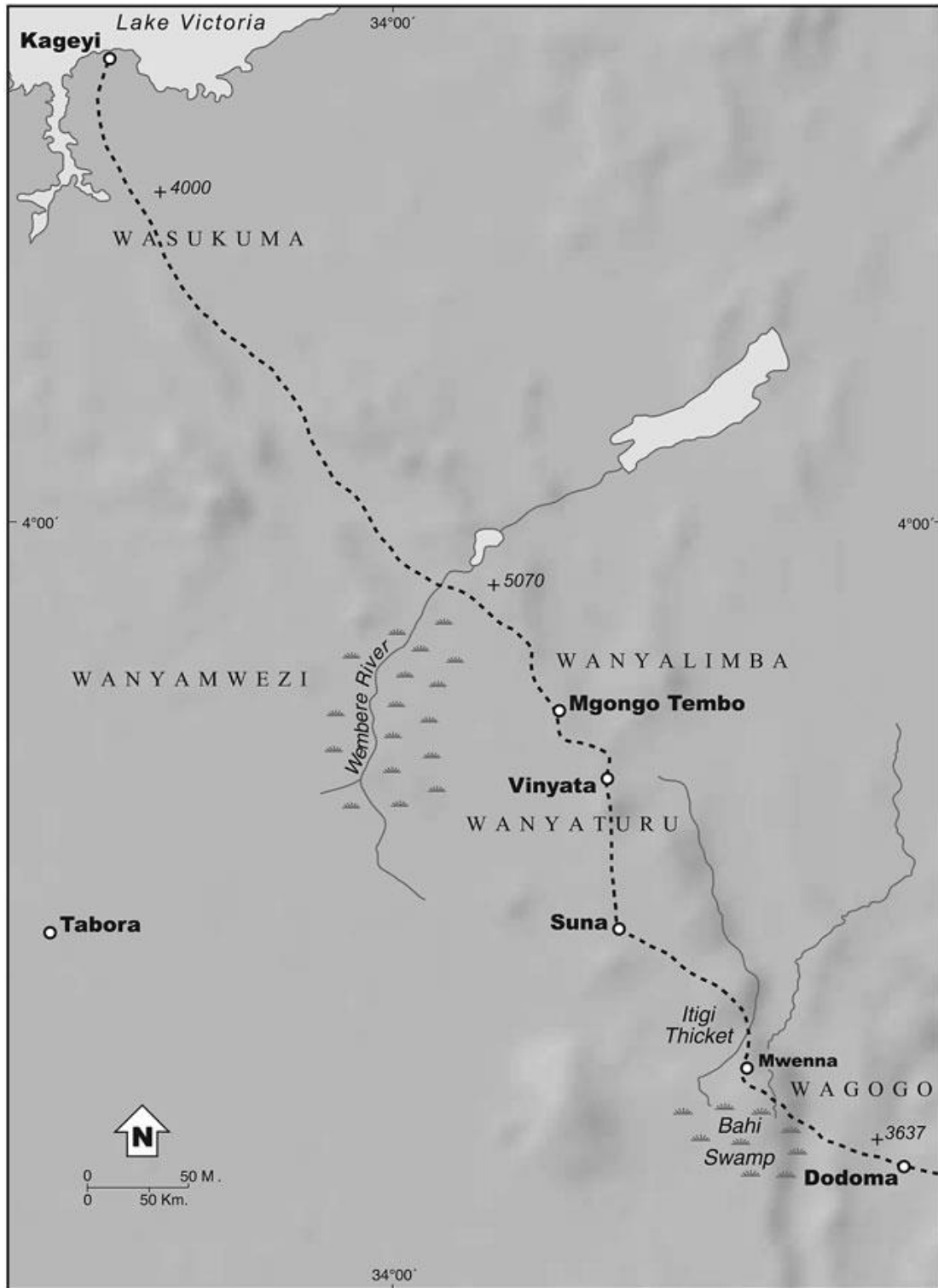


المصدر: Newman, Imperial footprints, hennery Morton Stanly's African journeys, p61.

الملحق رقم (١٧)

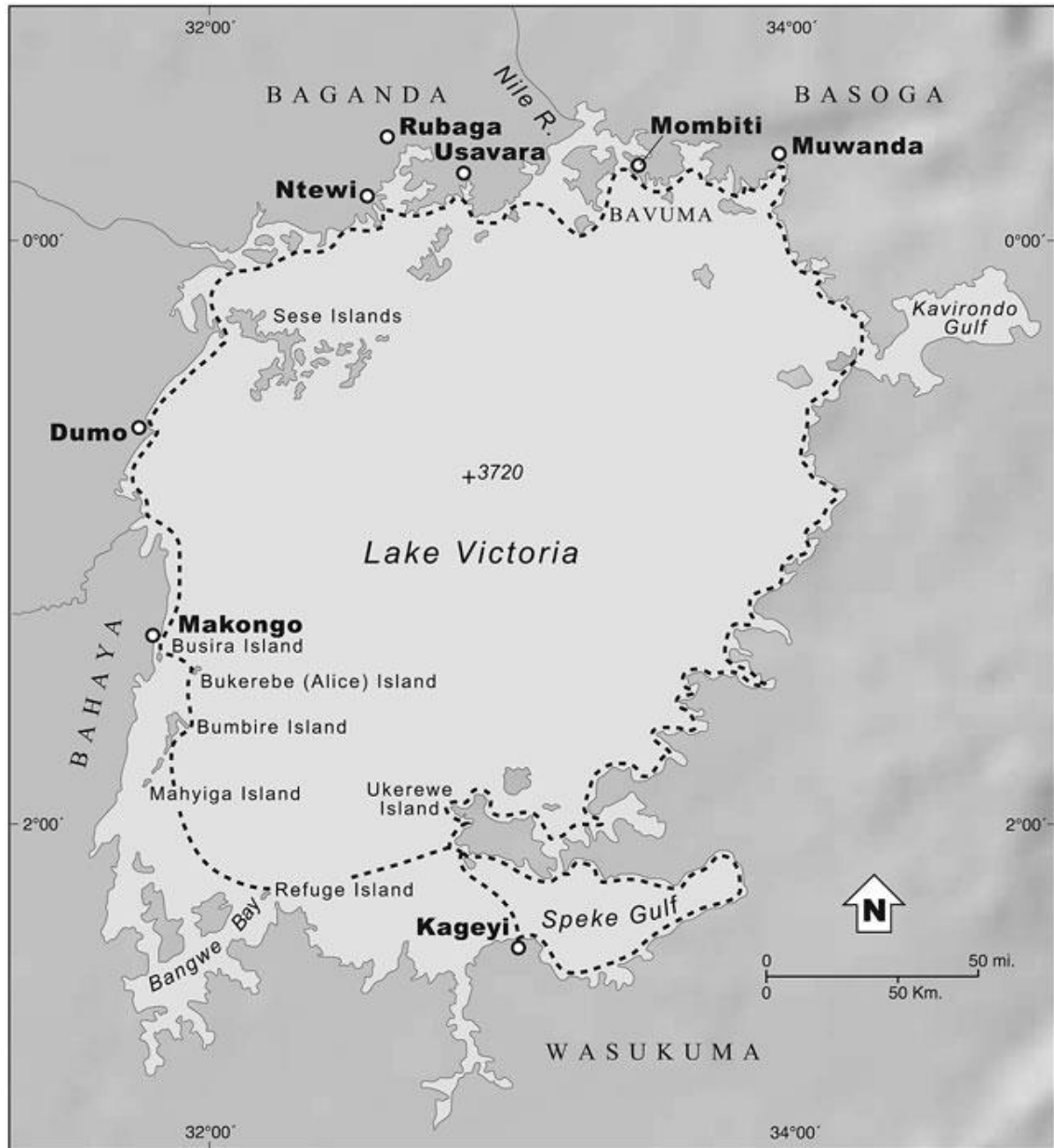
خرائط توضح خط سير ستانلي في رحلته الأنجلو - أمريكية بين عامي ١٨٧٤-١٨٧٧.

الطريق إلى بحيرة فكتوريا



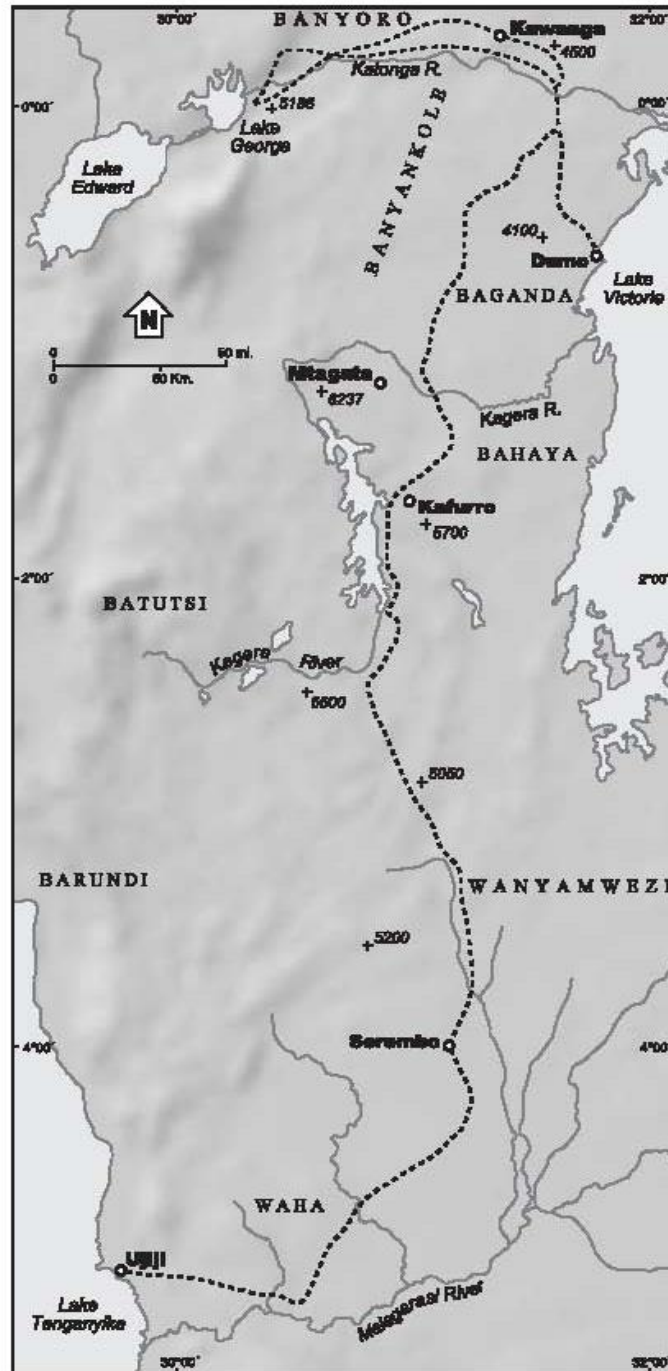
المصدر: Newman, Imperial footprints, henery Morton Stanley's African journeys, p104.

الدوران حول بحيرة فكتوريا



المصدر: Newman, Imperial footprints, hennery Morton Stanley's African journeys, p114.

المسير إلى بحيرة جورج، ومن ثم عبر بلاد كاراتوي باتجاه بحيرة تتجانيقا

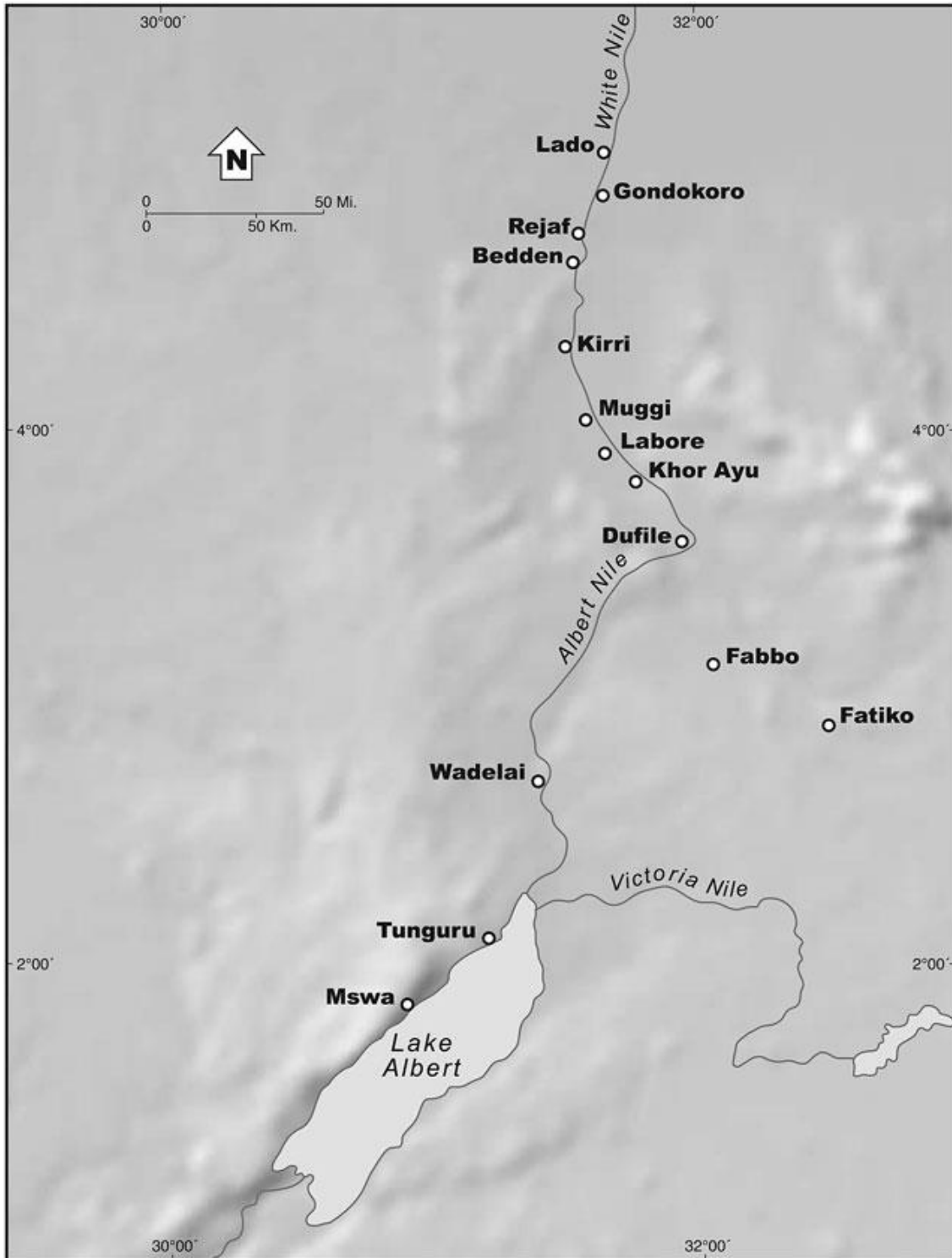


المصدر: Newman, Imperial footprints, hennery Morton Stanly's African journeys, p126.

الملحق رقم (١٨)

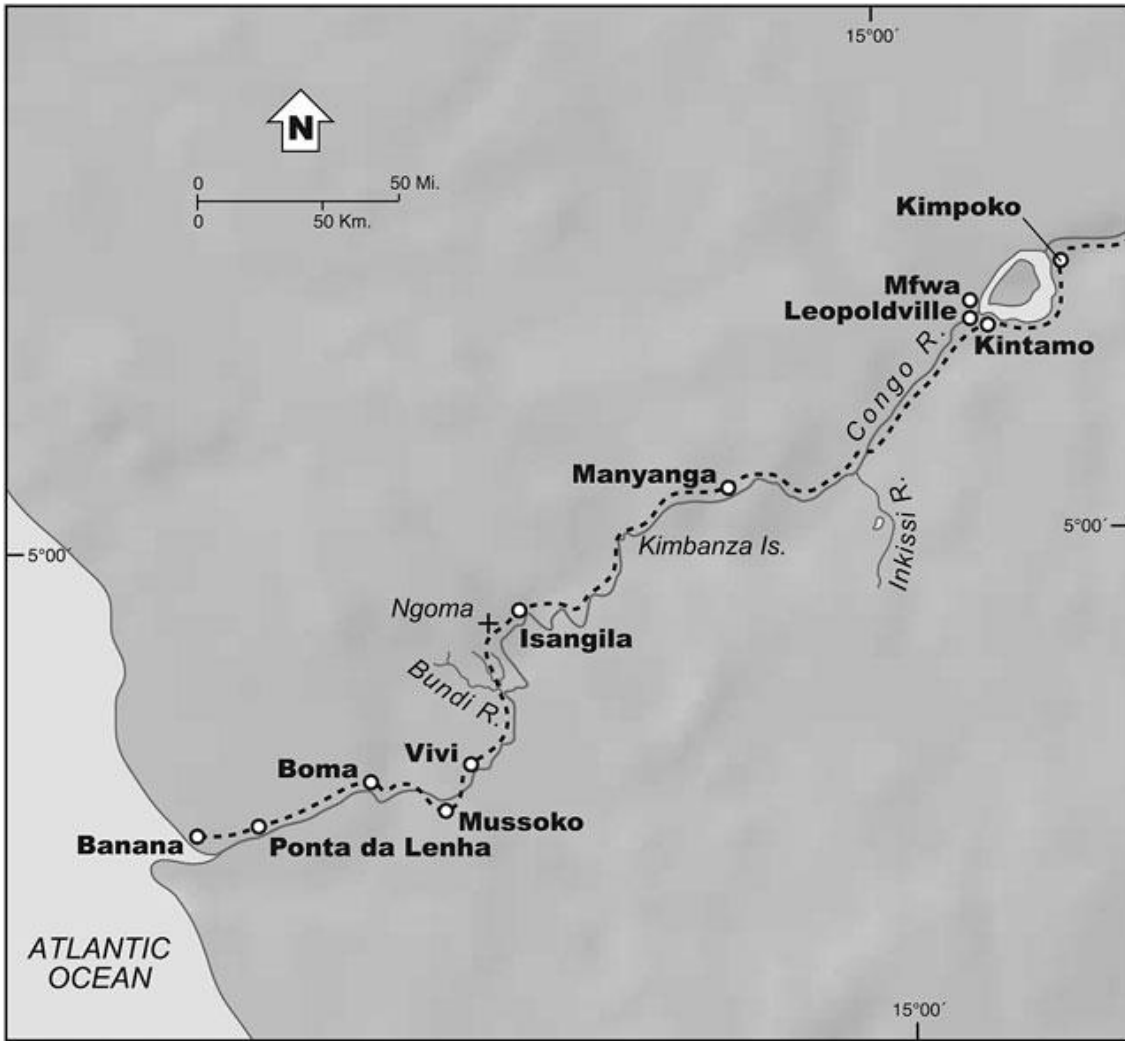
خرائط توضح خط سير ستانلي في رحلته لإغاثة أمين باشا بين عامي ١٨٨٧-١٨٨٩.

- موقع بلدة وادلای التي تمركز بها أمين باشا



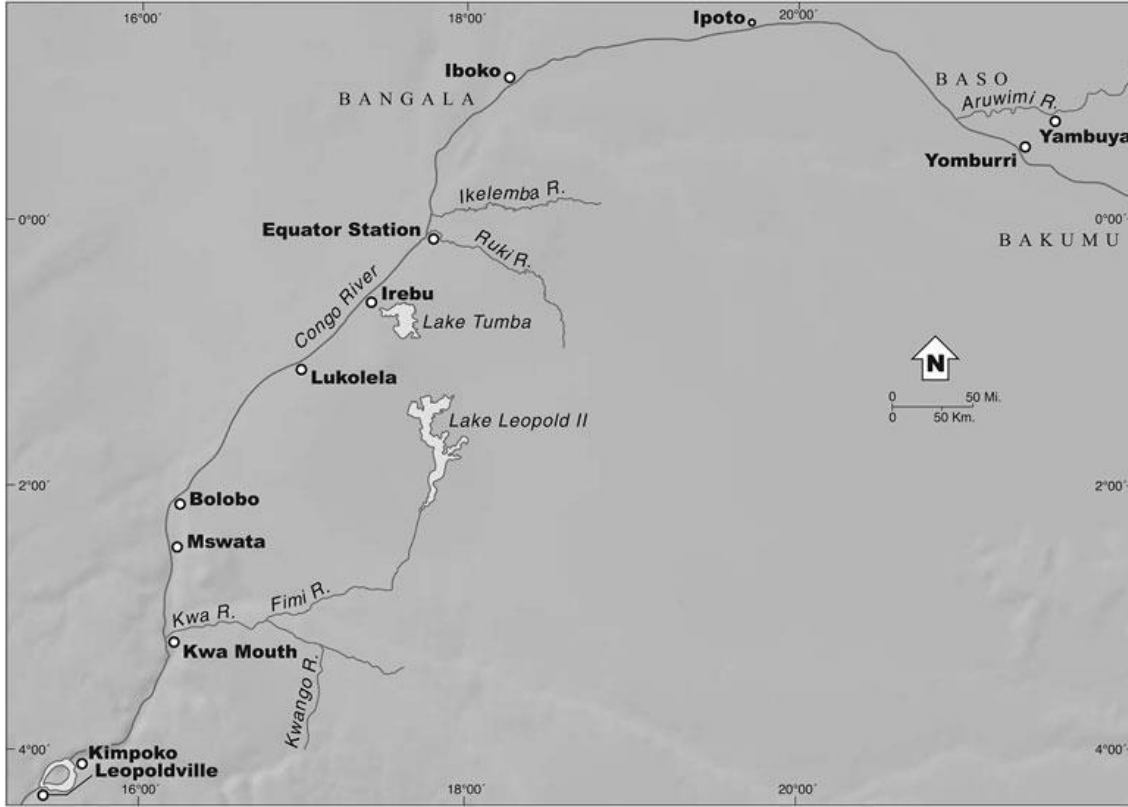
المصدر: Newman, Imperial footprints, hennery Morton Stanley's African journeys, p222.

- الطريق من بانا إلى ليوبولدفيل



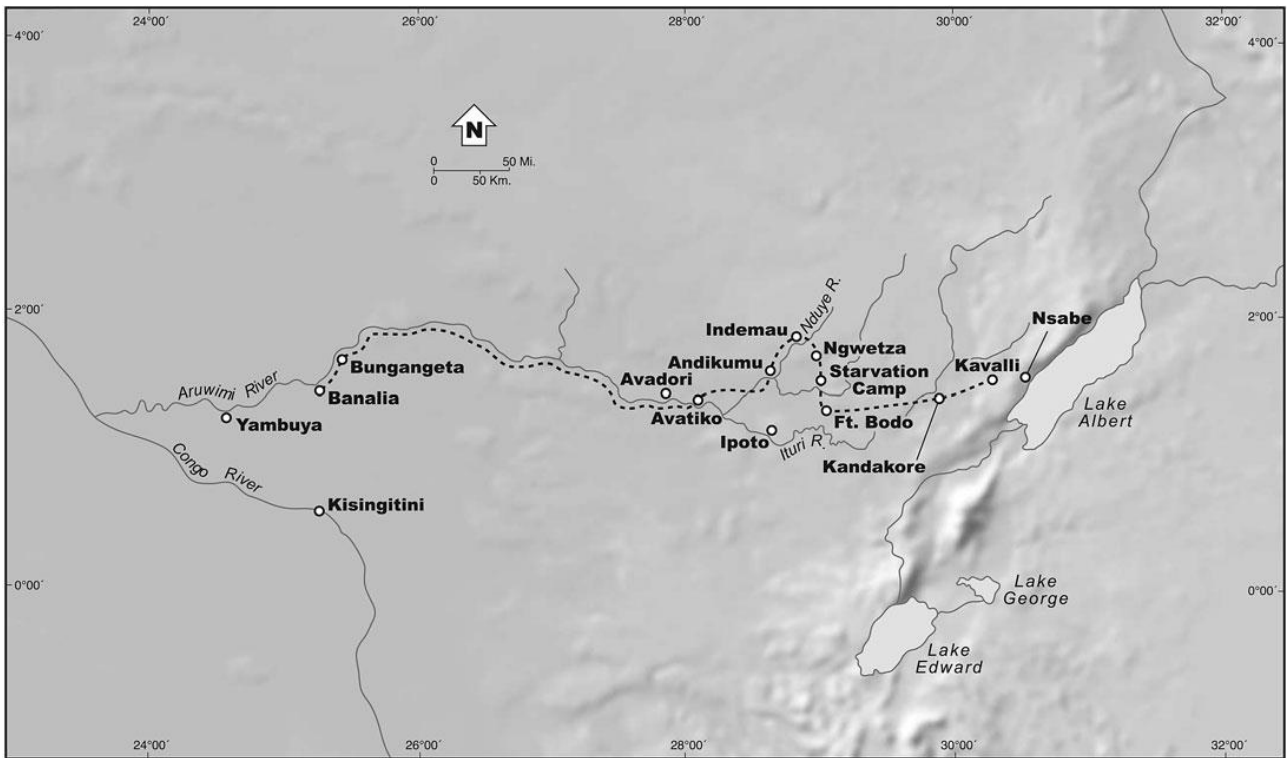
المصدر: Newman, Imperial footprints, henery Morton Stanly's African journeys, p170.

- الطريق من ليوبولدفيل إلى ياموبيا



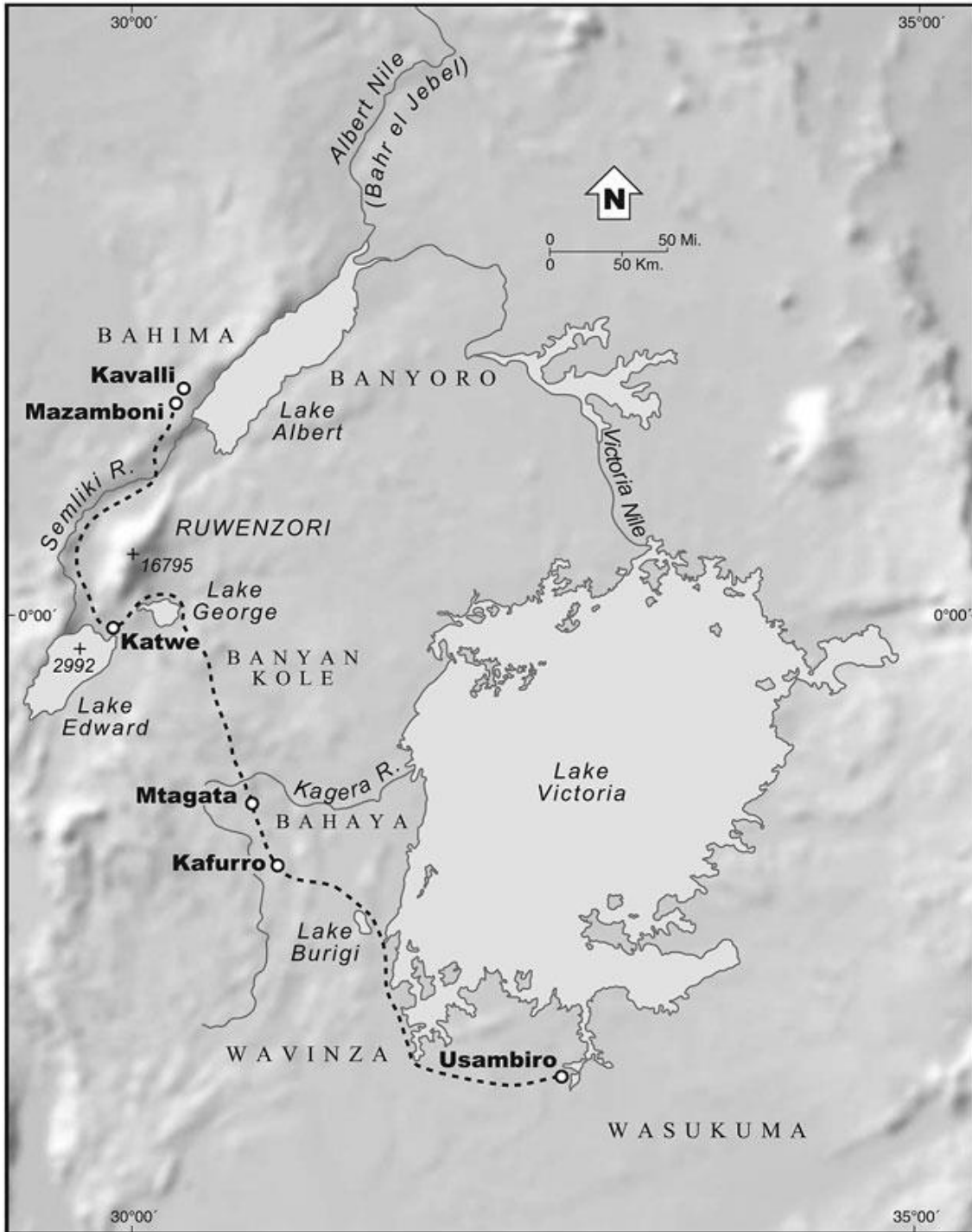
المصدر: Newman, Imperial footprints, henery Morton Stanley's African journeys, p189.

- الطريق من يامبويا إلى بحيرة ألبرت.



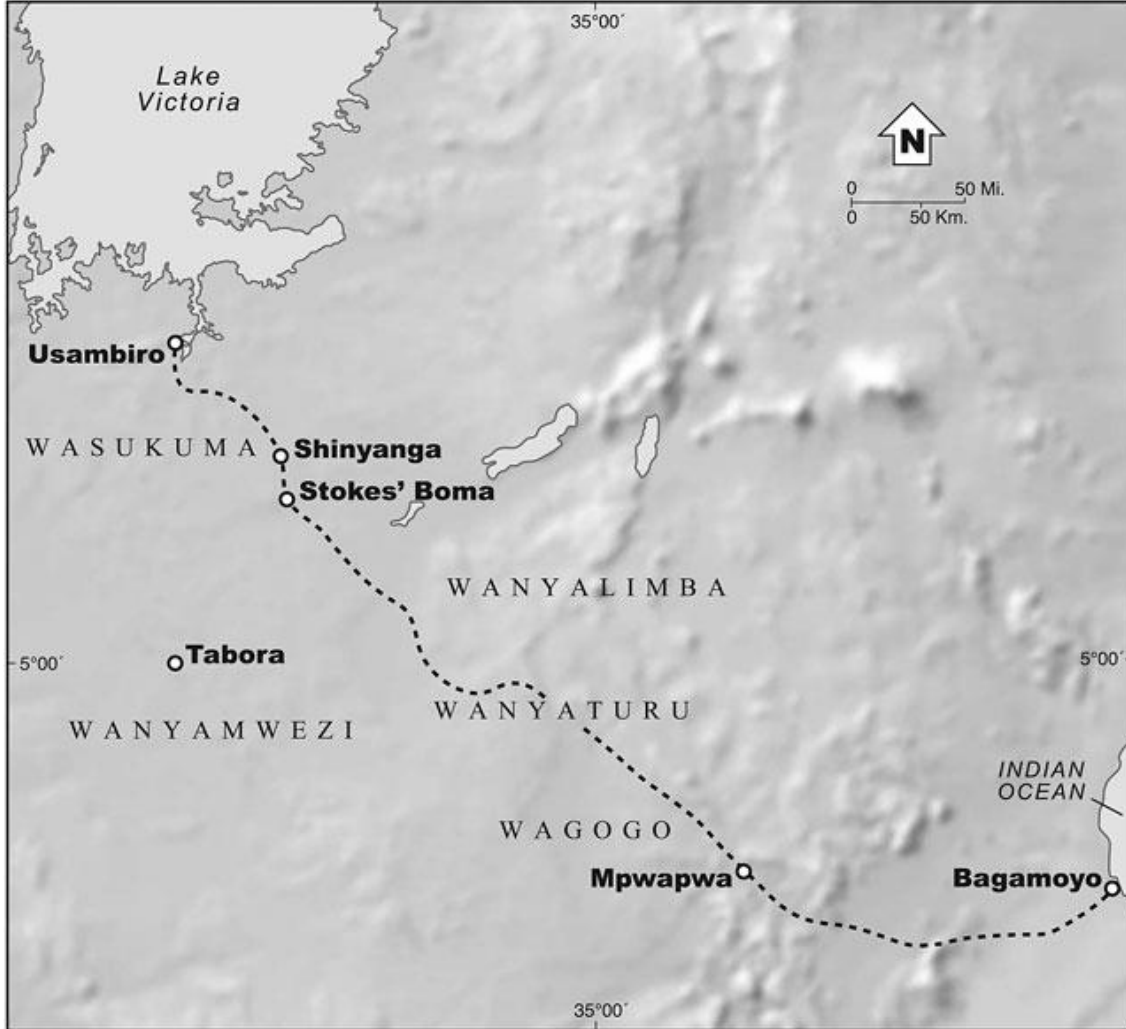
المصدر: Newman, Imperial footprints, hennery Morton Stanley's African journeys, p244.

- الطريق من بحيرة ألبرت مروراً بنهر السمليكي إلى بحيرة ألبرت إدوارد وجورج ومن ثم إلى بحيرة فكتوريا.



المصدر: Newman, Imperial footprints, hennery Morton Stanley's African journeys, p285.

- من جنوب بحيرة فكتوريا إلى باجامويو على ساحل المحيط الهندي



المصدر: Newman, Imperial footprints, hennery Morton Stanley's African journeys, p293.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

١- المصادر العربية:

- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٩.
- ابن بطوطة، تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج٢، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٩٨٧.
- التونسي، محمد بن عمر، تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل عساكر، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٥.
- ابن رزيق، حميد بن رزيق بن بخيت العماني، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين ١٧٨٣-١٨٧٤، جزءين، تحقيق محمد حبيب صالح ومحمود السليبي، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ط٦، ٢٠١٦.
- السالحي، نور الدين بن حميد، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، جزءين، تحقيق إبراهيم الجزائري، مطبعة الشباب، القاهرة، ط٢، ١٩٣١.
- طوسون، عمر، تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية من فتحها إلى ضياعها من سنة ١٨٦٩ إلى ١٨٨٩، مطبعة العدل، الاسكندرية، ط١، ١٩٣٧.
- المرجبي، حمد، مغامر عماني في أدغال إفريقيا حياة حمد بن محمد بن جمعة المرجبي (١٨٤٠-١٩٠٥)، سيره ذاتيه، ترجمة محمد المحروقي، منشورات الجمل، بغداد، ط٢، ٢٠٠٦.
- المسعودي، مروج الذهب ومعادن، ت كمال مرعي، ج٤، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥.
- المغيري، سعيد بن علي، جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق محمد علي الصليبي، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، ط٤، ٢٠٠١.
- ابن منظور، لسان العرب، عبد الله الكبير، مجمع حسب الله، هاشم الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤، ج٣.

- وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرون، دار الفكر، بيروت، د. ط، د. ت.

٢- المراجع العربية:

- أباطة، فاروق عثمان، أثر تحول التجارة العالمية الى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤.
- إبراهيم، عيسى علي، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٠.

- أحمد، أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، د. ط، د. ت.
- أحمد، حسن مكي محمد، الثقافة السنارية المغزى والمضمون، جامعة إفريقيا العالمية، مركز البحوث والترجمة، ٢٠١٢.
- أمrani، عمر علوي، أدب الرحلة والتواصل الحضاري، الرحلة كوثيقة من بين أقدم الوثائق المكتوبة في تاريخ المغرب القديم، جامعة المولى إسماعيل، مكناس، ١٩٩٣.
- بدوي، عبده، شخصيات إفريقية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت.
- البرعي، أحمد حسن، الثورة الصناعية وآثارها الاجتماعية والقانونية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٢.
- بصيلي، الشاطر، ابن بطوطة وشرق إفريقيا، مجلة نهضة إفريقيا، القاهرة، عدد ٥، عام ١٩٥٨.
- البطريق، عبد الحميد - نوار، عبد العزيز، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٥.
- الجابري، محمد أحمد، تاريخ السودان كما يرويه أهله، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧.
- جلال، أحمد، الثورة الفرنسية، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٧.
- الجمل، شوقي - إبراهيم، عبدالله، تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة، المصري، القاهرة، ٢٠٠٠.
- الجمل، شوقي- إبراهيم، عبدالله عبد الرزاق، تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦.
- الجمل، شوقي وآخرون، الموسوعة الإفريقية، ٥ مجلدات، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، القاهرة، ١٩٩٧.
- الجوهري، يسري، الخرائط الجغرافية، مكتبة الإشعاع للطباعة، الاسكندرية، ١٩٩٧.
- حاطوم، نور الدين، تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا والعالم، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٩٥.
- حسن، حسن إبراهيم، انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الإفريقية وغربها، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، ١٩٥٧.
- حسن، سميرة محمود، سلطنة آل سعيد وأرض الزنج في شرق إفريقيا، مجلة نهضة إفريقية، القاهرة، عدد ٥، عام ١٩٥٨.
- حسين، عبدالله، المسألة الحبشية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط ١، ٢٠١٢.

- حركات، إبراهيم ، تجارة الرق بإفريقيا من خلال الموقفين العربي والأوروبي، مجلة دار الحديث الحسنية، عدد ٥، ٣٢٥-٣٥٣، المملكة المغربية، ١٩٨٥.
- الحريري، محمد، جغرافية القارة الإفريقية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٤.
- حميدة، عبد الرحمن، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٩٩٥.
- حنظل، فالح، العرب والبرتغال في التاريخ، منشورات المجمع الثقافي، أبوظبي، ط١، ١٩٩٧.
- حوالة، يوسف أحمد، ابن حوقل ورحلاته الجغرافية للجناح الغربي من الدولة الإسلامية، الجمعية الجغرافية الكويتية، جامعة الكويت، ١٤٢، ١٩٩٢.
- خلاف، عبد العليم، كشوف مصر الإفريقية في عهد الخديوي إسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.
- خلاف، عبد العليم، مصر وإفريقيا، الجهود الكشفية في عصر الخديوي إسماعيل، عين للدراسات، القاهرة، ط١، ١٩٩٧.
- خله، رؤوف راشد، كينيا دراسة في الجغرافية السياسية، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، القاهرة، ٢٠٠٠.
- الخوند، مسعود، الموسوعة التاريخية الجغرافية، داررواد النهضة، بيروت، ١٩٩٥، ج٤.
- الخوند، مسعود ، الموسوعة التاريخية الجغرافية، داررواد النهضة، بيروت، ١٩٩٥، ج١٥.
- راشد، زينب عصمت، تاريخ أوروبا الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ط، د. ت.
- راشد، زينب عصمت، تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن ١٦ إلى نهاية القرن الثامن عشر، دار الفكر العربي، القاهرة.
- رزق، محمد محي الدين، إفريقيا وحوض النيل، مكتبة عطايا، القاهرة، ط٢، ١٩٣٤.
- رفاعي، عبد العزيز، قبيلة الكيوكويو، مجلة نهضة إفريقيا، القاهرة، عدد ٢٣، عام ١٩٥٩.
- رمضان، عبد العظيم، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.
- روكز، يوسف، إفريقيا السوداء سياسة وحضارة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦.
- رياض، زاهر، استعمار إفريقيا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.
- رياض، زاهر، تاريخ إثيوبيا، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، د. ط، ١٩٦٦.
- رياض، زاهر، كشف إفريقيا، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٦١.

- الريامي، كمال محمد، مشاهير الرحالة العرب، كنوز، القاهرة، ط ١، ٢٠١٣.
- الزبيدي، محمد حسين، هجرة العرب والمسلمين إلى شرق إفريقيا، مجلة المؤرخ العربي، عدد ٢٣، بغداد، ١٩٨٣.
- زكري، أنطون، النيل في عهد الفراعنة والعرب، مطبعة المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٢٦.
- زكي، عبد الرحمن، الإسلام والمسلمين في شرق إفريقيا، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٥.
- زكي، عبد الرحمن، الجغرافيون والرحالة العرب وما كتبوه عن الساحل الإفريقي الشرقي في العصور الوسطى، بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، الرياض، عدد ٣، ١٩٨٤.
- زبادية، عبد القادر، دراسة عن تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت.
- شاكر، محمود، تنزانيا، مواطن الشعوب الإسلامية في إفريقيا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٧١.
- الشامي، صلاح الدين، نهر النيل دراسة جغرافية تحليلية، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٩٥.
- شلبي، عبد الجليل، الإرساليات التبشيرية، منشأة المعارف، الاسكندرية، د.ط، د.ت.
- شهاب، حسن صالح، أحمد بن ماجد والملاحه في المحيط الهندي، مركز الدراسات والوثائق، الإمارات العربية المتحدة، ط ٢، ٢٠٠١.
- الشيخ، رأفت- متولي، محمود، إفريقيا في العلاقات الدولية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٥.
- الشيخ، رأفت غنيمي، إفريقيا في التاريخ المعاصر، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٢.
- صبري، صلاح، إفريقيا وراء الصحراء، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠.
- صبري، محمد، الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٤٨.
- ضرار، ضرار صالح، تاريخ السودان الحديث، مكتبة دار الحياة، بيروت، ط ٣، ١٩٦٨.
- الطائي، عبد الله بن محمد، تاريخ عمان السياسي، مكتبة الربيعان، الكويت، ط ١، ٢٠٠٨.
- عاصي، حسن، أبو الحسن المسعودي، المؤرخ والجغرافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٣.
- عبد القوي، سوزان عبد المحسن، مشروع سيسل رودس الاستعماري وأثره على الهوية الإفريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥.
- عثمان، عبد الرحمن أحمد، المؤثرات الإسلامية والمسيحية على الثقافة السواحلية، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، ٢٠٠٠.

- عفت، راجية محمد، اللغة السواحلية في تنزانيا، مجلة الدراسات الإفريقية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ١١٤، ١٩٨٢، الصفحات ٢٢-٤٤.
- العفيفي، عبد الحكيم، موسوعة ١٠٠٠ مدينة إسلامية، أوراق شرقية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.
- العقاد، صلاح- قاسم، جمال زكريا، زنجبار، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، ١٩٥٩.
- العيدروس، محمد حسن، السلطان سعيد والعلاقات العربية- الإفريقية، دارالمتنبي للطباعة والنشر، أبوظبي، ط١، د. ت.
- الفارسي، عبدالله بن صالح، البوسعيديون حكام زنجبار، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، ط٢، ١٩٨٢.
- فايد، يوسف عبد المجيد، الأقاليم المناخية في إفريقيا، مجلة الدراسات الإفريقية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ١٢٤، ١٨٨٣.
- فغرور، دحو، جول فيري مهندس الإمبراطورية الفرنسية، مجلة عصور الجديدة، عدد١، ٢٠١١.
- فليجة، أحمد نجم الدين، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية.
- فهم، حسين محمد، أدب الرحلات، عالم المعرفة، عدد ١٣٨، الكويت، ١٩٧٨.
- الفيتوري، عطية مخزوم، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء مرحلة انتشار الإسلام، جامعة قاريونس، بنغازي، ط١، ١٩٩٨.
- فيشر، هيرت، أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ٢٠٠١.
- قاسم، جمال زكريا، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، دار الفكر العربي، نصر، ١٩٩٦.
- قاسم، جمال زكريا، دور العرب في كشف إفريقيا، مجلة عالم الفكر، مجلد١، عدد٤، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧١.
- قاسم، عون الشريف، موسوعة القبائل والأنساب في السودان، ٦ أجزاء، شركة أفروقراف للطباعة، الخرطوم، ط١، ١٩٩٦.
- قاسم، محمد - حسني، حسين، تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا منذ عهد الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العظمى، دارالكتب المصري، القاهرة، ط٦، ١٩٣٩.
- قداح، نعيم، تجارة الرقيق عمل أوروبي مهد للاستعمار في إفريقيا، المعرفة، عدد٨، وزارة

الثقافة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٦٢.

- قنديل، فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٢.
- كعدان، صباح، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٦-٢٠٠٧.
- محمد، محمد عوض، الشعوب والسلالات الإفريقية، سلسلة دراسات إفريقية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٥.
- محمد، محمد عوض، نهر النيل، سلسلة من التراث الجغرافي العربي، القاهرة، ٢٠١٦.
- محمود، عبد الرحمن، الإسلام والمسيحية في شرق إفريقيا من القرن ١٨ إلى القرن ٢٠، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠١١.
- المحيشي، عبد القادر- الغريزي، عبد العباس- الصالحي، سعدية، جغرافية القارة الإفريقية وجزرها، الدار الجماهيرية، بنغازي، ط١، ٢٠٠٠.
- المعولي، زياد، العمانيون ونشر الإسلام والثقافة العربية في شرق إفريقيا، المؤتمر الدولي للإسلام في إفريقيا، جامعة إفريقيا العالمية، ليبيا، ٢٠٠٦.
- موسى، عائدة العزب، تجارة العبيد في إفريقيا، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧.
- موسى، فيصل محمد، موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، الجامعة المفتوحة، بنغازي، ١٩٩٧.
- الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، مجلد ٨، حوض النيل، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ١٩٩٩.
- الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، مجلد ١٠، إقليم شرقي إفريقيا، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ١٩٩٩.
- الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال المنشورة، الرياض، ط٢، ١٩٩٩.
- نصر، السيد يوسف، الوجود المصري في إفريقيا في الفترة من ١٨٢٠-١٨٩٩، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨١.
- النقيهر، محمد عبدالله، انتشار الإسلام في شرقي إفريقيا ومناهضة الغرب له، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٢.
- نوار، عبد العزيز- جمال الدين، محمود، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، نصر، ١٩٩٩.
- الهدار، خالد محمد، مجهودات بعض الرحالة الاجانب في الكشف الأثري في ليبيا في نهاية القرن التاسع عشر، مجلة البحوث التاريخية، السنة الثالثة والثلاثون، العدد الثاني، يوليو ٢٠١١.

- هريدي، فرغلي علي، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، مطبعة العلم والإيمان، الاسكندرية، ط ١، ٢٠٠٨.

- وزارة التراث القومي والثقافة، العمانيون وقلعة ممباسة، سلطنة عمان، العدد ٩، ط ٣، ١٩٩٤.
- يحيى، جلال، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، ١٩٩٩.
- يحيى، جلال، التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الأولى، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية.

٣- المصادر والمراجع العربية:

- أوليفر، رونالدو، أنتوني أتمور، إفريقيا منذ عام ١٨٠٠، ترجمة فريد بوري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٥.

- براون، جفري، تاريخ أوروبا الحديث، ترجمة علي المزروقي، الأهلية للنشر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٦.
- بلاوت، جي. إم، نموذج المستعمر للعالم الانتشار الجغرافي وتاريخ المركزية الأوروبية، ترجمة هبة الشايب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط ١، ٢٠١٠.

- بوركهارت، جون لويس، رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، ترجمة فؤاد أندراوس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧.

- بولم، دنيس، الحضارات الإفريقية، ترجمة علي شاهين، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٤.
- تيرنر، د. ك، الكشف العلمي، ترجمة أحمد سليمان، دار الكاتب العربي، القاهرة.
- جرانت، أ. ج - تمبرلي، هارولد، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٧٨٩-١٩٥٠، ترجمة جهاد فهي، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، د. ت.

- جوزيف، جوان، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ترجمة مختار السيوفي، دار الكتاب المصرية، القاهرة، ط ١، ١٩٨٤.

- جونسون، بول، جورج واشنطن الأب المؤسس، ترجمة محمد إبراهيم السيد، دار كلمات عربية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٩.

- جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقيا الشرقية، ترجمة يوسف كمال، القاهرة، ط ١، ١٩٢٧.

- دافيدسون، باسيل، إفريقيا القديمة تكتشف من جديد، ترجمة نبيل بدر، الدار القومية للطباعة، القاهرة، ٢٠٠١.

- دريفوس، فرنسوا، رولان ماركس، ريمون بوادوفان، موسوعة تاريخ أوروبا العام، ترجمة حسن حيدر، عويدات، بيروت، ط ١، ١٩٩٥.

- ديشان، هوبير، الديانات في أفريقيا السوداء، ترجمة أحمد حمدي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١.
- ديلبيانو، باتريشيا، العبودية في العصر الحديث، ترجمة أماني حبشي، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبوظبي، ط١، ٢٠١٢.
- رايلي، كافن، الغرب والعالم، القسم الثاني، ترجمة عبد الوهاب المسيري، عالم المعرفة، الكويت، عدد ٩٧، ١٩٨٦.
- روبينز، نك، الشركة التي غيرت العالم، ترجمة كمال المصري، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩.
- رودني، والتر، أوروبا والتخلف في إفريقيا، ترجمة أحمد القصير، عالم المعرفة، عدد ١٣٢، الكويت، ١٩٩٨.
- سافلييف، فاسلييف، موجز تاريخ إفريقيا، ترجمة أمين الشريف، دار الطباعة الحديثة، القاهرة.
- سليم قبودان، الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض، تعريب محمد مسعود، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦.
- فلهو، الفارو، يوميات رحلة فاسكو دي جاما وتقرير رحلة دوز سانتوس، ترجمة عبدالله عبد الرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.
- كام، جوزفين، المستكشفون في إفريقيا، ترالسيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣.
- كلارك، ريغوري، الاقتصاد العالمي نشأته وتطوره ومستقبله، ترجمة أمين الأيوبي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.
- كلوزيه، رينيه، تطور الفكر الجغرافي، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٢.
- كي زيربو، جوزيف، تاريخ إفريقيا السوداء، ترجمة يوسف شلب الشام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٤.
- لفنجستون، دافيد، الجغرافية والثورة، ٢م، ترجمة عاطف معتمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٧.
- لنتون، رالف، شجرة الحضارة قصة الإنسان منذ فجر التاريخ حتى بداية العصر الحديث، ٣ج، ترجمة أحمد فخري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠.
- ماكفيدي، كولن، أطلس التاريخ الإفريقي ت مختار السويفي، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٧.

- مجهول، مجاهل إفريقيا، تعريب شاكراشقي، مطبعة القديس جاورجيوس، بيروت، ١٨٨٥.
- المعمري، أحمد حمود، عمان وشرقي إفريقيا، ترجمة محمد عبدالله، وزارة الثقافة والتراث القومي، سلطنة عمان، ١٩٧٩.
- مكودغال، أن، إفريقيا جنوب الصحراء من القرن ١٥-١٨، ترجمة عايدة سيف الدولة.
- مورهد، الآن، النيل الأزرق، ترجمة إبراهيم أبو الريش، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٩.
- هارب، جورج، الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي، ترجمة عبد العزيز شرف، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٣.
- هوارد، س، أشهر الرحلات في غرب إفريقيا، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦.
- هول، ريتشارد، إمبراطوريات الرياح الموسمية، ترجمة كامل حسين، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبوظبي، ط١، ١٩٩٩.
- ويدنر، دونالد، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، تراشد البراوي، مكتبة الوعي العربي، ٢٠٠١.
- اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، مج٣، أفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، الطبعة الثانية، باريس، ١٩٩٧.
- اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، مج٤، إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، الطبعة الأولى، باريس، ١٩٨٨.
- اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، مج٥، إفريقيا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، الطبعة الثانية، باريس، ١٩٩٧.
- اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، مج٦، القرن التاسع عشر في إفريقيا حتى ثمانيناته، الطبعة الثانية، باريس، ١٩٩٦.

٤- المصادر الأجنبية:

- Baker, Samuel White, Albert Nyanza, great basin of the Nile and exploration of the Nile sources, in two volumes, Macmillan and co, London, 1866.
- Brown, Robert, the story of Africa and its explorers, 4volume, cassell and company limited, London, 1909.
- Bruce, James, travels to discover the source of the Nile, in the years 1768-1873, Edinburgh, London, 6voulme.
- Burton, Richard- Speke, A coasting voyage Mombasa to the Pangani River; visit to sultan kimwere and progress of the expedition

into the interior, the geographical society of London, v 28, 1858.

- Burton, Richard, the Lake Regions of Central Africa, 2 volumes, spottiswoode and co. London, 1960.

- Burton, Richard, Zanzibar; city, island, and coast, in two volumes, Tinsley brothers, London, 1872.

- Grant, J. A., summary of observations on the geography, climate, and natural history of the region of equatorial Africa, the journal of the royal geographical society of London, v 42, 1872, p243-342, p246. Burton, the Lake Regions.

- Johnston, Keith, Africa, Edward Stanford, London, fourth edition, 1884.

- Johnston, Sir Harry, the Nile quest a record of the exploration of the Nile and its basin, Lawrence and Bullen, London, 1903.

- Keane, A. H., Africa, v1, North Africa, Edward Stanford, London, 1895.

- Kingston, William, great African travelers from Mungo Park to Livingston and Stanley, George Routledge and sons, London and new York, 1874.

- Krapf, J. Lewis and J. Rebmann, A Nika-English dictionary, society for promoting Christian knowledge, London, 1887, p183.

- Krapf, J. Lewis, travels, researches, and missionary labours, during an eighteen years residence in east Africa, trubner, paternoster row, London, 1860.

- Löwenberg, J, Allgemeine Deutsche Biographie, Duncker & Humblot, Leipzig, 1877, v5.

- Reclus, Elisee, the earth and its inhabitants, Africa, vol4, south and east Africa, Appleton and company, New York, 1890.

- Reclus, Elisee, the earth and its inhabitants, Africa, vol1, north east Africa, Appleton and company, New York, 1892.

- Schoff, Wilfred H., The periplus of the erythraean sea, travel and trade in the Indian ocean by a merchant of the first century, Longmans, green and co, New York, 1912.

- Schweinfurth, Georg, Hart of Africa three years travels and adventures in the unexplored regions of central Africa from 1868 to

1871, in 2 volumes, Sampson low, London, 1874.

- Speke, John Hanning, Journal of the Discover of the Source of the Nile, new York, harper brothers, publishers, 1864.

- Speke, John, What led to the Discovery of the Source of the Nile, William blackwood and sons, Edinburgh and London, 1864.

- Stanley, Henry M., How I Found Livingstone, Travels, Adventures and Discoveries in Central Africa including four months residence with Dr. Livingstone, Sampson Low, Marston & Company, London, 1872.

- Stanley, Henry M., In Darkest Africa or the quest rescue, and retreat of Emin governor of equatorial, Charles Scribner's sons, new York, in two volumes, 1891.

- Stanley, Henry M., Through the Dark Continent, George newness, London, in two volumes, 1899.

- The encyclopedia Britannica, New York, eleventh edition, 1911.

- Waller, Horace, David Livingston, in central Africa, from 1865 to his death, Hartford, conn., London, 1875.

- The journal of the royal geographical society of London.

٥- المراجع الأجنبية:

- Anderson, Elizabeth-McNally, Catherine, a rapid ecological assessment of the Wami river estuary, Tanzania, 2007.

- Bidwell, R.L.- Smith, G. Rex, new Arabian studies 2, university of Exeter press, p1, 1994.

- Bursik, Heinrich, Wissenschaft u. Mission soll sich aufs innigste miteinander befreunden, Magister der Philosophie, Betreuerin, 2008.

- Dritsas, Lawrence s., local information and British explorers: the search for the source of the Nile, 1850-1875, master degree, Virginia, copyright 2001.

- Fage, J. D. - Oliver, Roland, the Cambridge history of Africa, v5, Cambridge University Press, London, 2008.

- Gray, Richard, the Cambridge history of Africa, v4, from 1600 to 1790, Cambridge University Press, 2008.

- Jones, Barry, Dictionary of world Biography, Anu e press, Australian nation university, Australia, 2013.

- Matthew, Henry- Harrison, Brian, Oxford dictionary of national biography in association with the British Academy from the earliest times to the year 2000, Oxford University Press, Oxford, 2004, v46.
- Maxon, Robert M.- Ofcansky, Thomas P., Historical Dictionary of Kenya, The Scarecrow Press, London, Second Edition, 2000.
- Newman, James L., Imperial footprints, hennerly Morton Stanly's African journeys, Potomao books, Washington, 2004.
- Ofcansky, Thomas P. – Yeager, Rodger, Historical Dictionary of Tanzania, The Scarecrow Press, London, Second Edition, 1997.
- Oliver, Roland, the Cambridge history of Africa, v3, from 1050 to 1600, Cambridge University Press, 2008.
- Patte, Daniel, the Cambridge dictionary of Christianity, Cambridge University Press 2010.
- Peers, Chris, armies of the nineteenth century: east Africa, tribal and imperial armies in Uganda, Kenya, Tanzania and Zanzibar 1800 to 1900, foundry books, Nottingham, 1p, 2003.
- Pirouet, M. Louise, Historical dictionary of Uganda, The Scarecrow Press, London, Second Edition, 1995.
- Pletcher, Kenneth, the Britannica guide to explorers and explorations that changed the modern world, Britannica educational publishing, new York, 2010.
- Thieme, Michele L. and others, Freshwater Eco regions of Africa and Madagascar: A Conservation Assessment, Island Press, Washington, 2005.

٦- الرسائل والأطروحات الجامعية:

- أحمد، نصير أحمد نور، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند ١٦٠٠-١٨٥٧، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة، ١٩٩١.
- الاسطى، علي شعبان، أثر تجمع دول الساحل والصحراء في تطور القارة الإفريقية ١٩٩٨-٢٠٠٩، جامعة ام درمان الإسلامية، السودان.
- بابكور، عمر سالم، الإسلام والتحدي التنصيري في شرق إفريقيا ١٨٤٤-١٩٥٠، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٩٠.
- الخريجي، ناجيه محمد، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لسلطنة زنجبار الإسلامية في شرق

- إفريقيا ١٨٠٦-١٩٤٧، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٩٣.
- سبائك، فاطمة، التاريخ السياسي لسلطنة زنجبار الإسلامية ١٨٣٢-١٨٩٠، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٨٩.
- السديس، عبد الرحمن، العمانيون والجهاد الإسلامي في شرقي إفريقيا ١٦٢٤-١٧١١، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٩٣.

٧- المجالات والدوريات:

- مجلة المؤرخ العربي، بغداد.
- مجلة نهضة إفريقية، القاهرة.
- عالم المعرفة، الكويت.
- مجلة عالم الفكر، الكويت.
- مجلة البحوث التاريخية، ليبيا.
- مجلة دار الحديث الحسنية، المملكة المغربية.
- مجلة عصور الجديدة، الجزائر.
- المعرفة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق.
- مجلة الدراسات الإفريقية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة.

Syrian Arab Republic
Damascus university
Faculty of Arts and Humanities
Department of History



Voyages of scientific discovery in East Africa in the nineteenth century

Thesis prepared for a doctorate degree in modern and
contemporary history

By

Mohammad Al haji

Supervised by

Dr. Samar Bahlwan

2018\2019

Abstract

This thesis is concerned with the study of the travels of European scientific discoveries, which came to the East African region in the nineteenth century. Sponsored by the Royal Geographical Society and the British Government, under the pretext of detecting the sources of the Nile, and focused on eight European travelers in chronological order: Johann Krapf, Johannes Rebmann, Richard Burton, John Speke, James Grant, Samuel Baker, David Livingston, and Henry Stanley, Whose journeys revealed the origins of the Nile River, which has been a mystery that has occupied many scientists throughout the ages, with clarifying the natural, human and economic geography of the East African region. It also produced more important results that were in the interest of the major European colonial powers and ended with the strengthening of their influence and occupation of the region in the last quarter of the nineteenth century.

Accordingly, this study was presented in an introduction, four chapters and a conclusion, which included a geographical and historical study of the East Africa region in terms of location and strategic importance with the most prominent pioneers of trips from the Arab and European, who arrived at the area and wrote their observations about them before the nineteenth century. Its also included a summary of the most important developments on the European arena in the late 18 and early 19 century, which contributed directly to pushing and guiding trips to the African continent with an analysis of the most important motives and justifications behind the advent of travelers, and the role of Arabs, especially the Sultanate of Zanzibar and Egyptian administration in the Sudan in supporting and guiding these trips in general. This is followed by the section of the study of trips according to their chronology and the date of their arrival at the region according to a curriculum based on the study of the life of the travelers, and then clarify the goals of their trips and dimensions, with the overall preparations made for each trip separately, and follow the route of the journey accompanied by maps that show the path taken by the travelers clearly, and the most important areas and villages where they arrived, the rivers they crossed and their explorations, and providing an overview of the overall features of political, economic, social and religious life in East Africa through travelers' observations, and the results of their travels in general. the study concluded with the general results of the trips, both at the European or African level, with appendix of the most important maps and photographs that illustrated the travel routes and areas of their discovery.